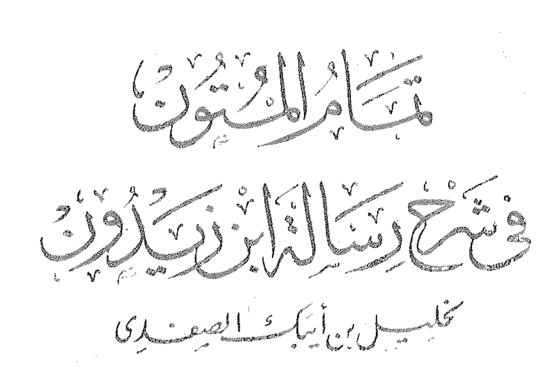


تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الّذى شرح صدورَنا بالإسلام ، وطرح عنّا بالاستغفار أعباء الآثام ، ومنح أصدافَ الأسماع دررَ الأدبِ الّذى تقذِفه الأقلام .

نَحمَده على نِعَمه التى أكمَلت العَوْدَ والعوْن ، وأجمَلَت الصَّوْلَ والصَّوْن ؛ ونشهَد أن لا إله إلاّ الله وحدَه لاشريك له ، شهادةً خَيّمتْ بين سُرادق العرشِ العظيم ، وتيمّمتْ قلوبَ أهلِ التّوحيد حتّى مشَوْا سويًّا على صراطها المستقيم ؛ وديّمتْ سَحائبُها على رياض الإيمان فأنبتتْ زَهراً ناجماً يُخجِل النجومَ الزُّهْرَ فى اللّيل البَهيم . ونَشهَد أنّ محمّدا عبده ورسولُه ، الذى بعثَه الله إلى البَشَر بشيرا ونذيرا ، وأصبح غَنِيُّ البلاغةِ إلى فِقَرِه فقيراً ، وأمسَى الخاملُ باتّباع أثَره أثيرا ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبِه الّذين لاتَرْتَقِى شُرُفاتُ مجدٍ إلى مجدهم[1] ، ولا يَقَع دَأْفُ طِرفٍ[2] على مِثل تحفهم فى الفصاحة ولاطُرَفهم ؛ ولا يَرْقُمُ المادحُ أمالى أمانيه فيهم إلاّ سَدَفاه لدَرارِىّ سُدَفِهم ، وصَدّ فاه عن درر صَدَفِهم ؛ صلاةً غمائمُ رِضوانها تَسفَح ، وحمائمُ غفرانها تَصْدَح ، وكمائمُ إحسانها تنفتح ؛ ما أُطرِب المترسّل ، وأُغرِبَ المتوسِّل ، وتَعطّف المتوصّل ؛ وتلطف المتفصّل ، وسلّم تسليما كثيرا إلى يوم الدّين .

وبعد ، فإنّ رسالةَ ابنِ زيدونَ الّتى كتبها لابن جهوَر ، من الرّسائل الطّنّانة ، والخمائلِ الّتى لايَذوِى زَهرُها وحمائمُ غُصونِها بالتّغريد رنّانة ، والفضائلِ الّتى لاتزال محاسنُها على من حاوَل معارَضتَها مَنّانة ، قد أبرزَها مُنشئُها كالقمر ليلةَ تمامه ، وكالزَّهر المَخبوء فى أكمامه ؛ أتعبتْ من يُجاريها فما تَشُقّ الغبْراء لها غُبارا ، ولا يبيتُ داحس ذا حَسٍّ فى مُباراتها فهو فى

---

(١) ط : « شرفهم » .

(٢) الطرف ، بالكسر : الكريم الطرفين منا ، أو الكريم من الخيل .

أصلِه وفرعِه يتمادَى ويتمارَى ، ولا يلاك البرقُ المتألّق إذا سار على أثرِها الاّ عثارا ؛ مشحونةً بما فيها من الإشارات إلى الوقائع والأمثال ، وحلِّ الأبياتِ الأبيّات فى الأنقيادِ على الرّجال ؛ نمطٌ فى الإنشاء غريب ، وحلاوةُ ألفاظٍ ليس الضّرَب لها بضَريب ، وطَلاوةُ عبارةٍ ما تَريب ، إنّها تحلّى الأجياد والتّرِيب . لم تَرَ فيها من البلاغة ترفيها ، ولم تجدْ فيها لفظةً تحويها ؛ إلاّ وهىَ تنطِق بالبلاغة أوتوحيها ، ولم تُنظر معانيها إلاّ وهى تطوى المحاسنَ وتوطّيها .

لدَيْها رياضٌ لم تحُكْها سَحابةٌ ... وأغصانُ دَوْحٍ لم تُغنّ حمائمُهْ[1]

وفوقَ حواشى كلّ سطرٍ يضمُّهُ ... من الدُّرّ سِمْطٌ لم يُثقِّبْهُ ناظِمُهْ

تَدُلُّ بما فيها على أنّ نَثرَها ... لأبلَجَ لاتيجانَ إلاّ عمائمُهْ

تُقبّلُ أفواه الشّيوخ بساطَهُ ... وتَكبُر عنها كُمُّه وبَراجِمُــهْ

له عَسْكَرا نظمٍ ونثرٍ إذا رَمَى ... بها عسكراً لم يَبْقَ إلاّ جماجمُهْ

لقد مَلّ ضَوْءُ الطِّرس ممّا يُغيره ... ومَلّ سوادُ النّفس ممّا يزاحمُهْ

ومَلّ قَنا الإنشاء ممّا يدقُّها ... ومَلّ جديدُ الشّعر ممّا يُلاطمُهْ

فأبصرْتُ بدراً لا يَرَى البدرُ مثلَه ... وخاطبتُ بحراً لا يَرى الدّبرُ عائمُهْ

وما أوردتُها على أحدٍ إلاّ رقصتْ أعطافُه ، وجنَى من غُصُونها ما أستلذّ قِطافَه ، وملكتْ حبّةَ قلبِه بما فيها من اللطافة ، وأُجتنَى منها محاسنَ السّوالف وأُجتنَى لذّةَ السّلافة ؛ وقال : هذا هو الأدب الّذى ما شافه غيرُه[2] أرتشافه ، وهذا هو الإنشاء الّذى مَنْ ركب أعتسافَه تَسافه[3] ، وهذا هو النّثر الّذى من حلّ ساحتَه قال : الضّيافهْ الضّيافهْ ! وهذا هو التّرسّل الّذى من حطّ به برحالِه أثقلَ النوالُ بالتّحف التّحافه .

---

(١) المتنبى ، ديوانه ٣ : ٣٢٥ ـ ٣٤٢ مع تصرف كبير فى الألفاظ والأساليب .

(٢) ط : « غيره » .   (٣) ساقطة من ط .

سما فريضٌ على الأملاكِ مُحتجبٌ   فلا تُذِلْه بإكثارٍ على السُّوقِ[1]

فلذلك آثرتُ أن أملي عليها شرحاً ، وأبني على كواكب كواعبها صرحاً ، وأكحل جفوناً باتت لرقبة[2] بيانها قرحى ، وأطب قلوباً أمست لوصال إيضاحها جرحى ؛ وإن لم أكن من خيل ميدانها ، ولا ممن يعده الأبطال من فرسانها ؛ ولكن جُهد المقل ، وزهد المخل[3] ، وسهد المطل ، وشهد المدل[4] ، وعهد الممل .

قد يُدرِك المجدَ الفتى وإزارُه   خَلَقٌ ، وجَيْبُ قميصِه مرقوعُ[5]

وبالله أعتصم وأعتضد ، ومن فيضه أستمد وأستمد ؛ إنه الرقيب القريب ، والسميع المجيب .

---

(١) السوقة : الرعية ، ويجمع على سوق ، كصرد .

(٢) ط : « لرؤية » .

(٣) المخل : الفقير المعدم . وفي م : « وفد » .

(٤) ط : « المذل » .

(٥) لابن هرمة ، الشعر والشعراء ٧٣٠ .

فصــــل

فى ترجمة ابن زيدون – رحمه الله تعالى
و إيراد شىء من شعره الذى رقّ وراق ، وشقّ على غيره وشاق

فأقول : هو ذو الوزارتين ، الكاتبُ المُجيد المُفيد ، الناظمُ الناثر ، البليغ المفوّه اللسِن ، أبو الوليد أحمد بنُ عبدِ الله بنِ أحمدَ بنِ غالب بن زَيْدون المخزوميّ الأندلسيّ القُرطبيّ .

أثنى عليه ابنُ بسّام فى « الذّخيرة » ، وابنُ خاقان فى « قلائد العِقْيان » (١) . وكان من أبناء وجوهِ الفقهاء بقرطبة ، برَع (٢) أدبُه ، وجادَ شِعرُه ، وعَلا شأنُه ، وانطلَقَ لسانُه ، وحقّق بيانُه . ثمّ إنّه انتقل من قُرطُبةَ إلى المعتضِد بن عبّاد صاحب إشبيلية ، سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ، فجعَلَه من خواصّه ، يُجالسه فى خلواتِه ، ويَركَنُ إلى إشاراتِه ؛ وكان معه فى صورةِ وزير ، وكان أولاً قد انقطع إلى ابن جَهْوَر ، أحدِ ملوكِ الطوائف المتغلّبين بالأندلس ، فخَفّ عليه ، وتمكّن منه ، واعتمَد عليه فى السِّفارة بينَه وبينَ ملوك الأندلُس ، فأعجب القومُ به ، وتمنّوْا مَيْلَه إليهم لبَراعتِه ، وحُسن سيرتِه ؛ فاتّفق أن نَقم ابنُ جَهْوَر على ابن زيدونَ فحَبسه ، فاستعطَفه ابنُ زيدونَ بهذه الرّسالة وبأمثالها من فنونِ النّظم والنّثر ، فما أجدَى ذلك عليه شيئاً ، ففرّ من محبَسه لمّا أعياه الخطْب ، واتّصل بعد ذلك بابن عبّاد كما تقدّم .

وكَتب إلى بعض أصحابه – وهو الأديبُ أبو بكر بن مسلم – لمّا اختَفى بقُرطُبةَ بعد فِراره ، رسالةً يَعتذِر فيها عن فِراره ، وهى فى غاية الحُسن ، ولولا

---

(١) الذخيرة جزء ١ : مجلد : ١ ص ٢٨٩ ومابعدها ، والقلائد ٧٠ ومابعدها .
(٢) الذخيرة : « فرع أدبه » .

خوفُ التطويل كان لا بأسَ بذِكرها، ونَشْرِ نَشْرِها، ودَرِّ دَرِّها، وهذه فَلذةٌ منها: [١] أبدأُ أوّلا بشرحِ الضرورة الحافزةِ إلى ماصَنَعت، إذ بلَغَنى أنكَ أحدُ اللائمين لى عليه، ومِن أمثالِهم: وَيْلٌ للشَّجىِّ من الخلىِّ [٢]، وهان على الأَمْلَسِ مالاقى الدَّبِر [٣]. وأُعاتِبك على انفصالك عنّى، وبراءتك أمدَ المِحْنةِ مِنّى، عسى أن تتلافَى عَوْداً ما أضعتَ بَدْءا، وإن كنتَ فى ذلك كدابغةٍ وقد حلِمَ الأديمُ [٤]. فمنفعة الغوث قبل العَطَب [٥]، وفى عِلمِك أنّى سُجِنتُ مغالبةً بالهَوَى، وهو أخو العَمَى، وقد نَهى عنه تعالى فقال: ﴿ولا تَتّبِعِ الهَوَى فَيُضِلّكَ عن سَبيل الله﴾ [٦]. وشهِد علىَّ فلانٌ الناشرُ لأذُنَيه طَمَعا، لِيأكُلَ بيَدَيْه جَشَعا، وقال؛ فكان القولُ ماقالتْ حَذام [٧].

وليتَنى مع قبولِ من لا تحلّ شهادتُه علىّ، يُعذِرفيه إلىّ، ولم يُقرَن الحَشَف بسُوءِ الكِيلة [٨].

---

(١) الذخيرة ١ : ٣٠٥ .

(٢) الميدانى ٢ : ٣٦٧ ؛ وذكر أن أول من قاله أكثم بن صيفى .

(٣) الميدانى ٢ : ٣٩٣؛ قال : يضرب فى سوء اهتمام الرجل بصاحبه، والأملس: الصحيح الظهر ؛ والدبر: الذى أصابت رأسه الدبرة ؛ وهى القرحة .

(٤) حلم الأديم ؛ فسد ، والأديم : الجلد ، ومعنى المثل : إنك فى محاولة إصلاح أمر مثل من تدبغ الجلد وقد كاد يتمزق، وأصله قول الوليد بن عقبة :

فإنَّكَ والكتابَ إلى علىٍّ ... كَدَابغةٍ وقد حَلِمَ الأديمُ

وانظر اللسان (حلم) .

(٥) عجز بيت للمتنبى ؛ ديوانه ١ : ١٠٢ ، وهو :

سَبَقتَ إليهِمْ مَنَايَاهُمُ ... ومنفعةُ الغَوْثِ قَبْلَ العطبْ

(٦) سورة ص ٣٨ .

(٧) إشارة إلى البيت :

إذا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا ... فإنّ القَوْلَ ماقَالَتْ حَذَامِ

والبيت لديسم بن طارق ، أحد شعراء الجاهلية ؛ وانظر ابن عقيل ١ : ٩٤

(٨) الإعذار : قبول العذر؛ والحشف: أردأ التمر ؛ والمثل : « أحشفاً وسوء كيلة ! » ، الميدانى ١ : ٢٠٦ .

وكنت في أول حَبْسي بموضعٍ جرَت العادةُ فيه بوضعِ مستُورى النّاس وذوِى الهيئاتِ منهم ؛ وفي الشرّ خيار(١) ، وبعضُه أهونُ مِن بعض(٢) .

ثمّ نُقلتُ من بعدُ إلى حيث الجُناةُ المُفسِدون ، واللصوصُ المقيّدون ، ومُنِـع منّى عُوّادى ، فشكوتُ إلى الحاكمِ الحابسِ لى ، فصَمّ عنّى . « ولو ذاتُ سِوارٍ لَطَمَتْنى »(٣) .

وإنّكَ لمْ يَفْخَرْ عليكَ كفاخرٍ ضعيفٍ ، ولم يَغْلِبْكَ مِثلُ مغلّبِ(٤)

فلمْ أستطِـع صبْرا ، وعلمتُ أنّ العاجزَ من لا يستبِدّ(٥) ، « والمرء يعجز لا مَحالة »(٦) ، ولم أستجِزْ أن أكونَ ثالثَ الأذلّـيْنِ : عَيْرِ الحيّ والوَتِد(٧) .

---

(١) يشير إلى المثل : « إن في الشر خيارا » ، الميداني ١ : ٢٠٦ .

(٢) يشير إلى بيت طرفة :

أبا مُنْذرٍ أفنيْتَ فاستَبْقِ بعضَنا حنانَيْكَ بعضُ الشرّ أهونُ من بعضِ

(٣) المثل في الميداني ١ : ١٧ .

(٤) لامرىء القيس ، ديوانه ٤٤ .

(٥) يشير إلى قول عمر بن أبي ربيعة في بيتيه :

لَيْتَ هِنداً أنجزتْنا ما تعِدْ وشَفَتْ أنفُسَنا مِمّا تجِدْ

واستبدّتْ مَرّةً واحِدةً إنّمَا العاجِزُ مَنْ لا يسْتَبِدّ

(٦) الميداني ٢ : ٣٠٩ ؛ والمثل من أبيات لمجاعة بن مرارة الحنفي :

حاولْتُ حينَ صَرَمْتَنِي والمرء يَعْجِزُ لا مَحَالَهْ

والدّهرُ يلعبُ بالفَتَى والدّهرُ أرْوَغُ من ثُعالَهْ

والعبْدُ يُقْرَعُ بالعَصَا والحرُّ تَكْفِيه المَقالَهْ

(٧) يشير إلى بيتي المتلمس :

ولا يقيمُ على ذلٍّ يرادُ به إلاّ الأذلاّنِ عَيْرُ الحيّ والوتِدُ

هذا على الخسْفِ مربُوطٌ برُمّتِهِ وذَا يُشَجّ فلاَ يَرْثِي له أحَدُ

وذكرتُ أنّ الفرار من الظّلم والمَهْرَب ممّن لا يُطاقُ، من سنن المرسلين، وقد قال تعالى على لسان موسى: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ [١].

فنظرتُ في مفارقة الوطَن؛ إذْ قديمًا ضاعَ الفاضلُ في وطنِه، وكسد العِلْق النَّفيسُ في معْدِنِه، كما قال:

أُضيِّعُ في مَعْشَري وكم بَلدٍ ... يُعَدُّ عُودُ الكِباءِ مِن حَطَبِهْ [٢]

فاستخرتُ اللهَ في إنفاذِ العزْم، وأنا الآنَ بحيثُ أمِنتُ بعضَ الأمن، إلاّ أنّ السّعيَ لم يرتفِع، ومادّةَ البَغْي لم تنقطِع.

وختَمَ هذه الرسالةَ بقصيدة أوّلُها:

شَحَطْنا، وما بالدّار نأيٌ ولا شَحْطُ ... وشطَّ بمَنْ نَهْوَى المَزارُ وما شَطُّوا [٣]

وما شوقُ مقتولِ الجوانحِ بالظَّما ... إلى نُطفَةٍ زَرْقاءَ أضمرَها وقْطُ [٤]

بأبرحَ من شوقٍ إليكمْ، ودُونَ ما ... أُديرُ المُنَى شَوْكُ القتادةِ والخَرْطُ [٥]

---

(١) سورة الشعراء ٢١ .

(٢) الكباء: من أعواد الطيب.

(٣) ديوانه ٢٨٥ ، وفيه: «وما للدار» وبعده:

أأحبابنا أَلْوَتْ بحادِث عَهْدِنا ... حوادِث لا عَقْدٌ عليها ولا شَرْطُ

لعمركُمُ إنّ الزّمانَ الذي قَضَى ... بِشَتِّ جميعِ الشَّمْلِ مِنّا لَمُشْتَطُّ

وأمّا الكرى مُذْ لم أزُرْكُمْ فهاجرٌ ... زيارتُه غِبٌّ، والمامُه فرطُ

(٤) النطفة: الماء القليل الصافي . والوقط: حفرة في الصخور يجتمع فيها المطر .

(٥) القتادة: أشجار متشابكة الأغصان مليئة بالأشواك، وخرط القتاد: جذب شوكه بالأيدي؛ وفي المثل: «دونه خرط القتاد».

وفى الرَّبْرَبِ الإنسيِّ أحْوَى ، كِناسُه
نَواحي ضَميرى ، لا الكَثيبُ ولا السَّقطُ(١)

عليكَ أبا بكرٍ بَكَرْتُ بِهِمَّةٍ لها الخطرُ العالى ، وإن نالها حَطُّ
أَبِي بعدَما هِيلَ الترابُ على أبي ورَهْطى فِدَاءٌ حينَ لم يبقَ لى رَهْطُ
ولولاكَ لم يثقبْ زِنادُ قريحتى فينتهب الظلماءَ من نارِها سِقْطُ(٢)

هَرِمتُ وما للشَّيْبِ وخْطٌ بمَفرِقى
ولكنْ لشَيْبِ الهَمِّ فى كَبِدِى وخْطُ(٣)

وَقَدْ وسموني بالتى لستُ أهلَها ولَمْ يُرَ أمثالِي بأمثالِها قَطُّ
فَرَرْتُ فإن قيلَ الفِرارُ إرابَةٌ فقد فرَّ موسى حين هَمَّ به القِبْطُ(٤)

* * *

وله الرّسالة التى كتبها على لسانِ وَلّادةَ بنت المستكفى إلى الوزير أبى عامر بن عَبْدُوس ، يتهكّم به فيها ، فوجَد فيها مكانَ القول ذا سَعَة ، وتلعَّب فيها بأطراف الكلام ، وأجادَ فيها ماشاء(٥) .

وكلُّ رسائِله هكذا مشحونةٌ بفُنون الأدب ، ولُمَع التوارِيخ ، والأمثال الغَريبة ؛ نثراً ونظماً ؛ وأنت سوف ترَى نثرَه كيف يَهُزُّ عِطْفَك ، ويسحرُك ويخدَعُك ، وليس فيه سجعٌ تروّجه القَوافِى على النّفوس ؛ ولكنْ هذا من القُدرة على البلاغة .

---

(١) الربرب : سرب البقر الوحشى : أحوى : فى شفتيه حمرة ضاربة للسواد . وكناس الظبى : مأواه . والكثيب : الرمل المكدس ، والسقط هنا : رقة الرمل حتى ينقطع .

(٢) السقط : الشرر ، ويثقب : يتقد .

(٣) الوخط : انتشار الشيب .

(٤) الإرابة : الاتهام والشك .

(٥) هى الرسالة الهزلية ؛ شرحها ابن نباتة ؛ وقمت بتحقيق هذا الشرح ، ونشر فى دار الفكر العربى .

وقال بعضُ الوزراء بإشبيليَة : عَهدِي بأبي الوليد بن زيدونَ قائماً على جنازةِ بعض حُرَمِه ، والناسُ يُعَزّونه على اختلاف طبقاتهم ، فما سمعتهُ يجيبُ أحداً بما أجاب به غيره ، لسَعةِ مَيْدانِه ، وحضورِ جَنانِه .

وله مع وَلاّدةَ هذه أخبارٌ تُطرِب القلوب ، وتُشنّف المَسامع ؛ لأنه خَلَع فيها عِذارَه ، وأعطَى هَواهُ فيها فَضْلَ زِمامِه. وكانت وَلاّدةُ هذه من أهلِ بيتِ الخِلافة ، ابنة محمد المستكفي بن عبد الرحمن ، وهي واحدةُ زمانِها ، المشارُ إليها في أوانِها ، حَسَنةَ المُحاضَرة ، مشكورة المُذاكَرة . وكانت مشهورةً بالصِّيانة والعَفاف ، كَتبتْ بالذَّهب على طِرازِها الأَيْمَن :

أنا واللهِ أصلُح للمَعَالِي ... وأَمشِي مِشْيَتِي وأَتِيهُ تِيهَا

وكَتبتْ على الطِّراز الأيْسَر :

وأُمكِنُ عاشِقِي من صَحْنِ خَدِّي ... وأُعطِي قُبْلَتِي مَن يَشْتَهِيها

وكان لها جاريةٌ سوداء بديعةُ الغِناء ، فظهَرَ لوَلاّدةَ من ابنِ زيدون مَيلٌ إلى الجارية ، فكتبتْ إليه :

لو كنتَ تنصف في الهَوَى ما بَيننا ... لم تَهْوَ جاريتي ولم تتخيَّرِ
وتركتَ غُصناً مُثمِرًا بجمالِه ... وجنَحْتَ للغُصْنِ الذي لم يُثمِرِ
ولقد علمتَ بأنني بدرُ السما ... لكنْ ولعتَ لِشِقْوَتِي بالمُشترِي

وكانت ترميه بأُبْنةٍ مع فتاه عليٍّ على حالةٍ ، فقالت فيه :

إنّ ابنَ زيدونَ على فضلِهِ ... يغتابُني ظُلماً ولا ذَنبَ لِي
يَلحَظُني شَزْراً إذا جئتُه ... كأنّما جئتُ لِأَخْصِي عَلِي

وكانت تُلقبه المسدَّسَ ، وتقول فيه :

ولُقِّبْتَ المُسدَّسَ وهو نَعْتٌ ... تُفارِقُكَ الحياةُ ولا يُفارِقْ
فلُوطِيٌّ ومأبونٌ وزانٍ ... ودَيُّوثٌ وقَرنانٌ وسارِقْ

وقالت فيه أيضاً :

إنّ ابنَ زَيْدونَ له فَقْحَةٌ تَعشق قُضبانَ السَّراويلِ
لو أبصرتْ أيْراً على نَخلةٍ صارت من الطَّيْر الأبابيلِ

وبلغَه أنّ أبا عبدِ الله البَطَلْيوسيّ اتَّصل بوَلاّدة ، فكتب إليه قصيدة طويلةً ؛ أوّلها :

أبا عَبْدِ الإلهِ اسْمَـــعْ وخُذْ عِقالَتي أوْ دَعْ (١)
وَأقْصِرْ بعدَها أو زِدْ وطِرْ في إثْرِها أو قَعْ
ألمْ تعلَمْ بأنّ الدَّهْـــرَ يُعطِي بعدَ مَا يَمْنَعْ
وكم ضَرَّ امرأً أمرٌ توهَّمَ أنّه يَنفَـــعْ
فإنْ قَصارَك الدُّهْلِيــــزُ حيثُ سِواكَ في المَضْجَعْ

وكانت وَلاّدة أوّلا تَهْوَى ابنَ زَيْدون ، ثم مالت عنه إلى الوزير ابنِ عَبْدوس ، وكان يلقب بالفار ، فقال ابنُ زَيْدون :

أكرِمْ بوَلاّدةٍ عِلْقًا لِمُعْتَلِقٍ لو فَرّقَتْ بينَ بَيْطارٍ وعَطّارِ (٢)
قالوا أبو عامرٍ أضحَى يُلِمُّ بها قلتُ الفَراشةُ قد تدْنو من النّارِ
عَيّرتُمونا بأنْ قدْ صارَ يخلُفُنا فيمنْ نُحبّ ، وما في ذاك من عارِ
أكْلٌ شَهِيٌّ أصَبْنا من أطايِبِه بعضاً ، وبعضاً صفَحْنا عنه للفارِ

وكانت قد طال عُمْرُها وعمرُ أبي عامر المذكور ، حتّى أرْبَيا على الثّمانين ، ولم يَدَعا المُواصَلة ولا المُراسَلة .

وأمّا ابنُ زَيدونَ فإنّ غالبَ شِعرِه وأغزالِه في وَلاّدة ، ومن ذلك قصيدته النُّونيّة الّتي سارتْ في البلاد ، وطارتْ في العِباد ، وأوّلها :

أضحَى التّنائِي بَديلاً مِن تَدَانِينَا وناب عن طِيبِ لُقْيانا تجافِينا (٣)

---

(١) ديوانه ٥٧٨ . (٢) ديوانه ١٩٦ . (٣) ديوانه ١٤١ – ١٤٨ .

وقد اشتهرتْ حتّى صارت محذورة ، فيقال : إنّه ما حفظها أحدٌ إلاّ مات غريبا . وعارضها الناس في حياته وبعد موته ولمْ يقاربوها ، وأظنّ أن ابن زيدون عارض بها البحتريّ في قوله :

يكادُ عاذِلُنا في الحبّ يُغرينا ... فما لجاجُكَ في لَوْمِ المحبّينا

نُلحَى على الوَجْد من ظُلْمٍ فَدَيْدَنُنا ... وجدٌ نُعانيه أولاحٍ يُعنِّينا

وقد خمّس الشيخُ صفيُّ الدّين الحِلّي قصيدةَ ابن زيدونَ المذكورة ، وجعلها مرثيّةً في المَلِك المؤيّد عمادِ الدّين صاحب حَماة ، فأحسنَ ماشاء . (١)

وقال بعضُ الأدباء : مَن لَبِس البياض ، وتختّم بالعقيق ، وقرأ لأبي عَمْرو ، وتفقّه للشّافعيّ ، وروى قصيدةَ ابنِ زيدونَ ، فقد استكمل الظَّرْف .

وكنتُ وأنا في زَمَن الشّبيبة قد نظمتُ مرثيةً في بعض الأصحاب الأعزّة بصَفَد ، على وَزْن قصيدةِ ابنِ زيدونَ هذه ورَوِيِّها ، وهي :

تحكّمَتْ بعدَكم أيدِي النّوَى فينا ... وقد أقامتْ بِنادِينا تُنادِينا

وجرّعَتْنا كُئوسَ الحُزْن مترَعةً ... مِزاجُها كانَ زَقُّوماً وغِسْلِينا

وقد أناختْ بنا من بَعدِكم مِحَنٌ ... عَدَتْ علينا بما يُرضِي أعادِينا

والدّمعُ أفناه تَكرارُ البُكا فجرتْ ... نفوسُنا ذائباتٍ من مآقِينا

وحسْبُنا حالةٌ فيكمْ مُبَدّلةٌ ... الذِّكْرُ يَنشُرُنا والحُزنُ يَطوِينا

---

(١) ديوانه ٢٣٤ ، ومطلعها :

كاد الزّمانُ يلقيّاكُمْ يُحَيّينا ... وحادثُ الدَّهرِ بالتفريق يثنينا

فعندما صدقَتْ فيكم أمانينا ... أضحَى التنائي بديلاً من تدانينا

* وناب عن طيب لقيانا تجافينا *

أضحتْ علينا حمامُ الأَيْكِ نائحةً حُزْناً وباتتْ عيونُ الغيْثِ تبكينا
وكم لبرقِ الدُّجى جيبٌ يُشقِّقه وَيلْطم الرّعدُ خدًّا حين يفعينا[1]
وكم سمير من الذكرى يُطارحنا عنكمْ أحاديثَ أشواقٍ فيُشجينا
يامن تحكّمَ فى الأحشاء حبُّهمُ وزاده اللهُ تذْييقا وتمكينا
ومَن وَجَدْنا على نارِ الغرامِ بهمْ هُدًى ومن طورهم فى الحسْن نُودينا
حتّى أتينا فآنَسْنا وصالَهمْ وباتَ لُطفُهمُ سرًّا يُناجينا
فما أتمّ لَنا ميقاتَ قُربِهمُ ربٌّ قضى بالّذى يختاره فينا
فكم لنا صَعْقةٌ خرّ الفؤادُ لها رُعْباً، وباتَ كليم لذّات مَفتونا
كأنّهمْ لم يكونوا للعيونِ سَنًا أُنسٍ وللأنْفُس الحرّى رَياحينا
ما كان ضرَّ ليالى الوصلِ لو بقيتْ وأرغمتْ ببقاكُمْ أنفَ واشينا
وجمّعتْ شملَنا فضلاً وتكرمةً حتّى نرَى ما نُعانى من تصافينا
يادهْرنا إذ دعَا الدّاعى بفُرْقتنا كيف انخدعْتَ إلى أن قلتَ آمينا!
ما كان أسرعَ حُكما جاءنا عجِلاً فسَلَّ لذّاتنا من بين أيدينا
فحسْبُنا يارزاياَ الدّهر حادثُنا وبعض ماقد جرَى من ذاك يكفينا
ومَن تحقّق ماقد حلّ منه بنا فما يَزيدُ على الدّعوى براهينا
يابدرَ تمٍّ تجلّى فى دُجى شعَرٍ وغُصْنَ بانٍ تثنّى فى الرُّبا لينا
ويا غزالَ النّقا جيداً ومُلتفتاً وجنّةَ الرّوض تفّاحا ونسْرينا
بالله هل ذهبَتْ تلك المحاسنُ أو حالتْ حُلاكَ الّتى كانت أمانينا!
وهل تنكّرَ ذاكَ القدُّ أو سُلبتْ منه الرّشاقةُ لمّا راحَ مدفونا!
وهل تغيّرَ ذاك الوجهُ أو ذهبتْ محاسنٌ عن بدُور التّمّ تُغنينا
فإنْ شممتَ عبيراً فى الجنانِ لأنْـ فاسِ التّحياتِ فاذكُرنا وحيّينا
وإنْ تمتّعتَ فى الفرْدوس ياسكَنى بطيبِ عَيْشٍ فلنْ تُنسَى لياليِنا

(١) كذا ورد الشعر .

وكتب ابنُ زيدون إلى ولادة يوماً من الزهراء :

إنّى ذكرتُكِ بالزهراء مُشتاقا ... والجوُّ طلْقٌ ووجهُ الأرض قد راقا[1]

وللنسيم اعتلالٌ فى أصائله ... كأنّه رقّ لى فاعتلّ إشفاقا

والرّوض عن مائه الفضّىّ مبتسمٌ ... كما شققتَ عن اللبّات أطواقا

يومٌ كأيّام لذّاتٍ لنا انصرمتْ ... بتْنا لها حين نام الدهرُ سُرّاقا

نلهو بما يستميلُ العينَ من زهرٍ ... جالَ النّدى فيه حتّى مال أعناقا

كأنّ أعيُنَه إذ عاينتْ أرقى ... بكتْ لما بى ، فجالَ الدّمعُ رقراقا

لا أسكنَ اللهُ قلباً عن تذكّركمْ ... ولم يطِرْ بجناح الشّوق خفّاقا

لو شاء حَملى نسيمُ الرّيح حينَ هفا ... وافاكمُ بفتى أضناه ما لاقى

فالآن أحمدُ ما كنّا لعهدكمُ ... سلوتمُ ، وبقينا نحنُ عُشّاقا

ومن نظمه أيضاً :

أمّا مُنَى نفسى فأنتِ جميعُها ... يا ليتنى أصبحتُ بعض مُناكِ[2]

يُدْنى مَزاركِ حين شطّ به النّوى ... وَهْمٌ أكادُ بهِ أُقبّل فاكِ

ومن نظمه أيضاً :

ولقد شكوتكِ بالضّمير إلى الهوى

ودعوتُ من حَنقٍ عليكِ فأمّنا[3]

منّيتُ نفسى من وصالكِ ضلّةً ... ولقد يَغُرّ المرءَ بارقةُ المنى

ومن قصيدة يمدح بها عبّادا فى يوم عيد :

وإنّا قضينا ما عنانا قضاؤه ... وكلٌّ بما أوليتَ داعٍ فملحِف[4]

رأيناكَ فى أعلى المصلّى ، كأنّما ... تطلّعَ من محراب داودَ يوسفُ

---

(١) ديوانه ١٣٩ .

(٢) ديوانه ٣٤٥ ، ٣٤٦

(٣) ديوانه ١٩١ .

(٤) ديوانه ٤٩٥ .

ومِن نظمه أيضاً :

بَيْني و بينَك ما لو شئتَ لم يضِعِ ... سِرٌّ إذا ذاعَت الأَسرارُلم يَذِعِ (١)

يا بائعاً حظَّه مِنّي ولو بُذِلَتْ ... لِيَ الحياةُ بحظّي منه لم أَبِعِ

يكفيك أنّك إنْ حمَّلتَ قلبيَ مَا ... لَمْ تستطِعْه قلوبُ الناسِ يستطِعِ

تِهْ أحتمِلْ ، واستطِلْ أصْبِر ، وعِزَّ أَهُنْ

وولِّ أُقْبِل ، وقُلْ أسْمَعْ ، ومُرْ أُطِعِ

ومنه :

ألَمْ يَأنِ أنْ يبكي الغمامُ على مِثلي

ويَطلُبَ ثأرِي البرقُ منصلتَ النصلِ (٢)

وهلاَّ أقامَتْ أنجُم الزهْرِ مأتماً ... لتَندُبَ في الآفاق ماضاعَ من ثَبْلي

أمفتوكةَ الأجفانِ مالَكِ والهاً ! ... ألَمْ تُرِكِ الأيامُ نجماً هَوَى قَبْلي !

وللهِ فِينا عِلمُ غيْبٍ وحسْبُنا ... به عندَجَوْرِ الدهرِمنحَكَمٍ عَدْلِ

وفي أمِّ موسى عِبرةٌ إذ رَمَتْ بهِ ... إلى اليمِّ في التابوت فاعتبِرِي وأمْلِي

ومنه من قصيدةٍ كتَب بها من السجن إلى ابن جَهْوَر :

ماجالَ بعدَكِ لحظي في سَنا القمرِ ... إلاّ ذكرتُك ذِكْرَ العَيْن بالأَثَرِ (٣)

ولا استطَلْتُ زِمَامَ الليلِ مِن أسَفٍ ... إلاّ على ليلةٍ سَرَّتْ مع القِصَرِ

في نَشْوةٍ من سِنَاتِ الوَصْلِ مُوهِمَةٍ ... أن لا مَسافةَ بين الوَهْنِ والسَّحَرِ

يا ليتَ ذاكَ السَّوادَالجَوْنَمتَّصلٌ ... قد استعارَ سوادَ القلبِ والبَصَرِ

---

(١) ديوانه ١٦٩ .   (٢) ديوانه ٢٦١ ، ٢٦٢ .

(٣) ديوانه ٢٥٠ .

فهمتُ معنى الهوى فى لحظ طرفك لى — إنّ الحوار لمفهومٌ من الحوَرِ
لم تطوِ بُرْدَ شبابى كَبْرَةٌ ، وأرى — برقَ المشيب اعتلى فى عارض الشَّعَرِ
قبلَ الثلاثين إذ عهدُ الصِّبا كَثَبٌ — وللشبيبة غُصْنٌ غيرُ مُهتَصَرِ
ياللرزايا لقد شافهتُ منهلها — غمراً فما أشربَ المكروهَ بالغُمَرِ
لا يَهْنأ الشامتَ المرتاح خاطرُه — أنّى معنّى الامانى ضائعُ الخَطَرِ
هل الرياحُ بنجم الأرض عاصفةٌ — أم الكسوفُ لغير الشمس والقمرِ!
إنْ طالَ فى السجنِ إيداعى فلا عَجَبٌ — قد يُودَع الجفنَ حدُّ الصارمِ الذَّكَرِ
وإنْ يُثَبِّط أبا الحزم الرّضا قدرٌ — عن كشف ضُرّى فلا عَتْبٌ على القَدَرِ
مَن لم أزلْ من تأتّيه على ثقةٍ — ولم أبِتْ من تجنّيه على حَذَرِ
أغنَتْ قريحتُه مَغنى تجاربه — ونابتِ اللَّمحة العجلَى عن الفِكَرِ
كم أشترى بكرَى عينَيْه من سَهَرٍ — هُدوءَ عينِ الورى فى ذلك السَّهَرِ

ومنهـــا :

أحِينَ زُفّت على الآفاق من أدَبى — عرائسٌ من جناها يانعُ الثَّمَرِ
لا تَلْهُ عَنّى فلم أسألْك معتسِفاً — ردَّ الصِّبا غِبٌّ إشفاءٍ على الكِبَرِ
واشفعْ أكُنْ مِثل ممطورٍ ببلدتِه — جذلانَ بالوطنِ المألوفِ والوطَرِ

ومن نظمه فى بنى جَهْوَر :

بنى جَهْوَرٍ أنتمْ سماءُ رياسةٍ — مَناقبُكمْ فى أفقها أنجمٌ زُهْرُ
ترى الدهرَ إنْ يَبْطِشْ فمنكمْ يمينُه — وإن تبتسِم الدنيا فأنتمْ لها ثغرُ
لكمْ كلُّ رَقراقِ السماح كأنّه — حُسامٌ عليه من طلاقته بِشْرُ
طريقتُكمْ مُثلى وهَدْيُكمو رضاً — ومذهبكم قصدٌ ونَيلُكمُ غَمْرُ
عطاءٌ ولا مَنٌّ ، وحُكمٌ ولا هوًى — وحِلمٌ ولا عجزٌ ، وعِزٌّ ولا كِبْرُ

ومن نظمه فيهم بعد حبسه :

بنى جَهْوَرٍ أحرَقْتُمُ بجفائكمْ جَنانِي فما بالُ المَدائحِ تَعْبَقُ ! [١]
تظنّونَني كالعَنْبرِ الوَرْدِ إنما تطيبُ لكمْ أنفاسُه حِينَ يُحْرَقُ

وقال يخاطب أبا الحزم بن جَهْوَر :

قلْ للوَزِيرِ وقد قطعتُ بمدحِه عُمْرِي فكانَ السِّجْنُ منه ثَوابِي [٢]
لا تَخْشَ لائِمَتِي بما قـد جئتَه مِن ذاكَ فيّ ولا تَوَقَّ عِتابِي
لم تُخْطِ في أمْرِي الصَّوابَ موفَّقا هذا جزاءُ الشّاعرِ الكَذّابِ

قلت : ومن هذه المادّة قولُ الأَبِيوَرْدِيّ :

وقصائدٍ تَحكِي الرِّياضَ أَضَعْتُها في باخلٍ ضاعَتْ به الأحْسابُ
وإذا تَناشَدَها الرُّواةُ وأَبْصَروا الْـ مَمدوحَ قالوا : شاعرٌ كَذّابُ

وقول أبي بكر بن أبي حمزة [٣] :

ووعَدْتَني فظَنَنْتُ أنّكَ صادقٌ فظَلَلْتُ من طَمَعِي أجيءُ وأذْهَبُ
وإذا اجتمعتُ أناوأنْتَ بمَجلِسٍ قالوا : مُسَيْلِمةٌ وهـذا أشْعَبُ

وقول ابنِ زَيْدون : « لم تخط في أمْرِي الصَّواب » ، يُشبِه قولَ محمّد بن مَناذِر في خالد بن طليق [٤] قاضي البَصْرة :

قل لأمير المؤمنين الّذى من هاشمٍ في سِرِّها والأُبابْ [٤]
إن كنتَ للسَّخْطةِ عرَّضْتَنا بخالدٍ فهو أشـدّ العِقابْ
كان قُضاةُ النّاسِ فيما مَضَى من رحمةِ اللهِ وذا من عَذابْ

---

(١) ديوانه ٥٩٠ ، و الذخيرة ١: ٣٠٤ .
(٢) ديوانه ٥٩١ .
(٣) ط : « في أبي حمزة » .
(٤) في الأغاني ١٧ : ٢٤ (ساسي) : « كان قاضي المهدي » .

يا عَجباً من خالدٍ كيف لا يُخطئ فينا مَرّةً بالصّوابْ !

وكَتَب إلى أبى حَفْص بن بُرد الكاتب من السّجن أيضاً، قطعةً منها :

ماعلى ظنّىَ باسُ يَجْرَحُ الدّهر ويأسُو(١)
رُبّما أشرف بالمرْ ءِ على الآمالِ ياسُ
ولقد يُنجيك إغفا لٌ، ويُؤذيك احتراسُ

ومنهـا :

يا أبا حَفْص وما سا واكَ فى الفَهْم إياسُ
مِنْ سَنا رأيِكَ لى فى غَسَق الخَطْب اقتباسُ

ومنها :

ودادِى لكَ نَصٌّ لمْ يُخالِفْه قِياسُ
يَلْبُد الوَرْد السّبَنْتى وله بَعْد افْتِراسُ(٢)
إنْ أكنْ أصبحتُ محبو ساً فللغَيْث احتباسُ
فتأمّلْ كيف يَغْشى مُقْلَةَ المَجْد النُّعاسُ
ويُفَتُّ المِسْك فى التُّرْ بِ فيُوطا ويُداسُ
لا يَكنْ عَهْدُك وَرْداً إنّ عهدِى لكَ آسُ
وأدِرْ ذكرىَ كأساً ما امتطت كفّك كاسُ

ومِن نظمِه :

أمّا رِضاكَ فشيءٌ ماله ثَمَنُ لوكان سامحَنى فى ملكِكَ الزّمَنُ(٣)
تبكى فِراقَكَ عينٌ أنتَ ناظرُها قد لجّ مِن هَجْرِها فى هَجْرِكَ الوَسَنُ

---

(١) ديوانه ٢٧٣ . (٢) يلبد : يقيم بمكانه ، والورد والسبنتى : من أسماء الأسد .
(٣) ديوانه ١٨٠ .

إنَّ الزمانَ الّذى عَهْدِى به حَسَنٌ ... قد حالَ مُذْ غاب عنِّى وجهُكَ الحَسَنُ
واللهِ ماساءنى أنِّى خَفِيتُ ضنًى ... بل ساءنى أنّ سِرِّى فى الهوَى عَلَنُ
لو كان أمْرِى فى كَتْمِ الهوَى بيدِى ... ما كان يعلَمُ ما فى قلبِى البدَنُ

ومِن نَظْمِه أيضا :

لم أنسَ إذ باتت يَدِى ليلةً ... وشاحَه اللاصق دونَ الوِشاحْ[1]
لَمْ أشِمِ البَرْقَ جَهاماً ؛ ولَم ... أقتدِحِ النارَ بزَنْدٍ شَحاحْ
يامُرْشِدِى جَهْلاً إلى غيْره ... أغْنَى عن المِصْباح ضوءُ الصَّباحْ
ذو باطنٍ أُقبِسَ نورَ التُّقَى ... وظاهرٍ أُشْرِبَ ماءَ السَّماحْ

ومنها :

لا طارَ بى حَظٌّ إلى غايةٍ ... ما لم أكنْ منكمْ مَرِيشَ الجَناحْ
لَم يَثْنِنى عن أَمَلٍ ماجَرَى ... قد يُرقَع الخَرْقُ وتُوسَى الجِراحْ
وأُشْفِعَ فلِلشّائمِ نُمِّى بِما ... بَنَاه من عَقْدٍ وَثيقِ النَّواحْ
إنّ سحابَ الأُفْقِ منها الحَيَا ... والحمد فى تأليفها للرِّياحْ

ومِن نظمِه مهنِّئا المعتضد عبّاد بهزْم أبيه إسماعيل لابن الأفطس وقتله ولد إسحاقَ بنِ عبدِ اللهِ :

وبُشْراكَ دُنْيا غضّةُ العَهْد طَلْقةٌ ... كما ابتسم النُّوّارُ عن أدْمُعِ النَّدَى[2]
دعوتَ فقال النَّصرُ لبّيْكَ ماثلاً ... ولم تكُ كالدّاعِي يُجاوِبُه الصَّدَى
وأحمدتَ عقبَى الصَّبْرِ فى دَرَكِ المُنَى ... كما بَلَغَ السّارى الصَّباحَ فأحْمَدَا
وَجدناكَ إنْ ألقحتَ سَعْيا نَتجتَه ... وغيرُك شاوٍ حين انْضَج أرْمَدَا
سَلِ الخائنَ المغترَّ : كيفَ احتقابُه ... مع الدّهرِ عاراً بالفِرار مخلَّدا !

(١) ديوانه ٢٤٧ .
(٢) ديوانه ٤٦٧ .

رَأى أنّه يُضحِي هِزَبْرًا مصمّماً فلَم يَعْدُ أن أمسَى ظَليماً مُشَرَّدَا

يوَدُّ إذا ماجَنّه اللّيلُ أنّه أَقامَ عليه آخر اللّيل سَرْمَدا

وأصبَحَ يَكفيه المصاب بشكْله بكاءَ لَبيدٍ حين فارَقَ أَرْبَدَا

وهذا القَدْر يكفي في إيراد نَظْم ابن زيدون .

ولمّا اتّصل بعدَ فِرارِه من سِجن ابن جهوَر بالمعتضد بن عبّاد ، ولم يزَلْ عندَه وعند أبيه المعتمد قائمَ الجاه ، وافرَ الحرمة ، إلى أن توفّيَ بإشبيليَةَ ، سنة ثلاثٍ وستّين وأربعمائة ، كذا قال شيخُنا شمسُ الدّين الذّهبيّ .[1]

وقال ابن بَشْكُوال : توفّي سنةَ خمسٍ وأربعمائة ، وكانت وفاتهُ بألبيرَة ، وسِيقَ إلى قُرطُبة ودُفِن فيها . ومَولِدُه سنةَ أربعٍ وخمسين وثلثمائه[2] .

قلت : ولعلّ الّذى قاله ابن بَشكوال أَقربُ إلى الصّواب ، على أنّ ابنَ بَسّام قال فى « الذّخيرة » : توفّيَ سنةَ ثلاثٍ وستّين ، وكان يَخضِبُ بالسّواد ، وكان له ولدٌ يقال له : أبو بكر ، تولّى وزارةَ المُعتمِد ، وقُتِلَ يومَ أخَذ يوسفُ بنُ تاشفين قرْطُبةَ من ابنِ عبّاد ، رحمهم الله أجمعين .

---

(١) العبر ٣ : ٢٥٣ .

(٢) لم أجده فى الصلة .

رسالة ابن زيدون

وها أنا أوردِ الرِّسالةَ منقولةً من خطِّ الإمام علىّ بن ظافر ، رحمه الله تعالى وأُثبِتُها جملةً ، ثمّ أعودُ بعدَ ذلك وأُورِدُها شيئاً فشيئاً ، من أوّلها إلى آخِرِها ، وكلّما أوردتُ منها شيئاً أوضحتُ مُبْهَمَه ، وفصّلْت مُجْمَلَه ، وأورَدْت مالَه به عَلاقه ، مستعيذا فى بلوغ المقْصود بالله تعالى .

كَتبَ أبو الوليد أحمدُ بنُ زَيْدونَ إلى ابنِ جَهْوَر :

يامولاىَ وسيِّدى الّذى ودادِى له ، واعتمادِى عليه ، واعتدادِى به . ومَن أبقاهُ الله تعالى ماضىَ حَدِّ العَزْم ، وارِىَ زَنْدِ الأمَل ، ثابتَ عَهْدِ النِّعمة . إن سَلَبْتَنى أعزّك الله لِباسَ إنعامِك ، وعَطّلْتَنى من حُلِىّ إيناسِك ، وأظْمأْتَنى إلى بُرُودِ إسْعافِك ، ونفَضْتَ بى كفَّ حِياطَتِك ، وغضَضْتَ عنّى طَرْفَ حِمايتِك ؛ بعد أن نَظَر الأعمى إلى تأميلى لك ، وسَمِع الأصمُّ ثنائى عليك ، وأحَسَّ الجمادُ باسْتِحْمادِى إليك ؛ فلا غَرْوَ ، قد يَغَصُّ بالماءِ شارِبُه ، ويقتلُ الدواءُ المُستشفِىَ به ، ويُؤتَى الحذِرُ مِن مأمَنِه ، وتكون مَنِيَّةُ المتمنِّى فى أُمْنِيّتِه ، والحَيْنُ قد يَسْبِق حِرْصَ الحريصِ .

كلُّ المَصائِب قد تَمُرّ على الفَتى ... وتَهُونُ غيرَ شماتَةِ الأعداءِ

وإنّى لأتَجلّد ، وأُرِى الشّامِتِين أنّى لرَيْب الدّهْرِ لا أتَضَعْضع ، فأقول : هل أنا إلاّ يَدٌ أَدْماها سِوارُها ، وجَبِينٌ عَضّ به إكْليله ، ومَشْرِفىٌّ ألصَقه بالأرضِ صاقِلُه ، وسَمْهَرِىٌّ عرَضَه على النارِ مثقِّفه ، وعَبْدٌ ذهبَ به سيّدُه مَذْهبَ الّذى يقول :

فقَسا ليَزْدَجِروا ومَن يكُ حازِمًا ... فلْيَقْسُ أحيانًا على مَن يَرْحَمُ

هذا العَتْب محمود عَواقبُه ، وهذه النَّبْوَة غَمْرَةٌ ثم تنجلِى ، وهذه النَّكْبة سَحابةُ صَيْفٍ عن قليلٍ تَقَشّع . ولن يَرِيبَنِى مِن سيّدى أن أبطأ سَيْبُه ،

أو تأخرَ غيرَ ضنين غناؤه ، فأبطأُ الدِّلاءِ فَيْضاً أملؤُها ، وأثقلُ السحاب مَشْياً أحفَلُها ، وأنفعُ الحيا ما صادَف جَدْبا ، وألذُّ الشراب ما أصابَ غليلا ، ومع اليومِ غدٌ ، ولكلِّ أجلٍ كِتاب ؛ له الحمدُ على اهتبالِه ، ولا عَتْبَ عليه في إغفالِه .

فإنْ يكُنِ الفعلُ الذى ساءَ واحداً　　فأفعالُه اللاّئى سَرَرْنَ أُلوفُ

وأعود فأقول : ماهذا الذَّنب الذى لَم يَسَعْه عفْوُك ، والجهلُ الذى لم يأتِ مِن ورائِه حِلمُك ، والتطاوُل الذى لم يستغرِقْه تطوُّلُك ، والتحامُل الذى لَم يَفِ به احتِمالُك ؛ ولاأخلُو من أن أكونَ بَريئاً فأين العَدْل ! أو مُسيئاً فأين الفَضْل !

إلاَّ يَكُنْ ذنبٌ فَعَدْلُكَ واسعٌ　　أو كانَ لى ذَنبٌ ففَضْلُكَ أوسَعُ

حَنَانَيكْ ! قد بَلَغ السَّيْلُ الزُّبَى ، ونالَنِي ماحَسْبِي به وكَفَى . وما أرانِي إلاّ لو أنِّى أُمِرت بالسجود لآدمَ فأبيْتُ واستكبرت ، وقال لى نوح : ﴿ اركَبْ مَعَنا ﴾ ، فقلتُ : ﴿ سآوِى إلى جَبَلٍ يعْصِمُنِي مِن الماءِ ﴾ ، وأُمِرْت ببِناءِ صَرْحٍ لَعَلِّى أطَّلِعُ الى إلٰهِ مُوسَى ، وعكَفْتُ على العِجْل ، واعتدَيْتُ فى السَّبْت ، وتَعاطَيْت فعقَرْت ، وشَرِبْت من النَّهْرِ الذى ابْتُلِيَ به جُيوشُ طالوت ، وقُدْتُ الفِيلَ لأبْرَهَة ، وعاهدْتُ قُرَيشاً على مافى الصَّحيفة ، وتأوَّلْتُ فى بَيْعَة العقَبة ، ونَفَرْتُ إلى العِير ببَدْر ، وانْخزَلْت بثُلُث النّاس يومَ أُحُد ، وتخلَّفتُ عن صَلاة العَصْر فى بنى قُرَيْظَة ، وجِئْتُ بالإفْك على عائشةَ الصِّدِّيقة ، وأنِفتُ من إمارَة أسامة ، وزَعَمتُ أنّ بَيْعَةَ أبى بَكْر كانت فَلتةً ، ومِنْ أدِلَّة القُرْآنِ عَلَى خِلافَةِ أبى بَكْرٍ ، ورَوَّيْتُ رُمْحِى مِن كَتِيبةِ خالِد ، ومَزَّقْتُ الأديمِ الذى بارَكَتْ يدُ الله عليه ، وضَحَّيْت بالأشْمَط الذى عُنْوانُ السُّجودِ به ، وبذَلْت لِقطَام :

ثلاثةَ آلافٍ وعَبْدًا وقَيْنَةً وضَرْبَ عليٍّ بالحُسامِ المسمَّمِ

وكتبْتُ إلى عمر بنِ سعْد: أن جَعْجِعْ بالحسين، وتمثَّلْتُ عندما بلَغنى من وَقْعة الحَرَّة:

لَيْتَ أشياخِى ببدْرٍ عَلِمُوا جزَعَ الخَزْرَجِ مِن وَقْعِ الأَسَلْ

وَرجَمْتُ الكَعْبة، وصَلَبْتُ العائِذَ على الثَّنِيَّة ـ لكان فيما جرى علىَّ مايحتَمل أن يسمَّى نَكالا، ويُدعى ولو طَلَى المَجاز عِقاباً.

وحَسْبُكَ من حادثٍ بأمرىءٍ تَرَى حاسِدِيه له راحِمِينا

فكيفَ ولا ذنبَ إلاّ نَمِيمَةٌ أهداها كاشِحٌ، ونبأٌ جاءَ به فاسِق، وهم الهَمّازون المَشّاءون بنَميم، والواشُون الّذين لايلبثون أن يَصدَعُوا العَصا، والغُواةُ الّذين لايَترُكون أدِيما صحيحا، والسُّعاةُ الّذين ذكرهم الأحنفُ ابنُ قيس، فقال: ماظنُّك بقومٍ الصِّدْقُ محمودٌ إلاّ منهم!

حلَفتُ فلَم أترُكْ لنفسِكَ رِيبةً وليسَ وراءَ اللهِ المرءِ مَذْهَبُ

ووَاللهِ ماغَشَشْتُكَ بعدَ النّصيحة، ولا انْحَرفْتُ عنك بعدَ الصّاغِيَة، ولا نَصَبْتُ لك بعدَ التشيُّع فيك، ولا أزمَعْتُ يأساً منكَ مع ضَمانٍ تكَلَّفَتْ به الثّقة عنك، وعهدٍ أخَذَه حُسنُ الظّن عليك؛ ففيمَ عَبِثَ الجفاءُ بأذِمّتى، وعاثَ العُقوقُ فى مَواتِّى، وتمكَّنَ الضَّياع من وسائِلى! ولِمَ ضاقَتْ مذاهِبى، وأكْدَتْ مَطالِبى! وعلامَ رضيتُ من المركَب بالتعليق، بل من الغَنيمة بالإياب! وأنَّى غلَبَنى المغلَّب، وفَخَرَ علىَّ العاجزُ الضعيف، ولَطَمَتْنى غيرُ ذاتِ سِوار! ومالَكَ لَمْ تَمنَعْ منّى قَبلَ أن أفترَس، وتُدْرِكْنِي ولمّا أُمَزَّق! أم كيف لاتتضرَّم جوانحُ الأكْفاءِ حَسداً لى على الخُصوصِ بك، وتتقطع أنفاسُ النُّظَراءِ مُنافَسةً فى الكَرامة عليك، وقد زانَنى اسمُ خِدْمَتك، وزهانى وَسْمُ نِعمَتِك، وأبلَيْتُ البَلاءَ الجميلَ فى سِماطِك، وقُمتُ المَقامَ المحمودَ على بِساطِك.

أَلَسْتُ المُوالي فيكَ غرَّ قصائدٍ
هيَ الأَنجُمُ أقتادَتْ مع الليل أنجُمَا
ثناءٌ يُظَنُّ الرَّوْضُ منه منوَّراً ضُحًى، ويُخالُ الوَشْيُ فيهِ مُنَمْنَمَا

وهل لَبِس الصَّباحُ إلاّ بُرْدًا طرَّزْتَهُ بفضائِلك ، وتقلَّدتِ الجوْزاء إلاّ عِقْداً فصَّلْتَهُ بمآثِرِك ، واستَمْلَى الرَّبيعُ إلاّ ثَنَاءَ ملأتَهُ من محاسِنِك ، وبَثَّ المِسكُ إلاّ حَديثًا أذعْتُه في محامِدك ! مايومُ حَليمةَ بِسرّ .

وإن كنتُ لم أَكسُك سَليبا ، ولا حَلّيتك عُطْلاً ، ولا وَسَمْتك غُفْلاً ؛ بل وجدتُ آجُرًّا وجِصًّا فبنَيْت ، ومكانَ القول ذا سَعةٍ فقُلْت

حاشا لكَ أن أُعَدَّ من العامِلَةِ النّاصِبة ، وأكونَ كالذُّبالة المنصوبة تُضيء للنّاس وَهِيَ تحترق ! فلكَ المَثَلُ الأعلى ، وهوَ بكَ - وبى فيكَ - أَوْلى .

ولَعَمْرُكَ ماجَهِلتُ أنّ صَريحَ الرّأيِ أن أتحوّلَ إذ بلَغَتْني الشّمس ، ونبابيَ المَنزِل ، وأصفَح عن المَطامع التى تُقطِّع أعناقَ الرِّجال ، فلا أسْتَوْطِىء العَجْز ، ولا أطْمَئِنّ إلى الغُرور ؛ ومن الأمثال المضروبة : خامِرى أمّ عامر ؛ وإنّى مع المعرفة أنّ الجلاءَ سِباء ، والنُّقْلةَ مُثْلة .

ومَن يَغْتَرِب عن قَوْمِه لم يَزَلْ يَرَى
مَصارِعَ مَظلومٍ : مُجَرًّا ومَسْحَبَا
وتُدْفَن منه الصّالحاتُ وإنْ يُسِئْ
يكنْ - ماأساءَ - النّارَ في رأسِ كَبْكَبا

لعارفٌ بأنّ الأدب الوَطنُ لا يُخشَى فِراقه ، والخليط لا يُتوقَّع زِيالُه ، والنَّسيب لا يُجفَى ، والجمالَ لا يَخفَى . ثمّ ماقِرانُ السّعد للكواكب أبهى أثرا ، ولا أسنَى خطَرا ، من اقتران غِنى النّفس به ، وانتظامِها نَسَقًا معه ؛ فإنّ

الحائزَ لها ، الضاربَ بسَهْمٍ فيهما — وقليلٌ ماهُمْ — أينما توجَّه وَرَدَ مَنهَلَ بِرٍّ ، وحَطَّ في جَنابِ قَبُول ، وضوحِك قبلَ إنزالِ رَحْلِه ، وأعطى حُكْمَ الصَّبِيِّ على أهله .

وقيل له : أهْلاً وسَهْلاً ومَرحباً فهذا مَبيتٌ صالحٌ ومَقِيلُ

غير أنّ الوَطَن محبوب ، والمَنْشَأ مألوف ، واللّبيب يحِنّ إلى وَطَنِه ، حَنينَ النَّجِيبِ إلى عَطَنِه ، والكريمَ لايَجْفُو أرضاً فيها قَوابِلُه ، ولا ينسَى بلَداً فيها مَراضِعُه قال الأوّل :

أحَبُّ بلادِ الله ما بَيْنَ مَنْعِجٍ إلىَّ وسَلْمَى أن يَصُوبَ سَحابُها

بلادٌ بها عَقَّ الشَّبابُ تَمائِمي وأوّلُ أرضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرابُها

هذا إلى مُغالاتي لعَقْد جِوارِك ، ومُنافَستي بلَحظةٍ مِن قُرْبك ، واعتقادي أنّ الطَّمَع في غيرِك طَبَع ، والغنى من سواك عَناء وكُلُّ الصَّيْدِ في جوف الفرأ ، والبَدَل منك أعْوَر ، والعِوَض نَفاء .

وإذا نظرتُ إلى أميرِي زادَني ضَنًّا به نَظَرِي إلى الأُمَراءِ

وفي كلِّ شجرةٍ نار ، واستَمجَد المَرْخُ والعَفار . فما هذه البَراءة ممّن يتولاك ، والمَيْل عمّن لا يَميل عنك ! وهلاّ كان هَواكَ فيمن هَواهُ فيك ، ورِضاكَ لمن رِضاه لك !

يامن يَعِزُّ علينا أن نُفارِقَهم وِجْدانُنا كلَّ شيء بعدَكُمْ عَدَمُ

أُعِيذُك ونفسي من أن أَشِيمَ خُلَّبا ، وأَستَمْطِر جَهاماً ، وأَكدِم في غيرِ مَكْدَم ، وأشكُو شكْوَى الجريح إلى العِقْبان والرَّخَم ؛ فما أبسَسْتُ لك إلاّ لتَدِرّ ، وحرّكتُ لك الحوارَ إلاّ لِتَحِنّ ، ونبّهتُك إلاّ لأنام ، وسَرَيْتُ إليكَ إلاّ لأحمدَ السُّرَى لدَيْك . وإنّكَ إنْ شئتَ عَقْدَ أمرٍ تَيَسَّر ،

ومتى أعذرتَ في فكِّ أسري لم يتعذّر ، وعلمُك محيطٌ بأنّ المعروفَ ثمرةُ النّعمة ، والشفاعة زكاةُ المروءة، وفضلَ الجاهِ ـ تعودُ ـ به صدقة .

وإذا امرؤٌ أهدى إليكَ صنيعةً   من جاهِـه فـكأنّها من مالِهِ

لعلّي أن ألقي العصا بذراك ، ويستقرّ بيَ النوى في ظلّك ، وأستأنف التأدُّبَ بأدبك والاحتمالَ على مذهبك ، فلا أوجد للحاسد مجالَ لحظة ، ولا أدَع للقادح مساغَ لفظة ، والله ميسِّرُكَ من إطلاقي بهذه الطّلبة ، وإشكائي من هذه الشّكوى ، بصنيعةٍ تُصيبُ منها مكانَ المصنَع ، وتستودعها أحفظَ مُستودَع ، حسْبَما أنت خليقٌ له ، وأنا منك حريٌّ به ؛ وذلك بيدِه ، وهيِّنٌ عليه .

ولمّا توالَتْ غُرَرُ هذا النّثر واتّسقَتْ دُرَرُه ، فهزّ عِطفَ غُلوائه ، وجرّ ذيلَ خُيَلائه ، عارضَه بالنّظم مُباهِيا ؛ بل كايَدَه مُداهِيا ، حين أشفق أن يَستعطِفَك استعطافُه ، وتميلَ بنفسِك ألطافُه ، فأستحسن العائدةَ منه ، وأعتدّ بالفائدة له ، فما زال يستكدُّ الذّهنَ العليل ، والخاطرَ الـكليل ، حتّى زفّ إليك عروسا مجلوّةً في أثوابها ، منصوصةً بحَليِها وملابسِها ، وهي :

الهوَى في طلوعِ تلك النّجومِ   والمُنَى في هُبوبِ ذاكَ النّسيمِ
سرّنا عيشُنا الرّقيقُ الحواشي   لو يَدومُ السّرورُ للمستديمِ
وَطَرٌ ما انقضَى إلى أن تقضّى   زمنٌ ماذمامُـــه بالذّميمِ
إذ ختامُ الرِّضا المسوّغ مِسْكٌ   ومزاجُ الوِصال من تسنيمِ
وعريضِ الدّلال غضٌّ جَنَى الصّبْــوَة نشوانَ من سُلافِ النّعيمِ
طالما نافر الهَوَى منه عزٌّ   لم يطُل عَهْدُ جِيدِه بالتّميمِ
زارَ مستخفِيا ، وهيهاتَ أن يخـ   ـفَى سَنا البدرِ في الظلام البهيمِ

فوَشى الحُليُ إذ مَشَى، وهفا الطِّيـ ـبُ إلى حُسنٍ كاشحٍ بالنَّميمِ
أيها المؤذِني بظُـلمِ اللّيـالي ليس دهري بواحدٍ من ظَلومِ
ما تَرى البَدْرَ إنْ تأمّلتَ والشمـ ـسَ هما يُكسَفان دونَ النّجومِ!
وهو الدهرُ ليس يَنفكّ يَنحو بالمُصابِ العظيمِ نحوَ العظيمِ
بوّأ اللهُ جَوْهَراً أشرفَ السُّو دَدِ في السِّرِّ والّلباب الصّميمِ
واحدٌ سَلّم الجميعُ له الأمـ ـرَ فكانَ الخصُوصُ وَفقَ العُمومِ
قلّد القَمْرُ ذا التّجاربِ فيـه واكتَفَى جاهلٌ بعلمِ عَليمِ
خطرٍ يقتضي الكمالَ بنوعَيْ خُلُقٍ بارعٍ وخَلْقٍ وَسيمِ
أسوة الرّوضِ تطّبيك بحظّيْ نظرٍ ما اعتمدته وشميمِ
ابتهِذا الوزيرُ ها أنا أشكو والعَصا بَدْءُ قَرْعِها للحليمِ
ما عناه أن يألَفَ السابق المَرْ بطَ في العِتْقِ منه والتّطهيمِ
وثَواء الحسام في الجفنِ يَثْني منه بعد المَضاء والتّصميمِ
أقصَرٌ مثين جِسْماً من الأيّـامِ ناهيكَ مِن عذابٍ أليمِ
ومُعنّى من الصِّبا بهِنات نكأتْ بالكُلومِ قَرْحَ الكُلومِ
سَقَمٌ لا أعادُ منه وفي العـا ئدِ أنسٌ بِفي بِبُرْء السّقيمِ
نار بَغْيٍ سَعَى إلى جَنّة الأمْـنِ لَظاها، فأصبحَتْ كالصّريمِ
بأبي أنتَ إن تَشأ نَكُ بَرْداً وسلاماً كنارِ إبراهيمِ
للشّفيعِ الثّناء والحمدُ في صَوْ بِ الحيا للرّياح لا للغيومِ
وزعيم بأن يذلّلَ لي الصّعْـ ـبَ فيأتي إلى الهُمام الزّعيمِ
وثناء أرسلتُه سلوة الظا عِنِ عَنْ شَوْقِه وَلهو المُقيمِ
ووِدادٌ يُغيّرُ الدّهر ماشا ءَ ويَبقَى بقاءَ عهدِ الكريمِ
فهو رَيْحانة الجليس ولا فَخْـ ـرَ، ومنه مِزاجُ كأسِ النّديمِ
لَمْ تَزَلْ مُغْضِياً على هَفْوة الجا نِي مُصيخاً إلى اعتذارِ المُليمِ

ومتى نبدأ الصَّنيعةَ يُوليـ ـكَ تمـامُ الخِصالِ بالتَّتميمِ

ها كَها أعزَّكَ اللهُ يَبْسطها الأَمَل ، ويَقبِضها الخجَل ، لها ذَنْب التقصير ، وحُرْمة الإخلاص ، فهَبْ ذَنباً لحُرْمة ، واشفَع نعمةً بنِعمة؛ ليأتي لكَ الإحسانُ مِن جِهاتِه ، وتَسلُكَ إلى الفضلِ طُرُقاتِه ؛ إن شاء الله تعالى .

هذه الرسالة الزيدونية بجملتها نثرا ونظما ، منقولة من خط ابن ظافر رحمه الله تعالى .

* * *

وهذا أوان الشُّروع فى إيرادِها على التفصيل شيئاً فشيئا ؛ ليتأتى الكلامُ على ما أودَعه فيها من الإشارات إلى الوَقائع والأمثال ، وخلّد فيها من أبياتٍ اشتَهَر بين الأدباء استعمالُها ، وتخلل فى غصون الرّسائل والمُكاتَبات وُرودُها ؛ حَسَبَ الإمكان ، و بالله الإعانة .

١ — قوله : يَامَوْلاَىَ وسيِّدى الّذى وَدادِى لَهُ .

المَولَى يَجىء فى الكلام على مَعانٍ . [فالمَوْلَى ابنُ العَمّ][1] ، والمولَى الحَلِيف ، والمولَى المُنْعِم ، والمولى المعتق ، والمَولَى العَتِيق .

فالمَوْلَى أَعْلَى وأَسفَل ، فهو من الأضداد ؛ فمَن وَقَف على مَوالِيه فللشّافعىّ رحمه الله تعالى فيه ثلاثة أقوال : أحدُها يُصرَف إلى الأعلى ، والثانى يُصرَف إلى الأَسفَل ، والثالث أن يشترك بينهما ، وعليه الفَتْوَى .

وما أحسنَ قولَ أبى إسحاق الغزِّىّ :

ولن يتساوَى سادةٌ وعبيدُهُمْ　　على أنَّ أسماءَ الجميعِ مَوالِى

وقولَ أبى تمام الطّائىّ :

مولاكَ يامولاىَ صاحبُ لَوْعةٍ　　فى يومِه وصَبابةٍ فى أَمْسِهِ
دَنِفٌ يَجُود بنفسِه حتى لقد　　أَمسَى ضعيفاً أن يَجودَ بنفسه

والمَولَى : الوَلِىّ ، وفى الحديث : « اللّهمّ مَنْ كنتُ مولاه فعلِىٌّ مولاه » .

والمَولَى : الجار والناصر ، وكلُّ من وَلِىَ أمراً فهو وَلِيُّه ، والمراد من هذه

---

(١) من ط .

المعانى كلِّها المُنعِم، والمُعتِق، والسيّد. تقول العرب: سادَ قومَه يَسودُهم سِيادةً، وسُودداً، وسَيْدودةً، فهو سيِّدهم، أى فضَل عليهم وارتفع عن طبقتهم، لِما امتازَ عنهم بمناقِبِه؛ وما أحسنَ قولَ أبى نُواسٍ فى الفضل ابنِ عبد الصّمد الرّقاشىّ:

وجدْنا الفضلَ أكرمَ من رَقاشٍ   لأنّ الفضلَ مولاهُ الرّسولُ

أرادَ أبو نُواسٍ نفيَه عن وَلائه؛ لأنّه جعَلَه أكرمَ ممّن ينتمِى إليه، وذهَب إلى قوله صلّى الله عليه وسلّم: «أنا مولَى مَن لا مَولَى له»، وهذا من الهَجْو الخبيث الخفىّ.

والوِداد: المحبّة، تقول منه: وَدِدْتُ الرّجل أَوَدُّه وِداداً، أحبَبْتُه، والوُدّ والوَدّ بضم الواو وفتحِها: المَودّة.

ويُقابِل المولى مذكّرا المَولاة مؤنّثة، ويقابل السيّد مذكّرا السيّدة مؤنّثة. وأمّا قولُ الناس: «ستّ»، فليس فى كلام العَرَب، بل هو مولّد، وما أحسَن قولَ البهاء زُهَير:

بنَفْسِى مَن أُسمّيها بِستّى   فَتَرْمُقُنى النُّحاةُ بعين مَقْتِ[1]
يَرَوْن بأنّنى قد قلتُ لَحْنـــاً   فكيف وإنّنى لَزُهَيْرُ وقتى
وقد مَلَـكَتْ جِهاتى السّتّ حقًّا   فلا عَجَبٌ إذا ماقلتُ: سِـتّى

وقال الباخَرْزىّ:

إنّى لأَعْشَقُ سِــتّى   إى والّذى شَقّ خَمْسِى

وقد غلَب على كُتّاب الحكم عن القُضاةِ أن يقولوا: سيّدنا ومولانا قاضى القُضاة، فيما يكتبونه من السّجِلّات وغيرِها، والصوابُ فيه تقديمُ مَولانا على سيّدنا، لأمور:

---

(١) ديوانه ٢٢.

الأوّل : أنّ كُتّاب الإنشاء هم الأصل فى هذه الصِّناعة ، وأوّل مايقولون : المَوْلَوِىّ الأميرِىّ ، ويأتون بالسيّد بالآخِر .

الثانى : أنّ العَرَب كذا قالوا ، قالت الخنْساء فى أخيها صَخْر :

وإنّ صَخْراً لمَوْلانا وسيّدُنا وإن صَخراً إذا نَشْتو لَنحّارُ[1]
وإنّ صَخْراً لتأتمّ الهُداةُ به كأنّه عَلَمٌ فى رأسه نارُ
حامِى الحَقِيقة محمودُ الخليقة مَهْـ ـدِىُّ الطّرِيقة نَفّاعٌ وضَرّارُ

ولا نُورد عليها مايُرْوَى عن أبى عثمان المازِنِىّ ، قال : رأيْتُ أبا فرعون العَدْوانىَّ ومعه ابنتاه ، وهو فى سكّة العَطّارين بالبَصْرة يقول :

بُنَيّتىَّ صابِرَا أبا كُمَا إنّكما بعَيْنِ مَن يَرَا كُمَا
اللهُ رَبِّى سيّدى مَوْلاكُمَا ولو يَشَا بفَضْلِه أغْنا كُمَا

لأنّ الكلامَ فى المعطوف ، وليس هذا فيه عَطْف ؛ لأنّ مِثْل هذا لا تَرتيبَ فيه ، كقولِه تعالى: ﴿ غافِرُ الذَّنْب وقابِلُ التّوبِ ﴾[2] ، واللهُ تعالى يَقْبَل التوبةَ أولاً ، ثم يَغفِر الذَّنْب .

والثالث : لأنّ البلاغةَ أن يُذكَر الأعمّ ثمّ الأخَصّ ، كقولِه تعالى : ﴿ فيهما فاكِهةٌ ونَخْلٌ ورُمّانٌ ﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿ مَنْ كان عَدُوًّا لِله وملائكته ورُسُلِه وجِبْرِيلَ وميكال ﴾[4] .

فالمولَى أعمُّ من السّيّد ، لأنّ المَولَى يُطلَق على مَعانٍ كما تَقدَّم ، والبلاغة أن تقول : ياصاحِبِي ، ياأخِي ، ياحبيبى ؛ لأنّ الأصحاب كثيرة ، والأخْوة أقلّ منهم ، والحبيب لا يكون إلاّ واحداً .

ومن أقوَى أدلّة المُعتزِلة فى تفضيل الملائكة على الأنبياء مايَستدِلّون

---

(١) ديوانها ٧٩ .
(٢) سورة غافر ٢ .
(٣) سورة الرحمن ٦٨ .
(٤) سورة البقرة ٩٨ .

به من الأدلة السَّمْعِيّة قوله تعالى : ﴿ لَنْ يستنكف المَسِيحُ أن يكُونَ عبدًا لله ولا الملائكة المقرَّبون ﴾(١) . قالوا : والبليغ لا يقول : لا أفكِّر في السّلطان ، ولا في الوزير ، والصحيح ما قاله أهلُ السّنة ، وليس هذا بموضع بيانِ هذه المسألة.

ومما يؤيد ما قلته ، أنّ سيّدَ العُلماء والفُصحاء ، إمامَ الحَرمَين(٢) ، قال في كتاب الإرشاد : القولُ في نبوّة مولانا وسيّدِنا محمدٍ صلّى الله عليه وسلّم :

وتقولُ العَرَب : إنَّ مِنْ نَعْتِ السيّد أن يكون لَحِيمًا ، ضَخْمَ الهامة ، جَهِيرَ الصوْت ، إذا خَطا أبعد ، وإذا يُؤَمّل مَلأَ العَيْن مَهابةً ؛ لأنّ حقَّه أن يكون في صَدْرِ المجالس ، أو ذِرْوة مِنبَر ، متفرّداً في مَوْكِب ؛ ويقولون في نَعْته : يملأُ العَيْن جمالاً ، والسمعَ مَقالا .

وقال دِعْبِل :

فإذا جالَسْتَهُ صَدَّرْتَهُ ... وتَنَحَّيْتَ له في الحاشِيَهْ(٣)
وإذا سايَرْتَه قدَّمْتَه ... وتأخَّرْتَ مع المستانِيَهْ
وإذا عاشَرْتَه صادَفْتَه ... شَرِسَ الرّأْيِ أبيًّا داهِيَهْ
فاحْمَدِ اللهَ على صُحْبَتِه ... وسَلِ الرَّحمنَ مِنْهُ العافِيَهْ

ويؤيّد هذا قولُ الفَرَزْدق :

يقلِّب رَأْساً لم يكُنْ رَأْسَ سَيِّدٍ ... وَعَيْناً لَهُ حَوْلاءَ بادٍ عُيوبُها(٤)

وقال رجل لعمرَ رضي الله تعالى عنه : مَن السيّد ؟ قال : الجوادُ حينَ يُسأَل ، الحليمُ حين يُسْتجْهَل ، الكريمُ المَجالسةِ لمن جالَسَه ، الحَسَنُ الخُلقِ لمن جاوَرَه . والذى أظنّه أنّ السيّد عند العرب ، مَن سادَ قومَه أو غيرَهم بصفاتِه المحمودة ، ولا يتوقّف في ذلك على أصالةٍ ولا نسَب ، من قولِ القائل :

---

(١) سورة النساء ١٧٢ .

(٢) إمام الحرمين ، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجوينى ، الملقب بإمام الحرمين ، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعى ، وكتابه الإرشاد في أصول الدين ؛ توفى سنة ٤٧٨ . (٣) ديوانه ٢٥٥ . (٤) ديوانه ٥١ .

نفسُ عِصامٍ سَوَّدَتْ عِصامًا ... وعلَّمَتْه الكَرَّ والإقداما[1]

وقال عامرُ بنُ الطُّفَيل :

فما سَوَّدَتْني عامرٌ عن كَلالةٍ ... أبَى اللهُ أن أسمو بأمٍّ ولا أبِ[2]

ولكنّني أحمى حِماها وأتّقي ... أذاها، وأرمي مَن رمَاها بِمِقْنَبِ[3]

وقد أنصفَ عمرو بنُ عُبيد المعروفُ بالحزين حيث قال :

وتلقَى الفتى ضخماً جميلاً رُواؤُه ... يَروعُك في النّادى وليس له عَقْلُ[4]

وآخَرَ تَنْبو العَيْنُ عنه مُهذَّبٌ ... يجُودُ إذا ما الضّخمُ هِمّتُه البُخْلُ[5]

فصل

هل يجوز إطلاق هذين الاسمين على الله تعالى ؟ نعَم يجوزُ ذلك .

أمّا المَوْلى فقد نَطَق به القرآنُ العظيمُ في غيرِ مَوْضعٍ ، وأمّا السيّد فقد جاء مأثوراً عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ؛ ذكَر ذلك الإمامُ الحافظ ، رُكْن الإسلام ، سيفُ السنّة ، أبو بكر أحمد بنُ الحسين بن عليّ البَيْهقي البروجرديّ رضي الله عنه في كتاب الأسماء والصّفات ، قال : أخبرَنا أبو عليّ الرّوذْباريّ ، أنبأنا أبو بكر بن داسة ، حدّثنا أبو داود ، حدّثنا مسدّد ، حدّثنا بِشْر بن المفضّل ، حدثنا أبو سَلَمة سعيدُ بنُ يزيد ، حدّثنا أبو نَضْرة[6] ، عن مُطَرِّف ابن عبد الله بن الشِّخِّير ، قال : انطلقتُ في وفدِ بني عامرٍ إلى رسولِ الله

---

(١) ينسب إلى النابغة الذبياني ، العقد الثمين ١٧٥ .

(٢) حماسة ابن الشجرى ٧ ، الشعر والشعراء ٢٩٤ .

(٣) المقنب : جماعة الخيل من الثلاثين إلى الاربعين .

(٤) الأغاني ١٥ : ٣٣٧ .

(٥) الأغاني : « نهيه البخل » .

(٦) هو أبو بصرة الغفارى ، واسمه جميل بن بصرة . تقريب التهذيب ٢ : ٣٩٥ .

صلى الله عليه وسلّم ، فقلنا : أنت سيّدنا ، فقال : السيّد الله ؛ فقلنا : وأفضلُنا فَضْلا ، وأعظمُنا طَوْلا ؛ فقال : قولُوا بِقوْلكم ، أو ببَعْض قولِكم ، ولا يستجرِيَنَّكم الشّيطان .

وقال الحليمىّ[1] رحمه الله تعالى: ومعناه : المحتاجُ إليه بالإطلاق؛ فإنّ سيّد الناس إنّما الّذى إليه يَرجِعون ، وبأمْرِه يَعْمَلون ، وعن رأيه يصدُرُون ، ومِن قولِه يستمِدّون . فإذا كانت الملائكةُ والإنسُ والجِنّ خَلْقًا للبارِئ جلّ ثناؤه ، ولم يكن بهم غُنْيَةٌ عنه فى بدء أمرِهم وهو الوجود ، إذ لو لَمْ يُوجِدْهم لم يُوجَدوا ، ولا فى الإبقاء بعد الإيجاد ، ولا فى العوارض العارضة أثناء البَقاء ؛ كان حقّا له جلّ ثناؤه أن يكون سيّدا ، وكان حقّا عليهم أن يَدْعوه بهذا الاسم . انتهى .

وقال السُّهَيْلى[2] : والّذى أقول فى السيّد ، إنّه يعتبر بالإضافة ، لأنّه فى أصل الوضع بعض ما يضافُ إليه ، تقول : فلانٌ سيّدُ قيسٍ ، إذا كان منهم ، ولا تقول فى قيسىّ : سيّد بنى تميم ؛ فلذلك لا يقال : الله سيّد الناس ، ولا الملائكة ، وإنما يقال : ربُّهم . فإذا قلتَ : سيّد الأَرْباب وسيّد الكُرَماء جازَ ؛ لأنّ معناه أعظَم الأَرْباب ، وأكرَمُ الأكْرَمين . وقد مُنِع أن يُشْتَق له من السُّؤدد ؛ ولا حُجّةَ فى قولِ حَسّانٍ يرثِى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم :

فى جَنّة الفِرْدَوس فاكْتُبْها لنا ... ياذا الجلالِ وذا العُلا والسُّؤْدُدِ[3]

لأنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يَسمَعْها فيقرّها .

---

(١) هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخارى ، صاحب كتاب المنهاج فى شعب الإيمان ، توفى سنة ٤٠٣ . الإعلام للزركلى ١ : ٢٥٣ .

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمى ، صاحب الروض الأنف والتعريف والإعلام فيما أبهم فى القرآن . توفى سنة ٥٨١ . ابن خلكان ١ : ٢٨ .

(٣) ديوانه ٩٨ .

هذا ملخّصُ كلام السُّهيلىّ ؛ وفيه نَظَر ، لأنّ الخلفاء الراشدِين والصّحابة المهتدين سمّوها وأقرُّوها . وما أحْسَنَ قولَ الإمام أبى الفضْل طاهر بن الفقيه المحدِّث :

أشارتْ إلىّ بمُنَابةٍ مُخضَّبةٍ من دَمِ الأفئدَهْ
وقالتْ : مَتَى المهدِ ياسيِّدى ؟ فقلتُ إلى الحشْر يا سيّدَهْ

وقال أبو العَلاء المَعرّى :

حسابُكم عندَ المليكِ وما لكمْ سِوَى الوُدِّ منّى فهُبوطٍ ومَفزَعِ [١]
ووادِى لكم لم يَنقسِمْ وهو كامِلٌ كمَشْطورِ وَزْنٍ ليس بالمصرَّعِ

الشِّعر كلّه يصرّع إلاّ المشطورُ من الرّجَز والسّريع فإنّه لا يصرّع ؛ لأنّه على ثلاثة أجزاء ، كقول رُؤْبة :

* وقاتِمِ الأعماقِ خاوِى المخْتَرَقْنْ * [٢]

وسُمِّىَ المشطورَ لذلك ، لأنّه حُذف منه شطرُ البيت ، وما أحسنَ قولَ محمّد بن غالب الرُّصافىّ :

لك الوُدُّ الّذى لارَيْب فيهِ وإن بقيتْ نَواكَ على التمادِى
إذا كَرُمتْ عهودُ المرء طَبْعًا فأكرَمُ ما يكون على البِعادِ

* * *

٢ ـــ وقوله : وَاُعْتِمَادِي عَلَيْهِ ، وَاُعْتِدَادِي بِهِ .

تقول العَربُ : اعتمدتُ عليه فى كذا ، أى اتّكلتُ عليه ؛ واعتمدتُ على الشىء ؛ بمعنَى اتّكأتُ واستَندْت . واعتدادى به ، أى عُدّتى التى ادّخرتُها ليوم حاجتى .

(١) سقط الزند ٤ : ١٥٧٦

(٢) خزانة الأدب ٨١ ، والقتمة : الغبرة ، والأعماق : جمع عمق ، وهو ما بعد من أطراف المفاوز ، والمخترق : مكان الاختراق . والتنوين للترنم .

وقد أتى ابنُ زيدون فى هذه الألفاظ بالترصيع ، وهو من أنواع البديع ؛ لأنه قال : «الذى ودادى له ، وأعتمادى عليه ، واعتدادى به» ، فأتى بالدال وبعدها الياء ، وهى ضميرُ المتكلِّم ، وعدّى كل واحدٍ بحرفِ جرٍّ : له ، وعليه ، وبه ؛ وهذا نوعٌ من المبالغة يدلّ على قوّة المعارضة وسعة العبارة .

وما أحسن قولَ شيخ الشيوخ شرَفِ الدِّين عبد العزيز :

لنا مَلِكٌ وَاحدٌ ما اشتَهى ولـكنّنا لَمْ نجدْ مِثلَهُ
مَلاذى به ، ومُثولِى لَدَيْهِ ، ومَيْلى إليه ، ومَدْحى لَهُ

ومِثلُ هذا قولُ الآخر :

كتبتُ وشِيناتُ حالِى غَلَبْن إلى سيِّدٍ جَلَّ عن مُشْبِهِ
فشَوْقى إليه ، وشكرِى له وشِعرى فيه ، وشُغْلِى بِهِ

وكتبتُ إلى بعض الأصحاب :

كتبتُ لمولًى نأتْ دارُهُ وسيناتُ حالىَ وقفٌ لَدَيْهِ
فسوْقى إليه ، سُمُوّى به ، سؤالِىَ عنـه ، سلامِى عَلَيْهِ

وكتبتُ أيضا :

كتبتُ وَدالاتُ حالى كما تَراها إلى سيِّدٍ لم أخُنْهُ
دُعائى وَدَمْعى ودَأْبى ودا ئى ، له وعليهِ وفيه ومنْهُ

وما أحسنَ قولَ الباخَرْزِىّ :

سَقَى اللهُ مالِين من قريةٍ غماماً نَداهُ عن المَحْلِ ينهَى
فأُنسِى وحِرصى ومِلْكى ومالى بهـا وعليها وفيها ومِنْهَا

وقال الحريرىّ فى مقاماته(١) :

فَهَذِهِ قِصَّتِى وَقِصَّتُهُ فانظُرْ إلينا وبيننا ولَنَا

---

(١) مقامات الحريرى ٧٤ « من المقامة الثامنة » .

٣ــ وقوله : مَنْ أَبْقَاهُ اللهُ مَاضِيَ حَدِّ العَزْمِ ، وارِيَ زَنْدِ الأَمَلِ ، ثَابِتَ عَهْدِ النِّعْمَةِ .

ماضى حدّ العَزم ، أى حادّ العزيمة ، والماضى : السّيف النافذُ فى الضّريبة . والعَزْم : الصريمة، قال الله تعالى : ﴿ولَمْ نجدْ لَهُ عَزماً﴾ (١) ، وعزَمتُ على الأمر أعزِم عَزْما وعُزْمانا ــ بضم العين ــ وعزيمةً وعزيماً ، إذا أردتَ فعلَه .

وَارِي زَنْدِ الأَمَل ، ورَى الزندُ إذا خرجتْ نارُه وقتَ الأقتِدَاح . والزَّنْد : المقدَحَة . وَالأَمَل : الرّجاء .

وَثابت عهدِ النِّعمة ، الثابتُ المتمكِّن الموثّق ، والعهدُ : الأمان واليمين ، والموثق والذِّمّة والحِفاظ .

والنِّعمة : تأنيث النّعيم ، وهو ضدّ الشّقاء ، ومعناه : والذى أبقاه الله وعزمُه ماضِى الحدّ ، وأملُه وارِى الزّند ، ونعمتُه ثابتةُ العهد ، فهذه الجُمَل واقعةٌ موقعَ الحال ، وفيها ثلاثُ أستعارات ، وهى : المضاء لحدّ العَزْم ، كأنّه لا يَعزِم على شىء إلاّ أمضاه ونفَذَ فيه حدُّه . ووريّ زَنْد الأَمَل كأنه لا يؤمّل شيئاً ، إلاّ وهو يرى نوره . وثبات عهد النعمة ، أى لا تغيّرُ له ذمّة نعمة ، بل هى محفوظةٌ أبدا عليه .

قال الصولىّ (٢) : أخذ الكتّاب قولهم فى الدّعاء : « وأتمّ نِعمتَه عليك ، وزادَها » من قولِ عَدِيّ بن الرِّقاع :

صلّى الإله على أمرئٍ ودّعته ... وأتمّ نعمتَه عليه وزادَها (٣)

---

(١) سورة طه ١١٥ .

(٢) هو محمد بن يحى الصولى فى كتابه أدب الكتاب ص ١٧٤ .

(٣) الشعر والشعراء ٦٠٢ ، وروايته : « صلى المليك » .

حضر أعرابىٌّ وَليمةً ، فرأى نِعْمة ، فقال : النِّعَم ثلاث : نعمة فى حالِ كونِها نعمةٌ ، ونعمةٌ تُرجَى مستقبَلة ، ونعمةٌ تأتى غيرَ محتَسبَة ، فأدامَ اللهُ لك ما أنتَ فيه ، وحقّق ظنّك فيما ترجوه ، وتفضّل عليك بما لا تحتسبه .

وذكرتُ بقوله : « ماضىَ حدِّ العَزْم » ، قولَ ابن التّعاويذى يمدح بعضَ أولادِ صلاح الدّين :

وأبقَ صافِي ثوب النّعيم قريرَ الـ ... ـعَيْن نَضْرَ الجناب، صافِي الوُرودِ
بينَ عَزْم ماض ، وحُكْم مُطاعٍ ... ومُرادٍ دانٍ ، وعَيشٍ رَغيدِ

* * *

٤ــ وقوله : إنْ سَلبْتَنى أعزّكَ اللهُ لِباسَ إنعامِك ، وَعطّلْتَنى من حُلِيّ إيناسِك .

الاستلاب : الاختلاس . واللِّباس : ما يُوارِى الجسد . والإنعام : المِنّة واليَد ، وما أُنعِم به عليك .

والتّعطيل : خُلوّ جِيد المرأةِ من القَلائد ، يقال : امرأةٌ مِعْطالٌ ، إذا كانت عارِيةً من الحلِىّ ، والحُلِىُّ[1] : ما تتحلَّى به المرأةُ من خاتَمٍ وسِوارٍ وقِلادة .

والإيناس : مصدرُ الأنس ، وهو ضدُّ الوَحْشة ؛ يقول : إن أخذْتَ منّى ، واختلَسْتَ ما كان لكَ علىَّ مِن لباسِ الإنعام ، وتركْتَنى عاطِلاً من حُلِىّ أُنسِك بى ، وأنسِى بك وهو الأوْلَى .

وقد استعار الاستلاب اللّباس ، والعطلَ للحُلِىّ ، وهى استعارةٌ حسَنة ، كأنّ إنعامَه كان له بمنزلة اللّباس ، فارتجَعه وسَلَبه ، وكأنّ إيناسَه له كان

---

(١) الحُلى جمع حلى ، بفتح الحاء وسكون اللام .

بمنزلة الحليّ له ، فعطلّه منه ، وترك جيده بلا قلادة عارياً من حليّ الأنس .

وما أحسنَ قولَ أبي بكر أحمد الصنوبري :

وإنْ أبدلتَنى بالسهـ ـلِ من أخلاقِكَ الوعْرَا

وَعَادَ الحلْوُ من وُدِّ كَ لِي فيما مضَى مُرَّا

إذا ما زِدْتُكَ الآنَ وَفاءً زِدْتَنى غَدْرا

فما تَسمَع لِي قولاً وما تَقْبَلُ لِي عُذْرَا

ومالِى فيكَ إلاّ الصبْـ ـرُ، ساءَ الدهرأو سَرَّا[1]

٥ — قوله : وَأظمَأْتَني إلى بَرُودِ إسعافِك ، وَنفَضْتَ بى كفّ حِيَاطَتِك .

الظمأ : العطش ، والبرود : الشيء البارد ، وقال الشاعر :

* بَرُودُ الثنايَا واضِحُ الثَّغْرِ أشنَبُ *

والإسعاف : الإنجاد والإغاثة ، والنفض : الطرْح ، والحِياطة : الإحاطة بالشيء ، وهو الاستيلاء على جميع نواحيه .

يقول : وأعطشتَنى الى برود إغاثتك لى وإنجادى ، وطرحتَنى من كفّ حَوْزِك .

وقد استعار الظمأ — وهو شدّة العطش — إلى برد الإسعاف ، ونَفْض الكفّ من الإحاطة به وَالحوزَةِ له ؛ وذلك فى غاية الحُسْن .

---

(١) ط : « ساء الوقت » .

٦ – وقوله: وَغضَضْتَ عَنّى طَرْفَ حِمَايتِك .

تقول العرب : غَضّ طرْفَه ، أى خفَضه ، والطّرْف هو البَصَر . والحِماية : الوِقاية . يقول : وغضَضْتَ طرفَ حمايتِك عنّى ، فتركتَنى غَرَضاً لصائباتِ الحوادث .

وقد أستعار الطَّرْفَ للحماية ، لمّا كان الّذى يَحميك ويَقيك كأنّه ناظرٌ إليك يحفَظُك من كلّ ما يَهُمُّك أمرُه ؛ لا جرَم أنّه حَسُن أستعمالُ الغضّ هنا لطَرْف الحِماية ، وهى أستعارةٌ حَسَنة .

وقد أخَذ أبنُ زَيْدونَ يعدِّد على أبنِ جَهْوَر ما عامله به من الجَفْوة ، وكان يكفيه أن يقول : إنْ سلبتَنى لِباس إنعامك بعدَ أن نَظَر الأعمى إلى تأميلى لك ، ولكنّه وفّى المقامَ حقَّه من تَعدادِ ما وَجَده منه ؛ مِن سَلْبِه لباسَ إنعامِه ، وتعطيلِهِ من حُلِىّ إيناسِه ، وإظمائه إلى بَرودِ إسْعافِه ، ونَفْضِ كفِّ الحِياطة ، وغَضِّ طرفِ الحِماية . . . ولا شكّ أن تَعدادَ الظُّلامات أبلَغ وأجلَب للرحمة ، وأدَلّ على التّوجّع ، وهذا كقول الشاعر :

قال لى : كيف أنتَ! قلتُ: عليلُ ... سهرٌ دائمٌ وحُزنٌ طويلُ[1]

وكقول الحماسىّ :

أسِجْناً وقَيْداً وأشتياقاً وغُربةً ... وَنأيَ حبيبٍ ! إنّ ذا لَعظيمُ[2]

وإنّ أمرأً تَبقَى مواثيقُ عهدِهِ ... على مِثلِ مالاقَيتُه لَكريمُ

وكقول الآخَر :

(١) معاهد التنصيص ١ : ١٠١ ، من غير نسبة .

(٢) ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقى ١٣١٥ ، ونسبه إلى بعض الأعراب .

ولقد أردتُ الصَّبْرَ عنك فعاقَنِي ... عَلَقٌ بِقلبي من هَواكَ قديمُ
يبقى على حَدَثِ الزّمان وَرَيْبِهِ ... وعلى جفائك ، إنّهُ لكريمُ

وقول ابن القيّم :

ضاع سَعْيِي وخبتُ ، خابتْ أعادِيـ ... ـكَ ، ومن يبتغى لكَ الأسْواء !
واحتملتُ الحرمانَ والنّقصَ والإبْـ ... ـعادَ والذُّلّ والجَوَى والجَفاء
وتحمّلتُ واصطبرتُ فلمْ يُبْـ ... ـقِ على عُودِيَ الزّمانُ لِحَاء[1]
أعَلَى هــــذه المصيبةِ صبْرٌ ... لا ؛ ولو كنتُ صَخرةً صَمّاء !

ومما قلتُ أنا :

يا لَقومِي سألتُكمْ خبّرُونى : ... هكذا كلُّ مَنْ أحبّ حَبِيبَهْ !
سَقَمٌ زائدٌ ، ودَمعٌ وسُهْدٌ ، ... ولحا عاذلى تمامُ المصيبَهْ[2]

٧ – وقوله : بَعْدَ أنْ نَظَرَ الأعمى إلى تأمِيلي لك .

يقول : فعلتَ بي ما تقدّم من سَلْب لِباسِ إنعامك ، وما بعدَه من الجُمَل المعطوفة ، بعد ما نَظَر الأعْمَى إلى تأمِيلِي لك – وهذه مُبالَغة زائدة ؛ وهو أن التأميلَ أمرٌ معنوىّ لا تُشاهِدُه العين – وأنا كنتُ مبالغاً فيما أمّلْتُه منك ورجوتُه ، حتّى رآه الأعمى من شدّة اتّصافى وتلبُّسى به . وهذه مبالَغةٌ عظمَى فى هذا المعنى ، وهو يشيرُ إلى قول أبى الطيّب :

أنا الّذي نَظَرَ الأعْمَى إلى أدَبِي ... وأسمعتْ كَلِماتِي مَن بهِ صَمَمُ[3]

---

(١) ط : « رجاء » .
(٢) يقال لحا الرجل ، يلحاه لحاء ؛ أى لامه ، ولحاهنا مقصور لحاء .
(٣) ديوانه ٣ : ٣٦٧ .

وهذا من قصيدته التى يقول فى أولها :

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمّن قلبُهُ شَبِمُ   وَمَنْ بِجِسْمِى وحالى عِنْدَه سَقَمُ

وقَفَ القاضى ناصرُ الدّين شافع بن علىّ ـ رحمه الله تعالَى ـ على شىء من نَظْم الشيخ شرفِ الدّين محمد بن الوحيد ـ رحمه الله تعالى ـ فكَتَب إليه :

أرَانا يَراعُ ابْن الوحيدِ بدائعاً   تشوق بِما قدأبهجته من الطّرقِ

بها فاتَ كلّ الناس سَبْقاً ، فحبّذا   يَمِينٌ له قدأحرَزَتْ قصبَ السّبْقِ

فقال ابْنُ الوحيد يمدحُه ويشكُره :

يا شافِعاً شَفَع العَلْيا بحِكْمَتِهِ   فسادَ مَن راحَ ذا عِلْمٍ وذا حَسَبِ

بانتْ زِيادةُ حَظى بالسّماع له

وكان يَحْكيه فى الأوضاعِ والنّسَبِ

فجاءنى منه مدحٌ صِيغَ من ذَهَبٍ   مُرَصّعاً ، بل أتى أبهى من الذّهَبِ

فكِدْت أُنشِد لولا نُورُ باطنِهِ :   أنا الّذى نَظَر الأعمى إلى أدَبى

فلمّا بلغت الأبياتُ شافِعاً انحرَفَ وتأذّى ، فقال :

نعمْ نظرتُ ولكنْ لم أجدْ أدَباً   يامَن غَدا واحداً فى قِلّة الأدَبِ

جازَيْتَ مدحى وتقريظى بمَعْيَرَةٍ

والعيبُ فى الرأس دونَ العيْب فى الذّنَبِ

وزدْت فى الفخر حتّى قلتَ مُنتَسِباً   بحظّكَ اليابس المرْئىّ كالحطَبِ

بانت زيادةُ حَظّى فى السّماعِ له   وكان يحْكيه فى الأوضاعِ والنّسبِ

كذبتَ واللهِ إن أرضاه فى عُمُرى   يابن الوحيدِ، وكم صنّفت من كَذِبِ

جازيتَ دُرّى ـ وقدنضّدْتُه كلِماً   يَروقُ سمعَ الورَى ـ دُرّاً بمخشلَبِ

وما فهمتَ مُرادى فى المديح ولو   فهمته لم توجّهه إلى الأدَبِ

سأتبع القافَ إذ جاوَبْتَ مفتخراً بالزّاى ياغافلاً عن ثَوْرة الغضبِ
خالَفتَ وَزْنِى عَجْزاً والرَّوِىَّ معاً وذاكَ أقبحُ مايُروَى عن العرَبِ

قلتُ : ابنُ الوحيدَ – رحمه الله تعالى – معذورٌ فى العُدُول عن الوزن والقافية ؛ لأنّه ما كان يجدُ فى ذلك الوَزْن والقافية ، مِثلَ قول أبى الطيّب :

* أنا الّذى نَظَرَ الأعمى إلى أدَبى *

وكان ناصرُ الدين شافع فى ذلك الوقت قد أُضِرّ ، وقد احترَز ابن الوحيد فى قوله : « لولا نُورُ باطنِه » احترازاً جيّدا ، ولكن ما أفاده ذلك شيئا ، مع تسرُّع ناصر الدين شافع ، رحمهما الله تعالى .

وقد قال المعرّى لمّا لهجَ بشعر أبى الطيِّب ، وعَكَف عليه قاتله الله ! كأنه يَرانىَ الآن حتى قال :

* أنَا الّذى نَظَرَ الأعْمَى إلَى أدَبِى *

* * *

٨ – وقوله : وسَمِعَ الأصَمُّ ثنائى عَلَيْكَ ، وَأَحَسَّ الجمادُ بإسْنادِى إليْكَ .

الأصمّ : الّذى لا يَسْمَع شيئاً .

وأحَسّ : من الإحساس ، وهو الإدْراك بالحواسّ الخَمْس .

وَالجماد : كلّ ما ليس يُدْرِك مِثل الحجَر والتّراب وغيره ، وفى اللّغة : الجَماد : الأرض الّتى لم يُصبها مطر ، وناقةٌ جماد ، لا لَبَن فيها .

والإسْناد فى الحديث : أنْ يَرْفعه إلى قائله ، وهذا ممّا تقدّم فى المبالَغة . يقول : فعلتَ بى كلّ ذلك بعد ما نظر الأعْمَى إلى تأميلى لك ، وسَمِع الأصمّ – وهو الذى لا سَمْع له – ثنائِى الّذى كنتُ أثْنِيه عليك ، وأحسّ الجماد الّذى لا إدراكَ لهولا إحساس برَفع الحديثِ إليك ؛ وهذه غايةٌ فى المبالَغة ، وطبقة

عُلْياً في البلاغة ، وهو أن يُثْنِيَ عليه إلى أن يسمَعَه الأصمّ ، ويُسند إليه حتى يَحِسّ الجمادُ بذلك .

وقد جاء في بعض النُّسَخ : « وقد أحسّ الجمادُ باستحمادى لك » ، والاستحماد : استفعال ، من الحَمْد ، وهو معلوم مما تقدّم ، وما أحسنَ قولَ ابنِ الساعاتى :

في مِثْلِها نَظَرَ الأعمى فلا بَرِحَتْ ... صُبْحى وأَسمعَ حتّى مَن به صَمَمُ
أثنى بِها كلُّ شىء بعد عُجْمَتِهِ ... فكلُّ ما ضَمَّ صَدْرَ الخافقَيْنِ فَمُ

* * *

٩ — وقوله : فَلَا غَرْوَ قد يَغَصُّ بالمَاءِ شَارِبُه ، ويَقْتل الدَّوَاءُ المستَشْفَى بِهِ .

هذه الفاء جوابُ الشّرط في قوله أوّلَ الرسالة : « إنْ سَلَبْتَنى . . . » وما بَعده من الجُمَل ، بعد ما نَظَر الأعمَى الى تأميلى لك . فلا غَرْوَ ، أى فلا بِدْعَ ولا عَجَبَ قد يَغَصُّ بالماء شارِبُهُ . وهذه « قد » التى تَدْخُل على الجُمَل للتقليل مثل : قد يكْبُو الجواد ، وقد يَنبو الحُسام ، وقد يَصدُق الكَذُوب ، وقد يَبخَل الجواد .

جاء في كلام ابنِ المعتزّ رحمه الله تعالى : ربّما شَرِق شاربُ الماء قبلَ رِيِّهِ .

وقال الشاعر :

مَن غَصّ داوَى بشُرْبِ الماءِ غُصّتَهُ ... فكيفَ يَصنَع من قد غَصّ بالماء !

وقال الآخر :

إلى الماء يَسعَى مَن يَغَصُّ بأَكْلَةٍ ... فقُلْ : أينَ يَسعَى من يَغَصّ بماء !

وقال عَدِىّ بنُ زَيْد العِبَادِىّ :

لو بغيرِ الماءِ حَلْقِى شَرِقٌ   كنتُ كالغَصَّانِ بالماءِ اعتصارِى[1]

وقال الآخر :

كنتُ مِن محنَتِى أَفِرُّ إليهمْ   فهمُ مِحْنَتِى ، فأين الفِرارُ !

وقال الآخر :

فكيفَ يُجيزُ غُصَّتَنا بشىءٍ   ونحنُ نَغَصُّ بالماءِ الشَّرُوبِ !

ومن هذه المادّة قولُ الآخَر :

على أىِّ بابٍ أطلُب الإِذْنَ بعدَما   حُجِبتُ عن الباب الّذى أنا حاجِبُهْ

وقال أبو فِراس الحَمْدانىّ :

قد كنتَ عُدَّتِىَ التى أسطُو بها   ويَدِى إذا اشتدّ الزمانُ وساعِدِى[2]

فرُمِيتُ منكَ بغيرِ ما أمَّلتُهُ   والمرءُ يَشرَق بالزُّلالِ البارِدِ

وقال الفرزدق لمعاوية من أبيات :

فلو كان هذا الحكمُ فى غيرِ مُلكِكم   لبُؤْتُ به ، أو غَصَّ بالماءِ شارِبُهْ[3]

وقال أبو إسحاق الغزِّىّ :

مصاحَبةُ المُنى خَطَرٌ وجَهْلٌ   وكم شَرَقٍ تَوَلَّدَ من زُلالِ

وما أحسنَ قولَ ابنِ سَناءِ المُلْك :

وإنِّى لأحْصَر مِن ذِكْرِه   فإنِّى إلى كَبِدِى أصْطَلِى

وإنِّى لأذْكُر منه الرُّضابَ   فأَشْرَق بالبارِدِ السَّلْسَل

---

(١) الأغانى ٢ : ١٥ .

(٢) ديوانه ٦١ « طبعة بيروت » .

(٣) ديوانه ٤٩ ، وروايته : « فلو كان هذا الأمر » .

وقال ابن حَيّوس:

عَفَى الكُرَماء صانوا ماءَ وَجْهِى ... بما بَذَلوه عَنْ ذُلِّ السؤالِ

وها أنا بعدَهُمْ فى الناس أبقى ... كريماً يُشترى شكرى بمالِ

أرى الأكدار يَشْرَقُ شاربُوها ... فوَاشَرَقِى من الماء الزُّلالِ!

وقال آخر:

إنى لأذكُركم وقد بَلَغ الظما ... منّى فأشرَقُ بالزُّلال البارِدِ

وأقولُ ليتَ أحبّتى عايَنْتُهُمْ ... قبلَ المماتِ ولو بيَوْمٍ واحدِ

وقال ابنُ سَناء المُلْك:

أموتُ غَرَاماً حينَ أُحرَم وَصْلَ مَن ... هَويتُ وأحْيا فَرحةً حين أرزقُ

وإنَّ الفتى يحْيا بما قد يُميتُه ... فبالماء يَحْيا وهو بالماء يَشْرَقُ

وما أحسنَ قَول ابن الساعاتى يَمدَح المَلِكَ المؤيَّدَ نجمَ الدّين بن صلاح الدين رحمهما الله تعالى:

مَن ليسَ يَشْرَقُ بالسؤا ... لِ ولا يَغَصُّ من المَلامَهْ

وقال البحترىّ:

تداويتُ مِن لَيلَى بلَيلَى فما اشتَفَى ... بماء الرُّبا من باتَ بالماء يَشرَقُ[(١)]

أصل المعنى قول قيسُ بنُ ذَرِيح[(٢)]، إذ يقول:

تداوَيتُ من لَيلى بلَيلَى من الهَوَى ... كما يتداوَى شاربُ الخَمْرِ بالخَمْرِ

فقصّر عنه، وقد أخذ أصلَ المعنى من قول الأعشى:

وكأسٍ شَرِبتُ على لَذّةٍ ... وأُخرَى تَداويتُ منها بِها[(٣)]

---

(١) ديوانه ٢: ١٢٨

(٢) ط: «قيس بن زهير»، وهو خطأ. والبيت فى ديوانه ٩٥.

(٣) فى الأصول: «قيس بن ذريح»، وهو خطأ، والبيت فى ديوانه الأعشى ١٧٣.

وهذا البيت فى الذِّروة ، وما جاء بعده فهو دونه فيما يقول ، وقد أخذه أبو نُواس فأحسن :

دعْ عنكَ لَوْمِي فإنّ اللّومَ إغراء   وداوِني بالّتى كانتْ هى الدّاء

وفى المَثَل : من فسَدتْ بِطانَتُه كان كمَن غَصّ بالماء ؛ وهذا من كلام أكثر بن صَيْفى ؛ لأنّ الغاصّ بالطعام يرجع إلى الماء ، وإذا كان الماءهو الذى أغصّه فلا حيلةَ له ، فكذلك بطانةُ الرجل وأهلُه إذا خانوه فسد حالُه .

وفى المَثَل أيضا : « يا ماءُ لو بِغَيْرِكَ غصصتُ ! » .

وقوله : « ويقتلُ الدواءُ المستشفَى به » ، كان أبو الطاهر إسماعيلُ بنُ المنصور بن القاسم بن المهدىّ صاحب إفريقيّة ، أحد الخلفاء الفاطميّين ، اعتلّ علّةً طويلة ، ولمّا أراد دخول الحَمّام فى المنصوريّة نهاه طبيبُه إسحاق بن سليمان الإسرائيلىّ ، فلم يَقْبَل منه ، ودخل الحمّام ففنيت الحرارةُ الغريزيّة ، فلازَمَه السّهر ، فأقبل إسحاقُ فعالَجَه ، ففنيتْ الحرارةُ الغريزيّة ، ولازَمَه السّهَر ، فأقبلَ إسحاق يعالجه ؛ وسهرُه باقٍ على حالته ، فاشتدّ ذلك على المنصور ، وقال لبعض خدَمه : أما بالقَيْروانِ طَبيبٌ يخلِّصنى من هذا ؟ فقالوا : هاهنا شابٌّ قد نشأ يقال له : إبراهيم ، فأمرَ بإحضاره ، فلمّا حضر عرّفه حالَه ، وشكا إليه ما به ، فجَمَع له شيئا ينوِّمه ، وجُعِل فى قِنِّينةٍ على النار ، وكلّفه شمّ ذلك ، فلمّا أدْمَن شمّها نام ، فخرج إبراهيمُ مسروراً بما فعل ، وحضر إسحاق ، فقالوا : إنّه نائم ، فقال : إن كان صُنِع له شىء ينام به فقد مات ، فدخلوا عليه فوجَدوه ميّتا ، فأرادوا قَتْل إبراهيم ، فقال إسحاق : ماله ذَنْب ، وقد داواه بما ذكَرَه الأطباء ، ولكنّه جَهِلَ أصلَ المرَضِ وما عرّفتموه ذلك ، وإنِّى كنتُ أعالجه وأنظر فى تَقْوِيَة الحراره الغريزيّةِ ، وبها يكون النّوْم ، فلمّا عُولِجَ بما أطفأها ، علمتُ أنّه مات .

١٠ — وقوله : ويُؤْتَى الحَذِرُ من مأْمَنِه ، وتكونُ منيَّةُ المتمنّى في أمْنِيَّتِه .

يُؤتَى : فعل مبنىٌّ لما لم يُسَمَّ فاعلُه ، من الإتيان وهو المَجِىء ، أتيتُ إلى فلان أى جئتَ إليه . الحَذِر : اسمُ فاعل من الحَذَر ، وهو التحذّر . والمأمَن : المكان الّذى يَحصُل فيه الأَمْن ، وهو الطُّمأنينة . والمنيّة : الموت . والمتمنِّى : اسمُ فاعلٍ من التّمنّى ، وهو التّرجِّى . والأمنيّة ، واحدة الامانىّ .

وقوله : « ويُؤتَى الحَذِر من مأمَنِه » معناه[1] في القرآن العظيم ، وهو قوله تعالى : ﴿ حتّى إذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً ﴾[2] .

قال أبو العتاهِيَة :

وقد يَهلِكُ الإنسانُ من بابِ أَمْنِهِ ... وينجُو بإذنِ اللهِ مِنْ حيثُ يحذَرُ[3]

وما أحسنَ قولَ الجزّار من أبيات :

وحقِّكَ مالىَ مِن قدرةٍ ... على كَشْفِ ضُرٍّ إذا مَسَّنِى
فكمْ أخذَتْنِى عيونُ الظّبا ... ءِ بعدَ الإنابة من مَأْمَنِى

وقال الشريف الرّضىّ :

يقولون رُمْ تَلْقَ الّذى أنتَ طالبٌ ... فإنَّ العَوائِقَ دونَهُ والمَهالِكُ[4]
وكم ساعٍ جرَّ حَتْفًا لنفسِه ... ولولا الخُطا ما شاكَ ذا الرجلِ شائكُ

وقول ابن سَناء المُلْك يَمدَح المَلكَ الناصرَ ويذكُر الفرنْج :

---

(١) ساقطة من ط .
(٢) سورة الأنعام ٤٤ .
(٣) ديوانه ١٠٢ .
(٤) ديوانه ٢ : ٥٩٦ . والعواق مثل العوائق ، يقال : عاقنى وعقانى .

والمليكَ العظيمَ فيهم أسيرًا مستضامًا فاجعلْ له الغارَ سجنًا
يحسبُ النومَ يقظةً ويظنُّ الشخصَ طودًا أو يبصرُ الشمسَ دجنا
كم تمنّى اللقاءَ حتى رآهُ فتمنّى لو أنّه ما تمنّى

وقال ابن الخيّاط الدِّمَشْقيّ :

رأيتُكَ لمّا شِمْتُ بَرْقَكَ خُلَّبًا وما أَرَبِي في عارضٍ ليسَ يُمطِرُ!(١)
فأخطأَني منكَ الذي كنتُ أرتجي وأدركَني منكَ الذي كنتُ أحذرُ

وقال أبو الحسين أحمدُ بنُ فارس :

اسمعْ مقالةَ ناصحٍ جمعَ النصيحةَ والمِقَهْ
إيّاكَ واحذرْ أنْ تكو نَ من الثِّقاتِ على ثِقَهْ

وقال يوسف بن عليّ الأَستراباذيّ :

ومازلتَ في عيني كَرًى فتصرّفَتْ صُروفُ الليالي فانقلبتَ لها قَذَى
وخُنْتَ ومأمولي وفاؤُكَ ضِلّةً ومِنْ مأمَنِ الإنسانِ يفجؤُهُ الأذى

* * *

لمّا قُتِل المقتدر ، واختلفت الآراء فيمن يقوم بعده خليفة ، قال مؤنس المظفر(٢) : هذا محمّد(٣) بن أحمد المعتضد ، رجل سما للخلافة ، فهو أولى ممّن لم يَسْمُ . فأحضر القاهر بالله ، وبُويع يومَ الخميس لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلثمائة ، واستقبّ الأمر للقاهر ، وكان أوّل من قتله القاهرُ مؤنسًا المذكور .

ولمّا غلَب إدريسُ بنُ عبدِ الله بنِ الحسَن بن الحسن بن عليّ بنِ

---

(١) ديوانه ١٢٣ .

(٢) مؤنس المظفر ، أمير الجيوش على عهد المقتدر . (٣) هو المعروف بالقاهر .

أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ على المغرب ، بلغ ذلك الهادىَ ، فدسّ إليه الشمّاخَ اليمانى مولى المهدىّ ، فدخل المغربَ وأظهرَ أنّه طبيب ، فأحضره إدريسُ وأقامَ عنده ، وأنِسَ به ، فشكا إليه مرضاً فى أسنانه ، فأعطاه سَنُوناً[1] مَسْمومة ، وقال له : إذا طلع الفجرُ فاستنّ[2] به ، وهرَب الشمّاخ من وَقْته . فلما طلع الفجر استنّ به ، وجعل يردّده فى فيه ، فسقَط فوه ومات ، وطُلِب الشمّاخ فلم يُقدَر عليه .

وهـذا إدريسُ ، هو أبو الأدارسة خُلفاءِ المغرب ، وقام من ذريّة إدريسَ جماعةٌ . وقيل : إنّ الّذى دسّ إليه الشمّاخَ ، إنّما هو هارون الرشيد .

يقال : إنّه مرّ قوم[3] بماء من مياه العَرَب ، فوصِف لهم ثلاثُ أخَواتٍ بالجمال مطيِّبات[4] ، فأحبّوا أن يرَوْهنّ ، فحكّوا ساقَ أحدهم بعُود حتّى أدمَوه ، ثمّ أتوهُنّ ، وقالوا : هذا سَليم[5] ، فهل من راقٍ ؟ فخرجت صغراهنّ منهنّ كأنها الشمسُ طالعةً ، فرأته ، فقالت : ليس بسَليم ، ولكن خَدَشه عُودٌ باتَت عليه حيّة ، إذا طلعتْ عليه الشمسُ مات ، فكان كما قالت .

ومن شِعر الحافظ أبي بكر أحمدَ بنِ علىّ خطيبِ بغداد ، والمراد هنا البيتُ الثالث :

لا تَغْبِطنّ أخا الدّنيا بزُخْرُفها ... ولا بلذّةِ وقتٍ عجّلتْ فَرَحا[6]

فالدّهرُ أسرعُ شىء فى تقلّبِهِ ... وفِعلهُ بيّنٌ للخلْق قد وَضَحا

كم شاربٍ عَسَلاً فيهِ مَنيّتُه ... وكم تقلّدَ سيفاً مَن به ذُبِحا

---

(١) السنون : ما يستاك به .
(٢) استنّ : استاك .
(٣) ط : «جماعه» .
(٤) ط : «مستطابات» ، تصحيف .
(٥) السليم : اللديغ ؛ سمى بذلك على التفاؤل بسلامته .
(٦) معجم الأدباء ٣ : ٢٥ .

ذُكر عند المتوكل أمرُ السيوف ، فقال بعضُ مَن حضر : يا أمير المؤمنين ، وقع عندَ رجلٍ من أهل البَصرة سيف من الهند ، ليس له نظير . فكتب يَطلُبه من البَصره ، فاشتراه بعشرةِ آلافِ درهم ، وسُرّ المتوكّل به سروراً كثيراً ، وقال للفتْح [بن خاقان] : اطلبْ لى غلاما تثق بنجْدته وشجاعته ، وادفعْ إليه هذا السيف ليكونَ واقفاً به على رأسى فى كلّ يوم ما كنتُ جالساً . فلم يتمّ المتوكّل حتى دخل باغر التركىّ ، فدعا به المتوكّل ، ودفع إليه السيفَ ، وأمرَه بما أراده منه ، وزاد مرتبتَه .

قال البُحتُريّ : فوالله ما انقضاه باغرٌ ولا سَلّه إلاّ فى قتلة المتوكّل ، على ما هو مشهورٌ فى واقعته مع المتوكل .

ولمّا وُلّىَ سالم بن حامد دِمَشق للمتوكّل ظلم وعَسف ، وكان بدِمشق جماعة من العرب لهم قوّة ومَنَعة ، فقتلوه فى يوم جُمُعة على باب الخضراء ، فغضِب المتوكّل ، وقال : من يكون للشّام ، وليكن فى صَوْلة الحجّاج ؟ فقال أفرِيدُون التركىّ : أنا لها يا أميرَ المؤمنين ، فأمرَه ، وجهّزه إليها فى سبعة آلافِ فارس ، وأطلَقَ له القتلَ والنَّهبَ ثلاثةَ أيام ، فجاء ونزل بيت لهيا ، ولمّا أصبحَ قال : يادِمَشق ، أيْشٍ يحلّ بكِ اليوم منّى ! وقُدِّمتْ له بغلةٌ دَهْماء ليَركبها ، فلمّا وضع رِجله فى الرِّكاب ضربته بالزوج فى صَدْره ، فسقط ميّتا . وقبرُه معروفٌ بها ، وذلك فى حدود الأربعين ومائتين .

وكان السلطان ألبا أرسلان محمد بن جعفر بك المدعُوّ عضد الدولة وأبو شجاع السّلْجُوقىّ ، قد أتَوْه يوما بوالي قَلْعة يُدعَى يوسفَ الخُوارَزْمىّ ، فأمرَ أن تُضرَب له أربعةُ أوْتاد ، وشدّ أطرافه إليها ، فقال يوسف : يامخنّث ، مِثْلى يُقتَل هكذا ! فقال السلطان : خلُّوه ، وأخذَ القوسَ ورماه ثلاثَ فردات نُشّاب فأخطأه فيها — ولم يكن يخطىء له سَهْم — فأسرع يوسفُ إليه وضَرَبه

بسكّين كانت معه فى خاصِرَته ، فلحق يوسفُ بعضُ الخدم فقتله أيضاً ، وحُمِل السلطان وهو مُثقل ، فقضى نَحْبَه .

وهذا المَلِكُ الأمجد بَهْرام شاه بن فرُّخشاه ، صاحب بَعْلَبَكّ ، أخذ الأشرفُ منه بَعْلَبَكّ ، وسلّمها إلى أخيه الصالح ، فقَدِم إلى دمشقَ وأقامَ بها ، وكان له غلام مليح أذْنَبَ ذنْبا فضَرَبه ، وأمر بحَبْسه فى خِزانةٍ عندَه فى مكانه الذى يجلس فيه ، وجلس ليلةً يَلْهو بالنَّرْد ، فولَع الغلامُ بِرَزَّة[1] الباب ، ففَكّها ، وخرج إلى الأمجد فقتله وهَرَب ، فرَمَى بنفسه من السّطح فمات .

وهذا الملك الأشرف خليل بن الملك المنصور قلاوون ، كان يحبّ مملوكه الأمير سيف الدين بُيدار ، ويَثِق به حتّى جعَلَه نائبَ مصرَ ؛ وثوقا به ، أوّل من ضَرَبه بالسيف وهو فى بُرْجه يصطاد كُرْكِيًّا ، وجاء من بعده حسام الدين الأخير فكمّل قتله .

وهذا الأمير سيف الدين تنكز قرّب الأمير سيف الدين قومش وأدناه وزاد وثوقه به[2] ، فكان أوّل مَنْ عمِل عليه ، واتّفق مع طازجات الداودار على إمساكه .

وكان الزّكىّ عبد الرحمن بن وَهْب القوصىّ قد استوزَرَه المَلِك المظفّر صاحب حَماةَ ، قبلَ أن يحصُل له مُلكُ حماة وما انضافَ إليها ، ووعَدَه إذا ملكها أعطاه ألفَ دينار ، فأنشَده قصيدة منها :

متى أراكَ كما تَهْوَى وأنتَ كما ... أهوَى على رغمِهم رُوحَيْن فى بَدَنِ

هُناكَ أُنشِدُ والآمالُ حاضِرةٌ : ... هُنِّئتَ بالمُلكِ والأحبابِ والوَطَنِ

---

(١) الرزة : حديدة يدخل فيها القفل .

(٢) ط : « وثوقاً به » .

فلمّا مَلَكَ حماة أنشدَه :

مولاىَ هذا المُلكُ قد نلتَه برغمِ مخلوقٍ من الخالقِ
والدهرُ مُنقادٌ لمـــا شئتَه وذا أوانُ المَوعِدِ الصادقِ

فدفعَ إليه ألفَ دينار ، وأقام معه مدّة ، ولزمتْه أسفارٌ أنفق فيها المالَ الذى أعطاه ، ولم يَحصُل بيَدِهِ زيادةٌ على ذلك ، فقال :

ذاك الذى أعطَوْهُ لى جُمْلَةً قد استرَدّوه قليلاً قليلْ
فليتَ لمَ يُعطوا ولم يأْخُذوا وَحَسْبِيَ اللهُ ونعمَ الوكيلْ

فبلغ ذلك المظفرَ ، فأخرجَه من دارٍ كانَ قد أنزَلَه بها ، فقال :

أتُخرِجُنى من كِسْرِ بيتٍ مهدَّمٍ ولى فيكَ مِن حُسن الثناء بيوتُ
فإن عشتُ لم أعدَمْ مكاناً يضمّنى وأنت ستدرى ذِكرَ من سيَموتُ

فحبَسَه المظفرُ ، فقال : ما ذَنْبى إليك ؟ فقال : « وَحَسْبِيَ اللهُ ونعم الوكيل » ، وأمر بخَنْقه ، فلما تيقّنَ ذلك قال :

أعطيتَنى الألفَ تعظيماً وتكرِمةً ياليتَ شعرىَ أم أعطيتَنى دِيَتى!

وقال الأحنف بنُ قَيْس فى بعض خُطَبه : من أمِنَ الزمانَ خانَه ؛ ومن تَعظّم عليه أهانَه .

وقال أصرَم بنُ حُمَيد :

أسْرفْتَ فى سوءِ الصَّنيعِ وفتَكْتَ بى فَتْكَ الخَليعِ[1]
وولِعْتَ بى متهزِّئاً والعُذْر فى طرف الوَلُوعِ
صيّرتُ حبّك شافعاً فأتيتُ من قِبَل الشفيعِ

وقال المعتصم بنُ صمادح[2] :

وزهّدَنى فى النّاس معرِفَتى بهمْ وطولُ اختبارى صاحباً بعدَ صاحبِ

---

(١) نهاية الأدب ١ : ١٣٤

(٢) المعتصم بن صمادح ، أحد ملوك الأندلس، والأبيات فى طراز المجالس للخفاجى ٢٤٢ .

فلم تُرِنى الأيّامُ خِلاّ تَسرُّنى مَبادِيه إلاّ ساءَنى فى العَواقِبِ
ولا قلتُ أرجوه لدَفعِ مُلِمّةٍ من الدّهرِ إلاّ كان إحدى النوائبِ

خَطَبَ عُتبةُ بنُ أبى سُفْيانَ الناسَ بالمَوْسم سنة إحدى وأربعين ، وعَهدُ الناسِ حديثٌ بالفتنة ، فاستفتح ثم قال : أيها الناس ، قد ولينا هذا الأمر الذى يضاعَف فيه للمحسنِ حُسنُ الأجرِ ، وعلى المسىء الوِزْر ، فلا تَمُدُّوا الأعناقَ إلى غيرنا ؛ فإنّها تنقطع دوننا ، ورُبَّ متمنٍ حَتْفُه فى أمنيّته .

وما أحسنَ قولَ أبى محمّد عبدِالله بنِ محمّد الخفاجىّ رحمه الله :

وكم طالبٍ أمرا وفيه حِمامُهُ وسائرةٍ تَمشى الى ما يَقبُرُها

وكان المؤمّل بن أميل بن أسيد المحاربىّ يَهوَى امرأةً من أهلِ الحِيرة يقال لها هند ، وفيها يقول قصيدتَه المشهورة ، وأوّلها :

شَفَّ المؤمَّلَ يومَ الحيرة النَّظر ليتَ المؤمّل لم يُخلَق له نَظَرُ[1]

ونام فرأى فى منامه رجلا أدخلَ إصبعَه فى عينيه ، وقال : هذا ما تمنيتَ ؛ فأصبح وهو أعمى .

ومن قول الحكَماء : الأمانىُّ تَخدَعُك ، وعند الحقائق تدَعُك .

وقال بكرُ بنُ النَّطاح :

وكم ترحةٍ لم أحتَسِبْها لَقيتُها وكم فرحةٍ جاءت على غيرِ مَوعِدِ

وقال أميةُ بن أبى الصلت المغربىّ :

تجرِى الأمورُ على حكم القضاء وفى طَىِّ الحوادث محبوبٌ ومكروهُ
فربّما سرّنى مابِتُّ أحذَرُه وربّما ساءنى مابِتُّ أرجُوه

---

(١) معجم الشعراء ٢٩٨ .

١١ — قوله : والحَيْنُ قَدْ يَسْبِقُ جُهْدَ الحَرِيصِ

الحَيْن : الموت . والحِرْص : الجَشَع ، يقال : قد حَرَص على الشيء يحرِص بالكسر، فهو حريص، وهذا نصفُ بيتٍ من أبياتِ لعَدِيّ بن زَيدالعِبَادِيّ، وهو :

قد يُدرِكُ المُبطِىء من حَظِّهِ   والحَيْنُ قد يَسْبِقُ جُهْدَ الحَرِيصْ (١)

وقال :

وقد تَدْنو المَقاصِدُ والأماني   فتعترِض الحوادثُ والمنونُ

وهو كقول القُطامِيّ :

قد يُدرِكُ المتأنّي بعضَ حاجتِهِ   وقد يكون مع المستعجِلِ الزَّلَلُ

وسمعه أعرابيّ فقال : هذا يثبّط الناس ، هلاّ قال بعد هذا :

وربّما ضرَّ بعضَ الناس بُطؤهمُ   وكان خيراً لهمْ لو أنّهمْ عَجِلوا

وعَكَس بشّارُ بنُ بُرْد قول القطاميّ فقال :

من راقبَ الناسَ لم يَظْفَرْ بحاجَتِه   وفازَ بالطيِّباتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ (٢)

واختصره سَلْمُ الخاسِرُ فَجَوّد ماشاء فقال :

من راقَبَ الناسَ ماتَ غَمّاً   وفازَ باللَّذةِ الجَسُورُ

ومما ضَرَبَت به العَرَبُ المَثَل ، في أنّ الحاجة تُطلَب فيحولُ دونها حائل، قولُهم : سَدَّ ابنُ بَيْضٍ الطَّرِيقَ .

قال أبو عبيد البَكْرِيّ : إن ابنَ بَيْض لمّا حضرته الوفاة قال لابنه :

---

(١) ديوانه . ٢ الإعجاز والإيجاز ١٥١ .

(٢) ديوانه ١ : ٧٥ .

لا تُقارِب لقمانَ فى أرضِه ، فسِرْ بأهلِكَ ومالِكَ حتّى إذا كنتَ بثنيَّةِ كذا فاقطعْها بأهلِكَ ومالكَ ، وضَعْ فيها لِلُقمانَ حقَّه ؛[1] فإنّ له عندنا فى كلِّ عامٍ حُلّةً وجاريةً وراحلةً ، فإن هو قَبِلَه فهو حقُّه عرفناه له ، لإجارته وخفارته ، وإن هو لم يقبله وبَغى ، أدركه اللهُ ببَغْيه[2] . ففعل الفتى ما أمره به أبوه . فأتى لقمان الثَّنيّةَ فأخذَ حقَّه وانصرف ، وقال : « سدَّ ابنُ بَيْضٍ الطَّريق »[3] .

وقال عمرو بنُ الأبرد فى ذلك[4] :

سَدَدْنا كما سدَّ ابْنُ بَيْضٍ سبيلَها　　فلم يَجدُوا عند الثَّنيّةِ مَطْلَعَا

* * *

١٢ — وقوله :

كلُّ المصائِبِ قد تَمُرُّ على الفتى　　فتَهونُ غيرَ شَماتةِ الحُسّادِ

المصائب : جمعُ مصيبة ، وهى ما يُصيبُ الإنسان من حوادث الدهر ونوازِلِه . والشماتة : التشفِّى . وهذا البيتُ من جملةِ أبياتٍ قالها عبد الله بنُ محمّد بن أبى عُيَيْنَة ، يعاتب ذا اليمينَيْن :

مَن مُبْلِغٌ عنّى الأميرَ رسالةً　　محصورةً عندى عن الإنشادِ[5]

كلُّ المصائب قد تمُرُّ على الفتى　　فتَهونُ غيرَ شماتة الحُسّادِ

وأظُنّ لى منها لديك خبيئةً　　ستكونُ عند الزّاد آخِرَ زادِ

مالى أرَى أمْرِى لديكَ كأنّهُ　　مِن ثقْلِه طَوْدٌ مِن الأطوادِ

---

(١) فصل المقال : « حظه » .

(٢) فصل المقال : « بنقمة » .

(٣) فصل المقال ٢٧٩ .　　(٤) لعمرو بن الأسود الطهوى ، اللسان — بيض

(٥) التمثيل والمحاضرة ٨ ، ونهاية الأدب ٣ : ٨ .

قيل لأيّوبَ عليه السلام : أىّ شىء كان فى بلائك أشدّ عليك ؟ قال : شماتةُ الأعْداء . وفى المَثَل : الشماتَةُ لؤْم ، أوّل من قالَه أكْثم بنُ صَيْفِىّ ، أى لا يَفرح بنَكْبة الإنسان إلاّ من لَؤُم أصْلُه .

وقال آخر :

إذا ما الدّهرُ جرّ على أناسٍ كَلاكِلَه أنَاخَ بآخَرِينا[٢]
فقُلْ للشامِتِين بنا أفِيقوا سَيَلْقَى الشامِتون كما لَقِينا

وقد جاءت الشّماتة فى القرآن فى مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إنّكَ أنتَ العَزِيزُ الكَرِيم ﴾[٣] ، فقوْلُه : ﴿ ذُقْ ﴾ شماتة ، وقوله ﴿ إنّك أنتَ العزيزُ الكريم ﴾ ، تهكّمٌ . وقولُه تعالى : ﴿ الآنَ وقد عَصَيْتَ قبلُ وكنتَ من المفسِدِين ﴾[٤] ، فعلى هذا الشّماتة[٥] من أنواع البديع . ومن الشّماتة قولُ الشاعر :

إلى النّارِ ياوَلَدَ الزّانِيَهْ وهذا الهُوِىُّ إلى الهاوِيَهْ
وَقَعْتَ فيابَرْدَها فى القُلو بِ ويالَيْتَها كانت القاضِيَهْ

ولابن الرّومى أبياتٌ فى الشّماتة ، وقد بالَغَ فيها :

لازالَ يومُك عِبْرَةً لِغَدِكْ وبكتْ بِشَجْوٍ عَيْنُ ذى حَسَدِكْ
فلئِنْ بكيتَ فطالَما بُكِيَتْ بكَ هِمّةٌ لجأتْ إلى سَنَدِكْ
لو تَسجُدُ الأيّامُ ما سَجَدتْ إلاّ ليوم فُتّ فى عَضُدِكْ
يا نِعمةً ولّت غَضارتُها ما كان أقبحَ حُسنَها بيَدِكْ
فلقد بَدتْ بَرْداً على كَبِدى لمّا غدتْ حَرّى على كَبِدِكْ
ورأيتُ نُعمى اللهِ زائدةً لمّا استبانَ النّقص فى عَدَدِكْ

---

(١) ذو اليمينين ، هو طاهر بن الحسين ، وانظر سبب التسمية فى المضاف والمنسوب ٢٩١
(٢) للفرزدق ، ديوان الحماسة بشرح المرزوقى ٢٩١ .
(٣) سورة الدخان ٤٩ . (٤) سورة يونس ٩١ .
(٥) انظر بديع القرآن لابن أبى الإصبع ٢٨٢ .

ولمّا أُمسك ناصرُ الدّين محمّد بن عبد الرحمن المعروف بابن المَقدِسىّ وواقعتُه مشهورة، ورُسم عليه بالمدراوية، وذاق الهوان، وكان قد آذى الناس، ومنهم: سيف الدين السامرىّ، كان قد أخذ منه الزنبقيّة، فمضى السامرىّ إليه وتقدّم له متشفِّيا، فقال له ناصر الدين المَقدِسىّ: سألتُك بالله ألاّ تعود تجىء إلىّ! فقال السامرىّ: هو يصير لى، ونَظَم القصيدةَ الّتى منها:

وردَ البشيرُ بما أقرّ الأعيُنا فشَفَى الصدورَ وبلّغَ الناسَ المُنَى
إنْ أنكَرَ اللّصُّ العظيمُ فِعالَهُ بالمسلمين فأوّلُ القتلَى أنا

وقال أبو تمّام الطائىّ:

أجرٌ ولكن قد نظرتُ فلَمْ أجِدْ أجراً يفِى بشماتةِ الأعداءِ(1)

ويُنسب إلى المَلِك الأمجد:

لَم يَبقَ إلا نفَسٌ خافِتٌ ومُقلةٌ إنسانُها باهِت
ومُدْنَفٌ تُضرَم أحشاؤه بالنّار إلاّ أنّه ساكتُ
رَقّ له الشامتُ ممّا به يا وَيْحَ من يَرثِى له الشّامِتُ!

ومن شعر جَحْظَة البرمكىّ:

ظَفِر القلبُ بحبٍّ دَنِفٍ فيك والسُّقم بجسمٍ ناحِلِ
فهُمَا بينَ اكتئابٍ وضنًى تركانى كالقضيبِ الذّابِلِ
فبكَى العاذلُ لى من رحمةٍ فبُكائى من بكاءِ العاذِلِ

وقال عُمارة اليمنىّ:

فعندها أطرقتُ من خَجْلَةٍ تَصْبِغُ خَدَّ الأَمَلِ النّاصِلِ
وكانَ من أصعَبِ ما مرّ بى شماتَةُ الحاسِدِ والجاهِلِ

وقال أبو فِراس بن حَمْدان:

لِمَن جاهدَ الحسّادَ أجرُ المجاهدِ وأعجبُ ما حاولتَ إرضاءُ حاسدِ(2)

---

(1) ديوانه ١ : ٢
(2) ديوانه ٨١

ولم أرَ مِثلي اليومَ أكثرَ حاسداً كأنَّ قلوبَ الناسِ لي قلبُ واحدِ
أرى الفِلَّ من تحت النِّفاقِ فأجتني من العسَلِ الماذيِّ سُمَّ الأساودِ

وقال سيف الدين بن المشدّ:

لم يُبْقِ منّي الحبُّ إلا ضنًى يخفى عن الزائرِ والعائدِ!
قد رقَّ لي الحاسدُ ممّا أرى واخجلتا مِن رقّةِ الحاسدِ!

وقال الأرّجانيّ:

تطلّعت في يومَيْ رخاءٍ وشدّةٍ وناديْتُ في الأحياء هل من مُساعِدِ![1]
فلَم أرَ فيما ساءني غيرَ شامتٍ ولم أرَ فيما سرَّني غيرَ حاسدِ

* * *

١٣ — وقوله:

وإني لأتجلّد، وأرى الشامتين أني لِرَيْبِ الدّهر لا أتضعضع.

أتجلّد: أتفعّل، من الجَلَد، وهو الصلابة، والتجلّد: تكلُّف الثبات والصبر وعَدِمِ المُبالاة بالأمر الّذي يَنزِلُ بالرجل، وهو صعْب يشُقّ احتمالُه.

و «الشامِتِين»: جمعُ شامِت، وهو اسمُ فاعلٍ من الشّماتة، وهي الفرَحُ ببليّة العدوّ والتشفّي به.

وأَتَضَعْضَعُ: أَتَفعّل، من الضَّعْضَعة، وهي الهدْم والخراب.

وأمّا التجلّد والصبر، فمِن أعظم صبرٍ وقَع لامرأةٍ ما كان من أم سُلَيم امرأة أبي طَلْحة الأنصاريّ، وهو أنّ ابنَها مَرِض وماتَ في صبيحته في المَخدَع، فقامت، فهيّأتْ لأبي طلحة فُطوره كما كانت تهيِّئه له في كلّ ليلة، فدَخل أبوطلحة فقال: كيف الصبيّ؟ فقالت: بأحسنِ حالٍ؛ نحمَدُ الله! ثمّ قامت إلى

---

(١) ديوانه ٨٦

مايقوم إليه النّساء ، فأصاب أبو طلحة أهلَه ، فلمّا كان في السَّحَر قالت : يا أبا طلحة ، ألم تَرَ إلى آل فلانٍ استعارُوا عاريَّةً فتمتّعوا بها ، فلمّا طُلِبت منهم شقّ عليهم ! قال : ما أنصَفُوا ، قالت : إنّ ابنَكَ كان عاريّة من الله وإنّ الله قَبَضَه ، فاسترْجَع ، ثمّ غدا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقال له : يا أبا طَلْحة ، باركَ اللهُ لكما في ليلتِكما .

* * *

وكلامُ ابنِ زيدونَ رحمه الله تعالى محلول من قولِ أبي ذُؤَيْب الهُذَليّ ، من قصيدته التي رثى بها أولادَه فقال :

وتَجلُّدِي للشامِتِين أُرِيهِمُ … أنّي لِرَيْبِ الدّهرِ لا أتَضَعْضَعُ

وأولها :

أمِنَ المَنونِ ورَيْبِها تَتَوَجَّعُ … والدّهرُ ليسَ بمُعْتِبٍ مَن يَجْزَعُ

ومنها يَذكُر أولادَه :

ولقد حَرَصْتُ بأنْ أدافعَ عنهمُ … وإذا المنيّةُ أقبلَتْ لا تُدفَعُ

وإذا المنيّة أنشَبَتْ أظفارَها … ألفيْتَ كلّ تَميمةٍ لا تَنْفَعُ

فالعَيْنُ بعدَهُمُ كأنّ حِداقَها … كُحِلَت بشَوْكٍ فهي عُورٌ تَدْمَعُ (١)

حتّى كأنّي للحوادثِ مَرْوَةٌ … بصَفَا المشقّرِ كلّ يومٍ تُقْرَعُ (٢)

وتَجلُّدِي للشامِتِين أُرِيهِمُ … أنّي لرَيْبِ الدهرِ لا أتضعضَعُ

والنفسُ راغبةٌ إذا رَغَّبْتَها … وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ

ولمّا ثَقِل (٤) معاويةُ رضيَ الله عنه في المَرَض الّذي مات فيه ، دخل عليه الحسنُ بنُ عليّ رضي الله عنهما يعودُه ، فاستوَى جالساً وقال :

---

(١) الحداق : جمع حدقة.

(٢) المروة : حجر أبيض براق تقتدح منه النار . والمشقر سوق بالطائف

(٣) ديوانه الهذليين ١ : ١ .   (٤) ثقل ، كفرح : اشتد مرضه .

* وتجلدي للشامتين أريهم *

فقام الحسن بن علي رضي الله عنه وهو يقول :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

وقيل : لما ثقل في علته التي مات فيها ، أن يكحل ويبرق وجهه ، ويدخل الناس إليه ليسلموا عليه قياما ، فلما خرج الناس تمثل معاوية :

* وتجلدي للشامتين أريهم *

وقال لابنتيه في علته هذه وهما تقلبانه : إنكما لتقلبان حولا قلبا ، جمع المال من شب إلى دب[1] ، إن لم يدخل النار ؛ وتمثل بقوله :

لقد سعيت لكم من سعي ذي نصب ... وقد كفيتكم التطواف والرحلا

وقال في مرضه هذا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كساني قميصا فرفعته .

وقلم يوما أظفاره ، فأخذت ابنته قلامته فجعلتها في قارورة ، فقال : احفظيها ، فإذا مت فألبسوني القميص ، وقطعوا تلك القلامة وذروها في عيني وفي ، ثم تمثل :

إذا مت مات الجود وانقطع الندى ... من الناس إلا من قليل مصرد[2]
وردت أكف السائلين وأمسكوا ... من الدين والدنيا بخلف مجدد

فقالت إحدى بناته : يدفع الله عنك ، فقال :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

وذكر المسعودي أن عمرو بن العاص لما قدم من مصر على معاوية أنشد معاوية :

---

(١) من شب إلى دب ، مثل ، أي من لدن شببت إلى أن دببت على العصا
(٢) المصرد من العطاء : القليل .

يموتُ الصّالحون وأنتَ حَيٌّ تخطَّاكَ المنايا لا تموتُ

فأجابه عمرو يقول:

أترجو أن أموتَ وأنتَ حيٌّ ولستُ بميّتٍ حتّى تموتْ!

* * *

وقال أبو ذُؤَيْبٍ أيضا:

وإنّي صَبَرْتُ النّفسَ بعدَ ابنِ عَنْبَسٍ وقد لجَّ من ماءِ الشُّئونِ لَجُوجُ (٢)

لأُحْسَبَ جَلْدًا أو لِيُنْبَأَ شامِتٌ وللشرِّ بعدَ القارعاتِ فُروجُ

وقد جوّد ابنُ الرّوميّ حيث قال:

أرى الصبرَ محمودا عليه مَذاهبٌ فكيفَ إذا ما لم يكنْ عنه مَذهَبُ

هناكَ يَحِقّ الصبرُ والصبرُ واجبٌ وما كان منه كالضّرورة أوجَبُ

فشدَّ امرؤٌ بالصّبر كفًّا فإنّه له عصمةٌ أسبابُها لا تُقَضَّبُ

هو المَهرَبُ المُنْجِي لمن أحدقتْ به مكارهُ دهرٍ ليس عنهنّ مَهرَبُ

لبوس جمالٍ جُنّةٌ من شماتةٍ شفاءُ أسًى يُثنَى به ويُثَوَّبُ

فيا عجبًا للشيء هذي خِلالُه وتاركُ ما فيه من الحظّ أعجَبُ

وقد يتظنّى الناسُ أنّ أُساهُمُ وصبرَهُمُ فيه طِباعٌ مُركَّبُ

وأنّهما ليسا كشيءٍ مصرّفٍ يصرّفه ذو نكبةٍ حين يُنكَبُ

فإن شاء أن يأسَى أطاعَ له الأسى وإن شاء صَبْرًا جاءه الصبرُ يُجلَبُ

وليس كما ظنّوهما بل كِلاهُما لكلٍّ لبيبٍ مستطاعٌ مسبَّبُ

يصرّفه المختارُ منّا فتارةً يُرادُ فيأبَى أو يُذادُ فيذهَبُ

إذا احتجّ محتجٌّ على النّفس لم يكدْ على قَدَرٍ يُمنَى لها يَتَعَتَّبُ

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٣٠ . (٢) ديوان الهذليين ١ : ٦١

(٣) ديوان ابن الرومي ، مخطوطة دار الكتب الورقة ٢٥

فساعدها الصبرُ الجميلُ فأقبلت ... إليها له طوعاً جنائبُ تجنبُ
وإن هو منّاها الأباطيلَ لم تزل ... تقاتل بالغيب القضاء فتغلبُ
فتضحي جزوعاً إن أصابت مصيبةٌ ... وتمسي هلوعاً إن تعذّر مطلبُ
فلا يعذرنّ التاركُ الصبرَ نفسه ... بأن قيل : إنّ الصبر لا يتكسّبُ

وقال الأمير تاج الدين الكلبيّ :

هيهات يؤلمني الزمان فأشتكي ... وهو الذي من سطوتي يتألمُ
وعزيمتي ما إن يُثلمُ غربها ... خطبٌ على أن الحديدَ يُثلمُ

وقال الأمير تميم بن المعزّ :

صبرتُ على الشكوى حياءً وعفةً ... وهل يشتكي لدغَ الأراقمِ أرقمُ!(١)
وبي كلُّ مايبكي العيونَ أقلّه ... وإن كنتُ منه دائماً أتبسّمُ

وما ألطفَ قولَ أبي الحسين الجزار :

أطيل شكاياتي إلى غيرِ راحمٍ ... وأهلُ الغنى لا يرحمون فقيرا
وأشكرُ عيشي الورى خوفَ شامتٍ ... كذا كلُّ نحسٍ لا يزالُ شكورا

وقال شرف الدين المبارك مستوفي إربل :

ألقى الخطوبَ إذا اشتدّت عريكتها ... بتيهِ رأيٍ كثير التيه مختالِ
مايفهمُ الدهرُ مني غيرَ معرفتي ... بأنه قطُّ مايبقى على حالِ

وقال أبو عامر بنُ الشهيد :

إنّ الكريم إذا نالته مخمصةٌ ... أبدى إلى الناس رِيًّا وهو ظمآنُ
يحني الضلوعَ على مثلِ اللظى حُرَقاً ... والوجهُ غمرٌ بماء البِشر ملآنُ

---

(١) ديوانه ٣٩٨

وما أحسنَ قولَ القاضي الفاضل :

لا تلنْ للخُطوب واصلُبْ فمن لا نَ توالَى عليه قَرْعُ الخطوبِ
إنَّ ضربَ الحديدِ ما كان إلاَّ حين أبْدَى لِيناً لحرِّ اللّهيبِ

وقال أبو بكر الخُوارزميّ :

عليكَ بإظهارِ التجلُّد للعِدَا ولا تُظْهِرَنْ منكَ الذبولَ فتُحْقَرَا
ألستَ ترَى الرَّيْحانَ يُشْمَمُ ناضراً ويُطْرَح في الميضا إذا ما تغيَّرَا !

وعلى كلّ حال فالعِلْم بالحاسد ، ولا رؤْية الشامِت ، قال الشاعر :

لا ماتَ حُسَّادُكَ بلْ خُلِّدوا حَتّى يَرَوا منك الّذى يكمدُ
ولا خَلاكَ الدّهر منْ حاسدٍ فإنّ خيرَ الناسِ مَن يُحْسَدُ

وما أحسن قول القاضي ناصح الدين ، وقد تقدّم :

ولمّا بلوْتُ النّاسَ أطلبُ عندَهُمْ أخاثقةٍ عند اعتراضِ الشّدائدِ
تطلّعتُ في يومَيْ رَخاء وشِدّةٍ وناديتُ في الأحياء : هل من مُساعدِ ؟
فلمْ أرَ فيما ساءني غيرَ شامتٍ ولم أرَ فيما سرّني غيرَ حاسِدِ

* * *

١٤ — فأقول : هل أنا إلاّ يدٌ أدْماها سِوارُها ، وجَبينٌ عَضَّ به إكْليلهُ !

أدْماها : أجرَى دَمَها . والسِّوار : سوارُ المرأة ، وهو معروف .

والجبين : مافوق الصُّدْغ ، وهما جبينان عن يمينِ الجَبْهَةِ ويسارِها .

عَضَّ به ، والمراد عَضّه ، والعضّ معروف ، وإذا كان حقيقةً فهو إمّا بالأسنان ، ويُكتَب بالضاد المُعجَمة ، وإذا كان مجازًا مِثل عَظَّ الزّمانُ ، وعظّت الحربُ ، كُتِب بالظاء القائمة .

والإكليل : العِصابة للرأس تُكلَّل باللؤلؤ ، ويسمَّى التاجُ إكليلا ، ومعنى هذا أنه لمّا قال : أتجلّد وأُرِى الشامت[١] أنى لاأتضعضع لما نزل بى منك ، فأكابِر نفسى ، وأُرِيها الباطل حقّا ، قال : ما أنا إلاّ يدٌ أدماها سِوارُها الّذى تحلّت وتزيّنتْ به ، وجبينٌ عضّ به تاجُه الّذى وَضعه فوقَه ؛ ليتجمّل به ، ويتحلّى بجواهِره ، فما أَلومُ أحدًا فعل بى ذلك ؛ وهذا مأخوذٌ من قول أبى الطيّب :

بنو كعبٍ وما أثّرتَ فيهمْ ... يدٌ لَمْ يُدْمِها إلاّ السِّوارُ[٢]

بها من قطعِهِ ألمٌ ونَقصٌ ... وفيها من جلالتِهِ افتخارُ

[٣] وهذا من باب تحسين القبيح ؛ وهو أن يعتذر له بشىءٍ يعود قبحُه حسنًا كما[٣] اتفق للعزيز صاحب مصر ووزيره ابن كلّس[٤] ، لمّا تسابقا بالحمام ، فسبق حمامُ الوزيرِ ، فشقّ ذلك عليه ، وأراد الإيقاعَ به ، فكتب الوزيرُ إليه :

قلْ لأمير المؤمنين الّذى ... له العُلاَ والنسبُ الثاقبُ

طائرُك السابقُ لكنّه ... جاء وفِى خِدْمته حاجبُ

فسكَن غيظُ[٤] الخليفة . وكما قال الآخر لما احترق حَرمُ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم :

لم يَحْترِق حَرَمُ النبىّ لِريبةٍ ... تُخْشَى عليه ولا هُنالِكَ عارُ

لكنّما أيْدِى الرّوافِضِ لامَستْ ... ذاكَ الضّريحَ فطهّرتْه النارُ

وقال أبو الحسين الجزّارُ من أبياتٍ ، وقد ذكر حريقَ الحَرَم النبوىّ :

لِلّهِ فى النّار الّتى وقعَتْ به ... سِرٌّ عن العُقلاءِ لا تُخْفيهِ

أنْ ليس يبقى فى فِناه بقيّةٌ ... ممّا بَنَتْهُ بنو أُميّةَ فيـهِ

---

(١) ط : « الشامتين » .
(٢) ديوانه ٢ : ١١٢ .
(٣ ــ ٣) ساقط من ط .
(٤) هو أبو الفرج يعقوب بن يوسف . والخبر مع البيتين فى ترجمته ، فى ابن خلكان ٢ : ٣٣٥ .

وكما قال صَنّاجة الدَّوْح محمّد بن القاسم بن عاصم ، شاعرُ الحاكم :

بالحاكم العَدْل أضحَى الدِّين معتليًا ... نَجلَ العُلا وسَليل السادةِ الصُّلحَا[1]

مازُلزِلتْ مصرُ من كيدٍ يُرَادُ بها ... وإنّما رقصَتْ من عَدْلِه فرَحا

ولابن الأبّار مصنّف سمّاه : « قِطَع الرّياض ، فى بدع الأغراض » وكله جمعه من هذا الباب فى تحسين القبيح .

وقوله : « يَدٌ أدْماها سِوارُها » ، يُشْبِه قولَ الباخَرْزِىّ :

هىَ الآدابُ حَلْىٌ غيرَ أنِّى ... بِحِرْفَتِها اضطُرِرْتُ إلى الصَّغارِ

كذاكَ لِمِعْصَمِ الحَسْناءِ صَبْرٌ ... على ضِيق الخِناقِ من السِّوارِ

وقال ابن بابك :

لاصَبْرَ عنك ولوعَضّ السِّوارُ يَدِى ... وبِتُّ مرتفِقاً فى رَأْسِ غُمدانَا

كلاّ ولو هَزّ عرشُ المُلكِ ناصِيَتِى ... وصِرْتُ المِنبر الشرقىِّ دَيّانا

وقال الأحوَص من قصيدة :

فطلِّقْها فلستَ لها بكُفْءٍ ... وإلاّ عَضَّ مَفرِقكَ الحُسامُ[2]

* * *

١٥ ــ وقوله : وَمَشْرَفِىٌّ أَلصَقَهُ فى الأَرْضِ صَاقِلُه ، وسَمْهَرِىٌّ عَرَضَهُ عَلَى النَّارِ مُثَقِّفُهُ .

المَشْرَفِى ـ بفتح الميم والراء ، وتشديد اليـاء : السيف ، منسوبٌ إلى المَشارف ، وهى قُرًى من أرض العَرَب ، ولا يقال : سيفٌ مَشارِفِىّ ، لأنّ الجموع لا يُنسَب إليها إذا كانت على هذا الوزن ، لايقال : مَهالِبِىّ ، ولا جَعافِرِىّ ، ولا عَباقِرِىّ . وقد قيل : مدائنِىٌّ ، نسبةً إلى مدائن كِسْرَى ، لأنّ

---

(١) حسن المحاضرة ٢ : ١٩٩ (٢) من أبيات له فى الأغانى ١٥ : ٢٩٣ .

النِّسبةَ إلى مدينة رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم مَدَنىٌّ ، وإلى مدينة المَنصورة مدينىٌّ ، فقيل فى ذلك الفرق .

ألصَقَه فى الأرض : وضَعَه عليها .

والصاقِل : القَيْن الّذى يَجلو السّيوف من الصَّدأ .

والسَّمْهَرِىّ : الرّمح الصُّلْب ، وقيل : منسوبٌ إلى سَمْهَر ، وهو رجل كان يقوِّم الرِّماح .

مثقِّفه : مقوِّمُه ، والتثقيف : التقويم ، معناه : أنا سيفٌ وضَعَه على النّار من يَجلوه من الصَّدأ ، وإن كان محمله على الكَتف ، ورمحٌ عَرضَه على النّار مقوِّمه ؛ وذلك لمصلحةٍ تعودُ على السّيف والرمح ، فما أعدّ ذلك شيئاً غريباً .

قال الخفاجىّ :

ألامُ إذا ماناوَشَ الدّهرُ جانبى ... وأىّ حُسامٍ لا يحادَث بالصَّقْلِ ![1]

وما هــو فيما بيننا من صَنيعِه ... بمطّرِحٍ قَوْلى ولا جاهلٍ فعلِى

وقال أبو إسحاقَ الغزّىّ :

صَقلْتُ العُلا بالمَكْرُماتِ وإنّما ... يَنِمّ بأسرارِ السّيوف الصّياقِلُ

وقال أبو تمّام الطائىّ :

وما السَّيْفُ إلاّ زُبْرةٌ لو تركته ... على الحالةِ الأولَى لمَا كان يقطعُ[2]

وقال أبو فِراس بن حَمْدان :

ولئن بقيتُ فإنّنى ... غَيْظُ العِدَا طِفلاً وكَهْلا[3]

ما كنتُ إلاّ السّيف أخْـ ... ـلَصَهُ القُيونُ فزادَ صَقْلا

يفْـرِى رءوسَ عِـداته ... ويَشُلّهمْ بالضّربِ شَلاّ

ولئنْ هلَكتُ فإنّما ... موتُ الكرامِ الصِّيدِ قَتْلا

(١) ديوانه ٣٨ (مخطوطة دار الكتب رقم ٥١٠ ـ أدب) ، وهو عبد الله بن سعيد المعروف بأبى محمد الخفاجى . والتحادث هنا : جلاء السيف .

(٢) ديوانه ٢ : ٣٣٤ . والزبرة : القطعة من الحديد . (٣) ديوانه ٢٢٩ .

وقال شهاب الدين الخيمي لمّا تولّى تفاشف عذابَ ابن الزُّبَير :

لأُبن الزُّبيرِ مكارمٌ أضحتْ بها ... طيرُ المَدائحِ فى البـلادِ تُغرِّدُ

إن قيّدوه وبالقُوا فى عَصْرِهِ ... فالـكَرْم يُعصَر والجوادُ يُقيّدُ

وقال الأمير أبو المنيع قراوش :

لله دَرُّ النـائباتِ فإنّهـا ... صَدَأُ اللّئام وَصَيْقَلُ الأحرارِ

ما كنتُ إلاّ زُبرةً فطبَعْنَنِي ... سيفاً وأطلق صرفهنّ غِراري

وقال ابن السّاعاتى :

وما أبيَضَّ وجهُ الخائضِ الحربَ فى الوَغى ... بصارِمِهِ لولا سَـــوادُ القساطلِ

يزيدُ النُّضار الطَّلقُ بالنّار رِفعَةً ... وَيذهَب بالتثقيف زَيْغُ العَواملِ

كذاكَ سُيوفُ الهِنْدِ يَركَبُها الصَّدا ... فتُكسِبُها حُسْناً أكُفُّ الصَّياقِلِ

وقال أبو الفتيان بن حَيُّوس فأحسَن :

أَرَى كلَّ معوجٍّ المَوَدَّةِ يُصطفَى ... لديكمْ ، وَيلقَى حَتْفَهُ من تَقَوَّمَا[١]

حَنَى النَّاسُ من قبلُ القِسِيَّ لتُقتَنَى ... وثُقِّفَ مـادُ القنا ليُحَطَّما

وقال ابنُ سَناءِ المُلك :

حَارَبتُ هـذا الدَّهر لـ ... ـكِنْ ماوجَدتُ عليه نَصْرَا

من أَجلِ حَرْبى قد أُعِـدّ ... وقد أُحِـدّ شَبـاً وَظُفْرَا

والقــوسُ يُحنَى وَالمُهنّـــدُ ... يُنتَضى والسّهمُ يُبرى

وقال علىُّ بنُ الجَهْم لمّا حُبِس :

والبدرُ يُدرِكه السِّرارُ فتَنْجَلي ... أيّامُـــــه فكأنّه متجدِّدُ[٢]

---

(١) ديوانه ٥٩٨ .

(٢) ديوانه ٤٢ .

والغيثُ يحصره الغمامُ فما يُرَى ... إلاّ وريقُه يُراحُ ويرعدُ[(١)]

والزّاعبيّةُ لا يُقيم كُعوبَها ... إلاّ الثّقافُ وجذوةٌ تتوقّدُ[(٢)]

والنارُ فى أحجارها مخبوءةٌ ... لا تُصطلَى إن لم تُثِرْها الأزندُ

والحبسُ، ما لم تغشَهُ لدنيّةٍ ... شنعاءَ نعمَ المنزلِ المتوردُ

وقال القاضى أبو الفتح نصر بن سيّار الهرمزىّ السّهرُودىّ:

عزاءكَ إن حُبِسْتَ فليس عَيباً ... فتِلكَ الرّاحُ تُحبَسُ فى الدِّنانِ

وهذا الوَرْدُ قد يَزْدادُ طِيباً ... إذا حبسَتْه أطرافُ البَنانِ

وَضَرْبُكَ إن ضُرِبْتَ فليس عاراً ... كما قد يُضرَبُ السيفُ اليمانِى

ومِثلُكَ مَن تُعانِدُهُ اللّيالى ... وتُجْمَعُ نحوَه نُوَبُ الزّمانِ

وقال آخر:

لئن صُرِفْتَ ـ وحاشا ... كَ ـ فالدّنانيرُ تُصرَفْ

وما اُعتقِلتَ كريماً ... إلاّ وأنتَ مثقّفْ

وقال سيف الدين بن قزل المشدّ:

أنتَ الحُسام إذا ما هاجَ مُعتَرَكٌ ... والرُّمحُ أنتَ إذا ماضاقتِ السُّبُلُ

فلا تُبالِ بأمرٍ جاءَ عن قَدَرٍ ... فالسَّيفُ يُضرَبُ والخطّىُّ يُعتَقَلُ

وقال الباخَرْزِىّ صاحب الدُّمْية:

أبا عاصمٍ كُن عاصِمًا لابنِ مِحنَةٍ ... أبَتْ نكَباتُ الدّهرِ إلاّ ثِقافَهُ

صَبُورٌ على عَضِّ الثِّقافِ وما القَنا ... بمعتدلٍ ما لم تُحسِّنْ ثِقافَهُ

هو الخادِرُ المُلقِى بأرضِكَ رَحْلَهُ ... فإنْ زُرْتَهُ بدّلْتَ بالخاءِ قافَهُ

وقال إبراهيم بنُ المدبِّر، وقد حُبِس:

ألسْتِ ترَيْنَ الخمرَ يَظهَرُ حسنُها ... وبهجتُها بالحَبْسِ فى الطين والقارِ

---

(١) ريق كل شىء: أوله.

(٢) الزاعبية: رماح منسوبة إلى رجل من الخزرج اسمه زاعب كان يعمل الأسنة.

وما أنا إلاّ كالجَـوادِ يَصـونه ... مقوِّمُه للسَّبق فى طىِّ مضمارِ
أو الدُّرَّةِ الزَّهراء فى قَعرِ لُجّةٍ ... فلا تُجتلَى إلاّ بهَوْلٍ وأخطارِ
فلا تُنـكِرى طُولَ المُداراةِ للعِدَا ... فإنّ نهـايات الأُمورِ لإقصارِ
لعلَّ وراءَ الغَيْبِ أمراً يَسُرّنا ... يقدِّرُه فى علمِه الخالقُ البـارِى

* * *

١٦ ـــ وقوله : وَعَبْدٌ ذَهَبَ به سيِّدُه مذهبَ الّذى يَقُول :

فقسا ليزْدَجِرُوا ومَنْ يَكُ حازِماً ... فَلْيَقْسُ أحْيَاناً على مَنْ يرْحَمُ

ليزدَجِروا : ليَفْتَعِلوا من الازدِجار ، وهو الزَّجْرُ ، والزجر هو المَنع ، يقال : زَجرَه فازدَجر وانْزَجرَ .

والحَزْم : ضبْطُ الرَّجل أمرَه ، والأخذُ فيه بالثِّقة ، ومعناه : وأَعُدُّ نفسى عَبْداً ذَهَب به سيِّدُه فيما فعل به مَذْهَبَ الّذى قال هذا البيت ؛ لأنّه يريد بذلك صلاحه وتأديبه ، فهو مع رحمته له قد قسا عليه حتّى يتأدب ، ولم يك من شأنه القَسْوة .

وهذا البيت يقوله أبو تمام من قصيدةٍ مَدَح بها مالكَ بنَ طَوْق ، وأوّلها :

أرْضٌ مصرَّدَةٌ وأُخرَى تُثْجَمُ ... تلك الّتى رُزِقَتْ وهذى تُحرَمُ[1]

يقول منها فى المديح :

ما هذه القُرْبى الّتى لا تُصْطَفَى ... ما هذه الرَّحِمُ الّتى لا تُرْحَمُ !
حَسَدُ القَرابةِ للقرابة قَرْحةٌ ... أعْيَتْ عوانِدُها وجُرحٌ أقدَمُ[2]

---

(١) ديوانه ٣ : ١٩٥ . ومصرده . يقطع شجرها . وتثجم : تمطر على الدوام .
(٢) عواند : جمع عاند ، من قولهم : عند العرق ، إذا سال ولم يرقأ .

تلكم قريشٌ لم تكن آراؤها ... تَهْفو ولا أحلامُها تُتَقَسَّمُ
حتى إذا بُعِثَ النبيُّ محمدٌ ... فيهم غَدَتْ شَحْناؤهم تتضرَّمُ
عَزَبَتْ عقولُهُمُ وما مِنْ مَعْشَرٍ ... إلاَّ وهُمْ منها أَلَبُّ وأحزَمُ(١)
لمّا أقام الوَحْيُ بينَ ظهورِهِمْ ... ورأَوا رسولَ الله أحمدَ منهمُ
ومن الحَزَامَةِ لو تكون حَزامةٌ ... ألاَّ يؤخَّر من به يُتقدَّمُ(٢)
إنْ تَذهبوا عن مالِكٍ أو تَجْهلوا ... نُعْمَاهُ فالرَّحِمِ القَرِيبة تَعْلَمُ
هي تلكَ مُشكاةٌ لَكُمْ لو تشتكي ، ... مظلومةٌ لو أنّهـا تتظلَّمُ(٣)
كانت لكمْ أخلاقُه مَعْسولَةً ... فتركْتُموها وهي مِلْحٌ عَلْقَمُ
حتّى إذا أَجِنَتْ لكمْ داوَتْكُمُ ... من دائكم ، إنّ الثقافَ يُقوِّمُ(٤)
فقَسا ليَزْدَجِروا ومَن يَكُ حازماً ... فلْيَقْسُ أَحْيَاناً على مَن يَرْحَمُ
وأخافَكُمْ كي تَغْمِدوا أسيافَكمْ ... إن الدّم المُغْتَرّ يحرسُه الدّمُ(٥)

ومن مادّة هذا البيت الّذي هو الرّسالة ، قولُ أبي تمّام الطائيّ أيضاً :

يا شامِتاً بي إذْ رَأَى ... هَجْرَ الحبيبِ وَصَدَّهُ(٦)
لا تَشْمَتَنَّ فإنّهُ ... مَوْلًى يؤدِّبُ عَبْدَهُ

ومن هذا قول مَهْيار :

ما كنتُ أعلمُ ما مِقْدارُ وصلِكُمُ ... حتّى هَجَرْتُمْ ، وبعضُ الهجْرِ تأديبُ(٧)

---

(١) ألب : أعقل ؛ وأحزم : أضبط .
(٢) الحزامة : حسن الرأي . والنطف : القذر .
(٣) مشكاة ، اسم مفعول من الشكاية .
(٤) أجنت : تغيرت . والثقاف : آلة تقوم الرماح .
(٥) تغمدوا : تستروا . المغتر : المضطرب .
(٦) ديوانه ٤٣٧ (بيروت)
(٧) ديوانه ١ : ٢٤

وهو مأخوذٌ من قول أبي تمّام :

وليس يَعرِفُ كُنْهَ الوصل صاحبُه حتّى يُفادَى بنأيٍ أو بِهِجْرانِ [1]

وقال أبو العلاء :

فاضرِبْ وَلِيدَكَ تأديباً على رَشَدٍ ولا تَقُلْ هو طِفْلٌ غيرُ مُحتلمِ [2]

فرُبّ شَقٍّ برأسٍ جَرَّ مَنْفَعَةً وقِسْ على شَقِّ رأسِ السّهمِ والقلمِ

وقال ابن خَفاجةَ الأندلُسيُّ في هذا المعنى :

نَبِّهْ وَلِيدَكَ مِنْ صِباه بزَجْرةٍ فلرُبّما أعفى هناك بُكاؤُهُ

وانْهَرهُ حتى تَسْتَهِلَّ دُموعُهُ في وجنَتَيْهِ وتَلْتَظِي أحشاؤُهُ

فالسَّيفُ لا تذكو بكفِّكَ نارُهُ حتّى يسيلَ بصَفْحَتَيْهِ ماؤُهُ

وقال عليّ بنُ الجَهْم :

ليس عندي وإنْ تغضَّبْتَ إلاّ طاعةٌ حُرّةٌ وقلبٌ سليمُ

وانتظارُ الرِّضا فإنَّ رضا السَّا داتِ عِزٌّ وعَتْبُهُمْ تقويمُ

* * *

١٧ — وقوله : هَذَا العَتْبُ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ ..

العواقب : جمع عاقبة ، وهي آخِرُ كلّ شيء ؛ يشير بذلك إلى قول أبي الطيّب :

لعلَّ عَتْبَكَ محمودٌ عواقِبُه وربّما صحّت الأجسامُ بالعِلَلِ

وهذا من قصيدتِهِ الّتي مَدَحَ بها سيفَ الدّولة بن حمْدان ، وكان في نفسِ سيفِ الدّولة بقيّةٌ من مَوْجِدةٍ عليه ، وأوّل هذه القصيدة :

أجابَ دَمْعي وما الدّاعي سِوَى طَلَلٍ دَعَا فلبّاه قبلَ الرَّكْبِ والإبلِ [3]

ومنها :

يا أيّها المحسنُ المشكورُ مِنْ جهتي والشُّكرُ مِن قِبَلِ الإحْسَانِ لا قِبَلِي

---

(١) ديوانه ٣ : ٣١٠ (٢) اللزوميات ٢ : ٢٦١

(٣) ديوانه ٣ : ٨٤ .

ما كان نَوْمِي إلاّ فوقَ معرفتي بأنَّ رأيَكَ لا يأتِي من الزَّلَلِ
أقِلْ أنِلْ أقْطِعِ احْمِلْ عَلِّ سَلِّ أعِدْ زِدْ هَشِّ بَشِّ تفضّل أدْنِ سُرَّ صِلِ
لعلَّ عَتْبَكَ محمودٌ عواقِبُه ورُبَّما صحَّتِ الأجسامُ بالعِلَلِ

ورواه بعضهم : « طرائقه » .

وما أحسنَ قولَ السِّرَاجِ الورّاق ، ومن خطّه نقلت :

وقائلٍ قال لى لمّا رأى قَلَقِي لِطُولِ وَعْدٍ وآمالٍ تمنِّينا
عَواقبُ الصّبرِ فيما قال أكثرُهُمْ محمودةٌ قلتُ أخشى أن تخزِّينا

وقال ابنُ الخيّاط الدِّمشقيّ :

وما كلُّ مسلوبِ الرُّقادِ مُعارُه ولا كلُّ مسلوب الفؤاد مُفادَاه[1]
يرى الصبرَ محمودَ العواقب معشرٌ وما كلُّ صبرٍ يحمد المرءُ عُقباهُ

وقال سيف الدين عليّ بن قزل المشدّ :

صبرتُ على مُرِّ هِجرانِكُمْ وعاتبتُ قلبيَ ثم ارعوى
فأصبح جِسْمِيَ في صِحَّةٍ وعُوفيتُ مِن ضُرِّ داءِ الجَوَى
وعاقبةُ الصّبرِ محمودةٌ لِمَنْ يتداوى به في الهَوَى

وما أحسنَ قولَ بعضِ الشّعراء :

لعلّ سبًّا يُفيدُ حُبًّا والشرّ للخيرِ قد يجرُّ

* * *

١٨ — وقوله : وهذه النَّبْوَة غَمْرَةٌ ثم تنجلي ، وهذه النَّكبة سحابة صَيْفٍ عن قليلٍ تَقَشَّعُ .

النّبْوة : تأنيث نبو ، وهو مصدرُ ، نبا الشيء إذ تحاماه وتباعَدَ عنه ، ومنه نَبَا السيفُ إذا ارتفَع عن الضّريبة ولَمْ يَقطع فيها .

---

(١) ديوانه ٧١٢ .

وَالغَمْرَة : الشِّدَّةُ الشَّدِيدَةُ العامّة ، والجمع غُمَر .

تَنْجَلِي : تذهَب ، وفى المَثَل . غَمَرات ثمّ تَنْجَلِى ، أوّل من قاله الأَغْلَب العِجْلِيّ ، قال أبو حاتم : زعموا أن صَبِيًّا من العرب نظر إلى قَوْم يأكلون ، فأرادهم ، فجاء سَيْلٌ فحالَ بينَه وبينهم ، فألقَى نفسَه فى الماء ، ثم جعل يَنْغَط مرّة ويرتفع أخرى ويقول : « غَمَرات يَنْجلِين » ، حتّى تخلّص ووَصَل إليهم . وقد وَرَد هذا المَثَل فى رَجَز لبعض الرُّجّاز ، وهو :

يُقارِع السنين عن بنينا والغَمرات ثمّ يَنْجَلِينا[1]

وَالنَّكْبة ، واحدةُ نَكَبات الدّهر ، يقال : أصابته نَكْبة ، وَنُكِبَ فلان وهو مَنْكوب ، كأنّه قد عُدِل به من الخَيْر إلى الشرّ .

وَتَقَشَّعُ ، أصلُه تتقشّع ، فأُدغمتْ إحدى التاءين فى الأخرى . تقشَّع السحابُ إذا أقلع ، أخَذَ يعزّى نفسَه ويسلّيها ويمنّيها ، وما أحسَنَ قولَ الأمير شمس الدين جعفر بن شمسِ الخلافة :

هى شدّةٌ يأتى الرَّخاء عَقِيبَها وأسًى يبشِّر بالسّرور العاجِلِ
وإذا نظرتَ فإنّ بُؤْساً زائلاً للمرء خيرٌ من نعيمٍ زائلِ

وقال شرف الدين المبارك مستوفى إربل :

وما السجنُ إلاّ ظِلّ بيتٍ سَكَنْتَه أُرفّهُ فى أفيـــائه وأُنعّمُ
فكمْ من طَليقٍ أوثقَ الذّلُّ نفسَه وآخرَ مأسورٍ يُعزُّ ويكرَمُ
وقد شُحِذ الهِنْدِيُّ وهو مطبّقٌ وقد ثُقِّفَ الخَطِّىُّ وهو مقوَّمُ
وما هِيَ إلاّ غَمْرَةٌ ثُمَّ تنجلي سريعاً وإلاّ نَبْوَةٌ تتصرّمُ

---

(١) الميدانى ٢ : ٢٠٩ ، وفصل المقال ٢١٠ .

قوله : « سحابةُ صَيْف » ، مَرَّ بلالُ بنُ أبي بُرْدَة الأشعريّ بخالدِ بنِ صَفْوانَ في مَوْكِب عظيم ، فقال خالد : سحابةُ صيفٍ عن قليلٍ تَقَشَّع ، فسمعه بلال فقال : واللهِ لاتَقَشّع منها حتّى يصيبَك شُؤْبُوبُ بَرَد . وأمَر بضَرْبه بالسِّياط وحَبْسه .

وقال المبرِّد : كان ابنُ شُبْرُمة إذا نزلتْ به نازلةٌ قال : سحابةُ صيفٍ عن قليلٍ تقشَّع[1] .

وبلال بن أبي بُرْدَة أشارَ بقوله : حتّى يصيبَك منها شُؤْبوبُ بَرَد ، إلى قول النابغة :

ولا تُلاقِي كما لاقَى بنو أسَدٍ   فقد أصابَتْهُمُ منها بشُؤْبوبِ[2]

وما أحسنَ قولَ أبي القاسم هبة الله بن الفَضْل الطبيب :

يامعشَرَ الناسِ النَّفيرَ النَّفيرْ   قد جَلَس الهِرْدَبُّ فَوْقَ السَّريرْ

وصارَ فِينا آمِراً ناهِياً   وكنتُ أرجو أنّه لا يصيرْ

وكلّما قالوا غداً يَنجلي   وظُلْمةٌ عمّا قليلٍ تُنِيرْ

فتحتُ عَيْني فإذا الدّولة الدَّوْ لَةُ والشّيخ الوزيرُ الوزيرْ !

وقول ابن الخيّاط الدِّمَشْقي :

سَحابةُ برٍّ آنَ منها انقِشاعُها   وأيْكةُ مجدٍ حانَ مِنْهَا ذُبولُهَا[3]

* * *

١٩ — وقوله : ولن يَريبَني من سيّدي إنْ أبطأ سَحَابُهُ ، أو تأخَّر غَيْرَ ضَنِينٍ غَناؤه .

يريبني : فعلُ مضارع ، والرِّيبة : الشّكّ والتّهمة .

وضَنين : بخيل ، وغَناؤه ، بفَتْح الغين المعجمة والمدّ : النفع .

---

(١) الكامل ٢ : ٤١ .

(٢) ديوانه ١١   (٣) ديوانه ١٠٢ .

وكان أبو العتاهية قد عاق عُتْبة جارية المهدىّ ، وعلم المهدىُّ بذلك ، واشتهر أمرهما على ماهو معروف عند الأخباريين ، فوعده المهدىُّ بزواجها ، وطال الأمرُ على أبى العتاهية ، فأنشد يوما :

ولقد تنسّمتُ الرّياحَ لحاجتى　　فإذا لها من راحتيْكَ نسيمُ
أعلمت نفسى من رجائك مالَها　　عَنَقٌ يخبّ إليك وهو رسيمُ
وَرَمَيْتُ نحو سماء جُودك ناظرى　　أرْعَى مخايلَ برْقِها وأَشيمُ
ولرّبما اُسْتَيْأَسْتُ ثمّ أقولُ : لا　　إنَّ الّذى ضَمِنَ النجاحَ كريمُ

وأتى بذلك إلى يزيد حَوْراء ، وكان من كبار المطربين فى زمانه ، وقال : أريد أن تصنع فى هذه الأبيات لَحْناً وتغنّى به بين يدى المهدىّ ، فلمّا طابت نفسُ المهدىّ فى بعض الأوقات غنّى يزيدُ بذلك ، فأحضرَ المهدىُّ أبا العتاهية فقال : أمّا عُتْبة فلا سبيلَ لك إليها ؛ لأنّ موْلاتها منعتْ منها ، ولكنْ هذه خمسون ألف دِرْهم ، فاشترِ ببعضها خيراً منها ، فحمل الدراهمَ وانصرف .

وقال أبو إسحاق الصابى :

وعِلْمِىَ باستحكامِ حقّى لديْكمُ　　يحقق ظَنّى أنّ جرْمى سَيوهبُ
وأنّك للحُرّ الّذى لك عنده　　وَدِيعةُ وُدٍّ خيرُها مترقّبُ

وقال :

ولولا رجاءٌ مِلْء أرجاء أضْلُعى　　وعلمُ يقينٍ بالرّعاية والعَهْدِ
وأن نسيمَ الإنعطاف يهبُّ لى　　هبوبَ نسيمِ النّرجس الغضِّ والوَرْدِ
قضيتُ بإحداهُنّ نَحبِىَ حَسْرةً　　ولو كان لى قلبٌ من الحَجر الصَّلْدِ
وَلِى عندَ مولانا وديعةُ حُرْمَةٍ　　وشُكرُ أياديه وديعتُه عندِى
وإن عشتُ كانت عُدّتى وذَخيرَتِى　　وإن لم أعِشْ فهىَ التُّراث لِمَنْ بَعْدِى

فيأيّها المولَى الّذي أشتاقُ عبدُه إليه، أما تشتاقُ يوماً إلى العَبْدِ!
فإن كان لم يَبلُغْ إلى رُتبة الرّضا فبلِّغْه فيما قبلَها رُتْبة الوَعْدِ

* * *

٢٠ — وقوله: فأَبطأُ الدِّلاءِ فَيْضاً أمْلؤُها، وأثقَلُ السَّحاب مَشْياً أحْفَلُها.

أبطأ: أفْعل من البُطْء وهو ضدّ السّرعة.

وأملؤُها: أفعَلُ من مَلأَ الشيءَ إذا أوْقَرَه وأحْفَلَه.

وأحْفَلَه: أيضا من الحفل، يقال: حَفلَ الضّرعُ حَفْلا إذا امتلأ. أخذ في الاعتذار عن المخاطَب لكونه أخّر الحنوّ عليه، والإجابة إلى ما قَصَدَه منه، وهذا الّذي يسمّيه أربابُ البَديع حُسْنَ التّعليل، لأنّهم يحسّنون الشيءَ بعبارتهم الفصيحة، وإن كان الأمرُ في نفسه قبيحاً، كما قال الوزير أبو الغارات طلائعُ ابن رزّيك:

وما اُخضرّ ثوبُ الأرضِ إلاّ لأنّه عليه إذا زارتْ بأقْدامها تَخْطو
ولا طابَ نَشْرُ الزّهْرِ إلاّ لأنّه يُجرُّ عليها من جَلابيبِها مِرْطُ

وكما قال أبو منصور ظافِر الحدّاد:

قالوا محَا الجُدَرِيُّ بهجَتَهُ قسما بربٍّ مِنّى لقد كَذَبوا
قد صَفّت الصّهْباء وجْنَتَه لوناً فَحُمِّل صَفْوها الحُبَبُ

وكما قال التّهاميّ:

لو لَمْ يكنْ أُقْحُواناً ثغرُ مَبسمِها ما كان يزْدادُ طِيباً ساعةَ السَّحَرِ(١)

وقوله:

* أبطأُ فَيضِ الدِّلاء أمْلؤُها *

هذا نصفُ بيتٍ قاله ابنُ المعتزّ في الاُستسقاء، من جملةِ بيتين، وهما قولُه:

---

(١) ديوانه ٤٣.

قلتُ وقــد ضَجَّ رافعاً يدَهُ ... دَعُوا البَرايَا فاللهُ يَكْلؤُهـا
واستَيْقِنوا بالدَّواء منــه كما ... أَبْطَـأَ وَفْرِ الدِّلاء أَمْلؤُها

وما أحسنَ قولَ المكعبر الضبيّ من أبيات :

وإنّي لأرجوكمْ على بُطْءِ سَعْيِكُمْ ... كما في بُطونِ الحاملاتِ رَجاءُ[1]
أخبِّر مَن لاقَيتُ أن قد وَفَيْتُمُ ... ولو شئتُ قال المخبِرون أَساءوا

وقول أبي إسحاقَ الغزّيّ :

ومشكورةُ التّسويف في قدرة الغنى
وخيرُ نَوالِ الحبّ مالم يُعجَّلِ[2]
أَبَى صَدُّها أن تَعدمَ العينُ قُرّةً ... وللبدر في إدباره حُسن مقبلِ

وقول أبي تمّام الطائيّ :

يا أيّهــا المَلِكُ النّائي برؤيتــه ... وجوده لمَراعِي جُودِهِ كَثَبُ[3]
ليس الحِجابُ بمُقْصٍ عنكَ لي أَمَلاً ... إنّ السّماءَ تُرَجَّى حينَ تحتجِبُ

وقول أبي الطّيّب :

ومن الخير بُطْءُ سَيْبِكَ عَنّي ... أسرعُ السُّحْب في المَسيرِ الجَهامُ[4]

وقال ابن قلاقس :

رُبَّ ضِحْكٍ جَنَيْتُهُ من عُبوسٍ ... ونعيمٍ ألفَيْتُــه بين بُوسِ
وإذا ما السَّحابُ قَطَّبَ وَجْهاً ... كان في طيّه حَياةُ النُّفوسِ

وقوله أيضاً :

ولي رَسْمٌ عليكَ ولا دِفاعٌ ... لدَيْكَ يصدّ عنه ولا مِطالُ
ولـمَّا أن تأخّر طابَ عَيْشاً ... فقد تُسْتَبْطـأُ السُّحُب الثقـالُ

وما أحسنَ قولَ أبي تمَّام في معاتبة ابن أبي دُواد لمـا استبطأه :

رأيت العُلا معمورةً منكَ دارُها ... إذا أجمعت جاشاً وَقَرَّ قَرارُها[5]

---

(١) الكامل ١ : ٨١ (٢) ديوانه ٨٨ (مخطوطة دار الكتب رقم ٨٨ ـ أدب)
(٣) ديوانه ٢٢ (بيروت) (٤) ديوانه ٤ : ١٠٠ (٥) ديوانه ٣٩٩ (بيروت) .

وكم نكبةٍ ظلماء تُحْسَبُ ليلة   تجلَّى لنا من راحتيك نهارُها
فلا جارَك العافِى تناوَلَ مَحْلُها   ولا عِرْضك الوافى تناول عارُها
فلا تُمْكِنَنَّ المَطْل من ذِمّة النّوى   فبئس أخو الأيدِى الغِزار ِجارُها
فإنّ الأيادى الصّالحاتِ كبارُها   إذا وقعتْ تحتَ المِطالِ صِغارُها
ومَا نفعُ من قد باتَ بالأمس صادياً   إذا ماسماه اليوْم طالَ أنهمارُها
وما العُرْف بالتّسويفِ إلاّ كخُلّة   تسلّيتُ عنها حينَ شطَّ مَزارُها
وخيرُ عِدات الحُرِّ مختصَراتها   كما أنّ خَيْرات الليالى قِصارُها

وما أحسنَ قولَ من قال :

إنّ المطايا لاتكون هَنيّةً   حتّى تكونَ قصيرةَ الأعمارِ

* * *

٢١ — وقوله : وَأنفَع الحَيَا ما وَافقَ جَدْبا ، وألَذُّ الشّرَابِ ما أصابَ غليلا .

الحيَا مقصور غير ممدود : المَطَر والخِصْب .

وافَق : صادَف .

الجدْب ، بالدّال المهملة : المَحْل . الغليل : العَطَش بحرارة .

وهذا من أحسن الاعتذار للمخاطَب فى إهماله الجوَاب ، وتركه الإجابةَ إلى قَصْدِه . يقول : أنْفَع المَطَر ما صادف مَحْلا ، وَألَذُّ الشّراب ماصادفَ حرارةَ العَطَش ، ولاشكّ أنّ المطر للأرض المُمْحِلة أنفَع وأوْفق لها من الأرض المخصِبة ، وكذلك لذّة الماء عند الظمآن أشدّ وَقْعاً ممّا يكون عند الرِّىّ .

وما أحسنَ قولَ ابن حَيّوس :

وإنّ أَلذَّ القُرْب ما كان قبلَهُ نَوًى وأحْلى وصالٍ ماتقَدَّمه جَهدُ (١)

ومثله قولُ الأرّجانىّ :

وأحْسَنُ قُرْبٍ ما تقدَّمه نوًى وأحْسَنُ وَصْلٍ ما تقدّمه هَجْرُ

وقولُ مهذّب الدّين بن القَيْسَرانىّ :

فيا وَيْحَ قلبي مِن بلاء بحبِّه ومَنْ دَلَّ أَلحاظِي على ذلك الدَّلِّ
أَلِفْتُ قِلاَه ، واستَطَبْتُ مِطالَه وأطيَبُ ماجاءَ الوِصالُ على مَطْل

وقول الآخَر :

وليس يَعرِف كُنْهَ الوصلِ ذو كَلَفٍ
حتى يعادَى ببَينٍ أو بهِجْرانِ

وقوله : « وألذّ الشراب ما أصاب غَليلا » مأخوذٌ من قول الشاعر — أظنّه كُشاجِم :

هذا الشّرابُ أخو الحْياةِ ومالَه من لَذَّةٍ حتّى يُصيب غَليلا

وقال القُطامىّ :

يَقْتُلْنَنَا بحديثٍ ليس يَعْلَمُه من يتّقِينَ ولا مكنونه بادِي (٢)
فهنَّ يَنْبِذْن من قولٍ يُصِبنَ به مواقع الماء منْ ذِي الغُلّة الصادِي

وقال أبو هلالٍ العسكرىّ :

بقَدْر الصبابةِ عند المَغيبِ تكونُ المَسرّة عند الحضورِ
وأطيَبُ ما كان بَرْدُ الثُّغُورِ إذا هو صادَفَ حَرَّ الصُّدور

---

(١) ديوانه ٨ .
(٢) ديوانه ٨

٢٢ — وقوله : ومع اليوم غدٌ ، ولكلِّ أجل كتاب .

ومع اليوم غَد ، هذا أصلُه من أمثال العرب ، ولكنهم يقولون : « إنَّ مع اليوم غدًا »[١] ؛ يُضرب مثلا فى تنقّل الحالات ، وتقلُّب الأيام بالدُّوَل على مَرِّها وكَرِّها .

ومن أمثالهم أيضا : « يأتيكَ كلُّ غد بما فيه » ، أى بما قُضِىَ فيه من خيرٍ وشَرّ . ومن أمثالهم أيضا : « لكلّ صَباحٍ صَبُوح »[٣] ، أى كلّ يوم يأتى بما يُنتَظَر فيه . ومن أمثالهم أيضا : « لكلّ غدٍ طعام »[٤] . وقولهم فى المثل أيضا : « عسى غدُك لغيرك »[٥] ، أى لا تتأخّر من اليوم إلى غدٍ ، فلعلّك لا تُدرِكه .

وممّا يُنسَب إلى يزيدَ بن معاوية :

أقولَ لصَحْبٍ ضَمّت الكأسُ شَمْلَهمْ ... وَدَاعِى صَبَاباتِ الهوى يترنّمُ

خُذُوا بنصيبٍ من نعيمٍ وَلَذّةٍ ... فكلٌّ وإنْ طالَ المَدَى يتصرّمُ

ولا تَتْرُكَنّ الأُنسَ يوماً إلى غدٍ ... فرُبّ غدٍ يأتى بما ليس تعلَمُ

ويقولون فى المثل أيضا : «غداً غدُها إن لم يعقنِى عائِق»[٦] ، والهاء كناية عن الفَعْلة ، أى غدا غدُها إن لم يحبسنى حابس .

ومن كلام مولانا القاضى الفاضل رحمهُ الله تعالى : والمقدور كائن ، والهمّ فضل ، والمعنَّى من سَخِط على الأقدار ، وَيُقلّب اللهُ اللّيلَ والنّهار ، إن دار الفلك ، فعَليك أو فَلَك ، لا حذَر مِنْ قدَر ، ولا ملام على الأيّام .

هى المَقاديرُ تجرِى فى أَعِنّتِها ... فاصبرْ فليسَ لها صبرٌ على حالِ

---

(١) الميدانى ١ : ٣٠ . (٢) الميدانى ٢ : ٤١٦ . (٣) الميدانى ٢ : ١٢ .
(٤) الميدانى ٢ : ١٨٢ . (٥) الميدانى ٢ : ٣٨ . (٦) الميدانى ٢ : ٦١ .

لا تَسألِ الدّهرَ فى بأساء يكشفها ولو سألْتَ دوامَ البُؤْسِ لم يَدُمِ

إذا عَقَد القَضاء عليكَ أمْراً فليس يَحُـلُّه إلاّ القَضـاء

وفى المقادير ما يُبطل التقدير ، ومع اليومِ غد ، واُصْبرْ فإنّ الدهر لا يَصبر ، قد يتجلّى المكروه عمّا يُحْمَد . انتهى .

ولكلِّ أجلٍ كتاب ، لفظُ القرآن العظيم . والأجل مُدَّة الشيء ، ومعناه لكلِّ شيء أجلٌ مكتوب ، وأوقاتٌ محْدودة ، أو لكل أجلٍ أجّله الله كتاب أثبته فيه ، لا يتقدم عن وقته ، ولا يتأخَّر .

وقيل : هذا من المقلوب الّذى جاء فى القرآن ، ومعناه لكلِّ كتابٍ أجلٌ ينزل فيه ، كقوله تعالى : ﴿وَجاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالْحَقِّ﴾[1] وإنّما هو: « وجاء الْحَقُّ بسَكْرَة الموت » ، وكقوله تعالى : ﴿ فكانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾[2] ، وهو كثيرٌ فى القرآن .

وما أحسنَ قولَ السِّراج الوَرّاق ، ومن خَطِّه نَقَلْتُ :

أَرانِى بطيئاً إذا ما كَتَبْتُ وقد خُلِقَتْ طِينَتِى مِن عَجَلْ

كأنّىَ خالَفْتُ نصَّ الكتابِ فعِندِى لكلّ كتابٍ أَجَلْ

وقولهم فى المثل : «اليومَ خمر ، وغداً أمْر»[3] . أوّل من قاله امرؤ القيس . كان حُجْر أبو[4] امرئ القيس قد طرد ابنَه هذا لشعره وغزَله ؛ لأنّ الملوك كانوا يأنَفون من ذلك ، فلَحِق امرؤُ القيس بأرضِ اليمن ، ولم يَزلْ بها حتّى قتل بنو أسَد بن خُزَيْمة حُجْراً ، فجاءه الأعْوَر العِجلىّ فأخبره بمقتل أبيه ،

---

(١) سورة ق ١٩ . (٢) سورة النجم ٩ .
(٣) الميدانى ٢ : ٤١٧ . (٤) ط : « أبا » ، وهو خطأ .

فقال : « ضَيَّعنى صغيراً ، وحَمَّلنى دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ، ولا سُكْر غداً ، اليومَ خمر ، وغداً أمر » . ثمّ شرب سبعة أيَّام ، ولمَّا أصبح فى اليوم الثامن ارتحل ، وقام يسعى لأخذ الثأر .

وما أحسنَ قول شمس الدين محمّد بن العَفيف التِّلمِسانىّ :

قالوا غداً تندم من لَثْمَةٍ ... فى ثَغرِه إذْ يَغلب السُّكرُ
فقال لى مَبْسمهُ : دَعْهمُ ... اليومَ خَمْرٌ وغداً أَمْرُ

وما أحسنَ قولَ ابن الحجاج:

يا صاحِبيَّ ذَرَا لَوْمِي وَمَعْتَبَتِي ... قُمْ نَصطَبِحْ خمرةً من خير ماذَخَرُوا
وبادِرَا غَفْلَةَ الأيَّامِ وَاغتَنِمَا ... فاليومَ خَمْرٌ وَيَبْدُو فى غدٍ خَبرُ

وقال ابن طَباطِبا :

يا مَن يَخافُ أنْ يَكُو ... نَ ، ما يكونُ سَرْمَدا
أَمَا سَمِعت قولَهم : ... « إنَّ مع اليومِ غدا »

وما أحسن قول معن بن أوس المزنىّ :

وإنّى أخوك الدائمُ العهدِ لم أحلْ ... أن ابزاك خصمٌ أو نبابك منزلُ
وإن سؤتَنِي يوما صفحتُ إلى غدٍ ... ليعقِبَ يوما منك آخرُ أوّلُ

وقول علىّ بن الجَهْم لمَّا حَبَسه المتوكِّل من أبيات :

صبراً فإنَّ اليومَ يَعقبُه غَدُ ... وَيَدُ الخلافةِ لا تُطاوِلُها يَدُ [١]
ولكلِّ خيرٍ مُعقِبٌ وَلَرُبَّما ... أَجْلَى لَكَ المكروهُ عما يُحْمَدُ
لا يُؤْيِسَنَّك مِنْ تفرُّجِ كُرْبَةٍ ... خَطْبٌ رَماكَ به الزّمان الأنكدُ
كم مِن عليلٍ قد تَخطَّاه الرَّدَى ... فَنجا ، وماتَ طبيبُه وَالعُوَّدُ

---

(١) ديوانه ٤٥ .

وقال غَيْلان بن خَرَشَة الثَّقفيّ :

أناةً وحِلْمًا وانتظاراً بهمْ غداً فما أنا بالواني ولا الضَّرَعِ الغَمْرِ
أَظُنُّ صروفَ الدّهرِ بيني وبينَهمْ ستَحمِلهم منّي على مَرْكَبٍ وَعْرِ
ألم تعلَموا أنّي تُخافُ عرامتي وأنّ قَناتي لا تَلين على القَسْرِ
وإنّي وإيّاهمْ كمن نَبَّه القَطا ولو لم تُنبِّه باتَت الليلَ لا تَسْرِي

وقول ابن مُقْبِل :

خليلَيّ لا تَستعجِلا وانظُرا غَدا
على أن يكون المُكْثُ في الأمرِ أرشَدا(١)

وقال الأمير تميمُ بنُ المُعِزّ :

إنّ الأمورَ إذا اشتَدّتْ مَعاقِدُها يُفرِّج اللهُ منها كلَّ ما وَرَدَا(٢)
كذلك الدّهرُ إنْ جاءت فَوادِحُه في اليومِ فارجُ لها ألاّ تدُومَ غدَا

وقول منصور بن الحاكم أبي منصور الهَرَويّ :

لا تُعاتِبْ زمانَنا إنْ عَرانا جَفاؤُهْ
شِدّةُ الله تنقضي ثمّ يأتي رَخاؤُهْ
كدَرُ العَيْشِ للفتَى يقتَضِيه صفاؤُهْ
وكذا الماءُ يسبق الصفوَ منه جَفاؤُهْ

وقول البُحتُريّ :

يسرُّك الشيء قدْ يَسُوءُ وكمْ نَوَّه يوماً بخاملٍ لَقَبُهْ(٣)
لا ييأسِ المرءُ أن يُنجِّيَه ما يحسَبُ الناسُ أنّه عطَبُهْ

* * *

(١) ديوانه ٦ . (٢) ديوانه ١٠٠ . (٣) ديوانه ١ : ٣٢ .

٢٣ — وقوله : لَهُ الحمدُ على اهتبالِه ، وَلا عَتْبَ عليه فى إغْفالِه .

الحمد نقيض الذمّ ، وقيل : إنَّ الفرق بين الحَمْد وَالشُّكر أن الحمدَ يكون فى الخير والشرّ ، والشكرَ لا يكون إلاَّ فى الخير فقط ؛ لأنَّه ورد أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان إذا جاءه مايُحبُّه قال: « الحمد لله على نِعَمه » ، وإذا جاءه مايَكْرَهه قال : « الحمد لله على كلّ حال » .

والاُهتِبال : الاُغتنام والاُفتراص والاُحتيال ؛ واهتَبَلْت غفلتَه ، أى تحيَّنْتها واُغتَنَمْتها ، والهبَّال : الصيَّاد الَّذى يتحيَّنُ الصَّيْد .

والإغفال مصدَر أغفَلَه ، أَغْفَلْتُ الشىء ، إذا تركته على ذُكرٍ منك ، أَخَذَ يَحْمَده على إبطائِه عنه ، وعلى تَلَبُّثِه فيما يَطلُبه منه ، قال الفرزدق :

وإنّى وَسَعْدا كالحُوارِ وَأُمِّه إذا وَطِئتْه لم يضرْه اعتمادُها[١]

وما أَحسنَ قولَ المجنونِ ـ وقيل لإبراهيم بن العبَّاس :

تَطَلَّعُ مِن نفسِى إليكَ نَوازِعٌ
عَوارِفُ أنَّ الناسَ منك تُصيبُها

وزالَتْ زوالَ الشَّمسِ عن مستقرِّها
فَمَنْ مُخْبِرِى فى أىِّ أرْضٍ غُروبُها

حَلالٌ لليلَى أن تَرُوعَ فُؤادَهُ
بهجْرٍ ومغفورٌ لليْلَى ذُنوبُها

وقال آخر :

إنْ أَمُتْ وَجْداً فلِى قَدَمٌ بى إلى حَتْفِ الهَوَى سَبَقَتْ
أو تُرِقْ تِلْكَ اللحاظُ دَمِى فهىَ فى حِلٍّ وفى سَعَةِ

(١) ديوانه ١ : ٢١٦ ، واعتمادها ، أى اتكاؤها عليه . والحوار : الفصيل أول ما ينتج .

وما أحسنَ قول البهاء زُهَير :

ومن شغَفِى فيكم ووجدىَ أنَّنى　　أهـوِّنُ ما ألْقاهُ وهْو هَوانُ[(١)]
ويَحسنُ قبحُ الفِعلِ إن جاءَ مِنكمُ　　كما طابَ ريحُ العُودِ وهو دُخانُ

وقوله أيضا :

أبدًا أزيدُ مع الوِصالِ تلهُّفاً　　كالعِقْدِ فى جيدِ المَليحةِ يَقلَقُ[(٢)]
ويَزيدُنى كَلَفا فأشكُرُ فعلَه　　كالمِسْكِ تَسْحَقُه الأكفُّ فيَعْبَق

وقول الرشيد محفوظٍ العراقىّ ممَّا يُقارِب هذا :

فرّقَتْ بيننا الحوادثُ لكنْ　　لىَ نَفْسٌ إليكمُ أُدْنيها
فكأنّ فى الفؤاد فأرَةَ مِسْكٍ　　أفرَغوها ونفحَة الطِّيب فيها

وذكرتُ أنا ما قلتُ هنا فى هذا المعنى ، وهو :

مَن منصِفِى مِن زمان قد منيتُ به　　فقد غدَوْتُ بما ألْقاه منه لَقَى
يَضُوع عَرْف اصطِبارى أن يضيِّقنى　　والعُود يزْداد طِيباً كلَّما احْتَرَقا

وقال الأمير محمّد بن قرطاى الإرْبِلِىّ :

أمَا واشتياقِى عند حضرةِ ذكرِكمْ
وذا قسَمٌ أن لو تعلَمونَ عَظِيمُ
لَأنتمْ وإن عذَّبتُمونى بهَجْرِكمْ
على كلّ حالٍ جنَّـةٌ ونعيمُ
سَلِمتمْ من الوَجْدِ الّذى بى عَلَيْكمُ
ومِن مهجةٍ فيها أسًى وكُلومُ

---

(١) ديوانه ١٥٥ .　　(٢) ديوانه ١٠٢ .

فلا ذقتمُ ما ذقتُ منكمْ فلِي بكمْ
رَسِيسُ غَـرامٍ مقعِـدٌ ومُقِيمُ

وقال مؤيّد الدَّولة أُسامة بنُ مُنقِذ :

إذا أَدْمَتْ قَوارِصُكمْ فؤادِي ... صبرْتُ على أذَاكُمْ وانطوَيْتُ
وجئتُ إليكمُ طَلْقَ المُحَيَّـا ... كأنِّى ما سَمِعتُ ولا رأيْتُ

☆ ☆ ☆

٢٤ — وقوله :

فإنْ يَكُنِ الفِعْلُ الّذِى سَاءَ واحِداً ... فأفعالُه اللاّئِى سَرَرْنَ أُلوفُ

أخذ فى تأييد ماتقدّم مِن حمده له ، وصبره على إبطائه ، فقال : وإن كان هذا الفعلُ الّذى تَأتيه فىهذه الفَتْرة واحداً، فلَكَ أفعال قد سَرَرْن وهى أُلوف ، فلا عِبرةَ بهذا الفِعل الواحد الّذى ساءَ مع اُعتبار الأفعال السارَّة وهى أُلوف .

وهذا البيتُ لأبى الطيّب ، من أبياتٍ كَتَب بها إلى أبى العشائر الحُسين ابن حَمْدان يُعاتبه على سببٍ جَرى عليه من غِلْمانه ، وهى :

ومنتسِبٍ عندى إلى مَن أُحِبُّهُ ... وللنَّبلِ حَوْلِى من يديْه حَفِيفُ[(١)]
فهَيَّجَ مِن شوقى وما مِن مَذَلّةٍ ... حَنَنْتُ ، ولـكنَّ الـكريمَ أَلوفُ
وكُلُّ وِدادٍ لا يَدومُ على الأذَى ... دَوامَ وِدادِى للحُسين ضعيفُ
فإن يكنِ الفِعلُ الّذى ساءَ واحداً ... فأفعـالُه اللّائى سَرَرْن أُلوف
ونَفْسِى له نَفْسِى الفداء لنفسِه ... ولـكنَّ بعضَ المالِـكين عَنيفُ

ومن هذه المادّة :

إذا ما صديقٌ أسَـا مَرّةً ... وقد كان فيما مَضَى مُجملا

(١) ديوانه٢ : ٢٩٢ ، وحفيف ، أى صوت يحف بى .

ذَكَرتُ المقدَّم مِن فِعلِه فلا يَنقصُ الآخرُ الأوّلا

وقال الأديب أبو محمّد بنُ مالك المغربيّ من جملةِ رسالة كتَب بها إلى ابن صُمادِح : ولئن أعقِب يوماً من الدّهر بحِرْمان ـ وحاشاه ـ فلقد سبق بمعروف ، ولئن ساءنى يوماً فِعلُه ؛ فأفعاله اللّائِى سرَرْن ألوف .

وهذا البيتُ الّذى استَشهَد به ابنَ زَيدون فى رسالته ، يشبه قولَ القـائل :

وإذا المَليحُ أتَى بذَنبٍ واحدٍ جاءتْ محاسنُه بألْف شَفيـع

وقال أبو البركات محمّد بن أحمد المِنْقرىّ ، وعُرِف بالمؤيَّد :

ما ذِلّتى فى حُبِّكمْ وخُضوعِى عارٌ ، ولا شَغَفى بكمْ ببَديعِ
دِين الهَوَى ذلٌّ وجِسْمٌ ناحِلٌ وسُهادُ أجْفانٍ وَفَيضُ دمُوعِ
كم قد لحَانى فى هواكمْ لائمٌ فثَنَيْتُ عِطْفى عنه غيرَ سَمِيعِ
ما يُحدِث التّقبيحُ عندى سَلْوةً لكمُ ولو جئتمْ بكلِّ فَظيعِ
وإذا الحبيبُ أتى بذَنبٍ واحدٍ جاءت محـاسنُه بألفِ شفيـع

٭ ٭ ٭

٢٥ — وَقوله : وَأعود فأقول : ما هذا الذنْبُ الّذى لَم يَسَعْهُ عفوُك ، وَالجهل الّذى لم يأتِ مِن ورائه حِلمُك !

رجع بعد أن وَطّن نفسه فى مخاطبته على الصَّبر والانتظار ، التفاتاً منه إلى ما فى ضميره من بقايا العتب ، فقال يَستفهم منه : ما هذا الّذى صَدَر منى ، حتّى إنّ عفوَك لَم يسعْه ، وهو صغير بالنّسبة إلى كبير عفوك ؛ وما هذا الجَهلُ فى حقّى حتّى وَقَع ما وَقَع ، ولم يأتِ من ورائه حِلمُك وَعَقْلُك !

أمّا العفو فإنّه أمر نطَق به القرآنُ العظيم ، وورَدتْ به السُّنّة ، وحثّ عليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، قال الله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ (٣) . والآياتُ فى هذا كثيرة .

وممّن قدَر وعَفا ، وصفّ لآلىء غُفرانِه وصفَا ، سيِّدُنا رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ، لأنّ أهلَ مكّة كانوا يؤذونه فى نفسه ، ويقصِدون نكايتَه فى أهلِه ، قتلوا أعمامَه ، وعذّبوا أصحابه ، وألّبوا عليه ، وأخرجوه مِن أحبّ البِقاع إليه ، حتى إذا فتَحها الله عليه ودَخلَها بغيرِ حَمْدِهم ، وظهرتْ كلمتُه بها على رَغْمِهم ، قام فيهم خطيباً ، فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه ، وشكَره على ما منحه من الظّفَر ، ثمّ قال : أقول لكمْ كما قال أخى يوسف : ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٤) .

وعن عائشةَ رضى الله عنها أنّها قالت للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم : هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ علَيْك من يوم أُحُد ؟ قال : لقد لقيتُ منْ قومك ، وكان أشدُّ ما لقيتُ منهمْ يومَ العقَبة ، إذْ عرضتُ نفسى على ابن عبدِ ياليل [ابن عبد كُلال] ، فلَم يُجِبْنى إلى ما أرَدْت ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهى ، فلَم أستَفِقْ إلاّ وأنا بقرْن الثعالب (٥) ، فرفعتُ رأسى ، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلّتنى ، فنظرتُ فإذا فيها جبريل ، فنادانى ، فقال : إنّ الله قد سَمِعَ قولَ قومك لك ، وما ردُّوا عليك ، وقد بَعَثَ إليكَ مَلَكَ الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم . قال: فنادانى ملَكُ الجبال ، فسلّم علىّ ثم قال : يا محمّد ، إنّ الله قد سمع قولَ قومِك لك ، وأنا ملَكُ الجبال ، قد بعثنى ربُّك إليكَ لتأمُرنى بأمرك

(١) الأعراف ١٩٩ (٢) الحجر ٨٥

(٣) آل عمران ١٣٤ . (٤) يوسف ٩٢ .

(٥) قرن الثعالب ، من مواقيت أهل نجد، وفى الأصل: «قرية» ، وصوابه من صحيح مسلم .

[فما شئت][1] ؟ إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخْشَبَين[2]؛ فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : بل أرجو أن يَخرُج من أصلابهم مَن يَعبُد اللهَ وَيُوَحِّده ، ولا يُشرِكُ به . متّفقٌ عليه[3].

وعنها رضى الله عنها قالت : ما ضرب رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم شيئاً قطُّ بيَدِه ، ولا امرأةً ، ولا خادماً إلاَّ أن يجاهِد فى سبيل الله . وما نِيل منه شىءٌ قطّ ، فينتقِم من صاحبه ، إلاّ أن يُنْهكَ شىءٌ مِن محارم الله تعالى ، فينتقم الله تعالى . رواه مسلم .

وعن ابن مسعود قال : كأنّى أنظرُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، يَحكِى أنّ نبيًّا من الأنبياء صلوات الله وسلامُه عليهم ضربه قومُه فأدْمَوْه ، وهو يمسح الدّمَ عن وجهه ، ويقول : اللهمّ اغْفِرْ لقَوْمى فإنّهم لا يعلمون . متّفق عليه .

قيل لخالد بن صَفْوان : أىُّ إخوانِكَ أحبُّ إليك ؟ قال : الّذى يَسُدّ خَلَلى ، وَيَغفِرُ زَلَلى ، ويَقبَل عِلَلى .

حُكِىَ أنّ المأمون كان يوضِّئه غلامُه ، فغفَل عن شأنِه ، فنزلتْ الميضأةُ من يده على جبْهتِه فشجّتْه ، فنظر إليه المأمون مغضَباً ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، ﴿والكاظِمين الغَيْظ﴾ ، قال : كظمْتُ غيْظِى ، قال : ﴿والعافِينَ عن الناس﴾ ، قال : قد عفَوْتُ عنك ، قال : ﴿ والله يُحِبّ المحسنين ﴾[4] ، قال : اذهَبْ فأنتَ حُرٌّ .

وقال عبد الله بنُ طاهر : كنتُ عند المأمون ثانىَ اثنين ، فنادى : ياغلام ، يا غلام ! بأعلى صوتِه ، فدخَلَ غلامٌ تركىّ فقال : لا ينبغى للغلام أن يأكل أو

---

(١) من صحيح مسلم .

(٢) الأخشبان : جبلان بمكة .

(٣) صحيح مسلم ١٤٢٠ .

(٤) آل عمران ١٣٤ .

يَشرَب ، أو يتوضأ أو يصلّى ! كلَّما خرجْنا مِن عندِك تصيح : يا غلام ، ياغلام ! إلى كم ياغلام ، ياغلام ! فنكّس المأمون رأسه طويلا ، فما شككتُ أنَّه يأمرنى بضَرْب عُنقه ، فقال : يا عبدَ الله ، إنَّ الرجلَ إذا حسنتْ أخلاقُه ساءت أخلاقُ خَدَمه ، وإذا ساءتْ أخلاقُه حَسُنَتْ أخلاقُ خدمه ، ولا نستطيع أن نُسيء أخلاقَنا لتحْسُن أخلاقُ خَدَمِنا .

وقال المأمون : لقد حُبِّب إلىَّ العفوُ ، حتّى لقد خِفْتُ ألاَّ أُوجَرَ عليه .

قلتُ : لعلّه أَخَذ هذا من قولِ أبى تَمَّام من قصيدةٍ مَدَحه بها ، جاء منها :

لو يَعلَمَ العافُون كم لك فى النَّدى ... مِن لذَّةٍ أو فَرحةٍ لم تُحْمَدِ[1]

وقال ابن الخَيَّاط الدِّمَشْقىّ :

من الكاظِمِى الغَيْظ وَالمُحْسِنينَ ... إذا بَرَّحَتْ بالصُّدور الحُقودُ

فمُتّ بجُرم إلى عفوه ... يَنَلْكَ مع العفو برٌّ وَجُودُ

إذا كنتَ سيِّدَ قومٍ ولَمْ ... تَسَعْهُم بحِلْمٍ فأنتَ المَسودُ

وما أحسنَ قولَ مسلمِ بن الوَليد فى الرَّشيد :

بأبِى وأُمّى أنت ما أنْدَى يَداً ... وأبرَّ ميثاقاً وما أزْكا كَا[2]

يَغدو عَدوُّك خائفاً فإذا رَأَى ... أَنْ قد قَدَرْتَ على العِقاب رَجا كا

وما أحسنَ ما كتَب به ابن عمّار إلى المعتمِد بن عبّاد يَستعطِفه :

سَجايَاكَ إن عاتبتَ أنْدَى وأسمَحُ ... وَعُذْرُك إنْ عاقبتَ أنْدَى وأوْضَحُ

وإن كان بينَ الخُطّتيْنِ منه مَزِيَّة ... فأنتَ إلَى الأدْنى مِن الله أَجْنَحُ

حَنانَيْكَ فى أخذِى برأْيِكَ لا تُطِعْ ... عِداتى وإن أثْنَوا علىَّ وأفْصَحُوا

فإنَّ رجائى أنّ عندَكَ غيرما ... يَخُوضُ عدوِّى اليومَ فيه ويَمْرَحُ

---

(١) ديوانه ١١٣ — بيروت . (٢) ديوانه ٣٣١ ، وبينهما ثالث .

ولمْ لا وقد أسْلفتَ وُدًّا وحُرْمةً يَـكرّانِ فى لَيْلِ الخُطوب فيَصْبَحُ
وهَبْنى وقد أعقبتُ أعمالَ مُفسد أما تُفسَد الأعمال ثمّت تصلحُ !
وماذا عَسَى الأعداء أن يتزيَّدوا سِوَى أنَّ ذَنبى واضحٌ متضحضِحُ
نعمْ لىَ ذنبٌ غيرَ أنَّ لِحلمِـه صَفاةً يَزِلُّ الذَّنب عنها فينزحُ
أَقِلْنى بما بَيْنِى وَبَيْنَك من رِضًا له نحو بابِ اللهِ رَوحٌ مفتّحُ
ولا تلتفتْ قولَ الوُشاةِ وزُورهمْ فـكلُّ إناء بالّذى فيه يَنْضَحُ
وقالوا سيَجْزِيه فلانٌ بِسَعْيِهِ فقلتُ وقدْ يَعْفُو فلانٌ ويصْفَحُ
ألا إنَّ بَطْشًا للمؤيّد يُتَّقَى ولـكنَّ حِلْما للمؤيّد أرجَحُ

وما أحسن ما وَصَف به الحِلْمَ أبو تمَّام فى قوله :

رقيقُ حَواشِى الحِلْم لو أنَّ حِلْمَهُ بِكَفَّيْكَ ما مارَيْتَ فى أنَّه بُرْدُ(١)

وقال محمَّد بن غالب الرُّصافىّ من أبيات :

كنا إلى المَلأ الأعْلَى بِنِسْبَتِهِ لو ناسب المَلأُ العلوِىَّ إنسانُ
يُغضِى عن الذنب عَفْواً وهْو مُقْتَدِرٌ
وَيَتْرُكُ البَطش حِلْماً وهو غَضْبانُ

وقال أبو الفرج الببغاء :

أعِدْهَا إلى عَادات عَفْوِك مُحسناً كما عوّدَتْها قبلُ آباؤكَ الشُّمُّ
فإنْ ضاقَ عنها العُذْرُ عندكَ فى الّذى
جنتْهُ فما ضاقَ التفضُّلُ والحِلْمُ

وقال أبو عبد الله محمّد بن أحمد الخازن :

وأحْسِنْ إنَّنى أَحسنتُ ظنًّا وأرجُو أنَّ ظنِّى لا يَخيبُ
فأيَّةُ طَرْبةٍ للعفو إنّ الـ ـكَرِيمَ وأنتَ معناهُ طَرُوبُ

---

(١) ديوانه ١٢١ ــ بيروت ، وفى ط : « لو أن حلمه » .

وكان الأحنفُ بنُ قيس يقول : لا شيء أثقل من حَمْل الغضب .

وقال الجاحظ : قيل لأبى عباد وزير المأمون ـ وكان أسرع الناس غضباً : إنَّ ابنَ لقمانَ قال لأبيه : ما الحِمل الثَّقيل ؟ قال : الغضب . قال أبو عبّاد : لكنَّه والله أخفُّ من الرِّيش ، فقيل له : إنّما عنَى لقمانُ أنَّ احتمالَ الغضب ثقيل ، فقال : لا والله ما يَقوَى على احتمال الغَضَب إلاَّ الجمل .

وقال زياد : تأخير جزاءِ المُحسن لُؤْم ، وتعجيلُ عُقوبة المُسيء دَناءة ، والتثبُّتُ فى العقوبة ربما أدَّى إلى السَّلامة منها ، وتأخيرُ الإحسان ربما أدَّى إلى نَدَم لم يمكن صاحبُه أن يتلافاه .

حدَّث أبو هُرَيرة الشاعر المصرىُّ ، قال: خرجتُ يوماً إلى بِرْكة الحَبَش بمصرَ متنزِّهاً فى أيَّام الرَّبيع ، حين أخذتِ الأرضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنتْ ، ومعى آنيةُ شراب ـ وكانت تلك عادتى فى كلِّ سنة ـ فجعلتُ أشرَب وأنادِم كتّابى طولَ يَوْمى ، فلمَّا كادت الشمسْ تغرُب وتلمعَ فى أجنحة الطير ، أخذتُ فى الانصراف إلى منزلى وأنا ثمِل ؛ فبينما أنا أمشِى وإذا بفارسٍ خرَج من مصرَ متلثِّماً ، لا يبينُ من وَجهِه غير عَيْنَيْه ، فسلَّم وقال : من أينَ أقبَلَ الشيوخ ؟ فقلتُ فى نفسى : أجُنَّ الرَّجل ! ومن يرى معى ؟ والتفَتُّ وإذا خلْفى ذَوْدُ تُيُوس وراعٍ يَسُوقه ، فقلتُ : حضرنا إمْلاك[1] الوالدة ، يَرْحمَك الله ! فضحَك وانصرف .

ولمَّا كان بعد أيَّام دخلت على الأمير تكين فى حاجة ، فقضاها وأمَرَ لى بألف دِرْهم ، وقال لى : هذا حقُّ حضورك ذلك الإملاك ، فقلت : إنَّه الَّذى لقيَنى ذلك اليوم ، فأخذتُها وانصرفتُ خَجِلا .

وحكى محمَّد بنُ أزْدَشير قال : كنت بالشِّيرجان[2] مع الوزير أبى غالب الحسنِ بن منصور ، الملقَّب بذى السَّعادتين ، فاتَّفق أن شربتُ عنده يوماً

(١) الإملاك : التزويج . (٢) الشيرجان : قصبة كرمان .

فسكرت سُكراً ، فسقطتْ معه سُفْتجتى[1] من كُمّى ، وفيها رقاعٌ قد أعطانيها أربابُها لأُنجِّز عليهم توقيعات ، ومِن جُملتها رُقْعتان بخَطِّى ، قد كتبتُ في أحدِهما :

يا قليلَ الخيرِ مَوْفُورَ الصَّلَفْ والَّذى في البَغْى قد حازَ الشَّرَفْ
كُنْ لَئيما وتَواضَعْ تُحْتَمَلْ أو كريماً يُحتَملْ منك الصَّلَفْ

وفى الأُخرى :

ياقارِعَ البابِ على عبدِ الصَّمَدْ لا تَقرَعِ البابَ فما ثَمَّ أَحَدْ

فأخَذَ السُّفْتجةَ وفتحها ، ووَقَفَ على الرِّقاع بجميعِ مافيها ، ووقَّع على الرُّقعةُ التى فيها البَيْتان : « يُطلَقَ له ألفُ دِرهم » ، وعلى الأخرى التى فيها البَيت الواحد : « يوجب له كلّ شهر ألف درهم ، من اتّصال الشهر الَّذى نحن فيه » ، وردَّ الجميع إلى السُّفتجة ، وجعَلَها فى كمّى ، وأصبحتُ من الغَداةِ ولا علم لى بما جرى ، فاستَدْعانى إلى الطعام وقت الظّهر ، فلم يرَ عندى أثرًا لفَعْلته الّتى فَعَلها ، وأنا من الضّالين ، ولا سمع منّى شُكْراً على الصّنيعة ، فقال لى : وقفت على الرِّقاع ؟ فقلت : لا ، أيُّها الوزير ، ثم ذكرتُ ما كان فى الأوراق فتصبّبْتُ عَرَقا ، واشتَغَل قلبى لِمَا وُجِد فيها بخَطِّى ، فنهضتُ إلى الرِّقاع وتأمّلتها ، وعدتُ إليه وشكَرْتُه ، واعتذرتُ ممّا وجد ، فقال : لا تعتَذِر ، فإنّا نستحقّه إن لم نقض واجبا ، ولم نَرْعَ صاحبا .

* * *

(١) فى القاموس : « السفتجة أن يعطى مالا لآخر وللآخر مال فى بلد المعطى فيوفيه إياه ثم فيستفيد أمن الطريق » .

٣٦ ــ وقوله: وَالتَّطاوُل الَّذِي لم يَسْتَغْرِقْه تَطَوُّلُكَ ، وَالتَّحامُلُ الَّذِي لَم يَفِ بِه احتِمالُكَ!

التطاوُل: تفاعُلٌ من الطُّول، وهو ضدُّ العَرْض. يستغرق: يستفعل، من الإغراق. والتطوّل تفعُّل من الطَّوْل بفتح الطاء، وهو المَنُّ والفَضْل. والتحامُل، « تفاعُل » من الحمل، تقول: تحمّلت على نفسى، أى تكلّفت الشيء على مشقّة.

لم يَفِ به، لم يقُم به، والاحتمال: مصدر احتمل، إذا تكلّف فوق طاقته وقدرته.

يقال: إنّ العجّاج دخل على عبدِ الملك ابنِ مَرْوان، فقال له: بلغنى أنّك لا تُحْسن الهجاء، فقال: يا أمير المؤمنين، مَن قدر على حُسْن تشييدِ الأبنِيَة أمكنه خراب الأخبية، قال: فما يمنعك من ذلك؟ قال: إنّ لنا عِزًّا يمنعنا من أن نُظلَم، وحِلْماً يمنعنا أن نظلِم. فقال: لَكلماتُك هذه أحسَنُ من شِعْرِك.

استأصَلَ الحجّاجُ بالقَتْل أُسارَى، فقال أحَدُهم: واللهِ ياحَجّاج لئن كنّا أسأْنا فى اقتراف الذَّنْب لَما أحسنتَ أنت فى ترك العفو، فقال: أُفٍّ لهذه الجِيَف! أما كان فيهم من يُحسِن مِثلَ هذا: وأمسَكَ عن قَتْلِ الباقين.

ومن الاُحتمال ما وَرَد فى قضيّة العبّاس بن مِرْداس السُّلَمِىّ، لمّا أعطاه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أربعين من الإبل، وأعطى المؤلَّفَة قلوبهم خمسمائةً من الإبل، فقال العبّاس:

أَتجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ العُبيـ ـدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعِ[1]

---

(١) اللآلى ٣٣.

وما كانَ حِصْنٌ ولا حابِسٌ يَفُوقانِ مِرْداسَ فى مَجْمَعِ

العُبَيد : فرَسُه ، وحِصْن هو أبو عُيَيْنَةَ بن حِصْن بن حُذَيفة بن بدر ، سيِّد فَزارة ، وحابِس : أبو الأقْرع بنِ حابس ، فأمَرَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بإحضاره ، وقال : أنت القائل : « أتجْعَل نَهْبِي وَنَهْبَ العُبيدِ بينَ الأقْرَع وعُيَيْنَةَ » — وكان صلّى الله عليه وسلّم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾[1] — ياعلىّ ، قُمْ فاقطع لسانه ، فقال العبّاس : وإنك لقاطِعٌ لسانى ! قال : إنّى لمُمْضٍ فيكَ ما أُمِرْتُ به ، قال : فمضى بى حتى أدخلنى الحظائر ، وقال : اعتدّ ما بين أربعين إلى مائة ، قال : فقلت : بأبى أنت وأمّى ! ما أعلمَكم وأحلمَكمُ وأحكمكم وأكرمَكم ! فقال : إنّ رسول الله أعطاك ، وجعلك من المهاجِرين ، فإن شئتَ فخذها ، وإن شئتَ خُذْ مائة ، وكن مع المؤلَّفة ، فقال : أشر علىّ ، فقال : إنى آمرك أن تأخذ ما أعطاكَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ، فأخذتها .

واحتمال رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهور إلى الغاية ؛ معروفٌ مشهور .

* * *

٢٧ — وقوله : وَلا أَخْلو من أن أكونَ بريئًا فأينَ عَدْلُك ، أو مُسيئًا فأينَ فَضْلُك !

لا أخلُو : لا أكون خالياً من أحَد القسمين : إمَّا بَرِيئًا مِمّا رُميتُ به ، فأين كان عدْلُك — والعدل ضدّ الجوْر — وإمّا مُسيئًا فأين كان[2] فَضْلُك ! والفضلُ ضدُّ النّقص ، وهو الاتّصاف بالمحامد ، وهذا ألزم للمخاطب بأن يعترف له بأحد القسمين . وهذا هو الذى يسمِّيه أربابُ البَديع صحّةَ التّقسيم ،

(١) سورة يس ٦٩ .
(٢) ساقط من ط .

وقد جاء منه فى القرآن العظيم قوله تعالى : ﴿ هو الّذى يُرِيكم البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾(١) ، فإنّه ليس فى البرق إلاّ الخوفُ من الصّواعِق ، أو الطّمع فى سُقْيا الغيْث .

وقال زُهَيْر :

فإنّ الحَقّ مَقْطَعُه ثلاَثٌ   يمينٌ أو شُهودٌ أو جِلاءُ(٢)

حتّى إنَّ عمرَ بن الخطّاب رضىَ الله تعالى عنه لمّـا سمع هذا قال : لو أدركْتُه لولّيتُه القَضاء .

وما أحسنَ قولَ الإمام العلاّمة جمال الدّين بن الحاجبِ رحمه الله تعالى لمّـا ادّعى فى مقدّمته أنّ الـكلمة ثلاثة أقسام ، ولا رابعَ لها ، قال : لأنّها إمّا أن تَدُلَّ على معنًى فى نفسها أوْ لا ، الثانى الحَرْف ، والأوّل إما أن يَقترِن بأحدِ الأزْمِنة(٣) أوْ لا ، الثانى الاسم(٤)، وهذا الّذى يسمّيه الأصولِيّون دليل السّبْرِ والتقسيم .

والإمام فخر الدين الرّازىّ فى هذا الباب أمرُه عجيب ؛ لأنّه إذا تـكلم فى المسألة يَذكُر تقسيمها ، وتفاريعَ التّقسيم ، فلا يفوتُه بذلك شىءٌ من أحْوالها .

ولمّـا قَدم قُتيبة خُراسانَ قال : من كان فى يدِه من مالِ عبد الله بنِ خازمٍ شىءٌ فلينبذه ، أو كان فى فيه فليلفظه ، أو فى صَدْرِه فلينْفِثْه ؛ فتعجَّب الناس من حُسْن ما قسم وفصّل .

---

(١) الرعد ٢٢ .
(٢) ديوانه ٧٥ ، والجلاء : الأمر الجلى.
(٣) ط : « الأزمنة الثلاثة » .
(٤) بعدها فى د : « والأول الفعل » .

وقال رجلٌ من أهل الشام للمنصور : يا أميرَ المؤمنين ، من انْتَقَم فقد شفَا غَيْظَه ، ومن عفا فقد تَفَضّل، ومن أخذ حقّه لم يَجِب شُكره ، ولم يُذكر فضله ، وكظْم الغَيْظ حِلم ، والتشفِّي طرف من العَجْز .

وقال بعض الكُتّاب لرئيسه ، وقد عَتَب عليه : إذا كنتَ لم ترضَ مِنّي بالإساءة ، فلِمَ رَضِيتَ من نفسك بالمكافأة !

وحدَّثَ الزّيادِيّ قال: تحدّث رجل من الأعراب ، قال : نزلت برجلٍ من طيّيء فنحر لى ناقةً ، فأكلتُ منها ، فلمّا كان الغدُ نَحَر أخرى ، فقلتُ : إن عندك من اللحم ما يغْنِي ويكفِي ، فقال : إنّى والله ما أُطعِم ضيفى إلاّ لحمًا عَبِيطاً . قال : وفَعَل ذلك فى اليوم الثالث ، وفى كلّ يومٍ آكُلُ شيئا ، ويأكُلُ الطائى أكلَ جماعة ، ثمّ يُؤْتَى باللّبن فأشرب منه شيئا ، ويشربُ عامّة الوَطْب ، فلما كان فى اليوم الثالث ارتقَبْتُ غَفْلَته ، فاضطجع ، فلما امتلأ نوماً استقْتُ قطيعاً من إبله ، فأقبلته الفجّ[1] ، فانتبه ، واختصر علىّ الطريق حتّى وقف فى مَضِيقٍ منه ، فألقم وَتَرَه فُوقَ سَهْمه ، ثم نادانى : لِتَطِبْ نفسُك عنها ، قلتُ : أرِنى آيَةً ، قال : انظر إلى ذلك الضّبِّ ، فإنّى واضعٌ سَهْمِى فى مَغْرِز ذَنَبِه ، فرماه فأندرَ[2] ذنبه ، فقلتُ له : زِدْنى ، قال : فانظر إلى أعلى فَقارِه، فرماه فأثبتَ سَهْمه فى الموضع ، ثم قال لى : الثالثة والله فى كبِدك . قال : فقلتُ له : شأنك بإبِلك ! فقال : كلاّ حتّى تسوقها إلىّ حيث كانت ، فلمّا استَقْتُها قال : فكّرت فيك فلم أجدْك عندى تِرةً تُطالِبنى بها ، وما أجِد أنّ الّذى حملك على أخْذِ إبلى إلاّ الحاجة ، قال : قلتُ : هو واللهِ ذاك . قال : فاعمد إلى عشرين من خيارها[3] فخذها ، قال : فقلتُ : إذاً والله لا أفعل حتّى تسمع مَدحَك ؛ والله ما رأيتُ رَجُلا أكرم ضيافةً ،

---

(١) الفج : الطريق .　(٢) أندر : قطع .　(٣) د : « جيادها » .

ولا أهدى لسبيل ، ولا أرمى كفًّا ، ولا أوسعَ صدرا ، ولا أرغبَ خوفا ، ولا أكرَم عفواً منك . قال : فاستحيا وصرفَ[1] وجهه عنّى ، ثمّ قال : انصرِف بالقطيع [كلِّه][2] مُباركا لك فيه .

وأحسنُ من هذا وأعجبُ وأطرَبُ ، ما حكاه الوزيرُ سُليمانُ بنُ وَهْب ابن سعيد بن عمرو بن حُصَين ، قال : كنتُ قد نشأتُ بالحضْرة ، وتصرّفت فى خدمة الخُلَفاء ، فلمّا تقلّدتُ مصر سِرْتُ إليها ، ووَالِيها محمّدُ بنُ خالد الصّريفينيّ - وكان فى غاية العَفافِ والنَّزاهة - فقبَضت عليه لمّا وصلت إلى مصرَ ، وكان قد بلغنى أنّ عنده ستّين بَغْلا من بغالِ مصرَ المنتخَبة ، فطالبْتُه بإحضارها[3] إلىّ فلم يَعترف لى بها ، وكان أكثرُ أهلِ مصرَ يَميلُون إليه لحسن سيرتِه ، فاجتهدت فى الكَشْف عليه والتتبّع ، فلم أقِفْ له على خيانة ولا ارتفاق ، فأقامَ فى حبسى مُدّة . ثمّ إنّ أخاه أحمد بن خالد الصّريفينيّ ، أصلَحَ حالَه فى الحضْرة ، وكان متمكّنا منها ، فأخَذَ العملَ لأخيه محمّد كما كان ، وأخذَ الكتُبُ إليه ، وسبق بها كلَّ خبر . فبعث محمّد بن خالد الصّريفينيّ إلىّ عند ذلك يقول : ما هذا ! قد طال حَبْسى ، وكشفت علىّ فلم تجد لى خيانة ، وأشتهى أن تحضِرنى مجلسك ، وتسمع حجّتى ، وتزيل السُّفراء بينى و بينك ، على أن نتّفق على أمر . فطمِعتُ فيه ، وقدّرتُ فى نفسى الإيقاع به ، فأمرتُ بإحضارِه ، فلمّا دخل رأيتُ من كثرة شَعْرِه ، ووَسَخِه وتأذّيه بالجُبّةِ الصُّوف والقَيْدِ ما غمّنى ، فأجلسته بحضرتى وقلت : اذكرْ ما تريد ، فقال : خَلْوة ، فصرَفْتُ الناس ، فأخرج إلىّ الكتابَ بالظّرْف ، وقال : هذا كتابُ بعض إخوانك فاقرأه . فلمّا قرأْتُه وددْتُ أنّ أمّى لم تَلِدنى ، وعرقْتُ من فَرْقى[4] إلى قدمى ، وأظلمت الدّنيا فى عينى ، ولم أشُكَّ فى لبسِ جُبّة الصّوف والقَيْد والمصير إلى تلك الحال . فلمّا قرأت الكتاب قمتُ إليه ، وجلستُ معه ، قال :

---

(١) د ، م : « وضرب » .

(٢) تكملة من م .

(٣) ط : « بإهدائها » .

(٤) ط : « قرنى » .

لا تشغَلْ قلبك ، وابعَثْ من يأخذ ما فى رحلى . ففعلت ، وأحضرت المزيّن ، فأخذ من شعره ، ودخل الحمّام وخرج ، وقال : هاتِ طعامك ، فتغدينا جميعا ، وأنا أنظر إليه وهو لا يكلّمنى بحرف فى العمل ، ثمّ قال لى : أتأذنُ لى بالانصراف؟ فقلت : ياسيّدى ، هذه الدار وما فيها بأمرك ، فقال : لا ، ولكن أنصرف السّاعةَ وأستريح ، وأغدو إليك . ومَضَى ، ختم على الدّيوان وعلى ما فيه ، وسيّر إلى نوابِى ، فأحضَرَهم ، ووَكّل بهم ، وقال : ليس بك حاجةٌ أن تذكُرَ لى شيئا من أمْرِ البلد ، فإنّى أحْفَظُه وأعرفه ، وقد صار إليكَ من البلد كذا وكذا ، فأحضر الجَهابِذةَ وأمَرَهم بتسليم ذلك إلىّ — وأحضَرَ لى البغال الّتى كنت طلبتُها منه وأنا لا أفتح الدّيوان ولا أنْظُر فى شىء من أحواله — وأنت فى مصرَ ، فانصرف فى حِفْظِ الله ، وفى كَلاَءته . ثمّ إنّه خرج معى مشيّعاً ، فخرجتُ وأنا منْ أشكَرِ الناسِ له ، وأشَدّهم حياءً منه ، لما عاملتُه به ، وما عامَلَنى به .

وقال إبراهيم السراق[1] ، مولى أبى المهلَّب :

هبينى يامعــذّبتِى أسأتُ ... وبالهجران قبلكـــمُ بدأتُ
فأينَ الفضل منكِ فَدَتكِ نفسى ... علىّ إذا أسأتِ كما أسأتُ

وهذا مأخوذ من قول الحماسى :

هَبِينى ظَلُوما نِلْتِـه بمساءةٍ ... قِصاصاً، فأينَ الأخْذُ ياعزّ بالفَضْلِ!

ومن هذا البيت أَخَذ ابنُ زَيْدون ، وإياه حلّ .

وقال بعض الأقدمين :

هَبِينى امرَأً : إمّا بريئاً ظَلَمْتِهِ ... وإمّا مُسِيئاً تابَ منه وأعتبا
أقولُ التماسَ العُذْر لمّا ظلمتِنى ... وحمّلتِنى ذَنبا وما كنتُ مُذْنِبا
ليَهْنِكِ إشْماتُ العدوِّ بهَجْرِنا ... وقطعُكِ حَبْلَ الوُدّ حتّى تَقَضّبا

---

(١) « السواق » .

وقال بعضُ المحدثين :

فإن عاقبتَنى فبِسوءِ فِعْلى وما ظَلمتْ عقوبةُ مُستقِيدِ
وإنْ تَغفرْ فإحسانٌ جَديدٌ دعَوْتَ به إلى شكر جديدِ

وقال آخرَ :

فَهَبْنى مسيئاً كالّذى قلتَ ظالما فعَفْواً جميلا كىْ يكونَ لكَ الفضْلُ
فإنْ لم أكنْ للعَفْوِ منك لِسوء ما أتيتُ به أهْلاً ، فأنتَ له أهْلُ

وقال البُحْترىّ من قصيدة :

أُقِرُّ بما لَمْ أَجْنِهِ متفضِّلا إليكَ على أنّى إخالُكَ ألْوَمَا (١)
لِىَ الذنبُ معروفاً وإن كنتُ جاهلا به ولكَ العُتْبَى علىّ وأنْعمَا
وَمِثْلُك إنْ أبدَى الجميلَ أعادَهُ وإن بدأ المعروف عادَ وتمّمَا

ومن كلام القاضى الفاضل : يا من أنا عبده ، السّيئة أنا معترِف بأنّى كسبتها ، والخطيئة قد أحاطت بى حكما ، وأحاط بها الناس عِلما ، وقد أُستوجبتُ نار غضبك ، وتثقيف أدَبِك ، فإن عفوتَ فبحقّك ، فإنّك سيِّد عاف ، و إن عُوقبتُ فبحقّى لأنّى عبدٌ هاف ، فحاكِمْنى إليك ، ولاتُحاكِمْنى إلىّ ، و[إن] أخطأتُ فاعْذِرْنى ، فإنّى ابنُ آدمَ .

---

(١) ديوانه ٢ : ٢٢٨ .

٢٨ — وقوله :

إلاَّ يكنْ ذنبٌ فعَدلُكَ واسعٌ أو كان لى ذنبٌ ففَضلك أوسَعُ

إلاّ بكسر الهمزة ، أصلُه «إنْ لا »، مركّب من إن الشّرطيّة ، ولا النافية، فأُدغمت النونُ فى اللام ، ولهذا جاءت الفاء فى الجواب فى قوله : « فعدلُك » . وهذا البيتُ من قول البحترىّ ، من قصيدةٍ أوّلُها :

شوقٌ إليكَ تَفيضُ منْهُ الأدْمُعُ وجوًى عليكَ تضيق عنه الأضلُعُ

ومن هذه القصيدة قولُه :

يعتادُنى طَرَبى إليكَ فيغتلِى[1] وَجْدِى ويدعُونى هواكَ فأتبَعُ

وقال نُصَيب يَمدَح مولاه المَهدىّ :

تَلمّسْتُ:هل من شافعٍ لى فلمْ أجِدْ سِوى رحمةٍ أعطاكَها اللهُ تَشفَعُ
لئن جلّت الأجْرام مِنّى وأفظَعتْ لَعَفْوُك عن جُرْمِى أجَلّ وأوسَعُ

وقال إسحاق بنُ إبراهيم المَوْصلىّ للفضل بن الرَّبيع :

لاشىءَ أعظمُ من ذنبى سوَى أمَـــلى
فى حُسْنِ صفحِك عن جُرْمى وعن زَلَلى
فإنْ يكن ذا وذا فى القَـــدْرِ قد عَظُما
فأنتَ أعظمُ مِن ذنـــبى ومن أملى

وما أحسنَ قولَ الشّريف أبى الحسن علىّ بن الحُسَين المُقْبلىّ :

يا طاعِنِى بعِتَابٍ كاد ينفُــذنِى لو لم أكنْ لابسًا دِرْعًا من الأمَلِ[2]

---

(١) ديوانه ٢ : ٧٥ . (٢) ديوانه ٢٣٨ .

اخلَعْ علىَّ جديداً مِن رضاكَ فقد
رقَعْتَ بالعُذرِ ما خرّقتُ بالزَّلَلِ

وما أحسنَ قولَ الإمام الشافعيّ رضي الله عنه :

ولمّا قسا قلبي وضاقتْ مَذاهبي   جعلتُ الرّجا ـ ربّى ـ لعفوِك سُلّماَ[١]
تعاظَمنى ذَنبي فلمّا قرَنْتُه   بعفوِك ـ ربّى ـ كان عفوُك أعظَماَ

وقول أبي نُواس :

يا ربِّ إنْ عَظُمت ذُنوبى كثرةً   فلقد علِمْتُ بأنّ عفوَك أعظمُ[٢]
إن كان لا يرْجوك إلا مُحْسِنٌ   فمن الّذى يدعو ويرجو المجرم !

وكلٌّ هذا مأخوذٌ من قول الأوّل :

بنِي هاشمٍ عَفْوًا ، عفَا اللهُ عنكمُ   وإن كان ثوْبى حشوَ ثِنْيَيْهِ مُجرِمُ
لكُمْ حرَم الرحمٰنِ والبيتُ والصَّفاَ
وجُمعٌ ، وما ضمّ الحطيمُ وزَمْزَمُ
فإنْ قلتمُ بادَهْتَنا بعظيمةٍ   فأحلامُكم منها أجلّ وأعظَمُ

وأحسَنَ الّذى قال :

اغتنِمْ زَلّتى لتُحرِز فَضْلَ الْـ   ـعَفْوِ عنّى ولا يَفُوتَكَ شُكْرِى
لاَ تَكِلْنِي إلى التوسُّل بالعُذْ   رِ لعلّيَ ألاّ أقومَ بعُذْرِى

وقال إبراهيمُ بنُ المهدىّ يخاطب المأمون :

فإنْ لا أكنْ أهلاً لما أنتَ أهلُه   فأنتَ ـ أميرَ المؤمنين ـ له أهلُ
ففَضْلكَ أرجُو لا البراءة إنه   أبَى اللهُ إلاّ أنْ يكون لهُ الفَضْلُ

---

(١) ديوانه ٥٩ .   (٢) ديوانه ١٩٩ ، « وفيه فمن يلوذ ويستجير المجرم » .

وما أحسنَ قولَ السَّلاميّ :

تبسَّطْنا على الآثامِ لمّا رأيْنا العفْوَ من ثمرِ الذُّنوبِ

وقول ابن قلاقِس :

وغيرُ عجيبٍ أن أُوفيكَ مُجرماً أُنيب وأرجو في ذَراكَ مَتابَا (١)
فأسبِلْ رِداءَ العفوِ منكَ تكرُّماً فحَسْبِيَ كوني غِبْتُ عنكَ عقابَا

وهو مأخوذٌ من قول الأوّل :

ارْضَ لمنْ غابَ عنكَ غَيْبَتَهُ فذاكَ ذَنبٌ عِقابُهُ فِيهِ
لو لم يَنَلْه من العِقاب سِوَى بُعدِك عنه لكان يَكفِيهِ

ولقد زاد ابنُ زَيدونَ في هذا المَقام ، وأفْرَط في الخضوع والتوسّل ، وما أحقّه أنْ ينشِد قولَ المؤمَّل بن أميل :

إذا مَرِضْتُمْ أَتيْناكُمْ نَعودُكُمْ وتُذنِبون فنأتيكمْ ونَعتَذِرُ (٢)

وقول محمّد بن عبد الله بنِ المولَى :

وأبكِي فلا لَيلَى بكتْ من صَبابَةٍ لِذاكَ ولا لَيلى لِذِي الوُدّ تبذُلُ
وأخضَع بالعُتْبَى إذا كنتُ مذنِباً وإن أذنبتْ كنتُ الّذي أتوسّلُ

وما أحسنَ قولَ مُسلِم بنِ الوَليد :

ويخطِئُ عذري وجهَ جُرْمِيَ عِندَها
فأجني إليها الذّنبَ من حيثُ لا أدرِي (٣)
إذا أذنبتْ أعددْتُ عُذرا لِذَنبِها
وإن سَخِطتْ كانَ اعتذاري من العُذْرِ

---

(١) لم أجدهما في ديوانه . (٢) خاص الخاص ٩١ . (٣) ديوانه ٣٢ .

وقال العبّاس بنُ الأحنف :

إذا رضيتْ لم يَهْنِنِي ذلك الرِّضا لصحَّة عِلمِي أنْ سَيَتْبَعُه عَتْبُ[1]
وَأبكى إذا ما أذْنبتْ خوفَ عَتْبِها فأسألُها مَرْضاتَها ولها الذّنبُ

وقال أبو فِراسِ بن حَمْدان :

وكَنَى الرّسولُ عن الجْوابِ تَظرُّفاً
ولئن كَنَى ، فلقد علِمْنا ماعَنَى[2]
قلْ يا رسولُ ولاتُحاشِ فإنَّه لا بدّ منه أساءَ بى أم أحسَنَا
الذّنبُ لى فيما جناهُ لأنّنى مكّنْتُه من مُهْجَتِى فتمكّنا

قلتُ : مقتضَى الكلامِ كلّه أن يقول : « مكّنْته من مُهْجَتِى فتسَلّطا » أو فتحَرَّما ، أو فترعنّا ، وتركه لأجل القافية .

وما أحسنَ قولَ مِهْيار :

لا والّذى لو شاءَ لم أعتذِرْ فى حُبّه من حيثُ لَمَ أُذْنِبِ[3]
ما حَدَرَتْ ريح الصَّبا بعدَه انشامَها عن نفَسٍ طَيّبِ

وما أحسَنَ قولَ البُحترىّ :

عَفَا اللهُ عنكَ أما حُرْمةٌ تعودُ بعفوِك أن أبعَدَا[4] !
ألمْ ترَ عَبْدًا عدا طَوْرَه وَمَوْلًى عفاً ورَشِيداً هَدَى !
ومفسِدِ أمرٍ تلافيتَه فعادَ فأَصلحَ ما أَفسَدَا
أقِلْنى أقالَكَ مَن لم يزَلْ يَقِيكَ ويَصرفُ عنك الرَّدَى

(١) ديوانه ١٩
(٢) ديوانه ٤٠٣ .
(٣) ديوانه ١ : ٧٦
(٤) لم ترد هذه الأبيات فى ديوانه

وقوله أيضا :

إنَّ دونَ السُّؤالِ والإعتذارِ خطَّةً صعبةً على الأحرارِ (١)
فارضَ للسّائلِ الخضُوعَ وللمُذْ نبِ ذَنْبا فضاضةَ الإحْتقارِ
واستعِذْ منهما فبِئْس المقاما نِ لآلِ العُقولِ والأخطارِ

* * *

٢٩ـ وقوله : حنانَيْك قد بَلغ السَّيْل الزُّبَى ، ونالَني ما حَسْبي بِهِ وَكَفى .

حنانَيْكَ : تَثْنِيةحَنان ، وهوالرَّحمة ، يقال : حَنَّ عليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَحنانًا من لدُنَّا ﴾ (٢) ، أى رحمةً من عندنا ، وذكر عِكْرمة عن ابن عبّاسٍ رضى الله عنهما أنه قال : ما أَدْرِى ما الحنان ؟ وقولُهم : حَنانَيْك ، أى حَنانًا بعد حنانٍ ، وهو نصبٌ على معنى « نطلب » ، والعرب تقولُ : حَنانَيْك يا رَبّ ، أى نطلبُ رحمتَك .

قال امرؤُ القيس :

وَيَمْنَحُها بنو شَمَجَى بن جَرْمٍ مَعيزَهُمُ . . حَنانَك ذا الحنانِ (٣)

وغالِبُ ماجاء فى كلامهم على لفظ التَّثْنِية .

وقال طرَفة بنُ العَبْد :

أبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فاستَبْقِ بعضَنا حنانَيْكَ بعضُ الشَّرِّ أهوَنُ مِن بَعْضٍ (٤)

قال طرَفة بنُ العبدهذا حين أمر النّعمان بقَتْله ؛ يضرَب عند ظهور تفاوُتِ ما بين الشرَّيْنِ ، وهو كقولهم : « إنَّ من الشرّ خِيارا » ، وقوله : « بَلَغ السَّيل الزُّبَى » ، جمع زُبْيَة ، وهى حُفرة تُحفَر للأسَد إذا أرادوا صيده ، وأصلُها

---

(١) لم ترد هذه الأبيات فى ديوانه
(٢) سورة مريم : ١٣
(٣) ديوانه ١٤٣
(٤) ملحق ديوانه ٢٠٩

الرَّابية لا يَعلوها الماء ، فإذا بَلَغها السَّيل كان جارفاً مجحِفاً ، وهذا المثل يُضرَب لما تجاوز الحدّ .

قال المؤرّج : حدّثني سعيدُ بنُ السَّمّاك بين حرْب ، عن أبيه ، عن ابن المعتمِر ، قال : أُتِيَ مُعاذُ بنُ جبل بثلاثة نفرٍ قتلهم أسدٌ فى زُبْيَة ، فلم يَدْرِ كيف يفتيهم ، فسأل عليًّا رضِيَ الله عنه ، وهو مُحْتَبٍ بفناء الكعبة ، فقال : قُصُّوا علَيَّ خَبَرَكم ، قالوا : صِدْنا أسداً فى زُبْيَة ، فاجتَمَعْنا عليه ، فتدافَعَ الناس عليها ، فرمَيْنا برَجُلٍ فيها فتعلّق الرجلُ بآخَرَ ، وتعلّق الآخر بآخر ، فهووْا فيها ثلاثتُهُمْ ، فقضى علىٌّ رضى الله عنه : أنّ للأوّل رُبْع الدِّية ، وللثانى النِّصف وللثالث الدِّية كلّها ، فأُخبِرَ النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : لقد أرشَدَكم اللهُ للحَقّ .

ومِثلُ هذا المَثل : «قد بَلَغ الشِّظاظُ الوَرِكَين[1]» . الشِّظاظ : عُوَيد يُجعَل فى عُرْوة الجُوالِق . وكذا قولهم : « قدجاوَزَ الحِزامُ الطُّبْيَيْنِ »[2] ، الطُّبْي - بضم الطاء المهملة ، والباء الموحّدة ساكنة - للحافرِ والسِّباعِ كالضَّرْع لغيرها ، وكذا قولهم : «التقَتْ حَلْقَتا البطان[3]» والبِطان للقَتَب كالحِزام للسَّرْج ، وفيه حَلْقتان ، وكذا قولُهم : « التقَى البِطان والحَقَب » ، البِطان بمنزلة التصدير ، والحَقَب : الحبلُ الّذى يكون عندَ ثِيلِ البعير ، والثِّيل بالثاء المثلّثة المكسورة ، والياء آخِرِ الحروف ساكنةً واللام - وِعاءُ قضيب البعير .

حَسْبِي به وَكَفَى ، الحسب : الكفاية ، تقول : حسبي وحسبك درهم ، أى كافيك ، قال امرؤ القَيْس :

أَلاَ إنْ لا تَكُنْ إبلٌ فَمِعْزَى ... كأنّ قُرونَ جِلّتِها العِصِيُّ[4]
فَتَمْلأُ بَيْتَنَا أَقِطاً وسَمْناً ... وحَسْبُكَ من غِنًى شِبَعٌ ورِيُّ

(١) الميدانى ٢ : ١٢٤ . (٢) الميدانى ١ : ١٩٦ .
(٣) الميدانى ٢ : ١٨٦ . (٤) الميدانى ٢ : ٢٠٩ . (٥) ديوانه ١٣٦ .

قال أبو عبيدة : وهذا يَحتمِل معنيَين : أحدُهما يقول : أعطِ كلّ ما كان لك وراءَ الشِّبَع والرّى ، والآخَر القناعة باليسير يقول : اكتفِ به ولا تَطلُب ما سِوى ذلك ، والأوّل الوَجْه لقوله :

فَلَوْ أنَّمَا أَسْعَى لأدْنَى معيشةٍ كفاني ـ ولَمْ أَطْلُبْ ـ قليلٌ من المال[١]
ولكنَّما أَسْعَى لمَجدٍ موثَّلٍ وقد يُدرِكُ المَجْدَ المؤثَّل أمثالِي

وفى أمثالِ العرب : « حَسْبُك مِن شرٍّ سَماعُه »[٢] ، أى اكتفِ من الشرّ بسماعه ولا تعاينه ، ويجوز أن يكون المراد : يَكفِيك سَماعُ الشرّ وإن لم تُقدِم عليه ، ولم تُنسَب إليه .

وقال أبو عبيدة : أخبرنى هشامُ بن الكَلْبيّ أن المَثَل لأمِّ الرَّبيع بن زياد العبسيّ ، وذلك أن ابنها ، كان أخذ من قَيْس بنِ زُهير بنِ جَذِيمة دِرْعا ، فَعَرض قيسٌ لأمّ الربيع وهى على راحلَتِها فى مَسيرٍ لها ، فأراد أن يذهب ليَرْتهِنَها فى الدّرع ، فقالت : أين عزَب عنك عَقْلُك ياقيس ، أتُرَى بنى زياد مُصالحيك ، وقد ذهبتَ بأمّهم يميناً وشمالا وقال الناس ماقالوا أو شاءوا ! إنَّ حَسْبَك من شرٍ سَماعُه ، فذهبتْ كلمتُها مثلا .

وقالت بعض النّساءِ الشّواعِر :

سائِلْ بنا فى قَوْمِنا ولْيَكْفِ من شَرٍّ سَماعُهْ

وما أحسَنَ قولَ خالد بن المُهاجِر :

إذا حُجِبَتْ لم يَكفِكَ البدرُ فقدَها وتَكفِيك فقدَ البَدْرِ إن حُجِب البدْرُ
وَحَسْبُك من خَمْرٍ يَفوتُك رِيقُها ووَالله مامن رِيقِها حَسْبُك الخمرُ

(١) ديوانه ٣٩ .
(٢) الميدانى ١ : ١٩٤ .

وما أحسنَ قولَ أبي تمّام الطائيّ :

نامتْ همومىَ عنّى حينَ قلتُ لها حَسْبي أبو دُلَفٍ حَسْبي به وَكَفى[1]

وقال القاضى أبو بِشْر الفضل بن محمّد :

رفرَفتْ فوقَنا سحائبُ نعمَى أمطرتْنا السّرورَ فى كلّ حالِ
حسبيَ الله فى الأمورِ نصيراً ثمّ حسبي الأميرُ شمسُ المَعالي

وقال شمس الدين محمّد بن التّلمِسانيّ :

باللهِ ياليْليَ الطّويلَ لقدْ قصّرْتَ نوْمِي ولم تَعُد بِغَدِي
حسْبي وَحسْب الهَوَى وَحَسْبُك ما يَفْعَلُه الهَجْرُ بي فلا تَزِدِ

وقال العبّاس بنُ الأحْنَف :

إن كان يُرضيكمْ عذابِي وأن أموتَ بالهِجْرانِ والكَرْبِ[2]
فالسّمع والطاعةُ مِنّى لكمْ حَسْبي بما ترْضَوْن لى حَسْبي

* * *

٣٠ — وقوله : وما أُرانِى إلاّ لو أُمِرت بالسُّجود لآدمَ فأَبيت وَاستَكبرتُ .

يشير بهذا إلى قولِه تعالى : ﴿ وإذْ قُلْنا للملائكة اُسجدُوا لآدمَ فسَجَدوا إلاّ إبليسَ أَبَى واستَكبر ﴾[3] ، يَعنى لو كان ذنبي إليك ذنب إبليس لمّا أمره الله بالسُّجود لآدم ، فأبَى عن السُّجود واستكبر على آدم ، وقال: ﴿ أنا خيرٌ منه خلقْتَنى مِن نارٍ وخلقته من طِينٍ ﴾[4]، وهذا ذنبٌ عظيم،

(١) ديوانه ٢٠٤ .
(٢) ديوانه ٥٧ .
(٣) سورة البقرة ٣٤
(٤) سورة الأعراف ١٢

سقطتْ به درجة إبليس بعدما وصل إلى ما وصل ، وتقرّب بالعبادة إلى أن حظِىَ بين الملائكة ، ثمّ لُعِن وأبْعِدَ وأُهبِط إلى الأرض ، وأُخرِج من الجنّة وجُعِلت اللّعنة عليه إلى يوم الدِّين ، وصار عدوًّا لآدم وبنيه من الأنبياء والصالحين والأولياء والشُّهداء ، ولا يُذكر إلاّ مقرونا بالخِزى واللّعنة ، وأعدّ اللهُ له فى الآخرة العذاب المؤبَّد ، والخزى السرمد .

ويقال : إنّ إبليس أخزاه اللهُ تعالى ـ أوّل من أحدث القياس لأنّه قاس الطِّين على النار ، فلم يرضَ بالسُّجود لآدم ، ولهذا قال بشّار بن بُرْدٍ ـ قبّحه الله تعالى !

إبليسُ خيرٌ من أبيكمْ آدَمٍ ... فتنبّهوا يامعشرَ الفُجّارِ
إبليسُ مِن نارٍ وآدمُ طِينةٌ ... والطِّين لا يَسْمو سُمُوَّ النارِ

ثمّ إنَّ إبليسَ اتَّصف فى هذه القصّة بثلاث صفات : هنّ أردأُ ماتكون وهى : الإباء ، أى امتنع من فِعل ما أُمِر به ، والاستكبار ، وهو فعل الجَبَّارين ، والكفْرُ وهو شرُّ الثّلاث . وكان يمكنه الإباء دونَ الاستكبار والكُفْر والإباء والاستكبار دونَ الكفر ، فقال تعالى : ﴿ أَبَى واستَكْبرَ وكان من الكافرين ﴾ (١).

* ثلاثةٌ كلُّها تجْرِى على نَسق *

وقد ذكر الإمامُ محمّد بنُ عبد الكريم الشّهرستانىّ فى أوّل كتابه المِلل والنِّحْل ، عن شارح الأناجيلِ الأربعة ، وهى مذكورةٌ فى التّوراة صورةَ مُناظَرةٍ جرتْ بين الملائكة وبين إبليسَ بعد الأمرِ بالسُّجود .

(١) سورة البقرة ٣٤

قال إبليسُ للملائكة : إنِّي أُسلِّم أنّ إلهي هو خالقي ومُوجدي ، وهو خالقُ الخلْق ؛ لكنْ لي على حكمة الله أسئلة : الأوّل ، ما الحكمة في الخلْق ، لا سيّما وقد كان عالماً أنّ الكافر لا يستوْجب عند خلْقه إلاّ الآلام ؟ الثاني ما الفائدة في التّكليف مع أنّه لا يعود إليه منه نفعٌ ولا ضررَ ؟ وكلّ ما يعود إلى المكلّفين ، فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطةِ التكليف . الثالث ، هَبْ أنّه كلّفني بطاعته ومعرفته ، فلماذا كلّفني بالسّجود لآدم ؟ الرابع ، لمّا عصيتُه في ترْك السُّجود ، لِمَ لعنني ، وأوجب عقابي ، مع أنّه لا فائدة له ولا لغيرِه فيه ، ولي فيه أعظمُ الضّرر ؟ الخامس ، ثمّ لمّا فعل ذلك ، لِمَ مكّنني من دخول الجنّة ، وَوَسْوَسةِ آدم ؟ السادس : ثمَّ لمّا فعل ذلك ، لِمَ سلّطني على أولاده ، ومكّنني من إغوائهم وإضلالهم ؟ . السابع : لمّا استمهلتُ المدَّة الطويلةَ لِمَ أمْهلني ، ومعلومٌ أنّ العالم لو كان خالياً من الشرّ لكان ذلك خيراً !

قال شارح الأناجيل : فأوحَى اللهُ إليه من سُرادِقات العَظَمة والكبرياء ، ياإبليس ، إنك ما عرفتني ، ولو عرفتني ، لعلمت أنه لا اعتراض عليّ في شيء من أفعالي ، فإنني أنا الله ، لا إله إلا أنا ، لا أُسأل عما أفعل ﴿ وربك يخلق ما يشاء ﴾ [1] .

قال الإمام فخر الدين ـ قدس الله روحه ـ : واعلم أنه لو اجتمع الأولون والآخرون من الخلائق ، وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه لم يجدوا من هذه الشبهات مخلصا ، وكان الكلّ لازما .

قلت : قال بعضهم: إن سيف الدولة بن حمدان خرج يوما على جماعةٍ ، فقال

---

(١) الملل والنحل ١ : ٢٤ ، ٢٥ ، بتصرف .

قد عَلِمتُ بيتاً ، وما أحسَبُ أحداً يعمَل بيتًا آخَرَ إلاّ إن كان سيّدى أبا فِراس ، وأنشَدَهم :

لكَ جِسمِى تُعِلُّهُ فَدَمِى لِمْ تُحِلُّهُ

فابتدأ أبو فِراس فقال :

أنا إنْ كنتُ مالِكاً فلىَ الأمرُ كلُّهُ[1]

وَعكْسُ هذا قولُ القائل :

قريبٌ غيرُ مقتربِ ومؤتلِفٌ لمجتنبِ

له وُدِّى ولى منه دَواعِى الهمِّ والكرَبِ

أُواصلُه على سَبَبٍ ويَهجرُنى بلا سَبَبِ

وَيَظلِمُنى على ثِقةٍ بأنّ إليه مُنقَلَبِى

وما أحسَنَ قولَ من قال: جَلَّ جَنابُ الجلال ، أن يُوزَن بِميزانِ الاعتزال.

وقد اختَلَف قوم ، فقال بعضُهم[2] : إنّ إبليسَ ـ أخزاه الله تعالى ـ أوّل كافر بالله تعالى ، وعليه الأكثرون ؛ لأنه لم يكن قَبلَه إلاّ الملائكة ، وهم معصومون من الذّنوب .

واختلفوا أيضا فى إبليس ـ أخزاه الله ـ هل كان من الملائكة أولا ؟ والأكثرون على أنّه ليس من الملائكة ، لقولِه تعالى : ﴿ إلاّ إبليسَ كان من الجِنِّ ففَسَق عن أمرِ ربِّه ﴾[3] .

وقال الأقلُّون : إنّه كان من الملائكة ، لقوله تعالى: ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدمَ فسجدوا إلاّ إبليسَ ﴾[4] ، ولو لم يكن من الملائكة وتخلّف عن السجود ، لكان لا لوْمَ عليه ، وهذا ليس بشىء ؛ لأنّه كان فى جملة المأمورين بالسّجود ، ولهذا فَهِم هو الأمرَ ، واحتجّ لِنفسه بأنّه خيرٌ منه .

* * *

(١) ديوانه ٤٥٤ . (٢) كذا فى ط ، م ؛ وفى الأصل : « قوم » .
(٣) سورة الكهف ٥٠ . (٤) سورة البقرة ٣٤ .

قال محبّ الدين بن النّجار : قرأتُ على أبي عبدِ الله محمدِ بن أبي سعيد الأديب بأصْبهانَ ، عن أبي طاهر بن أبي نصر التاجر ، أنبأنا عبدُ الرحمن بنُ أبي عبدالله بنِ منده ، أخبرَنا محمّد بنُ عبد العزيز بن عبد الله اللّبّان الشيرازيّ يقول : سمعتُ أبا الحسن أحمد بن عبد الله الهاشميّ ، يقول : سمعت أبا القاسم الْجُنَيْديّ بن محّمد الصوفيّ ببغدادَ يقول : مازلتُ أطلبُ من الله في صَلَواتي خمسَ عشرة سنةً أن يُرِيَني إبليسَ؛ فلمّا كان يومٌ بنصف النّهار في صَيْف، وأنا قاعدٌ بين البابَين أسبِّح ، إذ دُقَّ البابُ عليَّ، فقلت : مَن ذا ؟ فقال : أنا ، قلتُ ثانيَ مرَّة : مَن أَنت ؟ قال : أنا ، قلت الثالثة : من أنت؟ قال : أنا ، قلتُ : لا يكون إلاّ إبليس ! قال : نعم ، فمضَيتُ ففتحتُ البابَ ، فدخل عليَّ شيخٌ عليه بُرْنُس من الشَّعْر ، وقَمِيصٌ من الصوف ، وبيَدِهِ عُكَّازة ، فحَيَّا ، فجئت أقعد مكاني بين البابين ، فقال لي : قمْ من مجلسي ، فإنّ بين البابين مجلسي . فقمتُ وقَعَد ، فقلتُ : بِمَ تُضِلُّ الناسَ ؟ فأخرَجَ لي رغيفا من كُمّه وقال لي : بهذا ، فقلتُ : بمَ تحسِّن إليهم أفعالَهمْ ؟ فأخرج لي مِرآةً ، فقال : أريهم سيِّئاتِهم حسناتٍ بهذه المِرْآة ، ثمَّ قال لي : قلْ ما تريد وأَوْجِزْ في كلامك ، فقلت : حيث أمرَكَ اللهُ بالسُّجود لآدَم ، لِمَ لم تَسْجد ؟ فقال : غَيرةً منّي عليه أن أسجُدَ لغيره . وغاب عنّي فلم أَرَه .

وقال ثابت البُنانيّ : بَلَغَنا أنّ إبليسَ قال : ياربّ ، إنّك خلقتَ آدم وذرّيَّته وجعلت بيني وبينهمْ عداوة؛ فسلِّطني عليها ، فقال الله تعالى : قد جعلتُ صدورَهم مساكن لك ، فقال : ياربّ ، زِدْني ، قال تجري منهم مَجرَى الدّم ، فقال : ياربِّ ، زِدْني : فقال : (١)لا يولد لآدم ولد إلا ويولد منك عشرة ، فقال : يارب زدني(١) ، فقال : ﴿ وَأَجْلِبْ عليهمْ بِخَيْلك ورَجِلِك وشارِكْهم في الأمْوال والأوْلاد ﴾(٢) . فَشكا آدمُ إبليسَ فقال : ياربِّ ، إنّك

(١ ــ ١) ساقط من ط .   (٢) الإسراء ٦٤ .

خلقتَ إبليس، وجعلتَ بينى وبينه عداوة، وسلّطتَه علىّ، وأنا لا أُطيقه إلاّ بك. قال الله تعالى: إنّه لا يُولَد لك ولدٌ إلاّ وكّلتُ به مَلَكين يحفظانه من قُرَناء السوء، فقال: يارِبِّ زدْنى، قال: الحَسَنة بعَشرة أمثالها، فقال: يارب زدْنى، قال: لا أحجُبُ عن أحدٍ من أولادِك التَّوبة مالم يُغَرْغِر.

وقد سأل بعضُهم فقال: وكيف يُؤمَر بالسُّجود لآدَم وذلك شِرْك، فإن السجود لا يكونُ لغير الله! والجوابُ أنّ السجودَ كان لله تعالى، وإنّما كان آدمُ قِبلةَ السجود.

وما أحسَنَ قولَ ظافر الحدّاد الإسكَنْدَرِىِّ:

أَنتَ المرادُ بنَظْمِ كلِّ قصيدةٍ بُنِيَت على الأفهامِ فى تبجيلِهِ
كسجُودِ أملاكِ السماء لآدَمٍ وسجودُهُمْ لله فى تأويلِهِ

وقال ابن الشِّبْل البَغْدادىّ:

ولاتحتقرْ ضعفَ[1] العدوّ ولاتقُلْ على كَيْدِه أسطو بكلّ مُساعدِ
فلو أنّ أهلَ الأرض صافَوْك ماوَفَوْا بفُرصةِ كيدٍ من عدوٍّ مُعاندِ
كما بِسجودِ الكلّ لَمْ يَنْجُ آدَمٌ وقد ضَرَّهُ منهمْ تَمنُّعُ واحدِ
فبدّله بُعْدًا بقُرْبٍ، وَوَحْشَةً بأنسٍ، وبالجنّات دارَ الشّدائد
ولم ينجِه أنْ صوّرَ الله خلقَه وعلّمه الأسماءَ مِن كَيْدِ حاسدِ

ولقد ظَرُف أبو نُواس فى قوله، وهو أوّل من ابتَدَع هذا المعنى، فقال:

---

(١) ط، م ز «كيد».

وليلةٍ قصَّرها طولُها | بالكرخ إذ مُتِّعتُ من خلوته
أشربُ من ريقته مرَّةً | ومرَّةً أشربُ من فضلته
في مجلسٍ يضحك تفاحُه | من الرياحين إلى خضرته
ليس يرى خلوتنا ثالثٌ | إلاّ الذي يشرب من خمرته
حتى إذا ألقى قناع الحيا | ودارت الخمرةُ في وجنته
مكّن من حلٍّ سراويله | وكان لا يأذنُ في قُبلته
دبَّ له إبليسُ فاقتاده | والشيخ نفّاعٌ على لعنته
تاهَ على آدمَ في سجدةٍ | وصارَ قوّادا لذرّيّته

وفى قوله أيضا :

سوءةً يا لَعينُ أنتَ اختلستَ الـ | ـناسَ غيظا عليهمُ أجمعينا
تِهْتَ لما سجدت فى سالفِ الدهـ | ـرِ وفارقتَ زُمرة الساجدينا
عندما قلتَ : لا أطيق سجوداً | لمثالٍ خلقتَه ربِّ طينا
حسدًا إذ خُلقتَ من مارجِ النا | رِ لمن كان مبدأ العالمينا
ثم قد صرتَ فى القيادة تسعى | يامجيرَ الزُّناة واللائطينا

وقوله من أبيات :

أبى السجودَ له من فرْطِ نخوته | وقد تحوّل فى مِسلاخِ قوّادِ

وما أحسن قولَ أبى إسحاق الغزّى هَجْواً :

خلقت لذنب إبليسَ اعتذاراً | فتاهَ وقال فُزْتُ وحقِّ جيدى
إذا كان ابنُ آدمَ مِثلَ هذا | فكيف ألامُ فى تركِ السجودِ !

ومِثل هذا قولُ ابن نباتة الأعور الموصلى :

شريفٌ أصلُه أصلٌ حميدٌ | ولكنْ فِعلُه غيرُ الحميدِ
ولم يخلُقْه ربُّ العرشِ إلاّ | لتنعطفَ القلوبُ على يزيدِ

وقال عبدُ الصَّمد بن بابك :

وقالوا توخَّيتَ مدْحَ الصغيرِ وقصَّرت بالرَّجل المحتشمْ
وإبليسُ أكبرُ من آدمٍ ولكنْ عَصَى ربَّه فانتقَمْ

قال الحسن بنُ رَشيق : كان إبراهيم بنُ علىّ بن تميم الُحصَرىّ قد أخذ فى عمل طبقات الشعراء على الأسنان ، وكنتُ أصغَر القوم سِناً ، فكتبتُ إليه :

مهلاً أبا إسحاقَ بالعالِم وقعت فى أضيقَ مِن خاتمِ
لو كان فَضْلُ السنّ مَندوحةً فُضِّلَ إبليسُ على آدمِ

فلمَّا بلغه هذان البيتان ، أمسَك عنه ، واعتَذَر منه ، ومات وقد سُدَّ عليه بابُ الفِكْرة ، ولم يَصْنع شيئا . وقلتُ أنا فى هذا المعنى :

تقدُّمُ المَوْلِدِ لم يُعتبَرْ لأنّه فى الفَضْل تدليسُ
لو اعتَبَرنا السنَّ يومَ العُلاَ رَقى على آدمَ إبليسُ

وقال صرّدرّ :

جَلسةٌ فى الجحيم أحرَى وأوْلَى من رحيلٍ يُفضِى إلى تَدْليس
ففِراراً من المذَلّةِ فى آ دمَ كان العصيانُ من إبليسِ

وقال ابن الصّقر الواسِطىّ :

كلُّ رزقٍ ترجوهُ من مخلوقٍ يَعتَريه ضَرْبٌ من التّعويقِ
وأنا قائلٌ ـ وأستغفرُ اللَّـ ـهَ ـ مقالَ المَجاز لا التَّحقيقِ :
لستُ أرضى من فِعلِ إبليسَ شيئا غيرَ تَرْكِ السّجود للمخلوقِ

٣١ — وقوله : وقال لِى نوحٌ : ارْكَبْ معنا ، فقلت : سآوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنى من الماء .

يشير بهذا إلى قصَّة نوحٍ عليه السلام لمَّا جاء الطُّوفان ، وصعد نوحٌ فى السَّفينة بمَن آمَنَ معه ، وقال لابنِه : ﴿ يا بُنَىَّ ارْكَبْ معنا ﴾ قال : ﴿ سآوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنى من الماء (١) ﴾ .

قيل : انّ اسمَ ابنِ نوحٍ كَنْعان ، أو يام – وكان كافراً ؛ وقيل : إنَّه كان ابن امرأته ، فلما أحَسَّ نوح عليه السلام بالطوفان ، رَكِبَ هوَ ومن آمَن معه ، وكانوا ثمانين آدَمِيًّا – واختُلِف فى ذُكرانهم وإناثِهم – وحَمَل معه من كلٍّ زَوْجين اثنين ، ﴿ ونادَى نوحٌ ابنَه وكان فى مَعزِلٍ ﴾ أى فى مكانٍ منقطعٍ عن السفينة ، أو عن دِينِ الله ، ﴿ يا بُنَىَّ ارْكَبْ مَعَنا ولا تَكُنْ مع الكافِرين قال سآوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنى من الماء قالَ لا عَاصِمَ اليومَ مِنْ أمرِ الله ﴾ ، أى مِن عذابِ الله ﴿ إلاَّ مَنْ رَحِمَ وحالَ بَيْنهما الموجُ فكانَ من الْمُغْرَقين ﴾ (١) ، لأنّ الطُّوفان عمّ الأرضَ جميعا ، وعلا الجبالَ قدرَ أربعين ذِراعا ، وقيل : خمسة عشَر ذراعا .

وقيل : إنَّه قال له نوح : يا بُنَىَّ اركبْ معنا بشرط الإيمان . قال الحَسَن : إنه كان منافقاً فى إيمانِه . وروى أنه قيل : لو رَحم اللهُ أحدًا يومئذٍ لرَحِم أمَّ الصبىِّ ، فإنَّها كانت تحبّه حُبًّا شديدا ، فخافت عليه ، فخرجتْ به إلى الجبل حتّى بلغتْ ثُلُثه ، فبلغها الماء ، فبلغتْ به ثُلثَى الجبل ، فبلغها الماء ، ثمّ استوت به إلى أعلَى الجَبَل ، فبلغ الماءُ رَقَبتَها ، فرفَعَتْه بيديها ، فذهبَ بهما الماءُ .

---

(١) سورة هود ٤٢ ، ٤٣ .

ومِن شِعر الفَرَزْدق يُعرِّض بالحجّاج بن يوسفَ فى مَدْح سليمانَ بن عبدِ المَلِكِ بن مَرْوان :

فلمّا طَغى الحجّاج حين طغَى به غِنًى قال إنّى مُرْتَقٍ فى السَّلالِم [(١)]

وقال كما قال ابنُ نوحٍ سأرْتَقِى إلى جَبَلٍ مِن خَشْيةِ الماء عاصِمِ

* * *

٣٢ – وقوله : وأمرْتُ ببنـاءِ صَرْحٍ لعلِّى أَطَّلِع إلى إلهِ مُوسى .

يشير بذلك إلى فِرْعون حين أمرَ هامَانَ أن يَبنِىَ له صَرْحا ، لِيَطّلع إلى إله موسى ، لأنّ موسى عليه السلام لمّا جاء إلى فرعونَ وأدّى رسالةَ ربِّه ، وأَمرَه بالإيمان ، قال فرعون : ﴿ يأيُّها الملأُ ما علمت لـكمْ من إله غيرى فأوقِدْ لى ياهامَانُ على الطّين فاجْعلْ لِى صَرْحا لعلِّى أَطَّلع إلى إله موسى وإنّى لأظُنُّه من الـكاذِبين ﴾ [(٢)] .

الصَّرْح : القَصْر ، وفِرْعون أوّل من طَبَخَ الآجُرّ بالنّار ، وبَنَى به . وذكروا أنَّ هامانَ جمع خمسين ألف بنّاء سوى الأتْباع والأُجَراء ، ومَن يَطْبخ الآجُرّ ، ويعمل الجِصَّ ، ويَنحِتُ الخَشَب والأبواب ، ويضرب المسامير ، حتّى ارتفع الصَّرْح ارتفاعا لم يَبلُغه بنيانُ أحدٍ من الخلق ، جعله اللهُ فتنةً لهم ، ولمّا فرغ ارتقاه ، ورمى نُشّابةً نحو السماء ، فعادت مُلطّخة بدَم ، فقال فرعون: قتلتُ إلهَ موسى ـ أو إلهَ السماء ـ وكان يَصعَد إلى أعلاه على البَراذِين ،

---

(١) ديوانه ٨٥٣ .

(٢) سورة القصص ٣٨ .

فبعث اللهُ عزَّ وجلَّ جبرائيلَ عليه السلام ، فضرب الصَّرْح بجَناحِه ، فتقطّع ثلاثَ قِطَعٍ ، فلم يبقَ أحدٌ ممّن عمل فيه شيئًا إلاّ هلك .

وقيل : إنّه وقعتْ قطعةٌ على عسكر فرعونَ ، فقتلتْ منهم ألف ألف رجل ، ووقعتْ قطعةٌ في البحر ، ووقعتْ قطعةٌ في المَغْرِب .

وقال بعضهم لآخَر : إلى أين يا هامان ؟ قال : أبني لكَ صَرْحًا يافرعون !

وما أحسن قولَ عُمارةَ اليمَنيّ يذكر مصرَ :

هيَ الصَّرْح إلاّ أنّ هامان لم يَشِدْ بِناهُ ، ولا استَمْطاه فرعُون لِلكُفْرِ
تنزّهتْ عن فخرٍ بمصرَ وملكِها وقد عدَّه فرعونُ قاضيةَ الفَخْرِ

* * *

٣٣ — وقوله : وعكَفْتُ على العِجْل .

يشير بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ واتَّخذَ قومُ موسى من بعدِه مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا له خُوار ألم يروْا أنّه لا يكلّمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴾[1] .

لمّا واعَد الله موسى لِيقاته وهو أربعون ليلةً ، كان قومُ موسى قد أمِنوا مِن عدوِّهم ودخلوا مصر ، ولم يكنْ لهم كتابٌ ولا شريعة ينتهون إليها ، فوعَدَ اللهُ موسى أن يُنزِّل عليه التوراة ، فقال موسى لقومه : إنّي أذهبُ إلى ربّي ، لآتيكم بكتابٍ فيه بيانُ ماتأتون وما تذَرُون ، وواعَدهم أربعين ليلةً ؛ ثلاثين من ذي القَعْدة وعشراً من ذي الحِجَّة ، واستَخلَفَ عليهم أخاه

---

(١) سورة الأعراف ١٤٨.

هارون ، فلمّا جاء الوعْد أتى جبريلُ على فَرَس الحياة ، لا يمرّ على شيء إلاّ حَيِيَ ، فلمّا جاء رآه السامريّ — وكان رجلا صائغا يقال اسمه منجا ، من أهل كَرْمان أو من أهل باجَرْمَى ، أو كان من بنى إسرائيل من قبيلةٍ يقال لها : سامرة ، فرأى مواضع الفَرَس تخضرّ ، وكان منافقا ، من قومٍ يَعْبُدون البَقَر — فقال : إنّ لهذا لشأنا ، فأخذ قبضةً من تُربةِ حافرِ فرسِ جبريل ، وأُلقى فى رُوعِ السامريّ أنّه إذا ألقى فى شيء غيّره . وكان بنو إسرائيلَ قد استعاروا حُليًّا كثيرةً من قومِ فرعون حين أرادوا الخروجَ من مصرَ بعلّة عُرْسٍ لهم . ولمّا أهلَكَ اللهُ فرعونَ وقومَه ، بقيتْ تلك الحلىُّ فى أيديهم ، فقال السامريّ لبنى إسرائيل : إنّ الحُلِيّ التى استعرتموها غنيمة لا تَحِلّ لكم ، فاحفِروا حُفْرَةً وادفِنوها فيها حتّى يرجع موسى من مِيقات ربِّه ، فيرى رأيَه فيها ، أوأنّ هارونَ أمرَهم أن يُلقُوها فى حُفْرة ، فلمّا اجتمعت الحُلِيّ صاغها السامريُّ عِجْلا فى ثلاثةِ أيّام ، ثمّ ألقى القبضةَ الّتى أخذَها من أثرِ حافرِ فرسِ جبريل ، فخرج عِجْلاً من ذهبٍ ، مرصّعاً بالجواهر ، من أحسنِ مايكون ، وخارَ خَوْرَةً ، وكان يَمشى ويَخُور ، فقال السامريّ : هذا إلهُكم وإلهُ موسى نَسِيَه هاهنا وخرج يَطْلُبه . وكان بنو إسرائيل قد أخلفوا المَوعِد ، وعدُّوا اليومَ مع الليلةِ ، حتّى مَضَى عشرون يوما ولم يَرجع موسى ، فوقَعوا فى الفِتْنة فى العِشْرين ، فعكَف على عِبادة العِجل ثمانيةُ آلافٍ يَعبُدونه ـ أو كلُّهم عَبَدوا العِجْل إلاّ هارون مع اثنَىْ عشَرَ رجلا ، وهو الصَّحيح ، أو عَبَدوه أجمعين إلاّ هارون ـ فأوحَى اللهُ إلى موسى : إنّا قد فَتَنّا قومَك ، فرجَع إليهمْ غضبانَ أسِفا ، وقال ﴿ ياقومَ إنّكم ظَلَمْتمْ أنفُسكم باتّخاذكِم العِجْلَ فتوبوا إلى بارِئكم فاقتُلوا أنفسَكم ذَلكمْ خيرٌ لكم عندَ بارِئكم فتابَ عليكمْ إنّه هو

التوّاب الرحيم﴾[١] أى ليقتل البرىءُ منكم المُجرِم. فقالوا : نَصْبِر لأمْر الله تعالى، فجلَسوا فى الأفْنِية مُحتَبِين وقال لهم : من حَلَّ حبوَته ، أو مَدّ طرْفه إلى قاتله ، أو اتّقاه بيَده أو برِجْله فهو مَلْعون غيرُ مَقْبول التوبة ، فأصْلَتَ القومُ عليهم الخناجِر . وكان الرَّجل يرَى ابنَه أو أباه ، أو أخاه أو صديقَه ، أو جارَه يُقتَل فلا يَقدِر أن يُدافِع عنه ، وقالوا : ياموسى ، كيف نَفعَل ؟ فأرسَل اللهُ عليهم سحابةً سوداءَ ، وأصبحوا لا يُبصِر بعضُهم بعضا ، وكانوا يقْتلونهم إلى المَساء ـ ولما كثُر القتْل دَعَا موسى هارون وبَكَيا ، وتَضرّعَا إلى الله وقالا : يارِبِّ ، هلكتْ بنو إسرائيل ، فكشَفَ اللهُ السّحابة وأمرَهم أن يكُفّوا عن القتْل ، وكان عددُ القتْلَى سبعين ألفاً ، فأوحَى اللهُ إلى موسى : أما يُرضِيك أن أُدْخِلَ القاتلَ والمقتولَ الجنّة !

وقال بعض الشّعراء :

سئِلتُ عن موسى وموسى ما الخبَرْ ؟ فقلت : شيْخان كقسمى القَدَرْ
الفرقُ بين الموسيَيْنْ قد ظَهَرْ موسى بنُ عِمرانَ ومُوسى بن الظَّفرْ

موسى بن الظّفَر هو السامِرىّ .

* * *

٣٤ — وقوله : واعتَدَيْتُ فى السّبْت .

يشير بذلك إلى ما اُعتَمَده بنو إسرائيلَ فى السّبت من انتهاكِ حُرمَتِه قال تعالى : ﴿ولقد عَلِمْتُمُ الّذين اعتدَوْا منكمْ فى السّبت فقلنا لهم كونوا قِردةً خاسِئين﴾[١] ، اعتدوا ، أى جاروا .

كان بنو إسرائيلَ فى زَمَن داودَ عليه السلام بأرضٍ يقال لها : أَيْلة[٢] ، حرّم اللهُ عليهمْ صيدَ السّمَك يومَ السبت ، فكان إذا دخل السّبت لم يَبقَ

(١) البقرة ٦٥ . (٢) فى الطبرى : « قرية بين أيلة والطور يقال لها مدين » .

حُوتٌ إلا اجتمع هناك ، يَخرُجْنَ من الماءِ حتّى لا يُرى الماء من كثرتها ، فإذا مَضى السّبت تفرّقْنَ فلا يُرى منها شيء ، فذلك قوله تعالى : ﴿ إذْ تأتِيهم حِيتانُهم يَوْمَ سَبْتِهِم شُرّعاً ويومَ لا يَسْبِتُون لا تأتيهم . . .[1] ﴾ الآية .

ثم إنّ الشيطان وَسْوَسَ لهم وقال : إنّما نُهِيتم عن أخذها يومَ السبت ، فعَمَد رجالٌ ، فحَفَروا حِياضاً نحوَ البحر ، وشرعوا[2] منها إليها الأنهار ، فإذا كان عَشِيَّة الْجُمُعَة فتَحوا تلك الأنهار ، فأقبَل الموجُ بالحيتان إلى الحِياض ، فلا تقدر على الْخُروج لبُعْد عُمْقِها ، وقِلّةِ مائها ، فيأخذونها يومَ الأحد . وكانوا يسوقون الْحِيتانَ إلى الْحِياض يومَ السبت ثم يأخذونها يوم الأحد ، وكانوا ينصبون آلاتِ الصّيْد يومَ الجمعة ، ويُخرِجونها يوم الأحد ، وفعلوا ذلك مدّة ، فلم يُنزِلْ بهم عُقوبةً ، فقالوا : ما نرَى إلاّ أنه قد أحَلَّ لنا السّبت ، فأخَذوا وأَكَلوا ومَلّحوا وباعوا ، وكَثُر مالُهم ، فلمّا فعلوا ذلك صار أهلَ القَرْية ــ وكانوا نحو سَبْعِين ألفا ــ ثلاثةَ أصناف : صِنْفٌ أَمسَك ونَهَى ، وصِنْفٌ أمسَكَ ولم يَنْهَ . وصِنْفٌ انتَهكَ الْحُرْمَة . وكان النّاهون اثنى عشر ألفا ، ولمّا أبى الْمُجرِمون قبولَ نُصْحِهم قالوا : والله لانُساكِنُكم ، فقَسَموا القريةَ بِجدار ، وتحيّزوا كذلك سنتين ، فلعَنَهم داودُ ، وغضِب عليهم لإصرارهم على المعصية ، فخرج النّاهون ذاتَ يومٍ من دِيارهم ، ولم يَخرُج من المجرمين أحدٌ ، ولم يَفتَحوا لهم بابا ، فلمّا أبطئوا تسوّروا عليهم الحائطَ ، فإذا هم جميعا قِرَدةٌ لهم أذنابٌ يتعاوون .

وقيل : صار الشّباب قِرَدة ، والشيوخُ خنازير ، فمكثوا ثلاثةَ أيام ، ثمّ هلكوا ، ولم يَبقَ مَنْ مُسخ فوق ثلاثةِ أيّام ، ولم يتوالَدوا[3] .

قال مجاهد : مُسِختْ قلوبُهم دونَ صُوَرِهم ، وهذا خلافُ الإجماع ومانَطَق

---

(١) الأعراف ١٦٣
(٢) ط : «شقوا» .
(٣) الخبر في تفسير الطبرى ٢ : ٢٦٩ .

به القرآنُ العظيم . وفى الأمثال المولّدة : عليه ما على أصحاب السّبت - يعنون بذلك اللّعنة .

كان ابن الرّومىّ مَنْهوماً فى الأكْل ، وكان يُعجبه السّمك ، فوعده أبو العبّاس أحمد المزيدىّ(١) أن يَبعث إليه كلَّ يوم سبتٍ وظيفةً من السّمك ، لاتنقطع عنه ، ثمّ قطعه ، فقال :

ما لحيتاتِنا جَفَتْنا وإن أخْـ ـلَفَتِ الزائرين منتظريهِمْ
جاء فى السّبتِ زَوْرُهم فأتَدْنا من حفاظٍ عليه ما يكفيهِمْ
وجعلناهُ يومَ عيدٍ عظيمٍ فكأنّا اليهود أو نَحْكيهِمْ
وأراهُمْ مصمّمين على الهَجْـ ـرِ فلِمْ يُسْخِطون مَنْ يُرضيهِمْ !
قدسُبِتْنا وما أتَدْنا وكانوا يومَ لايَسْبِتون لا تأتيهم

ولمّا وقع أبو فِراس بن حَمْدانَ فى أسْرِ الرّوم أمر المَلِكُ أنّ الأسرى يتزاورُون يومَ السّبت ، فقال :

جعلوا الالتقاء فى كلِّ سبتٍ فجعلناه للزيارة عيدا
وشَرِكْنا اليهودَ فيه فكِدْنا رغبةً فيه أن نعود يهُودَا

وقال علاء الدين الوَداعىّ فيمن وَعَدَه بسمك :

يامالكاً صِدْقَ مواعيده خَلّى لنا فى جُوده مَطْمَعا
لم نَدْرِ فى السّبت فما بالُنا لَمْ تأتِنا حيتانُنا شُرّعا

وقال ابن الزّقاق الأندلسىّ :

وحبّبَ يومَ السّبْت عِنْدِى أنّنى ينادِمُنى فيه الّذِى أنا أحببتُ(٢)

---

(١) ط : « المرثدى » .   (٢) ديوانه ١١٣ .

ومن عَجبِ الأشياء أنّيَ مُسلمٌ حَنيفٌ ، ولكنْ خيرُ أيّامِي السَّبتُ

* * *

٣٥ — وقوله : وتَعاطَيْت فعقَرْت .

يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿ إنّا مُرْسِلُو النّاقةِ فتنةً لهمْ فارْتقِبهم واصطَبِرْ * ونَبِّئهم أنّ الماءَ قِسمةٌ بينهمْ كلُّ شِربٍ مُحتَضَرٌ * فنادَوْا صاحبَهم فتعاطَى فعقَرَ ﴾[1] .

كانت ثمودُ هذه هي عادٌ الأخرى ، وتسمّى عاداً الصّغرى ، وكان الله سبحانه وتعالى قد أهلَكَ عاداً الأولَى . ثم إنّ الله سبحانه استخلَف عاداً الأخرى ، وكانوا قوما عَرَبا ، وكانوا يَسكُنون الحِجازَيْن : الحِجازَ والشّام إلى وادى القُرى ، فانتشرُوا فى تلك الأرض وكفَروا ، وعَبَدوا غيرَ الله ، فبعَثَ إليهم صالحا ، غلاما شابًّا ، فدعاهم حتى شمِط ولم يتّبِعْه منهم إلا قليلٌ مستضعَفون ، فسألوه أن يُرِيَهم آية ، فقال : وأىّ آيةٍ تريدون ؟ قالوا : تخرج معنا إلى عِيدنا وندعو آلِهتَنا ، وتدعو أنت إلٰهك ، فمن استُجيب له اتّبعناه . فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم ، وخرج صالحٌ إلى الله تعالى ، فقال له جندع بن عمرو سيّد ثمود : ياصالح ، أخرِجْ لنا من هذه الصّخرة ناقةً جوفاء ، وبْراء عُشَراء[2] ، فإن فعلت ذلك صدّقناك ، وآمنا بك . فأخذ مواثيقهم على ذلك ، وصلَّى ركعتين ، ودعا ربَّه ، فتمخّضَت الهَضْبة ، فلما نَظروا إليها وقد انتفَضتْ تصدّعتْ عن ناقةٍ كما وَصفوا : جَوْفاء ، وَبْراء عشَراء ، بين جنبيْها ما يَعلمه الله تعالى . فآمن به جندع ومَنْ كان معه من رَهْطه ، وأرادت أشرافُ ثمودَ أن تؤمن ، فنهاهم ذُؤابُ بن عمرو ومَنْ شايعه ، وردّهم عن الإسلام ، وكان لابن عمرو هذا ابن عمٍّ يقال له : شهاب ، عزيز منيع أراد أن يُسلم فنهاه ذؤاب ، ورباب والحباب ، وصاحبا الأوثان[3] ، وفى ذلك قال شاعرهم[4] :

---

(١) سورة القمر ٢٧ ـ ٢٩ . (٢) حاشية الأصل : « العشراء التى تشبه البخت »

(٣) فى ابن كثير : « ذؤاب بن عمر والحباب صاحبا أوثانهم ، ورباب بن صمعر » .

(٤) ابن كثير : « مهرش بن غنمة بن الذميل » .

وكانت عُصْبةٌ من آلِ عَمرٍو ... إلى دِينِ النبيّ دعَوْا شِهابا[1]
عزيزَ ثمودَ كلَّهمُ جميعاً ... فهمّ بأن يجيبَ ولو أجابا
لأصبحَ صالحٌ فينا عَزِيزاً ... وما عَدَلوا بصاحِبِهم ذُؤابا
ولكنّ الغُواةَ مِن آلِ حُجْرٍ[2] ... تَوَلَّوْا بعد رشدِهمُ ذِبابا

ويقال: إنّ الناقة تمخّضتْ بعد انفِصالها، وولَدَتْ سَقْبا، فمكثتْ في أرضهم ترعَى الشجر، وتشرب الماء، وأخبرهم صالح عليه السلام أن الماء قِسمةٌ بينهم، لها يوم من الشِّرب ولهم يوم. وكانت تدخِل رأسها في بئر لهم، يقال لها: بئر الناقة، فإذا رفعتْ رأسها تفاحَجَتْ لهم، فيحلبوها ويَشْرَبون ويدّخِرون، وكانت تَصيف بظهر الوادى، فتهرب منها المواشى، وتشتو ببطن الوادى فتهرب منها المواشى. وكانت ترعَى بوادى الحِجر، وكانت فيه امرأة يقال لها: عنيزة، لها بناتٌ حسان ومال، وامرأة أخرى يقال لها: صَدُوق، بنت المحيا صاحب أوثانهم، وكانتا من أشد الناس لثمودَ عداوةً لصالح، وكان زوجها أسلم، وأنفق مالها على مَنْ آمن بصالح، فدعت مصدع ابن بهرج بن المحيا[3]، وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة. ودعَت عنيزةُ قُدارَ ابن سالف ـ وكان رجلا أحمر أزرقَ العيْن، وُلد لغير رِشْدة ـ فانطلَقا واستنْشَدا غُواةَ ثمود، فاتبعهما تسعة نَفَر، فرصدوها حين صدرت عن الماء، وكمن لها قدار في أصل صَخْرة، ومصدع في أصل أخرى، فرماها مصدع، فانتظم عضَلةَ ساقها، وخرجت عنيزة، وأمرت بنتها فسفرَتْ عن وجهها لقُدار، ثم أمرته فشدّ على الناقة بسَيْفه، فكشف عن قوائمها، فخرّت، ورغَت رغاةً واحدة، تحذِّر سَقْبَها، ثم طعن في لَبَّتها فنحَرها، وانطلق سَقْبُها حتى أتى جَبَلا ضَيِّقا، ثم أتى صخرةً في أعلى الجبل. فأتاهم صالح، فلما رأى الناقة قد عُقِرت بكى، وقال: انتهكتُم

---

(١) البداية والنهاية ١: ١٣٤.   (٢) ط: «آل عمرو».
(٣) ابن كثير: «مصدع بن مهرج».

حرمةَ الله فأبشروا بعذابِ الله. ثم اتبع السَّقْبَ أربعةُ نفرٍ من التسعة، فرماه مصدع فانتظم قَلْبَه، ثم جرَّه برِجْله فأنزله، ثم ألقوا لحمه مع لحمها، وقالوا لصالح: متى يكون ذلك؟ كالمستهزئين به، وما آيته؟ فقال: تُصبحون غداة مؤنس — يعنى يومَ الخميس — وجوهكم مصفرَّة، وتُصبحون يومَ العَروبة — يعنى يومَ الجمعة — وجوهُكم محمَرَّة، ثم تُصبحون يومَ شِيار — يعنى السَّبت — وجوهكم مسوَدَّة، ثم يصبِّحكم العذابُ يومَ أوَّل — يعنى الأحَد. ثم إنَّ هؤلاء التّسعة همُّوا بأن يبيِّتوا صالحا، وقالوا: إن كان صادقا كنّا قتلْناه، وإن كان كاذبا كنا ألحَقْناه بناقتِه. فأتَوْه ليلا وقد منعتهم الملائكةُ بالحجارة، فلمَّا أبطئوا جاءت أشياعُهم، فوجَدُوهم مشدَّخين، فقالوا: ياصالح، أنت قتلتَهم! وهمُّوا به، فمنعَهم عشيرتُه. وأصبَحوا صبحة ليلتئذ مصفرة وجوههم، فعلموا أنّه صدقهم، فلما كانت ليلة الأحد، خرج صالحٌ وَمن آمَنَ معه من بينهم إلى أرض الشام، فنزل رَملة بفلسطين، فلمَّا كان ضُحَى يوم الأحد أخذتْهم الصَّيحة، فلم يَبقَ منهم كبيرٌ ولا صغيرٌ إلاَّ هَلكَ، إلاَّ جارية مُقْعَدة كافِرة بصالحٍ، أطلق لها رِجْلَيها بعد ما عايَنَتِ العذاب، فأخبرت بما حلّ بثمود. ثم إنّها استسقت الماء فشربت وماتت. وفيها قال بعض شعرائهم:

يا فَعْلةً ما أتَتْ قوما بمُرْدِيَةٍ … كانوا شِراراً وما كانوا بأخيارِ

كانوا بأنْعَمِ عيشٍ غير مكتتمٍ … فى مجلس بين جنّاتٍ وأنهارِ

لا يَرْهَبون من الأعداء بائقةً … وقع السُّيوفِ ولا نَبْضًا بأوْتارِ

فعاجلوا ناقةً لله راتعةً … قد أنذَروها وكانوا غيرَ أبرارِ

إذا تَذكَّرتُها رفَّت على كَبدى … حرارةٌ مِثل لَذْع الكَيِّ بالنارِ

قادُوا قُداراً ولحمُ السَّقْب بينهُمُ … هل للعجول وهَلْ للسَّقْب من ثارِ!

ففاضَ دَمْعى ولم أملِكْ له عبرا … إلاَّ الدّعاء وتَصويتاً بأسحارِ

وقيل: إنَّ الصاعقة لمَّا أخذتْهم، صارت وجوهُهم كأنما طُلِيَتْ بالقار، وكانوا يَقلِّبون أبصارَهم إلى السَّماء مرَّة، وَإلى الأرض مرَّة، ولا يدرون من

أين يأتيهم العذاب ! وتقطَّعتْ قلوبُهم فى صُدورِهم ، ولم يُسلِم غيرُ الجارية المُقعَدة الَّتى أتت تُخبِر أهلَ وادى القُرَى ، ورجل كان بالحرم اسمُه أبو رغال ، منعه الحَرَمُ من العذاب ، فلمَّا خرج أصابه ما أصابَهم ، فدُفِن به ومعه غُصْن من ذَهَب ، وأخبرَ النبى صلى الله عليه وسلم بقَبْرِه ، فابتدَرُوه بأسيافِهم ، فحَفَروا عنه ، فوَجَدوا الغُصْن .

وقيل إن صالحاً ابتعثه الله لهم ، وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، فأقام فى دعوتهم عشرين سنة .

وقيل: إنّ صالحا لمَّا قيل له: أدرِك الناقةَ فقد عُقِرَتْ ، فأَقبَل ، وخرجوا يعتذِرون إليه ، ويقولون : إنما قَتَلها فلان ، فقال لهم : أدرِكوا سَقْبَها ، فإن أدرَكْتُمُوه فعسى أن يُرفَع العذابُ عنكم ، فأدرَكوه ، فرَغَا ثلاثا ، وانفجرتْ له الصَّخْرة فدَخَلها ، فقال صالح : قد أنذَرَكم ثلاثا ، ويحلُّ بكم العذاب ، فلمَّا كان بعدَ ثلاث وَقَع بهم العذاب على ما تقدَّم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ تمتّعُوا فى دارِكم ثلاثةَ أيَّام ذلكَ وعدٌ غيرُ مَكْذُوب ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ إذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾[2] ، أصلُ الانبعاث الإسراع ، وأشقاها ثمود ، أى أشقَى ثمود ، لأنَّه الَّذى باشَرَ العَقْر .

وقيل : فى قوله تعالى : ﴿ ولا يَخافُ عُقْبَاها ﴾[3] ضمير يرجع إلى قُدارِ ابنِ سالِف عاقِرِ النَّاقة ، معناه فَعَل فَعْلَتَه الذَّميمة ، وماخافَ عاقبتَها . وقوله تعالى: ﴿فتعاطَى فعقَر﴾[4] ، أى أتى أمراً عظيما ، يقال : فلانٌ يتعاطَى المنكَر .

قيل :إنّ جعفرَ بنَ سليمانَ كان شديدَ البُخْل على الطعام ، فرُفِعتْ المائدة يوماً من بين يديه ، وفيها دجاجة ، فوَثَب عليها بعضُ بنيه فأكل منها ، وأعيدَتْ من الغَدِ ، فلما رآها وقد أُكِل منها ، قال: مَنْ هذا الذى تعاطَى فعقر ؟ قالوا : ابنك فلان ، فقطع أرزاق بنيه كلهم ، فلما طال عليهم ذلك قال :

---

(١) سورة هود ٦٥ .
(٢) سورة الشمس ١٢ .
(٣) سورة الشمس ١٥ .
(٤) سورة القمر ٢٩ .

بعضُ بنيه : أتُهلِكنا بما فَعَل السفهاءُ مِنّا ؟ فردّ عليهم بعضَ أرزاقِهم .

وقال عُمارة اليَمَنىّ :

لا تَعجَبا لقُدارِ ناقةِ صالحٍ فلكلِّ عصرٍ ناقةٌ وقُدارُ

* * *

٣٦ — وقوله: وَشرِبتُ من النهر الذى ابتُلِىَ به جنودُ طالوت .

يشير بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْه إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ ﴾[1] .

لمَّا خرج طالوتُ بالجنود من بيت المَقْدِس ، وهم يومئذ سبعون ألفَ مُقاتل — أو ثمانون ألفاً — لم يتخلّفْ عنهم إلاّ كبير لهرمه ، أو مَريضٌ ، أو ذو عُذْر ، لأنّهم لمّا رأوا التّابوت لم يشكّوا فى النّصر ، وتسارَعوا[2] إلى الجهاد ، فقال طالوت : لا حاجةَ لى فى كلّ ما أرَى ، لا يخرج معى رجلٌ بَنَى شيئا لم يفرُغ منه ، ولا صاحبُ تِجارةٍ يَشتغِلُ بها ، ولا رجلٌ عليه دَيْن ، ولا رجل تزوّج امرأةً ولم يَبْنِ بها ، ولا أبتغِى إلا الشابّ[3] النّشيط الفارغ[4] .

فاجتمع له ثمانون ألفاً من شَرْطه ، وكان حَرٌّ شديد ، فشكَوْا إليه قِلّة الماء بينهم وبين عدوِّهم ، وقالوا : إنّ المِياهَ لا تَحملُنا ، فادعُ اللهَ يُجْرِى لنا نَهَراً ، فقال : إنّ اللهُ مُختبِركم بنَهرٍ — وهو نهر بين الأُرْدُنّ وفِلَسْطين — عَذْب ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنه فليس مِنّى ﴾ ، أى من أهلِ ذِمّتى ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فإنّه مِنِّى إلاّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إلاّ قَليلاً مِنهُم ﴾ ، قيل: كانوا أربعةَ آلافٍ — أو ثلاثمائةٍ وبضعة عشرَ رجلا — وهو الصّحيح ، ولم يتجاوَزْ معه إلاّ مؤمن .

---

(١) سورة البقرة ٢٥٠ .

(٢) م : « فسارعوا » .

(٣) ط : « الشباب » .

(٤) تفسير الطبرى ٥ : ٣٤٨

ولمّا وصلوا النّهر وقد ألقى عليهم العطش ، شَرِب الكلّ إلاّ هذا العدد القليلُ ؛ ممّن اغترَف غُرفةً بيده كما أمَر الله تعالى . فقوِيَ قلبُه ، وصحَّ إيمانُه ، وكَفَتْه تلك الغُرْفةُ الواحدة لشُرْبه وحَمْلِه ودَوابّه . والّذين شربوا وخالفوا أمْرَ اللهِ تعالى اسودّت شفاهُهم ، وغلَبَهم العطش ، ولم يرْوَوْا ، ووَقفوا على شاطئ النَّهْر ، وجَبُنوا عن لقاء العدوّ ، فلم يُجاوِزوا ولم يَشهدوا الفَتْح ، أوجاوَزوا ولكنّهم لم يحضُروا القتال ، إلاّ الّذين لم يَشربوا ، قال الله تعالى : ﴿ فلمّا جَاوَزَهُ هُوَ والَّذِينَ آمَنُوا معه قالوا لاَ طَاقَةَ لنا الْيَوْمَ بِجَالوتَ وجُنُودِهِ ﴾ ، أي الّذين خالَفوا أمرَ الله ، وشَرِبوا ولَمْ يتجاوَزُوا . ﴿ قال الّذين يَظُنُّون أنّهم مُلاقُو الله كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلةٍ غَلَبتْ فِئةً كثيرةً بإذن الله والله مع الصابِرين ﴾[1] .

ومن أبياتٍ ربّانيّة لشيخ الإسلام ابنِ دقيقِ العيدِ ـ قدّس الله روحه في الجنّة :

ويارُبَّ مَن أوفَى على بعضِ قَصْدِه ... فأدرَكَه آثارُ هَيْبةِ قُرْبِهِ
يُنادِي لمن قد أمَّ بحرَ جَنابِهِ : ... حَذارِ حَذارِ الموتَ أن لاتَعُجْ بِهِ
كأنّا وَرَدْنا نهرَ طالوتَ في الهوَى ... فذُقْنا وما فُزْنا بلذّةِ قُربِه

وقال أبو إسحاق الغَزّيّ :

ومن حسناتِ الواردِ البحرَ أنّه ... يُرَى مُذْنبا من لايعاف الذانبا
ولو كنتُ في أصحاب طالوتَ مبتلًى ... بما شَرِبوا منه ، لما كنتُ شارِبا

وقال أبو العَلاء المعرّي :

سَقْياً لدِجلة وَالدّنيا مفرّقةٌ ... حتّى يَعودَ اجتماعُ النّجم تَشتيتا[2]
وبعدَها لاأُريدُ الشّرب من نَهَرٍ ... كأنّما أنا من أصحابِ طالُوتا

---

(١) سورة البقرة ٢٥٠ .
(٢) سقط الزند ١٦٣٨ .

٣٧ — قوله : وَقُدْتُ الفِيلَ لأَبْرَهَةَ .

يشير بذلك إلى ما أخبر الله تعالى عن أهل الفيل الّذين قصدوا خرابَ مَكّة ، وذلك أنّ أبرهةَ بنَ الصّبّاح أبا يَكْسُوم ، بنى كنيسةً بصَنْعاء لأصحمة النّجاشيّ ، لأنّه كان مَلِكَ اليَمَن من قِبَل النّجاشيّ ، وأراد صَرْف الحاجّ عن الكعبة إليها ، فخرج رجلٌ مِنْ كِنانةَ ، فأحدثَ فيها ، ولطّخها بالعَذِرة احتقاراً لشأنها . أو أنَّ رُفْقةً من قريش خرجوا في تِجارةٍ حتّى نزلوا قريباً من تلك الكنيسة ، واحترقوا ناراً واشتَوَوا ، ثم ارتحلوا ، فهبّتْ ريحٌ فأحرقتْها النار . فغضِب النجاشيُّ لذلك ، فقال أبرَهة وحُجْر بنُ شَراحيل : لا تَحزَن ، فنحن نَهدِم الكعبة . فطَلَب أبرهةُ من النّجاشيّ فِيلَه المعروف بمحمود ، وكان عظيما جسيما لم يُرَ مِثْلُه ، فبعثه إليه ومعه غيرُه من الفِيَلة ، وجيشاً ليسير إلى الكعْبة ، فلمّا قرب أبْرَهة من مَكّة أمرَ بالغارة على أهلِ الحرم ، فأخذوا لعَبْد المطّلب مائتيْ بعير . وجهّز أبرهةُ برسولٍ إلى شريفِ مكّة يقول: لم آتِ لِقتال ، وإنما أتيتُ لِهَدْم هذه البِنْيَة . فجاء الرسولُ إلى عبد المطّلب ، وبلّغه الرسالة ، فقال : هذا بيتُ الله وبيتُ إبراهيم خليلِ الله ، ونحن مالنا يدٌ أن نُقاتِلَ هذا المَلِك . وتوجّهَ مع الرسول إلى أبْرَهة ، ودخل عليه بعد ماعرّفوه بشَرَفِه — وكان وسيما جَسيما — فأكْرَمَه أبرَهَةُ وعَظّمه ، ونزل عن سريره وجلس معه على البِساط ، وقال لتَرْجُمانه: قل له يسأل حاجته ، فقال: قل للمَلِك يَرُدّ عليَّ الأباعرَ التّي أخذَها ، فقال أبرهة : قل له قد زَهِدْتُ فيك بعد رغبتي. أنا جئت إلى بيت — هو دِينُك ودِينُ آبائك ، وهو شرفُكم وعِصمتُكم — لأهدِمَه ، لمْ تكلّمني فيه ، وتسألني في ردّ مائتي بعير ! فقال عبد المطّلب : أنا ربّ هذه الإبل ، ولهذا البيت ربٌّ سيمنعه . فقال أبرهة : ما كان ليمنعني منه فقال : دونَكه[1] فردّ عليه إبله ،

(١) ط : « دونك » .

فعاد عبد المطّلب إلى مكّة ، وأمر قومه أن يتفرّقوا فى رءوس الجبال ، وأتى هو إلى البيت وأخذ بحلقه الباب ، وقال :

يارب لا أرجو لهم سواكا يارب فامنع منهم حماكا
إنّ عدوّ البيت من عاداكا امنعهم أن يخربوا قراكا

وقال أيضاً :

يارب إنّ العبد يمنع رحله فامنع رحالك (١)
لا يغلبنّ صليبهم ومحالهم غدواً محالك
جمعوا جموع بلادهم والفيل كى يسبوا عيالك
عمدوا حماك بجهلهم كيداً وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وكعبتنا فأمر ما بدا لك (٢)

ثمّ خرج عبد المطّلب مع قومه إلى رءوس الجبال ، وأصبح أبرهة بجيشه وقد عبّأه فى فيلته ـ قيل : كانوا ثمانية أفيلة ، أو اثنى عشر ، أو ألف فيل . وقيل : لم يكن معه غير الفيل المدعوّ محموداً (٣) ـ فقدّموا الفيل المذكور وبعثوه إلى نحو الحرم فلم ينبعث ، فضربوه بالمعول فى رأسه فأبى ، فوجّهوه نحو اليمن فقام وهرول ، ووجّهوه نحو الشام فهرول ، ونحو المشرق فهرول ، فوجّهوه نحو الكعبة فبرك .

وزعموا أنّ عبد المطّلب لم يزل آخذاً بحلقة الباب حتى نشأ من قبل اليمن من البحر طير ؛ عن أبى سعيد الخدرىّ ، أنه سأل عن الطّير ، فقال :

---

(١) سيرة ابن هشام ١ : ٥١ وفيها : « فامنع حلالك » . والحلال : جمع حلة ـ وهى جماعة البيوت .

(٢) ابن هشام : « وقبلتنا » .

(٣) ط : « بمحمود » .

حمامُ مكّةَ ، مع كلّ طير ثلاثة أحجار ، أكبرُ من العدسة ، وأصغر من الحِمّصة .

وعن ابن عبّاس رضى الله عنه ، أنّه قال : رأى منه عند أمّ هانىء من ذلك نحو قفيز ، مخطّطة بحُمْرة كالجَزْع[1] الظّفارِىّ ، على كلّ حَصاة اسم من يرمَى بها ، أو كان الحجرُ كرأس الرجل[2] .

ورُوِى أنّ عبدالمطّلب لمّا رأى الطيرَ ، قال : أرى طيراً ما أعرفها ، ماهى نجدّية ولاتِهاميّة ، ولاعربيّة ولاشآميّة ، أشباه اليَعاسِيب[3] قد أقبلتْ يكسعُ بعضُها بعضا ، أمامَ كلِّ دُفْعة طائرٌ يقودها ، أحمرُ المنقار أسودُ الرأس ، طويلُ العُنق . فجاءت الجيش وألقتْ على كلّ واحد حصاة ، وكانت الحصاة تقع على بَيْضة أحدِهم فتَخرِقها حتّى تَقع فى دِماغه ، وتخرِق الفيلَ والدّابّة وتغيب فِى الأرض من شدّة وَقْعها ، وكانت تقع على رأسِ الرّجل ، وتَخرُج من دبره .

وروىَ أنّه من أصابتْه منهم ، فكأنّه أصابه جُدَرىّ ، وهو أوّل جدرىّ ظهر فى الأرض ، فهلكوا .

وأمّا أبرَهة فإنه كانت أعضاؤه تتساقط ، فسقطتْ أنملته أوّلا ، وتبعها مِدّة ودمٌ وقيح ، حتى وصل صنعاء فيمن بقى كفرْخ طير ، ومامات حتى انصدع صدرُه .

وعن بعض المفسّرين أنّه لم ينج منهم إلاّ أبرهة ، فسار فوق الفيل ، وهو لايشعر به حتّى أتى النجاشىّ ، فقصّ عليه القصّة ، فلما انتهَى ألقى الطائرُ عليه الحصاة ، فمات بين يدى النّجاشىّ .

وأخذ عبد المطّلب وأبو مسعود الثّقفىّ من أموالهم شيئاً كثيراً .

---

(١) الجزع : الخرز اليمانى . وظفارى : منسوب إلى ظفار من بلاد اليمن .

(٢) ط : « الرجال » .

(٣) اليعاسيب : جمع يعسوب وهو أمير النحل .

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : رأيتُ قائد الفِيل وسائقة أعجميّين يَستطعمان بمكّة .

ورُوِى أنّ أَبرهَة كان جــدّ النّجاشىّ الّذى كان فى زمن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، وكانت هذه القصّة فى العام الّذى وُلد فيه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم عند الأكثرين .

وقال الكلبىّ : قبل مولده بعشرين سنةً ، أو بثلاثٍ وعِشرين ، وقال مُقاتِل : بأربعين سنة .

وهــذه القصّة دالّةٌ على شرَف النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، ومُعجِزةٌ له فى كون الله عزّ وجلّ صدّ الفيلَ وأصحابَه عن بلد سَيَظهر منه . والصحيح أنّ المعجِز يتقدّم على زمان البعثة تأسيسا للنبىّ المرسَل فيما بعد ، ولذلك كانت الغَمامةُ تُظِلُّه قبل مَبعثِه صلّى الله عليه وسلم ، وذلك خلافًا للمعتزلة ، فإنّهم لم يجوّزوا ذلك ، ولذلك قالوا : لابدّ أن يكون فى ذلك الزّمان نبىّ ، كخالد ابن سِنان أو قُسّ بن ساعدة .

وفى قصة أصحابِ الفيل ، قلتُ أنا من جملةِ قصيدة مدحتُ بها النبىّ صلّى الله عليه وسلّم :

والبيت صارَ حمىً إذ كان مَظهرةً	وكلّ من رامَهُ بالسُّوءِ مخذُولُ
فصانَ ساحتَهُ[1] من كيدِ أبرَهَةٍ	لمّا أتاه وفى أصحابِهِ الفيــلُ
بادُوا بأحجارِ سجّيل وما رَجَعوا	لمّـا رمتهم بها الطّيرُ الأبابيلُ

(١) ط : « صاحبه » .

٣٨ — وقوله : وعاهدتُ قريشاً على ما فى الصَّحيفةِ .

يشيرُ بذلك إلى الصحيفة التى تعاهدتْ قريشٌ على كِتابتها ، وذلك أنّ كفّار قريشٍ لمّا رأَوْا أنّ أصحابَ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم الّذين هاجَروا إلى الحبشة قد نزلوا بَلدا ، وأَصابوا قدْراً وأَمْنا ، وأنّ النجاشىّ قد مَنَع من لجأ إليه منهم ، وأنّ عمرَ بن الخطّاب رضى الله عنه قد أسلمَ ، وأصبح هو وحمزة رضىَ الله عنهما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه ، وصار الإسلامُ يَفشُو فى القبائل ، اجتَمع المذكورون من كفّار قريش ، وائتمروا أن يَكتبوا كتابا يَتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى عبد المطّلب ، على ألاَ يَنكِحُوا إليهم ولا يُنكِحوهم ، ولا يَبيعُوهم شيئاً ، ولا يَبْتاعوا منهم .

ولمّا اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ، ثمّ تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثمّ علّقوا الصحيفة فى جوْف الكعبة توكيداً على أنفسهم ، فلمّا فعلتْ قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو عبد المطّلب إلى أبى طالب ، فدخلوا معه فى شِعْبه وخرج من بنى هاشم أبو لهبٍ إلى قريشٍ فظاهرهم ، ولقى هندًا بنت عُتبة ابن ربيعة حين فارق قومه ، وظاهر (١ عليهم قريشاً ، ١) فقال لها : يابنت(٢) عُتْبة ، هل نصَرْتُ اللّاتَ والعُزّى ، وفارقتُ من فارقهما ، وظاهرتُ عليهما ؟ قالت : نعم ، فجزاكَ الله خيرا يا أبا عُتْبة ؛ وفى ذلك يقول أبو طالب :

ألا بلغَا عنّى على ذاتِ بَيْنِنا ... لُؤَيًّا وخُصًّا من لُؤَىّ بنى كَعْبِ(٣)

ألم تعلموا أنّا وجدْنا محمّـــدًا ... نبيًّا كموسى خُطَّ فى أوّل الكُتْبِ

وأنّ عليـــه فى العبـاد مَحبّةً ... ولا خيرَ ممّن خصّه اللهُ بالحبّ

(١ — ١) ساقط من ط

(٢) م : « يا إبنة » .

(٣) ديوانه ٢٠

وأنّ الّذى ألصقتمو من كِتابكمْ لكم كائنٌ نَحْساً كراغية السَّقْبِ(١)

أفيقوا أفيقُوا قبلَ أن يُحفَر الثّرَى ويُصْبح من لم يَجْنِ ذَنباً كذِى الذَّنبِ

ولا تَتبَعوا أمرَ الوُشاة وتقطعوا أواصرَنا بعدَ المَودّةِ والقُرْبِ

وتستجْلبوا حَرْباً عَواناً ورُبّما أمرَّ على مَن ذاقَه حَلَبُ الحَرْبِ(٢)

بمُعْترَكٍ ضَيْقٍ ترى كِسَرَ القَنا به والنُّسُور الطُّخم يَعكُفن كالشَّرْبِ(٣)

أليس أبونا هاشمٌ شَدّ أزْرَه وأَوصَى بَنيهِ بالطّعان وبالضَّرْبِ!

ولسنا نَمَلُّ الحربَ حتّى تَملّنا ولا نَتَشكّى ما يَنُوب من النّكْبِ

ولكنّنا أهل الحفائظِ والنُّهَى إذا طارَ أرْواحُ الكُماةِ من الرُّعْبِ(٤)

وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً ، حتّى جهدوا ألاّ يصلَ إليهم شيء . إلاّ سِرّاً ، مستخفِياً به من أراد صِلَتهم من قريش .

وقد كان أبو جهل - فيما يُذكَر - لقِيَ حكيمَ بنَ حِزام ، ومعه غلام يَحمِل قمحا يريدُ به عمّته خديجةَ بنتَ خُوَيْلد ، وهى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب ، فتعلّقَ به وقال : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ، فجاء أبو البختريّ فقال : مالكَ وله ! فقال : يحمل الطعام إلى بنى هاشم ، فقال أبو البختريّ : طعامٌ كان لعمّته عنده بعثتْ إليه ، أفتمنَعه أن يأتِيَها بطعامها ! خَلِّ سبيلَ الرّجل ، فأبى أبو جهل ، حتّى نال أحدُهما من صاحبِه . فأخذ أبو البختريّ لَحْيَ بعيرٍ

---

(١) السقب : ولد الناقة ، قيل إنه خاص بالذكر .

(٢) الحرب العوان : هى التى قوتل فيها مرة بعد مرة .

(٣) الطخم : السود . والشرب : الجماعة الشاربون .

(٤) الكماة : الشجعان ، جمع كمى .

فضربه فشجّه ، ووطِئه وطْئاً شديداً ، وحمزة بن عبد المطّلب قريبٌ يرى ذلك ، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فيشمتوا بهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم [صابرٌ] (١) على ذلك ، يدعو قومَه ليلا ونهارا ، وسِرًّا وجِهارا .

ثمّ إنّه قام فى نَقْض الصّحيفة نفرٌ من قُريش ، ولم يُبْلِ (٢) فيها أحدٌ أحْسَنُ من بلاء هِشام بن عمرو بن الحارث بن حُبَيب بن نصر بن مالك بن حسل ــ وذلك أنه كان ابن أخى نَضْلة بن هاشم بن عبد مناف لأمّه ــ وكان هشام لبنى هاشم واصلا ، وكان يأتى بالبعير قد أوْقَره طعاما ؛ حتى إذا أقبله فم الشِّعب خلعَ خِطامه (٣) من رأسه ، ثم ضرب على جَنْبَيه ، فيدخل الشِّعب عليهم ، ويأتى به وقد أوقره بُرًّا (٤) ، يفعل مِثل ذلك مرارًا .

ثمّ إنّه مشى إلى زُهَير بن أميّة بن المُغيرة ــ وأمّه عاتكة بنت عبدالمطلب ــ فقال : يازُهير ، أرضيتَ بأن تأكل الطعام وتلبَسَ الثّياب ، وتَنْكِحَ النّساء ، وأخوالُك حيث علمتَ ، لا يُباعون ولا يُبتاع منهم ، ولا يَنكِحُون ولا يُنكَح إليهم ! أما إنِّى أحلِف بالله لو كان أخوالُ أبى الحكم بن هشام ، ثمَّ دعَوْتَه إلى مثلِ مادعاكَ إليه منهم ما أجابك إليه أبدا . فقال : وَيْحَك ياهشام! فماذا أصنع؟ إنّما أنا رجلٌ واحد ، واللهِ لو كان معى رجل آخَر لَقُمْت فى نَقْضِها حتى أنقضها . فقال : قد وجدتَ . قال : ومَن هوَ ؟ قال أنا ، قال زُهَير : ابْغِنا ثالثا . فذهب إلى المُطعِم بن عدِىّ ، فقال له : يامُطعِم ، أرضيتَ أن يهلِك بَطْنانِ من بنى عبدِ مناف ، وأنت شاهدٌ على ذلك ، موافقٌ لقريشٍ فيه ! أما واللهِ لئن أمكَنْتُموهم من هذه لتجدُنَّهم إليها منكم سِراعا ، قال : وَيْحَك ! ماذا أصنَع ؟ إنّما أنا

---

(١) تكملة من م

(٢) فى الأصل : « لم يبتل » ، وما أثبته من م ، ط ، وابن هشام .

(٣) الخطام : حبل يشد به على فم البعير .   (٤) أوقره : حمله .

رجلٌ واحد . قال : قد وجدتَ ثانيا . قال : مَن هو ؟ قال : أنا ، قال : ابغنى ثالثا ، قال : قد فعلتُ ، قال : من هو ؟ قال : زهير بنُ أبى أُميَّة . قال : ابغِنى رابعا . فذهب إلى أبى البخترىّ ، فقال له نحواً مما قال لمُطْعِم بن عَدىّ . قال : وهل من أحدٍ يُعِينُ على هذا ؟ قال : نعم ، قال : مَن هوَ ؟ قال : زُهيرُ ابنُ أبى أميَّة والمُطعِم بنُ عَدِىّ ، وأنا معك . قال : ابغنا خامسا . فذهب إلى زَمْعة بن الأسوَد بن المطّلب بن أسَد ، وكلّمه ، وذكَرَ له قرابتَهم وحَقَّهم ، فقال : وهل على هذا الأمر الّذى تدعونى إليه من أحد ؟ قال : نعم ، ثم سمَّى له القوم ، فاتعدوا خَطْم الحجُون[1] ليْلا بأعلى مَكة .

فاجتمعوا هنالك ، وأجمعوا أمرَهم ، وتعاهدوا على القيام فى نقضِ الصَّحيفة . قال زُهير : أنا أبدَؤُكم فأكونُ أوَّل من يتكلَّم . فلمّا أصبحوا غدَوْا إلى أنديَتهم ، وغدا زُهَير عليه حُلّة ، فطاف بالبيت سبعا ، ثمَّ أقبل على الناس ، فقال : يا أهل مَكَّة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب ، وبنوها شم هَلْكَى لا يُباعُون ولا يُبْتاع منهم ! والله لا أقعد حتّى تُشَقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة . فقال أبو جهل ـ وكان فى ناحية المسجد : كذبتَ والله لا تُشَقّ ! قال زمعة بنُ الأسوَد : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيثُ كُتِبتْ . قال أبو البخترىّ : صَدَقَ زَمْعة ، لا نَرضَى ما كُتِب فيها ولا نقرُّ به . قال المُطْعِم بنُ عَدِىّ : صدقْتُما وكَذَب من قال غيرَ ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كُتِب فيها ! وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك . فقال أبو جهل : هذا أمرٌ قُضِىَ بلَيْل ، تُشوور فيه بغير هذا المكان ! وأبو طالب جالسٌ فى ناحية المسجد[2] ، فقام المُطعِم بنُ عدىّ إلى الصحيفة ليشقَّها ، فوجد الأرَضَة قد أكلَتْها إلاّ « باسمك اللهم » . وكان كاتبَ الصَّحيفة منصورُ بنُ عِكْرمة ، فشَلّت يدُه ـ فيما يزعمون .

---

(١) الحجون : مكان بمكة .

(٢) ط : « المجلس »

وذكر بعضُ أهل السِّيَر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى طالب: ياعمِّ ، إنَّ الله قد سلّط الأرَضة على صحيفةِ قريش ، فلم تدَعْ فيها اسماً لله إلاَّ أثبتَتْه فيها ، ونفت القطيعة والظُّلْم والبهتان . قال : أربُّكَ أخبرَك بهذا ؟ قال : نعم ، قال: فوالله مايدخلُ عليك أحدٌ . ثم خرج إلى قريش ، فقال : يامعشرَ قريش ، إنّ ابنَ أخى أخبرَنى بكذا وكذا ، فهلمَّ صحيفتكم ، فإن كانت كما قال فانتهُوا عن قطيعتنا ، وإن كان كاذبا دفعتُ إليكم ابنَ أخى . قال القوم : رَضِينا ؛ فتعاقَدوا على ذلك، ثمَّ نظروا فإذا هى كما قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فزادهم ذلك شرًّا .

ولمّا مزّقت الصحيفةُ وَبَطَل مافيها قال أبو طالب فى ما كان من أمر أولئك الَّذين قاموا فى تمزيقها يمدَحهم على فِعلهم :

ألاَ هـل أتى بحريَّنا صنع ربّنا ... على نأيهم ، والله بالناس أرودُ [(١)]
فيخبرهم أنّ الصّحيفةَ مُزّقتْ ... وأنْ كلُّ ما لم يرضَه اللهُ مفسَدُ
تَراوَحَها إفــكٌ وسِحْرٌ مجمَّعٌ ... ولَم يُلفَ سحرٌ آخرَ الدهر يصعدُ
جزى الله رَهْطا بالحجون تتابعوا [(٢)] ... على ملأ يَهـدى لحزمٍ ويُرْشِدُ
قعودًا لدى خَطْم الحجونِ كأنّهم ... مَقاوِلَةٌ ، بل هُمْ أعزُّ وأمجَــدُ

---

(١) ديوانه ٦٣ ، والبحرى : المنسوب إلى البحر ، والمراد به هنا من هاجر إلى مكة من الصحابة . وأرود ، أى غالب على أمره يفعل مايشاء .

(٢) خطم الحجون : الموضع الذى خطم منه .

أعانَ عليها كلّ صقرٍ كأنّه إذا مامشَى فى رَفرفِ الدّرعِ أحرَدُ(١)
جرىءٌ على جُلِّ الخطوبِ كأنّه شِهابٌ بكفّىْ قابسٍ يتوقّدُ
من الأكرمينَ من لُؤىّ بن غالبٍ إذا سيمَ خَسْفاً وجهه يتربَّدُ
طويلُ النجاد، خارجٌ نصفُ ساقهِ، على وجهِه يُسقَى الغمامُ ويسعد
عظيم الرماد، سيّدٌ وابنُ سيّد
يَحُضُّ على مَقرَى الضّيوف ويحشدُ
ويَبنى لأفناء العَشيرة صالحاً إذا نحن طُفْنا فى البلاد، ويَمْهَدُ
ألظَّ بهذا الصُّلح كلُّ مبرّأٍ عظيم اللّواء، أمره ثَمّ يُحْمَدُ(٢)
قضَوا ما قضَوْا فى ليلهم ثُمَّ أصْبَحوا
على مَهَلٍ، وسائرُ الناس رُقَّدُ
هم رَجَعوا سَهْل بن بَيْضاء راضياً وسُرَّ أبو بكرٍ بها ومحمّدُ
متى شرِكَ الأقوام فى جُلِّ أمرِنا وكنّا قديماً قبلَها نتودّد!
وكنّا قديما لا نُقِرُّ ظُلامةً وندرك ماشئنا ولا نَتَشدّدُ
فيالَ قُصَىٍّ هل لكم فى نفوسِكمْ وهل لكمُ فيما يجىء به غدُ!
فإنّى وإيّاكُمْ كما قال قائل لَدَيْكَ البيانُ لو تكلّمت، أسوَدُ(٣)

أسود: اسمُ جبَل، كان قد قتل فيه قتيلٌ لمَ يُعرَف قاتلُه، فقال أولياء المقتول هذه المقالة؛ يعنُون بها أنّ الجبَل لو تكلّم لأبانَ عن القاتل، ولعرَّف بالجانى، ولكنّه لا يتكلّمُ؛ فذهبتْ مقالتُهم مَثَلا.

* * *

(١) الأحرد فى الأصل: الذى فى مشيه تثاقل. (٢) ألظ، أى ألح.
(٣) أسود، أى ياأسود، حذف منه حرف النداء.

٣٩ — وقوله : وتأوّلتُ فى بيعة العقبة .

هكذا قاله ابنُ زيدون ، وهكذا أثبته ابنُ بسّام عنه فى «الذّخيرة» وكذا نقلتُه من خطّ ابنِ ظافرٍ رحمه الله ، فى كتاب « نفائس الذّخيرة » .

بَيْعاتُ العَقَبات ثلاث : الأولى خروجُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم الذّى لقىَ فيه النّفر من الأنْصار ؛ يَعرِض نفسه على قبائل العرب ، وكانو رَهْطا من الخَزْرج ، أراد اللهُ بهم خيرا ، فقال لهم : مَن أنتم ؟ قالوا : نفرٌ من الخزْرج . قال : أَمِن مَوالى يهودَ ؟ قالوا : لا ، قال : أفلا تَجلِسون أكلّمكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ ، وعرَضَ عليهم الإسلام . فقال بعضُهم لبعض : تعلّموا واللهِ أنّه النبىّ الّذى كان توعّدكم به اليهود ، فلا يَسبِقَنّكم إليه أحد ، فأجابوه وصدّقوه . وقالوا له : إنّا كُنّا تركنا قومَنا ، ولا قومَ بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم ، فإنْ يجمَعْهم اللهُ عليك فلا رجلَ أعزَ منك . ثم انصرَفوا راجعين إلى بلادهم ، قد آمَنوا وصدّقوا ، وكانوا ستّة نفرٍ من الخَزْرج .

وأمّا العَقَبة الثانية ، فلمّا كان فى العام القابلِ قَدِم مكّةَ من الأنصار اثناعشر رجلا ، منهم خمسةُ من السّتّة الّذين ذُكروا أوّلا ، فتلاَ عليهمْ آية النّساء « لاّ تُشْرِكوا به شيئا » ، ثم قال : « ومَنْ أوفَى فأجرُه على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى هذه الدنيا ، فهو طُهْرٌ له — أو قال : أو كفّارة — ومن أصاب من ذلك شيئا فستَرَ اللهُ عليه فأمْرُه إلى الله ؛ إن شاء غفَر له وإن شاء عذّبه » .

وأمّا العَقَبة الثالثة فإنّه خرج مَن خرج من الأنصار المسلمين إلى المَوْسم مع حُجّاج قومِهم من أهل الشّرك ؛ حتّى إذا قدموا مكّةَ ، واعَدوا رسولَ الله

صلى الله عليه وسلم العَقَبة ، من أَوْسَط أيام التّشريق ، فلمّا مضى ثُلثُ اللّيل اُجتَمَعُوا في الشِّعب ، وهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان : أمّ عمارة[1] إحدى بني مازِن بن النّجّار وأسماء بنت عمرو بن عَدِيّ ، فجاءهم النبي صلّى الله عليه وسلم ومعه العبّاس بن عبد المطّلب — وهو على دين قومه إلاّ أنه أحبّ أن يظهر على أمرِ ابنِ أخيه ويتوثّق له — فلمّا جلس كان أوّل متكلم ، فقال: يا معشر الخزرج ، إنّ محمداً منّا حيث علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممّن هو على مِثلِ رأينا فيه ، فهو في عِزّ من قومِه ومَنَعةٍ في بلدِه ، وإنّه قد أبى إلاّ الأنحيازَ إليكم واللّحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممّن خالفه فأنتم وما تحمّلتم من ذلك ، وإن كنتم تَرَوْن أنكم مسلموه وخاذِلوه بعد الخروج به إليكم ، فمِن الآنَ فَدعُوه فإنّه في عِزّ ومَنَعَة من قومه وبلدِه . فقالوا : قد سمعنا ماقلت ، فتكلّمْ يا رسولَ الله ، فخذ لنفسك ولربِّك ما أحببتَ . فتلا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغّب في الإسلام ، ثم قال : « أُبايِعُكُمْ على أن تَمنَعوني مما تَمنَعون منه أنفسكم ونساءكم وأبناءكم » . فأخذ البَراء بن مَعْرُور بيَدِه ، ثمّ قال : والّذي بعثك بالحقّ لنمنعنّك [مما نمنع][2] منه أُزُرنا . وبايَعوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .

وقال أبو الهَيثَم بن التّيّهان : يا رسولَ الله ، إنّ بيننا وبين الرِّجال حِبالاً ، وإنّا قاطِعُوها — يعني اليهود — فهل عسيتَ إن نحنُ فعلنا ذلك ، ثمّ أظهرَكَ اللهُ ، أن ترجع إلى قومك وتدَعنا ! فتبسّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثمّ قال : « بل الدَّم الدَّم ، والهَدْم الهَدْم ، أنا منكم وأنتمْ مِنّي ، أُحارِب مَن حارَبتم ، وأُسالِم مَن سالَمتم ، أخرِجوا إليَّ منكم اُثنَيْ عشرَ نقيبا ، يكونون

(١) في عيون الأثر : « هي نسيبة بنت كعب » .
(٢) تكملة عن م .

على قومهم بما فيهم » . فأخرجوا تسعةً من الخَزْرج وثلاثةً من الأوْس .

ولمّا انتهت البَيْعة صَرَخ الشيطانُ من رأس العَقَبة : يا أهل الجباجب ، هل لكم فى مذمّم والصُّبَاة[1] معه ، قد أجمعُوا على حَرِبكم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أزبُّ العقبة[2] ، اتسمَعُ أى عدوّ الله ! أمَا والله لأفرُغنَّ لك . فاستأذنه العباس بن عبادة فى القتال ، فقال : لم نؤمَر بذلك . ولمَّا قدموا المدينةَ أظهروا الإسلام .

فهذه بَيْعات العَقَبات الثلاث ، حدَّثنى بها شيخُنا الإمامُ الحافظُ أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن سيِّد الناس اليَعْمرىّ ، مختصرا من سِيرته[3] .

وأمَّا أنا فلم أقفْ ممّا علمتُه على أنَّ أحدا من أهل العِلم بالسِّيَر تأوّل فى بَيْعةٍ من البَيْعات ، أو صدرَ منه بعد المبايَعة فصلٌ يُخالِف قولَه ، ولم أعلم لقول ابنِ زَيدُونَ وَجْها فيما ذكره مع هذهِ الوقائع الَّتى سردها ، وأشارَ إليها ، وما بقى إلاَّ أن يُتأوَّل كلامه ، فنقول : إنَّه لاشكَّ أنّ الَّذى يضعُ يدَه فى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويبايعُه على نُصْرَته على عدوّه ، والإيمان بما جاء به ، هذه أعظم درَجات الإيمان ، فإذا ناقَضَ بعد ذلك وخالَفَ فِعلُه قولَه يكون قد أَتَى بأمرٍ عظيم ، وخطأً كبيراً ، فكأنَّه قال : « أو تأوّلتُ بعد مبايَعتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وخالفتُ قولى بفعلٍ ناقضٍ ما بايعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم » ، وهذا ولاشكَّ من الكبائر المُوبِقات .

---

(١) الصباة : جمع صابىء ، وفى ابن هشام : « الصباء » .

(٢) أزب العقبة : اسم شيطان .

(٣) هى السيرة المعروفة بعيون الأثر ، نقل المؤلف عنها باختصار ، وانظر الجزء الأول صفحة ١٥٥ وما بعدها .

٤٠ — وقوله : ونفرتُ إلى العيرِ ببدر .

يشيرُ بذلك إلى وقعة بدر الكبرى ، وذلك أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم سمع أنّ أبا سفيان بن حرب مقبلٌ من الشام ، في عيرٍ لقريش عظيمة ، فندبَ الناسَ وقال : هذه عيرُ قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعلّ الله يُنفّلكموها . فانتدب الناس(١) ، وكان أبو سفيان لمّا دنا من الحجاز يتحسّس الأخبارَ من الرُّكبان ، فأصابَ من بعضهم استنفار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناسَ له ، فحذِر عند ذلك ، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاريّ ، فبعثه إلى مكّة ليُخبر قريشا بذلك ، ويستنفرهم إلى أموالهم . فخرج ضمضم سريعا ، ولمّا أتى إلى مكّة صرخ ببطن الوادي واقفا على بعيرٍ ، قد جدعه ، وحوّل رحْلَه وشقّ قميصه ، وهو يقول : يامعشر قريش ، اللّطيمة اللّطيمة(٢) ! أموالكم مع أبي سفيان قد عرَض لها محمدٌ في أصحابه ، لاأرى أن تدركوها ؛ الغوثَ الغوث !

فتجهّز الناسُ سراعا ، فكانوا بين رجُلين ؛ إمّا خارج ، وإمّا باعثٌ مكانه رجلا ، ولم يتخلّف من أشراف قريشٍ أحدٌ إلاّ أبو لهب ، تخلّف وبعث مكانه العاصيَ بن هشام بن المغيرة ، وأجمع أميّةُ بنُ خلف على القعود — وكان شيخاً جليلا — فأتاه عُقبة بن أبي مُعيط ، وهو جالس في المجلس بين ظهرانَيْ قومه وبمجمرة فيها نار ، فوضعها بين يديه ، وقال : يا أبا عليّ ، استجمِرْ ، فإنّما أنتَ من النّساء ! فقال : قبّحك الله ، وقبّح ماجئتَ به ! ثمّ تجهّز وخرجَ مع الناس .

وخرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في ليالٍ مضتْ من شهر رمضانَ في أصحابه ، ودفع اللّواءَ إلى مُصعَب بنِ عُمير بنِ هشام بن عبدِ مناف بن عبد الدّار ، وكان أبيض ، وكان أمامَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم رايتان سوداوان ، إحداهما مع عليٍّ بن أبي طالب رضى الله عنه ، والأخرى مع بعض الأنصار ، وجعَل على الساقة قيس بن أبي صعصعة ، أخابني مازن بن النجار . وكانت

---

(١) انتدب الناس ، أي خفوا للقتال .

(٢) اللطيمة : الإبل تحمل الطيب .

رايةُ الأنصار مع سعد بن مُعاذٍ في قول ابن هشام (١) ، فلمَّا كانوا قريبا من الصَّفْراء بعثَ بَسبس بن عمرو وعَدِيَّ بن أبي الزَّغباء إلى بَدْر يتحسَّسان له الأخبارَ عن أبي سُفْيان وغيره ، فمضَيا حتى نزلاَ بَدْرا ، وتقدَّم أبو سُفْيان العِيرَ حذرا ، حتى ورد الماء ، فأخذ من أبعارِ بَعيرَيْ بَسبس وعديّ وفَتّه ، فإذا فيه النَّوَى ، فقال : هذه واللهِ عَلائِفُ يثرِب ، فأسرَعَ إلى أصحابه وضرب وجه عِيره عن الطَّريق وساحَلَ بها ، وترك بدرا بيسار .

ثم ارْتحَلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأتى واديًا يقال له : ذَفِران ، فجزَعَ فيه (٢) ، ثمَّ نزل . وأتاه الخبرُ عن قريش ، فاخبرَ الناس واستَشارَهم . فقام أبو بكر فقال وأحسَن ، ثمَّ قام المِقْداد بنُ عمرو فقال وأحسن ، ثمَّ قال : يا رسولَ الله ، امضِ لِما أمَرَكَ الله ، فنحن معك ، والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذْهَبْ أنتَ وربك فقاتِلاَ إنَّا ها هنا قاعدون ﴾ (٣) ولكن اذهب أنت وربك فقاتِلاَ إنّا معكما مقاتلون ، فوالّذى بعَثك بالحقّ نبيّا لو سِرْتَ بنا إلى بَرْكِ الغِماد (٤) لجالَدْنا معك مِن دُونه حتى تبلغه . فقال له خَيْرا ، ودعا له ، ثم قال : سيروا ، أبْشروا ؛ فإنّ الله تبارك وتعالى قد وعَدَنى إحدى الطائفتين ، واللهِ لكأنّى الآن أنظرُ إلى مصارِعِ القوم .

ثم ارْتحل من ذَفِرَان ونَزَل قريبا من بدر . ولمّا أمسَى بعثَ عليَّ بنَ أبي طالب والزّبير وسعد بن أبي وَقَّاص رضى الله عنهم يلتمسون الخبر ، فأصابوا زاوية لقريش فيها غلامان لبعضهم ، فأتَوْا بهما رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أخبِرانى عن قريش ، فقالا : هم وراء الكَثيب الّذى ترى ، قال : كم القوم ؟ قالا : كثير . قال : كم عِدَّتُهم ؟ قالا : لا ندرى ، قال : كم يَنْحَرون كلَّ يوم ؟ قالا : يوماً تِسْعا ، ويوماً عَشْرا . فقالَ رسول الله

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٥١ .

(٢) جزع فيه ، أى قطعه .

(٣) سورة المائدة ٢٤ .

(٤) برك الغماد : موضع بناحية اليمن .

صلى الله عليه وسلم : القومُ مابين التّسعمائة والألف ، ثمّ قال : مَن فيهم مِن أشرافِ قريش ؟ قالا : عتْبة بن ربيعة وشيبةُ بن ربيعة وأبو البَختريّ بن هشام وحكيمُ بن حزام وَنوْفل بن خُوَيْلد ، والحارثُ بن عامر ، وطُعَيمةَ بن عَدِيّ ، والنضر بن الحارث ، وزَمْعة بنُ الأسوَد ، وأبو جهل بن هشام ، وَأُميَّة بن خَلَف ، ونُبَيْه ومنبِّه ابنا الحَجّاج ، وسُهَيل بنُ عمرو ، وعمرو بن عبد وُدّ . فأقبل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على الناس ، وقال : « هذه مكّة ، ألقتْ إليكم أفلاذَ كَبِدها » .

ولمّا رأى أبو سفْيان أنّه قد أحرز عِيَره ، أرسل إلى قريش : إنّكم إنّما خَرَجْتم لتمنعوا عِيَركم ورجالكم وأموالكم وقد نجّاها الله ، فارْجِعُوا . فقال أبو جهل: واللهِ لانرجع حتّى نرِد بدرا ـ وكان موسما للعرب ـ فنقيم عليه ثلاثا فننحر الجزُرَ ، ونُطعم الطّعام ، ونَسقِي الخمرَ ، وتعزف علينا القِيان ، وتَسمع بنا العربُ بمسيرنا وجمْعِنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدَها ، فأمضوا .

وقال الأخنسُ بن شَريق : يابنى زُهرة ـ وكان حليفا لهم ـ قد نجّى اللهُ أموالكم ، وخلّص لكم صاحبَكم مَخْرمةَ بن نوفل ، وإنّما نَفرتم لتمنعوه [وماله][1] فارجعوا ، فإنه لا حاجَة لكم بأن تخرجوا فى غير ضيعة ، لا ما يقول هذا ـ يعنى أبا جهل ـ فرجَعوا ، ولمْ يَشهَد بدرا زُهْرِيّ واحد .

ولم يكن من قريشٍ بطنٌ إلاّ وقد نفر منهم ناسٌ إلاّ بنى عديّ بنِ كَعْب ، لم يخرجْ منهم رجلٌ واحد .

ورجع طالب بن أبى طالب إلى مكّة مع مَن رجع ، ومضتْ قريشٌ فنزلتْ بالعُدْوة القُصْوَى من الوادى خلفَ العَقَنْقَل[2] ، والقُلُبُ ببدر فى العُدْوة الدنيا إلى المدينة . وَبعَثَ اللهُ عزّ وجلّ السماء ـ وكان الوادى دهْساً[3] ـ فأصابَ

---

(١) من سيرة ابن هشام .
(٢) العقنقل فى الأصل : الكثيب من الرمل .
(٣) الدهس : المكان اللين لم يبلغ أن يكون رملا .

رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابَه منها ماء لَبَّد لهم الأرض ، ولم يَمنَعْهم من المسير ، وأصاب قريشا منها ماء لم يقدروا على أن يرتحلوا معه . فخرَج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُبادِرهم إلى الماء حتى إذا جاءوا إلى أدنَى ماء مِن بدر نَزَل به.

فذكَروا أنّ الحُباب بنَ المُنذِر بن الجموح الأنصاريّ قال: يارسول الله ، أرأيتَ هذا المنزل، أمَنزِلاً أنزلَكَهُ اللهُ ليس لنا أن نتقدّمه وَلا نتأخّر عنه ، أم هو الرأيُ والحَرْب والمَكيدة ؟ قال: « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » . قال : يارسولَ الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهَضْ بنا حتّى نأتِيَ أدنَى ماء من القوم ، فننزل به ، ثم نُعَوِّر[1] ماعَداه من القُلُب ، ثمَّ نَبْنى عليه حَوْضا فنملؤه ماءً ، ثمَّ نُقاتِل القومَ، فنَشرب ولا يَشرَبون . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لقد أشرتَ بالرَّأى » ، ونَهَض بمن معه من النّاس ، ونزل على أدنَى ماء من القوم ، وأمرَ بالقُلُب فعُوِّرَتْ ، وبَنَى حَوْضا على القَليب الّذى نزل به ، ومُلِئ ماء ، وقُذِفتْ فيه الآنية ، وبُنِيَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم عَريش ، فكان فيه .

وأقبلتْ قُريش حين أصبحتْ ، فلمّا رآها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تصوَّبُ من الكَثِيب الّذى جاءوا منه ، قال : « هٰذه قريش قد أقبلتْ بخيَلائها وفخرها ، تحادّك وتكذِّب رسولَك ، اللّهمّ فنصرَك الّذى وعدتَنى به ، اللّهمَّ أحْنِهِم[2] الغداة » !

ولمّا نزل الناسُ أقبَل نفرٌ من قريش فيهم حكيمُ بنُ حِزام ، حتّى وَرَدوا حوضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « دَعُوهم » . فما شرِب منه أحدٌ يومئذٍ إلاّ قُتِل ، إلاّ ما كان مِن حكيم بن حِزام فإنّه لم يُقتَل ، ثمّ أسلَم وحَسُن إسْلامه ، وكان إذا اجتهد فى يمينه قال : لا والّذى نجّانى يوم بدر .

---

(١) نعور ماوراءه من القلب ، أى نفسدها ، والقلب : جمع قليب ، وهو البئر .
(٢) أحنهم : أهلكهم ، من الحين وهو الهلاك .

ولمّا اطمأنّ القوم بعثوا عُمير بنَ وهب الْجُمحيّ ، فقالوا : احْزِرْ لنا أصحاب محمد ، كم هُمْ ؟ فدار بفرسه حول العسكر ، ثم رجع فقال : إن القومَ ثلثمائة رجل ، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلا ، ولكن رأيتُ يا معشر قريش البلايا تحمِل المنايا ، نواضح يثرب تحمِل الموتَ الناقع[1] ، قوم ليس لهم مَلجأ ولا مَنعة إلاّ سيوفُهم ، والله ما أرى أن يُقتَلَ رجل منهم حتى يقتُلَ منكم رجلا منكم ، فإذا أصابوا بأعدادِهم منكم فما خيرُ في العَيْشِ بعد ذلك ! [فروْا رأيكم] .

ولمّا سمع بذلك حكيمُ بنُ حِزام ، أتى عُتْبة وقال : يا أبا الوليد ، إنّك كبيرُ قريش وسيِّدُها والمُطاع فيها ، هل لك إلى ألاّ تزال تُذكرُ فيها بخَيْر إلى آخر الدّهر ؟ قال : وما ذلك ياحكيم ؟ قال : ترجع بالناس وتَحمِل أمرَ حليفك عَمْرو بن الحَضْرَميّ . قال : قد فعلتُ ، أنت عليّ بذلك ؛ إنّما هو حليفي فعليّ عَقْلُه ، وما أُصيبُ مِنْ مالِه ؛ فأْتِ ابنَ الحَنْظَلية[2] — يعني أبا جهل .

ثم قام عُتْبة خطيبا فقال : يامعشرَ قريش ، إنكم والله ماتصنعون بأن تلقَوْا محمّدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبْتُموه لا يَزالُ الرّجل ينظُر في وجه رجلٍ يكره النظر إليه ، قتل ابنَ عمّه أو ابنَ خاله ، أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمّد وسائر العرب ، فإنْ أصابوه فذاك الّذي أردتم ، وإن كان غيرَ ذلك ألفاكم ولم تتعرّضوا منه لما تُريدون .

وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رأى عُتبةَ في النوم على جَملٍ أحمر ، فقال : « إن يكنْ عندَ أحدٍ من القَوْم خيرٌ فعندَ صاحبِ الجملِ الأحمر ، إنْ يُطيعُوه يَرشُدوا » .

ثمّ انطَلَق حكيمُ بنُ حِزام إلى أبي جهْل ، فقال له ما قاله عُتْبة ، فقال :

---

(١) البلايا : جمع بلية ، وهي الناقة أو الدابة تربط على قبر الميت فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت . والنواضح : الإبل التي يسقى عليها الماء .

(٢) قال ابن هشام : « والحنظلية أم أبي جهل ، وهي أسماء بنت مخربة ، أحد بني نهشل بن دارم » .

نتفخَ واللهِ سحْرُه حينَ رأى محمّدا وأصحابَه ، كلاّ واللهِ لا نَرْجِع حتّى يحكُم الله بيننا وبين محمّد ، وما بعتبة ما قال ، ولكنّه قد رأى محمّدا وأصحابَه أكلةَ جَزور ، وفيهم ابنه ، وقد تخوّفكم عليه .

ثمّ بعثَ إلى عامر بن الحضرَميّ فقال : هذا حليفك يريد أن يرجعَ بالنّاس ، وقد رأيت ثأرك بعينيك ، فقُمْ فانشُدْ خُفْرتك[١] ومقتل أخيك .

فقام عمرو بن الحضرميّ ، ثمّ صرخ : واعمراه ! واعمراه ! فحميت الحرْب .

ولمّا بلغ عُتبةَ قولُ أبي جهل : « انتفخَ والله سَحْره »[٢] قال : سيعلَم مُصفِّرُ استِه ؛ مَن انتفخ سَحْره ؛ أنا أم هو !

وخرج الأسوَدُ بنُ عبدِ الأسد — وكان شَرِسا سيّئ الأخلاق — وقال : أعاهد الله لأشربنّ من حوْضهم ، أولأهدِمنّه ! أو لأموتَنّ دونه ، فلما خرج خرج إليه حمزة ، فلما التقيا ضربه حمزة ، فأطنّ قدمه بنصف ساقه ، وهو دُونَ الحَوْض ، فوقع على ظَهْره تَشخُبُ[٣] رِجْلُه دمًا ، ثمّ حبَا إلى الحَوْض يريد أن يبرّ بيَمينه ، فأتبعه حمزةُ فضربه حتى قتله في الحوض .

ثمّ خرج بعده عتبةُ بنُ ربيعة ، بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عُتْبة ، ودَعَا إلى المُبارزة ، فخرج إليه من الأنصار عوْف ومعوّذ ابنا الحارث ، وعبد الله ابن رَواحة ، فقالوا : مَن أنتم ؟ قالوا : رَهْطٌ من الأنصار ، قالوا : ما لنا بكم من حاجة ، ثم نادى مُناديهم : يا محمّد ، أَخرِجْ إلينا أكفاءنا من قومِنا . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : قمْ يا عُبيدةَ بنَ الحارث ، قمْ يا حَمزة ، قم يا عليّ ، فلمّا دنَوْا منهم قالوا : مَن أنتم ؟ فتسمَّوا لهم ، فقالوا : نِعْمَ الأكفاء الكِرام . فبارزَ عُبيدةُ عُتْبةَ ، وبارزَ حمزة شَيْبة ، وبارز عليٌّ الوليدَ .

فأمّا حَمزَة فلم يُمهِل شيبةَ أن قتَله ، وأمّا عليّ فلم يُمهِل الوليدَ أن قتله ، واختلَف عبيدة وعُتبة بينهما ضَرْبتين ، كلاهما أثبتَ صاحبَه ، وكرّ عليٌّ

---

(١) الخفرة : العهد . (٢) السحر : الرئة وما حولها .

وحمزةُ بأسيافِهما على عُتْبة ، فذَفّفا(١) عليه ، واحتمَلا صاحبهما ، فحازاه إلى أصحابه

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ألاّ يَحمِلوا حتّى يأمُرَهم ، وقال : إنّ اكتنفكم القوم فانضحوهم(٢) عنكم بالنَّبْل ، ورسولُ الله يومئذ فى العَريش ومعه أبو بكر . وكان شِعارُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : « أحد أحد » ، وجعل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُناشِد ربَّه ما وَعده من النّصر ويقول فيما يقول : « اللهمَّ إنْ تَهلِكْ هذه العِصابةُ اليومَ لا تُعْبَد » ، وأبو بكر يقول : يانبيَّ الله ، بعض مُناشَدَتك لربّك ، فإنّ الله سيُنْجِز لك وعدك .

وخفق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خَفْقةً(٣) وهو فى العَريش ، ثم انتبه فقال : « أبشِر يا أبا بكر ، أتاك نَصرُ رَبِّك ، هذا جبريلُ آخذٌ بعنانِ فرس يقودُه ، على ثناياه النَّقْع » ـ يُريد الغُبار .

ورُمِيَ مَهجع مولى عمَر بن الخَطّاب بسَهْم فقُتل ، وكان أوّلَ قتيلٍ من المسلمين ، ثمّ رُمِى حارثةُ بن سُراقه أحدُ بنى عَدِىّ بن النّجار ، وهو يشرَب من الحوضِ بسَهْم فأصابَ نَحْرَه فقَتَله . وخرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى النّاس يحرِّضهم ، فقال : « وَالّذى نفسُ محمّدٍ بيَدِه لا يُقاتِلهم اليومَ رجل فيُقتَل صابرا محتسِبا مُقبِلا غيرَ مُدْبِر إلاّ أدخله اللهُ الجنّة » . فقال عُمَير بن الحُمام ـ مِن بنى سلِمة ـ وفى يده تَمَرَاتٌ يأكُلُهنَّ : بَخٍ بخٍ ! فما بينى وبينَ أن أدخُل الجنّةَ إلا أن يَقتُلنى هؤلاء ! ثمّ قَذَف التَّمراتِ من يَدِه ، وأخَذَ سيفه ، فقاتل حتّى قُتِل .

وقال عوفُ بن الحارث ، وَهو ابن عَفْراء : يارسولَ الله مايُضحك الرّبَّ مِن عبدِه ؟ قال : « غَمْسُه يده فى العدوّ حاسِرًا » ، فنَزَع دِرْعا كانت عليه فقذفها ، وأخذ سيفه وقاتَل حتّى قُتِل .

---

(١) ذففا عليه : أجهزا .   (٢) انضحوهم : ادفعوهم .

(٣) خفق خفقة : نام نوما يسيرا .

ثم إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أخذ حَفْنةً من الحصْباء ، فاستقبل بها قُرَيشا ثمّ قال : شاهدت الوُجوه ، ثم نَفَحَهم (١) بها ، وأمر أصحابه فقال : شُدُّوا ، فكانت الهزيمة ، وجعل اللهُ تلك الحصْباءَ عظيما شأنُها ، لم تَتْرك رجلا من المشركين إلاّ ملأتْ عينيْه ، واستولى عليهم المسلمون يُقتّلونهم ويأسِرُونهم ، فقتل الله من قتل من صَنادِيد قريش ، وَأسِر مَن أسِر أشرافهم .

وَقال رسولُ الله صلى الله عليه وَسلم : « إنّى قد عرفت رِجالا من بنى هاشم وَغيرِهم قد أُخرِجوا كُرها لاحاجة لهم بقتال ، فمن لقىَ منكم أحداً من بنى هاشم فلا يَقتُله ، وَمَنْ لقىَ أبا البَخْترىّ بن هشام فلا يَقتُله ، وَمَنْ لقىَ العبّاسَ عمّ رسولِ الله فلا يَقتُله ؛ فإنه إنّما أُخرِج مُستكرَها » .

فقال : حُذيفة : أنقتُل آباءَنا وأبناءنا وإخوانَنا ، وعشيرتَنا ونترُك العبّاس! والله لئن وجدْته لأُلحِمنّه (٢) السيف ؛ فبلغت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فالتفتَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى عمرَ فقال : يا أبا حفص ـ قال عمر : وانّه لأوّلُ يوم كَنانى فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بأبى حَفْص ـ أيُضرَب وجهُ عمِّ رسولِ الله بالسّيف ! فقال عُمر : دَعْنى يارسولَ الله أضرِبْ عُنقَه بالسيف ، فوالله لقد نافَقَ . فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمِنٍ مِن تلكَ الكلمةِ التى قلتُ يومئذ ، ولا أزالُ منها خائفا إلاّ أن تُكفِّرَها عنّى الشهادة ، فقُتل يومَ اليَمامةِ شهيداً رضَى الله عنه .

وقاتلت الملائكةُ يومَ بدر ، ولم تُقاتِل إلاّ فيه وفى يومِ حُنَين ، وإنّما يكونون عددا ومدداً لايضرِبون . وكانت سيماهم يومَ بَدْر عمائمُ بَيْضاء قد أرسلوهَا فى ظهورهم . وفى يومِ حُنين عمائمُ حمراء . وفى حديثِ علىّ رضى الله عنه : « إنّ جبريل كانت عليه عِمامة صَفْراء » . وقال بعض بنى ساعدة بعد أنْ ذهب بصرُه ، وكان قد شهِدَ بَدْرا : لو كنتُ اليومَ بَبدْر ، وبصَرِى

(١) نفحهم بها : رماهم .

(٢) قال ابن هشام : « ويقال : لأجْلِمنّه » .

معى لأريتكم الشعب الذى خرجتْ منه الملائكة ، لا أشكّ فيه ولا أتمارَى .

ولمّا فرغ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من عدوّه ، أمَرَ بأبى جهل أن يُلتمَس فى القتلى ، وقال: « انظُروا — إن خفِيَ عليكم — فى القتلى إلى أثر جُرْح فى رُكبته ؛ فإنّى ازدحمتُ يوماً أنا وهو على مأدُبة لعبد الله بن جُدْعان ، ونحن غلامان ، وكنتُ أسنّ منه بيسير ، فدفعتُه ، فوقع على رُكبتيه ، فجُحِشت إحداهما جَحْشاً لم يزَل أثرُه به .

قال مُعاذ بنُ عمرو بن الجَموح : جعلتُ أبا جَهْل من شأنى ، فقصدتُ نحوَه ، وحملتُ عليه ، وضربتُه ضربة أطنّتْ قدمَه بنصف ساقِه ، فضربَنى ابنُه عِكْرمة على عاتِقِى ، فَطرح يدى ، فتعلّقت بجِلْدةٍ من جَنْبى ، وأجهضَنى[1] القتالُ عنه ، فلقد قاتلتُ عامّة يوْمى وإنّى لأسحبها ، فلمّا آذتْنى وضعتُ عليها قدمى ، ثمّ تمطّيت بها عليها حتّى طرحتُها . وعاشَ بعد ذلك مُعاذٌ إلى زمن عثمان.

ومرّ مُعوِّذ بنُ عفراء بأبى جَهْل وهو عَقِير ، فضربه حتّى أثبته وتركه وبه رَمَق[2] ، وقاتلَ معوّذ حتّى قُتِل . فمرّ عبدُ الله بنُ مَسْعود بأبى جهل حين أمَرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالتماسِه ، فلحِقَه بآخِرِ رَمَق ، فوضَع رجْلَه على عُنُقِه ، وقال : أخزاك الله ياعدوَّ الله ! قال : وبماذا أخزانى ؟ أخبِرْنى لمن الدائرة ؟ قال : لله ولرسوله ، ثمّ جزّ رأسه وجاء به إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فحمِد الله تعالى . وأمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالقتلى أن يُطرَحوا فى القَليب ، فطُرِحوا إلاّ ما كان من أميّة بن خَلَف ؛ فإنّه انتفخ فى دِرْعه فملأها ، فذهبوا ليحرّكوه ، فتزايل ، فألقَوْا عليه من الحِجارة والتّراب ما غيّبه .

ثمّ إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وَقَف على القَليب وقال : « يا أهل القليب ، بئسَ عَشيرة لى كُنْتم ! كذّبتمونى وصدّقنى الناس ، وأخرجتمونى

---

(١) أجهضنى : غلبنى . (٢) الرمق : بقية الحياة .

وآوانى النّاس، وقاتلتمونى ونصرنى الناس. يا أهلَ القَليب، هل وجدْتُم ماوَعَدَكم ربُّكم حقًّا، فإنّى وجدتُ ما وَعَدنى ربّى حقًّا!».

فقال له أصحابُه: يارسولَ الله، أتُكلِّم قوماً مَوْتَى؟ فقال لهم: لقد علموا أنّ ماوَعَدَهم ربُّهم حقّ.

وقيل: إنّه قال: ما أنتم بأسمَع لما أقولُ منهم، ولكنّهم لا يستطيعون أن يُجيبونى.

وفى ذلك يقول حسّان بنُ ثابتٍ الأنصاريّ[1]:

عرَفتُ دِيارَ زَيْنَبَ بالكَثِيبِ ... كَخَطِّ الوَحْيِ فى الوَرَقِ القَشِيبِ[2]

تَداوَلَها الرِّياحُ وكلُّ جَوْنٍ ... من الوَسْمِيِّ مُنهمِرٍ سَكُوبِ[3]

فأمْسَى رَسْمُها خَلَقاً وأمستْ ... يَباباً بعد ساكِنِها الحَبيبِ

فدَعْ عنك التذكُّرَ كلَّ يوم ... ورُدَّ حَرارةَ الصَّدْرِ الكَئِيبِ

وخبِّرْ بالّذى لا عَيبَ فيه ... بصدْقٍ غيرِ أخبارِ الكَذوبِ

بما صَنَع المليكُ غداةَ بَدْرٍ ... لنا فى المُشرِكين من النَّصيبِ

غَداةَ كأنّ جَمْعَهُمُ حِراءٌ ... بدتْ أركانُه جُنْحَ الغُروبِ

فلاقَيْناهمُ مِنّا بجَمْعٍ ... كأُسْدِ الغابِ مُرْدانٍ وشِيبِ

أمامَ محمّدٍ قد آزَرُوه ... على الأعْداء فى لفحِ الحُروبِ

بأيديهمْ صَوارِمُ مُرهَفاتٌ ... وكلُّ مجرَّبٍ ماضى الكعوبِ[4]

بنو الأوْسِ الغطارفُ وازَرَتْها ... بنو النَّجّار فى الدِّين الصَّليبِ

فغادَرْنا أبا جَهْلٍ صريعاً ... وعُتْبةَ قد تركْنا بالجَبُوبِ[5]

وشَيْبةَ قد تركْنا فى رجالٍ ... ذَوِى نَسَبٍ إذا نُسِبُوا حَسِيبِ

---

(١) ديوانه ١٤ (٢) الكثيب: القطعة من الرمل. والوحى: الكتابة.

(٣) الوسمى: مطر الربيع، والجون: السحاب الأسود.

(٤) الديوان: «فاطى الكعوب»، أى أن كعوبه غليظة صلبة.

(٥) الجبوب: الأرض الغليظة.

يُنادِيهم رســـولُ الله لمّا قَذَفْناهم كباكِبَ فى القَلِيبِ (١)
ألَمْ تَجِدوا كلامِى كانَ حَقًّا وأمْرَ الله يأخُذُ بالقلوبِ
فما نَطَقوا ، ولو نَطقوا لقالُوا صدقتَ وكنتَ ذا رأيٍ مُصيبِ

وذكر قاسمُ بن ثابتٍ فى دلائله ، أنّ قريشا لمّا توجَّهتْ لبَدْر ، مرّ هاتِفٌ من الجِنّ على مَكّةَ فى اليومِ الّذى أوقع بهم المسلمون ، وهو يُنشِد بأنفذِ صَوتٍ لا يُرَى شَخصُه :

أرادَ الحنيفيُّون بَدْرا وَقيعةً سيُنقَضُ منها رُكنُ كِسْرَى وقَيْصَرا
أبادَتْ رجالا من لُؤَيٍّ وأبرزَتْ خرائدَ قَصْرٍ بين التّرائب حُسّرا
فياوَيْحَ من أمْسَى عدوَّ محمّدٍ لقـد حادَ عن قَصْدِ الهُدى وتَجَبَّرا

فقال قائلُهم : مَن الحَنيفيُّون ؟ فقال : محمّدٌ وأصحابُه ، يزعمون أنّهم على دين إبراهيمَ الحَنيف ، ثمّ لم يَلبَثوا أن جاءهم الخبر اليقين .

وقال الصحابة رضىَ الله عنهم أشعاراً كثيرةً فى يومِ بَدْر، منهم حمزةُ بن عبد المطّلب وعلىّ بنُ أبى طالب وكعبُ بنُ مالك أخو بنى سَلِمة ، وضرارُ ابنُ الخَطّاب الفِهْرىّ وحسّان بنُ ثابت وعُبَيدة بنُ الحارث بن عبد المّطلب .

وكانت وَقْعـة بدرٍ الكُبرى يومَ الجمعة لسبعِ عشرةَ من شهر رمضانَ ، سنة اُثنتَيْن من الهِجْرة .

وفى المَثَل : « لا فى العِير ولا فى النَّفير » ، أوّل من قاله أبو سفْيان لبنى زُهْرة ، لمّا رجعتْ إلى مكّةَ على ما تَقدّم ، فلقيَهم أبو سفيان فقال : يا بَنى زُهْرة أنتم لافى العِير ولا فى النّفير ، فأرسلَها مَثلا .

وتلاحى يوماً خالد بنُ يزيدَ بن معاوية ، والوليد بن عبد المَلِك ، فى قصّة فيها طُولٌ فى هذا الموضع ، فقال الوليد لخالد : اسكت ، فوالله ما تُعَدّ لا فى

---

(١) كباكب : جمع كبكبة ، وهى الجماعة من الناس .

العير ولا فى النّفير ، فقال خالدٌ لعبد الملك : اسمع ياأميرَ المؤمنين ، ثمّ أقبلَ على الوليد وقال: وَيْحَكم ! مَن فى العِير والنّفير غير جَدّى أبى سفْيان صاحب العِير ، وجدّى صاحبُ النّفير عُتْبة بن رُبيعة ، فهذا المَثل نحنُ أصلُه من الجانبين. ولـكن لو قلت : غنيمات وحُبَيلات والطائف ، ورحمَ الله عثمانَ ، لقلنا : صدقتَ .

قلت : يشير بذلك إلى الحَـكَم ، فإنّ رسول الله صلى الله عليـه وسلم طرَدَه إلى الطائف ، فـكان هنالك يَرعَى غُنَيمات ، ويأوى إلى حَبَلة - وهى الـكَرْمة - وأنّ عثمانَ رضى الله عنه ردَّ الحَـكَم إلى المدينة فى أيام خلافته .

وشِبْه هذا المَثَل قولهم : لافى أسفل القِدْر ولا فى أعلاها .

وذكرتُ هنا بيْتَين فى مليحٍ جَمّال :

أحببتُ جَمّالا كبَدْرِ الدُّجَى يقول لمّا عادَ عنه السّفِيرْ
لا تنتسِبْ يوماً إلى عشقتى ماأنتَ فى العِيرِ ولا فى النّفيرْ

وكان أميّةُ بنُ أبى الصّلْت يُحرِّض قريشاً بعد وقعة بَدْر ، وكان يَرثى من قُتِل من قريش فى وَقْعة بدر ، فمن ذلك قولُه :

ماذا ببَـــدْرٍ والعَقَنْقَلِ من مَرازِبَةٍ جَحَاجِحْ [١]

وهى قصيدةٌ نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن رِوايتها .

* * *

٤١ — وقوله : وَانخزلتُ بثُلثِ الناس يوم أُحُد .

يشير بذلك إلى عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول رأس المنافقين يومَ أُحُد ، وذلك أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، لمّا رجع من بدر إلى المدينة قفل المشركون وأبو سفْيان إلى مـكّة ، فى رجالٍ ممّن أصيب آباؤُهم وأبناؤُهم وإخوانُهم يومَ

---

(١) ديوانه ٢٠ .

بدر ، كلّموا أبا سفيان فى ذلك ، وقالوا لمن كانت له تجارة فى تلك العِير : إنّ محمّداً قد وَتَرَكم ، وقتل خيارَكم ، فأعينوا بهذا المال على حَرْبه ، لعلّنا نُدرِك ثأرَنا بمن أصاب مِنّا .

فوافقوهم على ذلك وقالوا : نحن قد طابت نفوسنا بأن تُجهِّزوا بربح هذا العِير جيشا إلى محمّد – وكانت ألفَ بعير ، وخمسين ألفَ دِيناراً – فسلّم أهلُ العير رءوسَ أموالهم ، وأخرَجُوا أرباحَهم ، وكانوا يَربَحون فى تجارتهم فى كل دينار ديناراً ، وحرّكوا لذلك مَن أطاعَهم من القبائل ، وخرجوا بخدمهم وعبيدهم وأحابيشهم ، ومن تابَعَهم من بنى كِنانة وأهلِ تهامة ، وخرجوا بالظُّعُن التماس الحفيظة(١) وألاّ يَفِرّوا .

ولمّا سمِع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه بَقَراً يُذبح ، ورأى فى ذُباب سَيفه ثَلْماً ، وأنّه أدخَل يدَه فى دِرْعٍ حَصينة ؛ فأوّلَها أنّ البَقَر جماعةٌ من أصحابه يُقتَلون ، والثَّلْم رجلٌ من أهل بَيْته يُقتَل ، والدِّرع الحصينة المَدِينة . فقصَّ ذلك على أصحابه ، وذكر التأويلَ لهم ، وقال : « فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعُوهم حيثُ نَزَلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مُقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها » . وكان رأىُ عبد الله بن أُبَىّ موافقاً لرأىِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رجالٌ من المسلمين ممّن فاته يوم بَدْر : يارسولَ الله ، اخرُجْ بنا إلى أعدائنا ، لا يَروْن أنّا جَبُنّا عنهم وضعفنا . فقال عبدُ الله ابنُ أُبىّ : يا رسول الله ، أقم بالمدينة وَلا تخرج منها ، فوالله ماخرجْنا منها إلى عدوٍّ لنا إلاّ أصابَ مِنّا ، وَلا دخلها علينا إلاّ أصبْنا منه .

ولم يزل النـاسُ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل فلَبِس لأمته ، وذلك بعد فراغه من صلاة الجُمُعة ، وخرج الناس وقد ندموا ، وقالوا : يارسول الله ، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد ، فقال

---

(١) الظعن : جمع ظعينة ؛ وهى المرأة فى الهودج . والحفيظة : الأنفة والغضب .

صلى الله عليه وسلم: « ليس للنبيِّ إذا لبِس لأمته[1] أن يضعَها حتّى يُقاتل » .
فخرج في ألفٍ من أصحابه ، حتّى إذا كانوا بين المدينة وأُحُد ، انخزَل عنه عبدُ الله
ابن أُبيّ بثُلث الناس ، وقال : أطاعَهم وعصاني ، ما ندري عَلامَ نقتل أنفسَنا
هاهنا أيّها الناس ! ورجع بمن اتّبعه من أهل النِّفاق والرِّيب ، واتّبعهم عبدُ الله
ابنُ عمرو بن حرام يقول : ياقوم ، أذكِّركم الله ألاّ تخذُلوا قومَكم ونبيَّكم
عند مَنْ حضر من عدوِّهم ! قالوا : لو نعلم أنّكم تُقاتلون لما أسلمْناكم ، وأبَوْا
عليه ، واستعصَوْا ، فقال : أبعَدكم الله ؟ أعداءَ الله ، فسيُغني الله نبيَّه عنكم !

ومضى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتّى سلك في حَرّة بني حارثة ، فذبّ
فرسٌ بذنَبه[2] فأصاب كُلاّبَ سيف استلّه ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم :
« شِمْ سيفَك ؛ فإني أرَى السيوفَ ستُسَلّ اليوم » .

وتعبّأ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم للقتال وهو في سبعمائة رجل ،
وأمّر على الرماة عبدَ الله بنَ جُبَير ، أخا بني عمرو بنِ عوف ، وهو مُعلِم
يومئذ بثيابٍ بيض ، والرُّماة خمسون رجلا ، فقال : انْضح[3] الخيل عنّا
بالنّبْل ، لايأتونا من خلْفِنا إن كانت لنا أو علينا ، اثبُتْ مكانَك لانُؤتيَنّ
من قِبَلك . وظاهَرَ[4] رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين درعَين ، ودفع اللِّواءَ
إلى مُصعَب بنِ عُمَير أخي عبدِ الدار .

وتعبّأت قريش وهم على ثلاثةِ آلاف ، ومعهم مائتافرس قدجَنبُوها[5] ، وخالد
ابن الوَليد على ميْمَنة الخيْل ؛ وعلى الْمَيْسرة عِكْرمة بنُ أبي جهل ؛ واقتتل

(١) اللأمة : الدرع
(٢) ذبّ فرس بذنبه : حرك ذنبه ليطير عنه الذباب .
(٣) انضحوا الخيل : ادفعوهم
(٤) ظاهر بين درعين : لبس درعا فوق درع .
(٥) جنبوها : قادوها .

الناس، حتّى حميت الحرب . وقاتل حمزةُ عمُّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قتالا شديداً في ذلك اليوم، وكان جُبَيْر بنُ مُطعِم قد وعد غلامَه وَحْشِيًا بالعِتْق إن قتل حمزة . قال وَحشيّ: فخرجتُ مع الناس ـ وكنت رجلا حَبَشيًّا؛ أقذِف الحَرْبةَ قذف الحبشة قلّما أُخطىء ـ فلمّا التقى الناسُ خرجتُ أنظر حمزةَ حتّى رأيته في عُرْض الناس مثل الجمل الأورق؛ يهدّ الناسَ بسيْفه[1] هَدًّا؛ مايقومُ له شيء؛ فجعلتُ أستتر منه بشَجرٍ أو حَجر؛ حتى مرَّ عليَّ، فهززْت حَرْبتي حتّى إذا رَضيتُ منها قد فْتُهَا فوقَعتْ في ثُنّتِه حتّى خرجتْ من بين رِجله . ثمَّ إنَّ وَحْشِيًّا أَسلَم فيما بعدُ؛ فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إسلامَه بعدما حدّثه كيف قتَل عمَّه، فقال: وَيْحك! غَيِّب وجهَك عنِّي. وكان وَحْشيّ بموضع لايراه إلى أن قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ثمَّ إنه قتل مُسَيلمةَ بحرْبَته تلك، وكان يقول: قتلْتُ خَيْر الناسِ وشرَّ الناسِ، بعدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

وقاتل مُصعَبُ بنُ عُمير دونَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حتّى قُتِل، فأخذ الراية رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودفعها إلى عليٍّ بنِ أبي طالب . وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت راية الأنصار، واشتدَّت الحرب، وأنزلَ اللهُ نصره على المُسلمين، وصدقهم وعدَه، بعد ماحملت خيلُ المشركين على المسلمين ثلاث مرَّات . ولما أبصر الرُّماةُ الخمسون أنّ الله قد فَتح لإخوانهم قالوا: والله ما نجلس هُنا، قد أهلك الله العدوَّ، وإخواننا في عسكر المشركين! فتركوا مَنازِلهم الّتي عَهد إليهمْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ألاّ يتركوها وتَنازَعوا وفشِلوا، وعصوُا الرّسول، فأوْجفَتْ الخيلُ فيهم قتْلا، ولم تكن تنال منهم، وكان ذلك سبباً لهزيمة المسلمين بعد أن كانتْ لهم، وصَرخ صارخٌ: ألاَ إنّ محمداً قد قُتِل، وكان الصارخ الشّيطان، وخَلَص العدوُّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقُذِف بالحجارة حتَّى وَقع لشِقِّه، فأُصيبتْ رَباعيته

---

(١) يهد الناس: يهلكهم.

وكلمت شَفَتُه ، وشُجّ في وجهه ، وجعل الدَّمُ يسيلُ على وجهه ؛ فجعل صلى الله عليه وسلم يَمسَح الدمَ بيَدِه ويقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيِّهم بدَمِه ! ؛ وهو يدعوهم إلى ربِّهم » ؛ فأنزل الله في ذلك : ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتُوب عليهم أو يعذِّبَهم فإنهم ظالمون ﴾[1] .

وكان الذي جرَح شفته ؛ وكسر رباعيَتَه عُتبة بن أبي وقاص . وشَجّه عبد الله بن شهاب الزُّهري فيوجهه ، وجرح ابنُ قَمِئة وجْنَته ؛ فدخلت حلقتان من حلَق المغفر في وجنته ؛ ووقع صلى الله عليه وسلم في حفرة من الُحفر التي عملها أبو عامر ليقع فيها المسلمون . فأخذ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بيده ورفعه طلحة بن عبيدالله حتى استوى قائما . ومصّ مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدريّ الدم من وجهه ثم ازدَرَده ، فقال صلى الله عليه وسلم : «من خالط دمه دمي لم تُصِبْه النار » . ونزع أبو عبيدة إحدَى الحلْقتين من وجه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فسقطت ثنيّتُه . ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيّتُه الأخرى .

وكان سعد بن أبي وقاص يقول : والله ماحرصت على قتل رجلٍ قطّ حرْصي على قتل عُتْبة بن أبي وقاص ـ وهو أخوه . ولما غشِيه القوم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ رجل يشتري لنا نفسه ؟ » ، فقام زياد بن السكن في خمسة نفرٍ من الأنصار ـ وقال بعضهم : عمارة بن يزيد بن السكن ـ فقاتلوا دونَ رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً بعد رجلٍ ، يُقتَلون دونه حتى كان آخرهم زياد أو عُمارة ؛ فقاتل حتى أثخنته الجراحة . ثم فاءت[2] فئة من المسلمين فأجْهضوهم[3] عنه ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم « أدنُوه منّي » . فوسَّده قدمه ، فمات وخَدُّه على قَدم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وترّس

---

(١) آل عمران ١٢٨ (٢) فاءت : رجعت (٣) أجهضوهم : أزالوهم .

أبو دُجانة الأنصاريّ دونَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقع النَّبْل فى ظَهْره وهو مُنْحَنٍ عَلَيْهِ حتى كثر فيه النَّبْل .

ورَمَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومَ أُحُد عن قَوْسِه ، حتى اندقّتْ سِيَتُها ، وأصيبتْ يومئذ عينُ قَتادة ، فرَدّها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن سالت على خَدّه ، فكانت أحسن عيْنَيه وأنظرَهما ، وجُرح عبد الرحمن ابن عوف عشرون جراحة ، وهُشِم فمه .

وكان أول من عرَف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة ، وتحدّثِ الناسُ بأنه قد قتل ، كعب بن مالك الأنصاريّ ، قال : عرفته بعَيْنيه تزهَران[1] تحتَ المغفر ، فناديتُ بأعلى صَوْتى : يامعشرَ المسلمين ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فأشار إلىَّ أن أنْصت ولمّا عَرَف المسلمون به نَهَضوا به ، ونَهَض معهم نحوَ الشِّعب ، معه أبو بكر وعُمر وعلىّ وطَلْحة والزُّبير والحارث بن الصِّمَّة ورهْطٌ من المسلمين . فلمّا أسند رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب ، أدركه أُبَىُّ بنُ خلَف وهو يقول : أين محمَّد ؟ لانجوتُ إنْ نَجَا ! فقال القوم : يارسولَ الله ، أيَعطِف عليه رجلٌ منّا ؟ فقال : دَعُوه ، فلمَّا دنا تَناوَل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الحَرْبة من الحارث بن الصِّمَّة ، وانتفَضَ بها انتفاضَةً تطايرعنه الناس تَطايرَ الشعراء[2] عن ظهرِ البعير إذا انتفَضَ ، ثم استقْبَله بها فطَعَنه فى عُنُقه طعنَةً تداعى منها عن فرسه . وكان أُبىٌّ يَلقَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم بمكَّة فيقول : يامحمَّد ، عندى فرسٌ أعلِفُه كلَّ يومٍ فَرَقًا[3] من ذُرة أقْتُلك عليه ، فيقولُ النبي صلى الله عليه وسلم : « بل أنا أقتُلك عليه إن شاء الله تعالى » .

فلمّا رجع إلى قريشٍ وقد خُدِش فى عُنُقه خَدْشا غيرَ كبير ، فقال : قَتَلَنى محمد ، فقال له : ذهب والله فؤادك ، والله مابكَ من بأس ، قال : إنه قد كان

(١) تزهران : تضيئان (٢) الشعراء : ذباب له لذع .
(٣) الفرق : نوع من المكاييل .

قال لى عكمة : أما أقتلك فوالله لو بصق على لقتلنى ، فمات بسرف[1] وهم قافلون به . وعلت عالية من قريش ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : اللهمَّ إنه لا ينبغى لهم أن يعلونا ، فقاتل عمرُ ورهطٌ من المهاجرين حتى أهبطوهم ، وصلى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومئذٍ قاعداً من الجراحة ، وصلَّى المسلمون خلفه قعودا .

وفى الصحيح من حديث البَراء ، أنّ أبا سُفْيان قال : إن لنا العزّ ولا عِزّ لكُمْ ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : أجيبوه ، قالوا : ما نقول ؟ قال: قولوا : « الله مولانا ولا مولَى لكم » .

وفيه أيضا أن أبا سُفْيان أشرَفَ فقال : أفى القوم محمد ؟ فقال : لا تجيبوه . فقال : أفِى القوم ابنُ أبى قُحافَة ؟ قال: لاتجيبوه. قال : أفى القوم ابنُ الخطّاب ؟ فلمّا لم يُجِبْه أحد قال : إنّ هؤلاء قد قُتِلوا ، ولو كانوا أحياء لأجابوا ، فلمْ يَملِك عمرُ نفسَه ، فقال : كذبتَ يا عدوَّ الله ، قد أبقى لك ما يُخزيك ، فقال أبو سُفْيان : هلمّ إلىّ ياعمر ؛ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لعمر: آتِه فانظر ما شأنهُ ، فجاءه ، فقال له أبو سُفْيان : أنشُدُك الله يا عمر ! قتلنا محمدا ؟ فقال عمر : اللهمّ لا ، وإنّه يسمع كلامَك الآن ، قال : أنتَ أصدَقُ عندى من ابن قمِئة وأبرّ .

وانصرَف أبو سُفْيان ومَنْ معه ، وقال : موعِدُكم بَدْر للعام القابِل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل : نعم ، هو بيننا وبينَك مَوْعد » .

وتوجّه المشركون إلى مكّة ، وخرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يلتمس عمّه حمزةَ فى القتلى ، فوجده ببَطْن الوادى ، قد بُقِر بطنُه عن كبِده ، وجُدِعَ أنفُه وأُذناه ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حين رأى مارأى : « لولا أن تحزن

---

(١) سرف : موضع على ستة أميال من مكة .

صفيَّةُ ، وتكونَ سُنّة من بعدى ، لتركتُه حتّى يكونَ فى بطون السِّباع وحواصلِ الطّير ، ولئن أظهرَنى اللهُ على قريش فى مَوطنٍ من المواطن لأُمَثِّلَنّ بثلاثين رجلا منهم » ، فأنزَلَ اللهُ تعالى : ﴿ وإن عاقَبتُمْ فعاقِبوا بِمثل ما عُوقِبتم به ولئن صبرتُم لهوَ خيرٌ للصّابرين * واصبرْ وما صَبْرُك إلاّ بالله ولا تَحزَن عليهمْ ولاتَكُ فى ضيقٍ مّما يمكُرون ﴾(١).

فعفا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وصبرَ ونهَى عن المُثْلة ، ثمّ أمَرَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فسُجِّيَ ببُرْدةٍ حبَرِيَّة ، ثمّ صلّى عليه ، فكبَّر سبعَ تكبيرات . ثم أتِيَ بالقتلى يُوضَعُون إلى جَنب حمزة ، وصلّى عليهم وعليه معهم ، حتّى صلّى اثنتيْن وسبعين صلاةً .

وانصَرَف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة راجعا ، وكان يوم أُحُد يوم السّبت النصف من شوّال ، سنة ثلاث من الهجرة ، وكان ممّا أنزَلَ اللهُ عزّ وجلّ من القرآن فى شأنِ أُحُدٍ ستّون آيةً من آلِ عِمْران ، فى طاعةِ من أطاع ونفاقِ من نافَق وصفته . واستُشهِد من المسلمين فى يوم أُحُدٍ من المهاجرين أربعة ، ومن الأنصار أحدٌ وستّون رجلا ، وقُتِل من المشركين اثنان وعشرون رجلا .

وقال حسّان بنُ ثابت يجيب عبدَ الله بن الزِّبَعْرَى عن كلمة قالَها يومئذ ، وهو مُشرِك قبل إسلامه :

أشاقَتْكَ مِن أمِّ الوَليد رُبُوعُ ... بَلاقِعُ ما من أهلِهنّ جميعُ(٢)
عَفاهُنّ صَيْفِيّ الرِّياح وواكِفٌ(٣) ... من الدَّلْوِ رجّافُ السّحاب هَمُوعُ(٤)
فلَم يَبقَ إلاّ موقِد النّارِ حَوْلَه ... رواكِدُ أمثالُ الحَمام كُنُوعُ(٥)

(١) سورة النحل ١٢٦ ، ١٢٧ .
(٢) ديوانه ٢٥٢ .
(٣) الديوان : صيفى الربيع .
(٤) الدلو هنا : برج من بروج السماء .
(٥) الديوان : « وقوع » .

فدَعْ ذكرَ دارٍ بدَّدَتْ بينَ أهلِها … نوًى فرّقتْ بين الجميع قَطوعُ
وقلْ إن يكن يوماً بأُحْدٍ يَعُدُّه … سَفيهٌ فإنّ الحقَّ سوف يَشيعُ
فقـد صابَرَتْ فيه بنو الأوسِ كلُّهمْ … وكان لهم ذكرٌ هناك رفيـعُ
وحامَى بنو النّجّار فيه وصابَروا[1] … وما كان منْهُمْ فى اللقاء جَزوع
أمامَ رسولِ الله لا يَخْـذُلونه … لهمْ ناصرٌ مِن ربِّهم وشفيـعُ
وفَوْا إذ كفَرتم يا سَخين بربِّكمْ … ولا يستوى عبدٌ عصا ومُضيعُ[2]
بأيديهمُ بِيضٌ إذا حَمِشَ الوَغَى[3] … فلا بدّ أن يرْدَى لهنّ صَريعُ
كما غادَرَتْ فى النّقْع عتبةَ ثاوِيا[4] … وسعداً صَريعا والوشِيجُ شُروعُ[5]
وقد غادَرَتْ تحتَ العَجاجة مُسنَداً … أُبيّا وقد بلَّ القميصَ نَجيعُ[6]
بكفِّ رسولِ الله حتّى تلفّفتْ … على القوم ممّا قد يُثِرْنَ نقوعُ
أولئك قومٌ سادةٌ من فُروعكمْ … وفى كلّ قومٍ سادةٌ وفُروعُ
بِهنّ يُعِزّ اللهُ حينَ يُعِزّنا … وإن كان أمرٌ ياسخين فَظيعُ
فإنْ تذكروا القَتْلى وحمزةَ فيهمُ … قَتيلٌ ثوَى لِلّه وهْو مُطيـعُ
فإنّ جِنانَ الخُـلد مَنزِلةٌ له … وأمرُ الّذى يَقْضِى الأمورَ سريعُ
وقَتلاكُمُ فى النار أفضلُ رِزْقِهم … حميمٌ معًا فى جَوْفِها وضَريعُ[7]

* * *

(١) الديوان : « وضاربوا ». (٢) الديوان: « سخين »، أصله سخينة ، والسخينة : حساء يتخذ من دقيق وتمر ، وكانت قريش تكثر من أكلها ، فسميت به على طريق النبز .
(٣) حمش الوغى : اشتد وقوى . (٤) الديوان : « عثمان ثاويا » .
(٥) الوشيج: الرماح ، وشروع: مائلة للطعن . (٦) العجاجة : الغبرة . والنجيع: الدم.
(٧) الحميم : الحار . والضريع : نبت بالحجاز ذو شوك .

٤٢ – وقوله : وتخلّفتُ عن صلاةِ العَصْر فى بنى قريظة .

يشيرُ بذلك إلى مَنْ تخلّف عن صلاةِ العَصر فى بنى قرَيْظَة ، لأنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم لمّا انصرَف عن الخَنْدَق راجعا إلى المدينة ، والمسلمون معهم وقد عَضّهم الحِصَار ، ورجَعُوا مجهودِين ، فوضعوا السّلاح ، فلمّا كان وقت الظهرِ أتى جبريلُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم معتجِرا بعِمامةٍ من إِسْتَبْرَق[1] ، على بغلة عليها رِحالة ، وعليها قطيفَةٌ من دِيباج ، فقال : غَفَر اللهُ لك ، أوَقَدْ وضعتَ السّلاح يارسول الله ؟ قال : نعم ، قال جبريل : فما وَضَعت الملائكةُ السّلاح بعد ، وما رجعتُ الآنَ إلاّ من طَلَب القوم ، إنَّ الله يأمُرُك يا محمّد بالمَسِير إلى بنى قُرَيظة .

فقدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم علىّ بنَ أبى طالب — كرّم اللهُ وجهَه — برايته إلى بنى قُرَيظة ، وابتدَرها الناسُ ، فسار علىٌّ رضىَ الله عنه حتّى إذا دنا من الحُصون ، سَمِع منها مقالةً قبيحةً على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع حتّى لقى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالطريق ، فقال : يا رسولَ الله ، لا عليك ألاّ تدنوَ من هؤلاء الأخابث . قال : « لم ؟ أظنّك سمعتَ لى منهم أذى ؟ » قال : نعم ، قال : « لو رأونى لمْ يقولوا من ذلك شيئاً » . ولمّا دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال : « يا إخوانَ القِرَدة ، هل أخزاكم الله ، وأنزَل بكمُ نِقْمَتَه ؟ » قالوا : يا أبا القاسم ، ما كنتَ جهولا .

ومَرّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بنفرٍ من أصحابه فى طريقه قبل أن يصلَ إلى بنى قُرَيظة ، فقال : «هل مرَّ بكم أحدٌ ؟ » قالوا : يارسولَ الله ، مرَّ بنا

---

(١) الاعتجار : أن يتعمم الرجل دون أن يلتحى ، أى من غير أن يضم من عمامته شيئا تحت لحيته . والإستبرق : نوع من الحرير .

دِحْيَة بن خَلِيفة الكَلْبي على بَغْلة بيضاء عليها رحالة ، وعليها قَطِيفةٌ من ديباج . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك جبريل ، بُعِثَ إلى بنى قُرَيظة يُزلزل بهم حصونَهم ، ويَقذف فى قلوبهم الرُّعب » .

وتَلاحَق الناسُ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى رجالٌ من بعد العشاء الآخرة لم يُصلُّوا العَصر ، لقولِ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يصلِّيَنَّ أحدٌ العَصر إلاّ فى بنى قُرَيظة » ، فصلُّوا العصرَ بها من بعد العِشاء الآخرة ، فما عابَهم اللهُ بذلك فى كتابه ، ولا عنَّفَهم به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : إنَّ العصر أدركتْ منهم جماعةً ، فصلاّها بعضُهم ، ولم يصلِّها بعضُهم إلاّ فى بنى قُرَيظة بعد أن غابت الشمسُ ، وذُكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يُعنِّف أحدا من الطائفتين .

وحاصر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بنى قُرَيظة خمساً وعشرين ليلةً حتَّى جهدهم الحِصار ، وقد قُذف فى قلوبهم الرُّعب . ثم إنَّهم نزلوا على حُكْم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأحرزوا دماءهم وأموالَهم (١) .

* * *

٤٣ — وقوله : وَجئتُ بالإفْك عَلَى عائشةَ الصِّدِّيقيَّة

يشير بذلك إلى واقعةِ الإفك على عائشةَ رضىَ الله عنها ، وكان من أمْرِها أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لمّا أقبل من غَزْوة بنى المُصْطَلِق حتّى إذا كان قريباً من المدينة ، قال أهلُ الإفك فى الصِّدِّيقيَّة المطهَّرة البَرّة ماقالوا .

وحديث عائشةَ رضى الله عنها ، قالت : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد السفرَ أَقْرع بين نسائه ، فأيّتهنّ خَرجَ سَهْمُها خرجَ بها معه ، فلمّا كانت غزوةُ بنى المُصْطَلِق خرجَ سَهْمِى عليهنّ معه ، فخرج بى رسولُ الله صلى الله عليه

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٢٥٢

وسلم ، وكان النّساء إذ ذاك خِفافًا ؛ إنّما يأكُلْن العُلَق[١] ، لم يُهَيِّجهنّ اللحم فيثقلنَ . وكنت إذا رُحِّل لى بعيرى جلستُ فى هَوْدجى ، ثمّ يأتى القومُ ويَحملوننى ؛ يأخذون بأسفل الهَوْدَج ويرفعونه ، ويضَعُونه على ظهر البعير ، فيشدّونه بحِباله ، ثمّ يأخذون برأس البعير وينطلقون به . فلمّا فرَغ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذلك ، وجّه قافلا ، حتى إذا كان قريبًا من المدينة نزل منزلاً ، فبات به بعض الليل ، ثمّ أذَّن فى الناس بالرّحيل ، فارتحَل النّاس ، وخرجتُ لبعض حاجتى ، وفى عُنُق عِقْدٌ لى فيه جَزْعُ ظَفارِيّ ، فلمّا فرغت انسلّ من عُنُقى ولاأدْرى ، فلمّا رجعتُ إلى الرَّحْل ذهبتُ ألتَمِسُه فى عُنُقى فلمْ أجدْه ، وقد أخذ الناسُ فى الرّحيل ، فرجعتُ إلى مكانى الّذى ذهبتُ إليه فالتمسْتُه حتّى وجدتُه ، وجاء القومُ الّذين كانوا يرحّلون لى البعير ، وقد فرَغوا من رحلته ، فأخذوا الهوْدَج ، وهم يظنّون أننى فيه كما كنت أصْنَع ، فاحتملوه وشدُّوه على البعير ، ولم يشكّوا أنّى فيه . ثم أخذوا برأس البعير وانطَلَقوا به ، ورجعتُ إلى المعسكَر ومافيه من داعٍ ولامجيب . فتلفّفْت بجِلبابى ، ثم اضطجَعْتُ فى مكانى ، وعرَفْت أن لو افتُقِدْتُ لرُجِع إلىّ . فوالله إنّى لمُضْطجِعة إذ مَرَّ بى صَفْوان بن المُعَطّل السُّلمىّ . وكان قد تخلّف عن العسكر لبعض حاجاتِه ، فلم يَبِت مع النّاس ـ فرأى سَوادِى ، فأقبَل حتّى وَقَف علىَّ ، وقد كان يَرانِى قبل أن يُضرَب علينا الحجاب ، فلمّا رآنى قال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ! ظعينة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ! وأنا متلفّفةٌ فى ثِيابى . ثمّ قال : ما خلّفكِ ، رحمكِ الله ! قالت : فما كلّمته ، فقرَّبَ البعيرَ ثمّ قال : اركَبى ، واستأخَر عنّى فركِبْتُ ، وأخَذَ برأس البعير وانطَلَق سريعا يطلب الناس ، فوالله ما أدركنا الناس ، ولا افتُقِدتُ حتى أصبحتُ ، ونَزَل الناسُ ، فلمّا اطمأنّوا طلَع الرّجل يقودُنى فقال أهلُ الإفك

---

(١) العلق ، جمع علقة ، وهى ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداء ؛ تريد أن طعامهن كان قليلا .

ماقالوا ، فارْتجّ العسكر ، والله ما أعلم بشيء من ذلك .

ثمّ قَدِمنا المدينة ، فلم ألبثْ أن اُشتكيتُ شَكوَى شديدةً ، ولا يَبلُغنى من ذلك شيء ، وقد انتهَى الحديثُ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبويّ ، ولا يذْكُرانِ لى منه قليلا ولا كثيرا ، إلاَّ أنّى قد أنكرتُ من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بعضَ لُطْفِه بى ، كنتُ إذا اُشتكَيْتُ رَحِمَنى ولَطَف بى ، فلم يَفعل بى ذلك فى شَكواى تلك ، فأنكرتُ ذلك منه ، وكان إذا دخل علىّ وعندى أمّى تُمرِّضنى قال : كيف تِيكُمْ ؟ لا يزيد على ذلك ، حتّى وجَدْتُ فى نفسى حين رأيتُ ما رأيتُ من جَفائه ، فقلت : يارسولَ الله ، لو أذنتَ لى فانتقلتُ إلى أمّى فمرّضتنى ! قال : لا عليكِ ، قالت : فانتقلت إلى أمّى ، ولا علم لى بشيء ممّا كان حتّى نقهتُ من وجَعى بعدَ بضعٍ وعشرين ليلةً ؛ وكنّا قوماً عربا ، لا نتّخذ فى بيُوتِنا هذه الكُنُفَ التى تتّخذها الأعاجم ، نعافُها ونكرَهُها ، إنّما كنا نذهب فى فُسَح المدينة ، وإنّما كان النّساء يخرجن فى كلّ ليلة فى حوائجهنّ ، فخرجتُ ليلةً فى بعض حوائجى ، ومعى أمّ مِسْطَح[1] ، فلمّا فرغْنا من شأننا وأقبلتُ ، عثرتْ أمّ مِسطَح فى مِرْطِها[2] . فقالت : تَعِسَ مِسْطَح ! قالت : فقلت : بئس ماقلتِ لرجلٍ من المهاجرين قد شَهِدَ بَدْرا ! قالت : أو مَا بَلغكِ الخبرُ يابنتَ أبى بكر ؟ قالت : قلت : وما الخبر ؟ فأخبَرتنِى بالّذى كان من قول أهلِ الإفْك . قالت : قلت : أوَكان هذا ؟ قالت : نَعَم ، والله لقد كان . قالت : فوالله ماقدرت على أن أقضىَ حاجتى ورجعْتُ ، فوالله ما زلْتُ أبكى حتّى ظننتُ أنّ البكاء سيصدع كَبِدى ، وقلتُ لأمّى : يغفُر الله لكِ ! تحدّث الناسُ بما تحدّثوا به ولا تَذكُرين لى من ذلك شيئا ! قالت : أىْ بُنَيَّه ؛ خَفِّضى عليكِ الشّأنَ ، فوالله لقلّما كانت امرأة حَسناء عند رجلٍ يُحبّها ، ولها ضرائرُ ، إلاَّ كَثّرْن وأكثر الناسُ عليها !

(١) أم مسطح كانت خالة أبى بكر الصديق .
(٢) المرط : الكساء .

قالت : وقد قام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى الناس فخطبهم، ولاأعلمُ بذلك ، فحَمِد اللهَ وأثنى عليه ، ثمَّ قال: «أيُّها النّاس، مابالُ رجالٍ يُؤذُونني فى أهْلى ، ويقولون عليهم غيرَ الحقّ ! واللهِ ماعلمتُ منهمْ إلاّ خيرا ! ويقولون ذلك فى رجل ، والله ماعلمتُ منه إلاّ خيرا ، ومايدخُل بيتا من بيوتى إلاّ وهوَ معى» . قالت: وكان كِبْرُ ذلك عند عبدِالله بن أُبىّ ، فى رجالٍ من الخزْرج مع الذى قال مِسْطح وحَمْنة بنت جَحْش — وذلك أنّ أختَها زينب بنت جَحْش كانت عند رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن من نسائِه امرأةٌ تُناصِبُنى فى المَنْزِلة عنده غيرها . فأمّا زينب فعَصَمها اللهُ بدينها ، فلمْ تَقُل إلاّ خيرا ، وأمّا حَمْنة فأشاعت بذلك ما أشاعَتْ تضادّنى لأختها — فشقيت بذلك . فلمّا قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تلك المقالة ، قام أُسَيْد بن حُضَير ، فقال : يارسولَ الله ، إنْ يكونوا من الأوْس نكْفِكَهُم ، وإن يكونوا من إخواننا من الخزْرج ، فمُرْنا بأمْرِك ، فوالله إنّهم لأهْلٌ أن تُضرَب أعناقُهم . فقام سعدُ بنُ عبادَة فقال : كذبتَ لَعَمْر الله ، لاتضرَب أعناقُهم ! أما والله ماقلت هذه المقالَة إلاّ أنك قد عرفتَ أنهم من الخزْرج ، ولو كانوا من قومك ماقلت هذا . فقال أُسَيد : كذبتَ لعَمْر الله ، ولكنّك منافق تجادِلُ عن المنافقين . قالت : وتثاور[1] الناس حتّى كاد يكون بين هٰذين الحيَّين من الأوْس والخزْرَج شرّ .

قالت : ونَزَل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا علىّ بنَ أبى طالب وأُسامةَ بنَ زَيْد، واستَشَارَهما. فأمّا أُسامةُ فأثنَى علىّ خيرا ، ثمّ قال: يارسول الله ، أهلُك، ولا نعلَمُ إلاّ خَيْرا، وهذا الكَذِب والباطل .وأمّا علىٌّ فإنّه قال : يارسولَ الله، إن النّساء لكثير، وإنّك لَتقدِر أن تَستخلِف ، وسَلِ الجاريةَ ستَصْدُقك .

فدعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بُرَيرةَ ليسألها ،فقام لها علىّ وهو يقول:

(١) تثاور الناس ، أى ثار بعضهم إلى بعض .

أصدُق رسولَ الله ، فقالت : والله ما أعلم إلاّ خيرا ، وما كنت أعيبُ على عائشة شيئا ؛ إلاّ أنّى كنت أعجِن عجينى ؛ فآمُرُها أن تحفَظه فتنام عنه ، فتأتى الشاةُ فتأكله .

— قلتُ : نقلتُ من خطّ الشيخ شمس الدّين محمّد بن قيِّم الجَوْزيّة : أنّ بَرِيرةَ إنّما اشترتْها عائشةُ وأعتقتْها بعد ذلك —

قالت : ثمّ دخل علىّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وعندى أبواى ، وعندى امرأةٌ من الأنصار ، وأنا أبكِى وهى تبكِى معى ، فجلس ، فحمِد اللهَ وأثنى عليه ، ثمّ قال : ياعائشة ؛ إنّه قد كان ما بلغكِ من قولِ النّاس ، فاتّقى اللهَ ، فإنْ كنتِ قارفتِ[1] سوءًا ممّا يقول الناسُ فتُوبى إلى الله ، فإنّ الله يقبَل التوبةَ عن عِبادِه . قالت : فوالله ما هو إلاّ أن قال لى ذلك ، فقلَص[2] دمعى حتى ما أُحِسّ منه شيئًا ، وانتظرتُ أبوَىّ أن يُجيبا عنى رسول الله فلم يتكلّما .

قالت : وايمُ الله لأنا كنتُ أحقرَ فى نفسى وأصغرَ شأنا من أن يُنزِل اللهُ فىّ قرآنا يُتلَى فى المساجد ، ويصلّى به ؛ ولكن كنت أرجو أن يرَى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومِه شيئا يكذّب الله به عنّى ، وبما يعلَم من براءتى ، أو يخبر خبراً ، فأمّا قرآنا ينزله الله فىّ : فوالله لنَفْسى كانت عندى أحقرَ من ذلك .

قالت : فلمّا رأيتُ أبوَىّ لم يتكلّما ، قلتُ لهما : ألا تُجيبان رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالا : والله ماندرى بماذا نجيبه ! قلت : والله ما أعلم أهلَ بَيْت دخل عليهمْ ما دخل على آلِ أبى بكر فى تلك الأيّام ! فلمّا استعْجما علىّ استعبرْتُ فبكَيْت ، ثم قلت : والله ما أتُوب إلى الله ممّا ذكَروا أبداً ، والله إنّى لأعلَم لئن أقررتُ بما يقول الناس ـ والله يعلَم أنّى بريئة منه ـ لأقولنّ ما لم

---

(١) قارفت سوءا ، أى أتيت ذنبا . (٢) قلص الدمع : ارتفع .

يكن ، ولئن أنا أنكرتُ ما يقولُ الناسُ لا تُصدِّقوننى . ثمّ الْتمستُ اسْم يعقوبَ فما ذكرتُه . فقلتُ : ولكنّى أقول كما قال أبو يوسف : ﴿ فصَبرٌ جميلٌ واللهُ المستَعان على ما تَصِفون ﴾ .

قالت : فوالله ما بَرِح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مجلسَه ، حتّى تغشّاه من الله ما كان يتغشّاه ، فسُجِّىَ بثوبه ، ووُضِعتْ له وِسادةٌ أدم تحت رأسِه . فأمّا أنا حينَ رأيتُ من ذلك ما رأيتُ ، فوالله ما فزِعت ولا بالَيْت ، قد عرَفتُ أنّى بريئةٌ ، وأنّ اللهَ غيرُ ظالمى ، وأمّا أبواى ، فوالذى نفس عائشة بيده ما سُرِّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتّى ظننت لتخرجنّ أنفسهما فرَقا من أن يأتىَ من الله تحقيقُ ما قال الناس ، ثم سُرِّىَ عن رسولِ الله وجلس ، وأنه ليتحدّر منه مِثلُ الْجُمان فى يوم ٍ شاتٍ ، فجَعل يَمسَح العرَق عن جبينه ويقول : أبشِرى ياعائشةُ ، قد أنزَل الله علىّ من القرآن فى ذلك .

ثم أمَرَ بمِسْطَح بنِ أُثاثة وحَمْنة بنت جَحْش وحسّان بن ثابت — وكانوا ممّن أفصَحَ بالفاحشة — فضرِبوا حدَّهم . قال الله تعالى: ﴿ إنّ الّذين جاءوا بالإفْك عُصْبَةٌ منكمْ لا تحسَبوه شرًّا لكمْ بل هوَ خيرٌ لكمْ لكلّ امرئ ٍ منهمْ ما اكْتسَب من الإثْم والّذى تولّى كِبْرَه منهمْ له عذابٌ عظيم ﴾[1].

قيل : إنّه حسّانُ وأصحابُه ، ثمّ قال : ﴿ لَوْلاَ إذْ سمِعتُموه ظَنّ المُؤْمِنون والمُؤْمناتُ بأنفسِهم خيراً وقالوا هٰذا إفكٌ مُبين ﴾ . أى هلاّ قُلْتم إذ سمِعتموه كما قال أبوّبَ الأنصارىّ ، وصاحبته أم أيوب — وذلك أنها قالت لزوجها : يا أبا أيُّوب ، ألا تسمع ما يقول الناسُ فى عائشةَ ؟ فقال : بلى ،

---

(١) سورة النور ١١ ، وما بعدها .

ذلك الكذب ، أكنتِ يا أم أيوبَ فاعلته ؟ قالت : لا واللهِ ، ما كنتُ لأفعَله . قال : فعائشة والله خيرٌ منكِ — ثمّ قال تعالى : ﴿ إذْ تلقَّوْنه بألسِنَتكم وتقولون بأفواهِكمْ ما ليس لكم به عِلمٌ وتحسَبونه هيّناً وهو عندَ الله عظيمٌ ﴾ .

فلمّا نزل هذا فى عائشةَ قال أبو بكر – وكان يُنفق على مِسطَح لقرابته وحاجتِه : والله لا أُنفق على مِسْطَح أبداً ، ولا أنفعه بنفعٍ أبداً بعد الّذى قال فى عائشةَ ، فأنزَلَ اللهُ فى ذلك : ﴿ وَلاَ يأتَلِ أُولو الفَضْلِ منكمْ وَالسَّعَةِ أنْ يؤتوا أُولى القُرْبى والمساكينَ والمُهاجرين فى سبيل اللهِ وليَعْفُوا وليَصفحوا ألاّ تُحِبُّون أن يَغفِر الله لكمْ والله غفورٌ رحيم ﴾ : فقال أبو بكر رضى الله عنه : بلى والله ، إنّى والله لأُحِبّ أن يَغفرَ اللهُ لى ، فرَجَع إلى مِسْطَح نفقتَه الّتى كان يُنفِقها عليه ، وقال : والله لا أنزعها عنه أبدا .

وكان حسّانُ قد عرّض بصَفْوان بن المعطّل بقوله :

أمسى الجلابيبُ قد عَزّوا وقد كثرُوا
وابن الفُرَيعةِ أمسَى بيضةَ البلَدِ (١)

فلمّا بلغ ذلك صَفْوان اُعترَض حسّان فضرَبَه بالسَّيف ، ثم قال :

تلقَّ ذُبابَ السّيفِ عنك فإنّنى
غلامٌ إذا هُوجِيت لستُ بشاعِرِ (٢)

قالت عائشة : ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا عائشة أما والله ، فقد برأك ؛ فقالت أمّى : قومى إليه ياعائشة ، فقالت : والله لا قمتُ إليه ، ولا أحمدَ إلاّ الله .

---

(١) ديوانه ١٠٤ . والجلابيب : جمع جلباب ، وهو الإزار ؛ كنى بذلك عن الذلة . وبيضة البلد ، أى واحدها .

(٢) سيرة ابن هشام ٣ : ٣٥٢ .

وعن أبى إسحاق ، أنّ أبا بكر قال لِمِسْطَح ، واسمه عوف :

ياعوفُ ، وَيْحَكَ هلاّ قلتَ عارفةً   من الكلامِ ولم تتبع بها طَمَعا
أو أدركتْك حُمَيّا معشرٍ أُنُفٍ   ولم تكن قاطعاً ياعوفُ منقطعا
أماجريتَ من الأقوام إذ حَشَدوا   ولا تقول ولو عاينته قَذَعا
لمّا رميتَ حَصاناً غيرَ مُقرفةٍ   أمينة الجيبِ لم نعلم لها خضعا
فيمن رَمَاها وكنتمْ معشراً أُفكا
في سيِّء القولِ من لفظ الخنى سُرُعا
فأنزلَ اللهُ وَحْياً فى براءتها   وبين عَوْفٍ وبين اللهِ ما صَنَعا
فإنْ أعِشْ أجْزِ عوفاً عن مَقالَتِه   شرّ الجزاء إذا ألفيته تبعا

ولما أنزل اللهُ الآية : ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الفضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ . . .﴾ إلى آخرها ، قال أبو بكر : بلى ، والله أُحِبّ أن يَغفِرَ اللهُ لى ، وعاد إلى ما كان عليه من البرّ لِمِسطح .

وما أحسنَ ما نقلتُه من خطّ أبى الحسين الجزّار مّما نَظَمَه ، وأشار إلى هذه الواقعة بقوله :

لا تقطعنْ عادةَ برٍّ ولا   تَجعلْ عِقابَ المرء فى رِزْقِهِ
واصفَحْ عن الجانى فإنّ الذى   تَرجُوه عفو الله عن خَلْقِهِ
وإن بدتْ من صاحبٍ زَلّةٌ   فاستُرْه بالإغضاء واستَبْقِه
فإنّ إثمَ الإفك من مِسْطَحٍ   يحطّ قدرَ النّجم عن أُفْقِه
وقد جرَى منه الّذي قد جرَى   وعُوتِبَ الصّديق فى حَقّه

وقد رُوى أنّه سُئِل عن صَفوان ، فوجدَ رجلا حَصُوراً لايأتى النّساء .

وقال بعض المسلمين فى ذلك الوقت يَذكُر حسّانا وصاحبَيْه فى فِرْيتهم على عائشةَ رضىَ الله عنها :

لقد ذاق حسّانُ الّذى كان أهله ... وحَمْنَة إذ قالوا هجيرا و مِسْطَحُ

تعاطَوْا برَجْم الغيبِ زوْج نبيِّهمْ
وسَخطةَ ذى العَرْش الكريم فأبرَحوا

وآذَوْا رسولَ الله فيها فحُلّلوا ... مخازىَ تَبقى عمّمُوها وفضّحوا

فصبّت عليها محصبات كأنّها
شآبيبُ قَطْرٍ من ذوى المزْن سُفّحُ

وقد ذكر أبو عُمَر بن عبدِ البَرّ أنّ قوما أنكَروا أن يكون حسّانُ خاضَ فى الإفك وجُلِدَ فيه . وروى عن عائشة رضىَ الله عنها أنّها برّأته من ذلك .

قلتُ : وحسّانُ هو القائل فى عائشةَ رضى الله عنها :

حَصانٌ رَزانٌ ما تُزَنّ بريبةٍ ... وتصبح غَرْثَى من لُحوم الغوافلِ[1]

عَقيلة حىٍّ من لؤىِّ بنِ غالبٍ ... كرامِ المساعى مجدُهم غيرُ زائلِ

مهذَّبة قد طيّب اللهُ خِيمَها ... وطَهَّرها من كلّ سوءٍ وباطلِ

فإن كنتُ قد قلتُ الّذى قد زعمتمُ
فلا رفعتْ صوتاً إلىّ أناملى !

وحُكى أنّ القاضىَ أبا بكر الباقلّانىّ ، توجّه رسولا إلى بعض ملوك النّصارى ، فسأله بعضُ الأقِسّاء بحَضْرة الملك : ما قيل فى امرأة نبيّكم ؟ فقال بَديها : هما امرتان قيل فيهما ماقيل ، أتت إحداهما بوَلَد ، ولم تأت الأخرى بوَلَد ؛ أو كما قال .

---

(١) ديوانه ٣٢٤ . والرزان: الملازمة موضعها ، ذات الثبات والوقار ، ماتزن : ماتتهم ، والغوافل : جمع غافلة ؛ يريد أنها لاترتع فى أعراض النساء

قال الشيخ تقيّ الدين بنُ تَيْمِيَّة : أراد القاضى أبو بكر بهذا أن ظهور براءةِ عائشةَ أقوَى من براءةِ مريَم ، وكلاهما بريئتان رضى الله عنهما .

وحُكِى أنّ مسلما ناظَرَ نصرانيًّا ، فقال له النّصرانىّ فى خلال كلامه : يامُسلِم ، كيف كان وجهُ زوجةِ نبيِّكم عائشةَ فى تخلّفها عن الرَّكب عندَ نبيِّكم معتذِرةً بضَياعِ عِقْدِها ؟ فقال المسلِم : يا نَصْرانىّ ، كان وجهُها كوجهِ بنتِ عِمرانَ لمّا أتت بعيسَى تَحمِله من غير زوج .

وقال الأرّجانىُّ :

ما فى جَفائِكمُ إذا أنا لمْ أخُنْ | سببٌ يعاف حديثُه ويعابُ
سخط النبىّ على البرىء وما دَرَى | مِمّا جَناه الآفِكُ الكذّابُ
حتّى استبانَ له بوَحْىٍ نازلٍ | أنّ الذى قال الوُشاة كِذابُ

* * *

٤٤ — قوله : وَأَنِفتُ مِن إمارة أُسامةَ بن زيد .

يشير بذلك إلى أسامة بن حارثةَ رضى الله عنهما . وذلك أنه لمّا كان يومُ الأثنين لأربعِ ليالٍ بقِين من صفرَ ؛ سنةَ إحدى عشرة . أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الناس بالنُّهوض لغَزْو الرُّوم . فدعا أسامةَ بن زيدٍ ، فقال له : سِرْ إلى موضِع مَقتَلِ أبيك ؛ فأوطِئْهم الخيلَ . فقد ولّيتُكْ هذا الجيشَ فأغِرْ صباحا على أهل أُبنَى ؛ وَحرِّق عليهم ، وأسرِع السيرَ لتسبق الأخبار ؛ فإن أظفَرك الله ، فأقِلَّ اللبث فيهم ، وخذْ معك الأدِلاّء ، وقَدِّم العُيون والطلائع .

فلما كان يومُ الأربعاء بُدِىء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالوجع ، فحُمّ وَصُدِع ، فلمّا كان يومُ الخميس عَقَد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لأسامه لِواءً بيَده ، ثم قال : «أغزْ بآسم الله وفى سبيل الله ؛ وقاتِلْ مَن كفَربالله » ؛ فخرج

بلوائه معقودا ، فدفعه إلى بُرَيدة بن الحصيب الأسلَميّ ، وعسكَر بالجُرْف ، فلم يبقَ أحدٌ من وجوه المهاجرِين والأنصار إلاّ انتدب فى تلك الغَزاة ، منهم : أبو بكر ، وعمر ، وأبو عُبيدة بن الجرّاح ، وسعد بن زيد ، وقَتادة بنُ النّعمان ، وغيرهم ، فتكلم قوم وقالوا : يَستعمِل هذا الغلامَ على المهاجِرين الأوَّلِين ! فغَضِب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً ، وخرج وقد عصَب رأسَه بِعصابة ، وعليه قطيفةٌ ، فصَعِد المنبَر ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أمّا بعد ، أيُّها الناس ، ما قالةٌ بلَغَتْنى عن بعضكم فى تأميرى أُسامة ! وَلَئن طَعَنتم فى إمارة أسامةَ لقد طعنتمْ فى إمارة أَبيه من قبله . وايمُ اللهِ إنَّه كان لَخليقاً للإمارة ، وإن ابنه من بعده لخليقٌ للإمارة ، وإنه كان لَمِن أحَبِّ الناسِ إلىَّ ، وأنهما لمخِلاّن لكلّ خير . فاستوصُوا به خيراً ؛ فإنَّه من خيارِكم » .

ثم نزل فدَخَل بيتَه ، وجاء المسلمون يَخرُجون مع أسامة ، يودِّعون رسول الله صلى الله عليه وسلم . وثَقِل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى المرض ، فجعل يقول: أنفِذُوا بَعْثَ أسامة . فلمّا كان يومُ الأحد اشتدّ الوجع برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل أسامة من مُعسكَرِه ، والنبىُّ صلى الله عليه وسلم مَغمُور ، وهو اليومُ الّذِى لُدَّ[1] فيه ، فطَأْطَأَ أسامةُ فقبّله ، والنّبىّ صلى الله عليه وسلم لا يتكلم ، فجعل يرفع يديه إلى السّماء ثم يَضعها ، ثمّ دخل يومَ الاثنين ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُفِيق ، فقال له : اغْدُ على بركة الله ، وودّعه أسامةُ وخرج ؛ فأمَرَ الناسَ بالرحيل ، فبينا هو يريد الرُّكوب إذا أتتْه أمُّ أَيْمَن تقول : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يموت ، فأقبَل ومعه عمر وأبو عُبَيدة ، فانتهَوْا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيموت ، فتوُفِّىَ حين زاغَت الشمس يوم الاثنين ، لاثنتىْ عشرة ليلةً خلتْ من شهر

---

(١) أى جعلوا الدواء فى جانب فمه .

ربيع الأوّل ، فدخل العسكر إلى المدينة ، ودخل بُرَيْدَةُ باللّواء حتى أتى به باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغرزه عنده ، ولما بُويع أبو بكر أمر بُريدةَ ابنَ الحُصيب أن يذهب باللّواء إلى بيت أسامة ليمضى لوجهه ؛ فلما ارتدت العرب كُلِّم أبو بكر فى حبس أسامة ، فأبى[1] .

ولمّا كان هلالُ شهرِ ربيع الآخر ، سنة إحدَى عشرةَ ، خرج أسامةُ إلى أهل أُبنَى فى عشرين ليلة ، فشَنَّ الغارةَ عليهم ، وكان شِعارهم : « يامنصور أُمت » ، فقَتل من أشرَف له ، وسَبَى من قَدِم عليه ، وحرَّق فى طوائفها بالنّار وحرّق منازلَهم وحرثَهم ونخلَهم ، وصارت أعاصير من الدّخاخِين ، وأجالَ الخيلَ فى عَرَصاتِهم ، وأقاموا يومَهم ذلك فى تعبئةِ ما أصابوا من الغنائم ، وكان أسامةُ على فرسِ أبيه سبحة ، وقتَلَ قاتل أبيه فى الغارة ، ولمّا أمسَى أمرَ الناسَ بالرَّحيل ، ثمَّ أغذّ السيرَ ، فوَرَد وادى القُرَى فى تسعِ ليالٍ ، ثمَّ بعث بشيراً إلى المدينة بسَلاَمتِهم ، ووصل إلى المدينة بعد ستٍ ، وما أصيبَ من المسلمين أَحَد ، وخرج أبو بكر فى المهاجرِين ، وأهلُ المدينة يتلقَّوْنهم سروراً بسلامتهم ، ودخل على فرسِ أبيه سبحة ، واللّواء أمامَه يَحمِله بُرَيدة حتّى انتهَى إلى مسجد رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم ، فدخل فصلى ركعتَين ، ثمَّ انصرَف إلى بيته .

قلت : قوله : « أُبْنَى » - بضم الهمزة ، وسكون الباء ، وبعدها نون مفتوحة ، وألف مقصورة - على وزن حُبْلَى . وبعضهم يقول : يُبْنَى - بياء آخر الحروف بدل الهمزة - قال أبو داود : وسمعتُ ابنَ أبى عمر المدنىّ ، قال : سمعتُ أبا مسهَر ، قيل له : أُبْنَى . قال : نحن أعلَم ، هى يُبْنَى فِلَسطين ، وهى التى بعث إليها رسول الله صلى الله

(١) انظر عيون الأثر ٢ : ٢٨٢ .

عليه وسلم زيدا أبا أسامة مع جعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة ، فقتلوا جميعا . انتهى .

قلت : الّذى فى الحديث يردّ هذا القول ، وإنّما هى أُبْنَى البَلْقاء ؛ لأنّ لفظَ الحديثِ أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم دَعَا أسامةَ بنَ زيد وقال : « سِرْ إلى أُبنَى موضِع مقتل أبيك » .

وبعضهم قال : أُبلَى باللام مكان النون ، وليس بشىء ، وإنّما يُبْنَى بالنون ، فإنّها بساحلِ عَسْقَلان ، وهى المشهورة الآن بأن فيها قبرَ أبى هُرَيرة رضى الله عنه .

وقد ذكر المسعودىّ[1] فى شرح المقامات : أنّ المهدىّ لمّا دخل إلى البَصْرة رأى إياسَ بن معاويةَ وهو صبىّ ، وخَلْفَه وقُدّامَه أربعمائة طَيْلسان من العلماء وغيرِهم ، فقال المهدىُّ : أُفٍّ لهذه العَثانين ؛ أما كان فيهم شيخٌ يتقدّمهم غيرُ هذا الحدَث ! ثمّ قال له المهدىّ : كم سِنُّك ؟ فقال : سِنّى ـ أطال اللهُ بقاء أميرِ المؤمنين ـ سِنُّ أسامة بن زيد بن حارثة لمّا ولاّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جيشا فيهم أبو بكر وعمر . فقال : تقدّم ، باركَ الله فيك ، وكانت سنُّه سبعَ عشرةَ سنة .

قلت : هذا غيرُ صحيح ؛ لأنّ إياسا توفِّىَ فى دولة بنى أُمَيّةَ سنة إحدى وعشرين ومائة ، والمهدىّ تولّى الخلافة ، وبُويِع عليها بمكّة فى المسجد الحرام عند وفاةِ المنصور فى ذى الحِجّة ، سنة ثمانٍ وخمسين ومائة ؛ والّذى يَصِحّ فى مِثل هذا أنّ يحيى بن أكثم وَلِىَ القضاء فى زمنَ المأمون ببَغْداد وله عشرون سنة ، ولمّا ولى قضاءَ البَصْرة اُستَصْغَروه ، فقال أحدهم : كم سِنُّ القاضى ؟ فقال : أنا أكبَرُ من عَتّاب بن أسيد الّذى وَلاّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على أهل مكّة ، وأكبَرُ من مُعاذ الّذى وجّه به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) هو الإمام محمد بن عبد الرحمن بن محمد المسعودى الفنجديهى المتوفى سنة ٥٨٤ . وانظر كشف الظنون .

قاضيا على أهل اليَمَن ، وأكبَرُ من سوّار بن كَعْب الّذى وجّه به عمرُ قاضيا على اليَمَن !

* * *

٤٥ — وقوله : وزَعَمْتُ أن بيعةَ أبى بكرٍ كانت فلتةً .

يشير بذلك إلى ماورد فى كلام عمر بن الخطّاب رضى الله عنه . روى الزُّهْرىّ عن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت أُقرِئُ عبدَ الرحمن بن عوف فى خلافة عمر بن الخطاب ، فلمّا كان فى آخر حَجَّةٍ حَجّها عمر ، أتانا عبدُ الرحمن بنُ عوف ذات ليلة ، ونحن بمِنًى ، فقال : لو رأيت أمير المؤمنين ؛ وقدْ أتاه رجل وقال : إنّ رجالا يقولون : لو قدمات أميرُ المؤمنين بايعنا فلانا ، فقالَ عمر : إنّى قائم فى الناس فمحذِّرهم هؤلاء الرَّهط الذين يريدون أن يغصبوا الناس بيعتهم ، فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، إن الحجّ يَجمع رعاعَ النّاس وغَوغاءهم الّذين يَغلِبون على مجلسك ، وإن قلت قولاً فهم القومُ مقالةً لم تُحفظ ولم يعُوها ، ولم يضَعوها مواضعها ، فيطيرون بذلك كلَّ مَطِير ، فلو أمهلت حتّى تَقدمَ المدينةَ و تنفرِد بالمهُاجرين والأنصار ، فقلتَ ماقلت متمكّنا ، كان أجدر بأن يحفظوا مقالتك ، وأن يعوها ويضعوها مواضعها . فقال : أما والله إن شاء الله تعالى ، لئن قدمتُ المدينة لأقومنّ بها فى أوّل مُقامٍ أقومُه بالمدينه .

قال : فقَدِمنا المدينة فى عقب ذى الحِجّة ، فلمّا جاءت الجمعة هجّرتُ للّذى حدّثنى ابن عوف ، ولا أرى أن أحداً قد سبقنى ، فوجدت سعيد بن عمرو ابن نُفَيل قد سبقنى بالتّهجير ، جالسا إلى جنب المِنبر ، فصلّيتُ ، ثم جلستُ إلى جنبه تحكّ ركبتى ركبتَه ، فقلتُ : أما والله ليقولَنّ أميرُ المؤمنين على هذا المِنبر مقالةً لم يَقلها أحدٌ قبله ! فغضب سعيد ، وقال : أىَّ مقالة عسى

أن يقولها أميرُ المؤمنين لم يقلها أحدٌ قبلَه ! فلمّا زالت الشمسُ خرج عمر رضى الله عنه ، وجلس على المِنبر ، وأذّن المؤذِّن فى أذانه . فلما فرغ قام عمر فخطب الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

أمّا بعد ، أيّها الناس ، فإنى قائلٌ مقالةً قد قُدِّر لى أن أقولها ، ولعلّها تكونُ بين يدى أجلى ، فمن حفظها أو عقلها أو وعاها ، فليحدِّث بها حيث انتهتْ به راحلته ، ومن لا فإنّى لا أُحِلّ لأحد أن يكذِبَ علىّ .

إنّ الله بعث محمّدا وأنزل عليه الكتاب ، وكان فيما نزل عليه آيةُ الرَّجْم ، فقرأناها ووعيْناها ، فرَجَم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ورجمْنا بعدَه ، فأخشى أن يطول بالناس زمان ، فيقول قائل : لا نجد الرَّجم فى كتابِ الله عزّ وجلّ ، فيَضِلّوا بترْك فريضةٍ أنزلها الله . ألا إنّ الرَّجْم حقٌّ على من زنى إذا أحصِن ، وقامت البَيّنة ، أو كان الحَبَل ، أو الاعتراف .

ألا وإنّا كنّا نقرأ : لا ترْغبوا عن آبائكم ، فإنّه كفرٌ بكم ، أن ترغبُوا عن آبائكم . ألا وإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تُطْرُونى كما أُطْرِت النصارى عيسى بن مريم ، فإنّما أنا عبدٌ ، فقولوا : عبده ورسوله » وقد بلغنى أن قائلا يقول : لو مات عمرُ بايعتُ فلانا ، فلا يَغْتَرّنّ امرؤٌ منكم أن يقول : كانت بيعة أبى بكرٍ فلْتة ، وليس فيكم من تُقطَع الأعناقُ إليه مِثل أبى بكر ، وأنّه كان من خيرنا ؛ حين تُوُفّىَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم اجتمع المهاجرُون إلى أبى بكر ، وتخلّف علىٌّ والزُّبير ومن معهما فى بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتخلّف الأنصار فى سقيفة بنى ساعدَة مع سعد بن عُباده . فقلتُ : يا أبا بكر ، انطلق بنا إلى إخواننا الأنصار ، فانطلقت أنا وأبو بكر وأبو عبيدة بن الجرّاح نؤُمُّهم ، ولقينا رجلان صالحان ممّن شهد بَدْرا : عُوَيْمِر بن ساعدة ومَعْن بن عَدىّ ، فقالا : أين

تريدون يامعشر المهاجرين ؟ قلنا : نريد إخواننا الأنصار . فقالا : لا عليكم ألا تأتوهم ، وأبرموا أمركم بينكم . فقلت : والله لنأتينّهم ، فأتيناهم فى سقيفة بنى ساعدة ؛ فإذا هم مجتمعون على رجل مزمّل بالثياب ، فقلت : من هذا ؟فقالوا : سعد بن عُبادة ، فقلت : ماله ؟ قالوا : مريض . فجلسنا وقام خطيبهم ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فنحن الأنصار ، وكتيبة الإيمان ، وأنتم معاشر المهاجرين رهطٌ منّا ، وقد دفّتْ إلينا دافّة[1] منكم .

قال عمر : وإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ، ويختصّوا بالأمْر دوننا .

قال عمر : فلما سكت أردت أن أتكلم بمقالةٍ قد كانت اعجبتْنى بين يدىْ أبى بكر ، فقال أبو بكر : على رِسلِكَ ! وكنتُ أعرف منه الجدّ ، فكرهْت أن أُغضِبَه ، وهو كان خيرا منّى وأرفق ، وأوقر وأحكم . ثمّ تكلّم ، فوالله ماترك كلمةً أعجبتْنى ممّا قد زوّرتُ فى نفسى إلاّ وقد قالها ، وأفضلَ منها حتى سكَت ، ثم قال :

أمّا بعد ، فما ذكَرْتم من خيرٍ فهو فيكم مَعشر الأنصار وأنتم أهله وأفضل منه ، ولن تَعرف العربُ هذا الأمر إلاّ لهذا الحىّ من قريش ، فهم أوسط العرب نسبا ودارا ، وقد رضيت لكم هذين الرّجلين ، فبايعوا أيّهما شئتم .

وأخذ بيدى ويدِ أبى عُبيدة بن الجرّاح ، فما كرهتُ شيئا ممّا قال غيرها ؛ وكان والله لأن أُقدَّم فتُضرَب عُنقى لا يُقرّبنى ذلك إلى إثم ، أحبّ إلىّ من أن أتأمّر على قوم فيهم أبو بكر ، اللهمّ إلاّ أن تتغيّر نفسى عند الموت .

قال : ثمّ قدم الُحباب بنْ المُنذِر (رجلٌ من الأنصار) ، فقال : أنا جُذَيْلُها

---

(١) الدافة : القوم يسيرون جماعة . وانظر اللسان .

المُحكَّك ، وعُذَيْقُها المرجَّب[١] ، منّا أميرٌ ومنكم أمير يامعشر المهاجرين ، وإن شئتمْ أعَدْنا الحربَ جَذَعة[٢] .

قال : وكثُرَ اللغط ، وارتفعت الأصوات حتى خشيت الاختلاف .فقلتُ : ابسطْ يدك يا أبا بكر ، فبسط يدَه ، فبايعتُه ، وبايعه أبو عُبيدة ، وبايعه المهاجرون وبايعه الأنصار ، ونزلنا على سعد ، فقال قائل : قتلتم سعدا . فقلتُ : قتل الله سعدا . قال عمر : فوالله ماوجدنا فيمن حضرَنا أوفقَ من مبايعة أبى بكر ، وخشينا إنْ نحن فارقْنا القومَ ولم تكن بَيْعة أن يحدثوا بعدنا بَيْعةً ؛ فإمّا بايعناهم على مالا نرضَى ، وإما خالفناهم فيكون فساد .

رواه يونُس بْن يزيدَ بن الزّهرى مطوّلا ، وزاد فيه :

قال عمر: فلا يغترّنّ امرؤٌ أن يقول : إنّ بيْعة أبى بكر كانت فلْتة فتمّت ، فإنّها قد كانت كذلك إلاّ أنّ الله وَقَى شرّها ، فمن بايع رجلا من غير مشورة فإنه لايُبايع هو ولا الّذى يُبايعه تَغِرّةَ يقتلا .

* * *

ومن أدلّة القرآن على خلافة أبى بكر قولُه تعالى : ﴿ أفإنْ ماتَ أو قتِل انقلَبْتمْ على أعقابكمْ ومن يَنقلبْ على عَقِبيه فلن يَضُرّ الله شيئا وسيَجزى الله الشاكرين ﴾ . ظهر تأويلُ هذا حين انقلب أهل الرّدّة على أعقابهم ، فلم يضرّ ذلك دينَ الله ولا أمّة نبيّه صلى الله عليه وسلم . وكان أبو بكر يسمّى أميرَ الشاكِرين لذلك ؛ وفى هــذه الآية دليلٌ على صحّة خلافته ؛ لأنّه هو الّذى قاتل المنقلبين على أعقابهم ؛ حتّى ردّهم إلى الدّين الذى خرجوا منه . وكان فى قوله تعالى : ﴿ وسيَجزِى الله الشاكِرين ﴾ دليل على أنّهم سيظفرون

---

(١) جذيل : تصغيرجذل ، وهو عود ينصب للابل الجربى تحتك به فتستشفى . والمحكك الذى كثر الاحتكاك به حتى صار أملس : والمرجب المدعوم بالرجبة ، وهى خشبة ذات شعبتين والمراد أنه من أصحاب الرأى السديد .

(٢) الجذعة : الشابة الفتية ، يريد : الحروب والغارات .

بمن ارتدّ ، وتكمل النعمة عليهم فيشكرون ، فتحريضه إيّاهم على الشكر والشكر لا يكون إلاّ على نعمة ـ دليلٌ على أنّ بلاء الرِّدّة لا يطول ، وأنّ الظفر بهم سريع كما كان .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلمُخَلَّفِين من الأعراب ﴾(١) دليلٌ على صحّة خلافته . لأنّه هو الّذى دَعَا الأعراب إلى جهاد بنى حنيفة ، وكانوا أُولِى بأسٍ شديد ، ولم يقاتَلوا الجزيةِ ، وإنّما قوتلوا ليُسلموا ، وكان قتالُهم بأمر أبى بكر وفى سُلْطانه .

ثم قال تعالى : ﴿ فإنْ تُطِيعوا يُؤْتِكم الله أجراً حَسَنا ﴾(١) ، أوجب عليهم الطاعة لأبى بكر رضى الله عنه ، وكان ذلك فى الآية كالنصّ على خلافته .

وفى زواج علىٍّ رضى الله بالحنفيّة أمّ ولده محمّد بن الحنفيّة — وهى من سَبايَا عسكر أبى بكر رضى الله عنه من بنى حنيفة — دليلٌ قوىٌ فى الرّدّ على الرافضة ؛ فإنّ عَلِيًّا لو لم يَعتقد صحّة خلافتِه لم يتزوّج من سَبْيِه .

وقوله تعالى : ﴿ يأيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾(٢) . وقد بيّن فى سورة الحشر مَن الصادقون ؟ فأمر الّذين تبوّءوا الدارَ والإيمان أن يكونوا معهم تبعاً لهم ، فحصلت الخلافة فى الصّادقين بهذه الآية ، فاستحقوها بهذا الاسم ، ولكن ليس فى الصّادقين مَنْ سمّاه الله تعالى الصّدّيق إلا أبو بكر ، وكانت له خاصّة ، ثمّ للصادقين من بعدِه .

ولابن زنجويه رحمه الله تعالى مُصنَّف كبير فى فضائلِ أبى بَكْر ، جوّدَ فيه ماشاء ، وما أحقَّ أبا بكر الصديق بقولِ مَرْوانَ بن أبى الجَنُوب فى المتوكّل :

كانت خلافةُ جعفرٍ كنبّوةٍ جاءتْ بلا طلبٍ ولا بتنحّلِ

---

(١) سورة الفتح ١٦ (٢) سورة التوبة ١١٩

وهبَ الإلهُ له الخلافةَ مثلما وَهبَ الرسالةَ للنبيّ المرسلِ

وقال عليّ بن سراج : كان جوارى جارٌ يُتَّهم بالتشيّع ، وما بان ذلك عليه فى حالٍ من الأحوال إلاّ فى هجاء امرأته ، فإنه قال وقد طلّقها :

ماكنتِ من شَكلى ولا كنتُ مِن
شكلكِ يا طالقةَ البَتّهْ

غلطتُ فى أمركِ أُغلوطةً
فأدركتْنى بيعةُ الفَلْتَهْ

وأنشَدَنى لنفسه إجازةً صفىُّ الدين بن عبد العزيز بن سرايا الحلّىّ ، ما كتب به إلى صاحبه أبى بكر بن القاسم السّلامىّ :

فَلْتةٌ كان منكَ من غيرِ قصدٍ يا أبا بكرٍ عقد بَيْعةِ وُدّى

فلهذا إذا تَقادَمَ عهدٌ بيننا حلتَ عن وفائى وعَهْدِى

ومّما أخرجه أبو العَلاء المعرّى مخرج الألغاز ، قوله :

شهدتُ بأنّ الكلبَ ليس بنابحٍ
يَقيناً وأنّ الليثَ فى الغابِ ما زَأرْ (١)

وأنّ قريشا ليس فيها خِلافةٌ
وأنّ أبا بكرٍ شكا الحيفَ مِن عُمَرْ

وتفسير هذا الكلام : الكلبُ نجمٌ فى السماء خلفَ الجوْزاء يسمَّى كَلْب الجبّار ، والكَلْب مسْمار فى قائم السيف ، إلى جانبه مسمارٌ آخر يقال له المَجُوز ، قال الشاعر :

وعجوز رأيتُ فى فِم كَلْبٍ جعَلَ الكلب للأمير جمالاَ

والكلب أيضا مِسمارٌ فى الرّحْل ، واللّيْث : ضَربٌ من العَناكِب قصير

---

(١) هذا الشعر مما لم يذكر فى الديوانين ، وذكره القفطى فى إنباه الرواة١ : ٧٩ ، وذكر بعدهما :

وأنّ عليًّا لم يصلّ بِصَحْبِه وما هُوَ واللهِ العظيمِ من البَشَرْ

الأرْجُل ، كبيرًا لعيون ، يَصِيد الذُّباب وثبًا ، وقُرَيش : دابّة من دواب البحر ، جميع دوابّ البحر خاضعة لها ، وبها سميتْ القبيلة ، قال الشاعر :

وقريشٌ هى َالّتى تَسْكُنُ البَحْـــر بها سُمِّيتْ قريشٌ قُرَيشا

والبَـكْر : الفتِيّ من الإبل، وأبوه الجمَل . وعُمَرٌ جمع عُمْرة ، وهى زيارةُ البيت . ويقال : رجُلٌ عَمِر إذا كان كثيرَ الاعتمار ، ورَجُل عَمَر إذا كان طويلَ العُمر .

قال البـاخَرزِىّ صـاحب الدُّمْية[1] : كتبتُ إلى الشيخ أبى بكر الإسفرايينىّ :

أبو بكرٍ الصِّدّيقُ فى المهـد مؤنسِى
إذا غارَ بى خوفُ المُعادِين فى الغَارِ
عرَضتُ عليه دينَ وُدِّى فما نأى
ولَمْ يتَلَقّنى من جُحود وإنـكارِ
ولم تك منى بيعــة الوُدِّ فَلْتَةً
فيزعُمَ أنَّ الأمرَ منّفق طارِ
لذلك لم أمْنَعْه من خالصِ الهوى عِقالا وإخلاص الهوى رَمْىَ الجارى
وبايع يرْوى قبلَ هٰذا مُداهِناً علىَّ أبا بكر وراويه فى النار
وقد صُنْتُ عن أمثالِ ذلكَ بَيْعتِى
ففى النُّصح إعلانى موافق إسرارى

قلت : فـكتَب هو إلىّ :

سَمَا علىٌّ فى سماءِ العلاَ وغـــيرُه ملتصقٌ بالرَّغامْ
أنا أبو بكرٍ سِوَى أننى [معتقــد أن عليًّــا إمامْ][2]

---

(١) الدمية ١٦٩ . (٢) تـكملة من الدمية ، وهذا الشطر سقط من جميع الأصول .

وقال علاء الدين الكايلي :

خَصرك يا من حَوَى بهجته ... محاسنًا ما اجتمعْن في البدْر
أضعَفُ من حجّة النواصب في ... أنّ إمامَ الهُـــدى أبو بكرِ

وقال القاضي زين الدين بن الوَرْديّ ردًّا عليه :

خَصْرُك يا من حَوَى بهْجَتِه ... محاسناً ما اجتمعن في عَبْدِ
أضعَفُ من حُجّة الرَّوافِض في دعـ
واهُمُ أنّ منهم المَهْـــــدى

* * *

٤٦ ـــ وقوله : وروّيتُ رمحى من كتيبة خالد .

يشير بذلك إلى قول أبي شَجرة السُّلَمّى ، وهو بيتٌ قالَه في شعرٍ له :

ورويّتُ رُمْحِى من كَتِيبةِ خالدٍ ... وإنّى لأرجو بعدَها أنْ أُعَمَّرَا

وذلك أنّ العرب لمّا ارتدّت بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تقدّم أبو بكرٍ إلى خالدِ بنِ الوليد ، وجهّزَه في جماعةٍ من المهاجرين والأنصار والعرب لقتال أهلِ الرِّدّة ، وتوجّه خالدٌ إلى بنى حنيفة ، وقاسَى في قتالهم شدائد ، وقَتَل مُسَيلمةَ الكذّاب ، وقُتِل من المسلمين جماعةٌ ، وبلغت الأخبار أبا بكر ، فكتب إلى خالدِ بن الوليد :

أمّا بعد ، فإنْ أَظْفَرَك الله ببنى حنيفة فأقلِل اللّبث فيهم حتّى تَنْحَدِر إلى بنى سُلَيم ، فتطأهم بها طْأَةً يعرفون بها ماصَنعوا ، فإنّه ليس بطن من العرب أنا أغْيَظُ عليه منّى عليهم ؛ قدِم قادمُهم يذكُر إسلاما ، ويريد أن أعينه ؛ فأعنته بالظَّهْرِ والسِّلاح ، ثمّ جعَل يعترض النّاس . فإن أظْفَرَك الله فلا ألومك فيهم أن تحرّقهم بالنّار ، وتهوّل فيهم بالقتل حتّى يكونوا نكالاً لهم .

قالوا : فجعل ابن الوليد يَبعث الطلائع أمامَه ، وسمعتْ بنو سُلَيم بإقبالِ خالد ، فاجتمع منهم بشر كثير يعترضون لهُ ، وحماهم بنو عُصَيَّة فاستجلبوا من بقيَ من العرب مرتدًّا ، وكان الّذى يجمعهم أبو شجرة بن عبد العزّى ، فانتهى خالدٌ إلى جَمْعهم بالجوامع مع الصُّبْح ، فصاحَ خالدٌ فى أصحابه ، وأمرهم بلبسِ السّلاح ، ثمّ صفّهم ، وصُفّت بنو سُلَيم . وقد كلّ المسلمون وعجف كُراعُهم وخُفهُمْ ، وجعل خالدٌ يَلِى القتالَ بنفسِه حتّى أثخن فيهم القتل. ثمّ إنّه حمل عليهم حملةً واحدة فهربوا ، وأسرَ منهم كثيرا ، فجعل يضرِب أحدَهم على عاتِقه فيجزله ، ويضرِب الآخَر فى وَسطه .

وفى حديث سُفْيانَ بن أبى العَوْجاء : أنّه حظَّر لهم حظائرَ ، فأحرقهم بالنار ، وأصابَ أبو شجرة السُّلَمى يومئذ فى المسلمين ، وجرح جراحاتٍ كثيرة ، وفى ذلك يقول شِعرَه الّذى من جُملته :

* ورَوّيْتُ رُمْحِى من كَتيبةِ خالدٍ *

ولمّا قَدم خالدُ بن الوليد على أبى بكر رضى الله عنه ، كان أوّل ما سأل عنه خبر بنى سُليم ، فأخبره خالدٌ بما اتّفق ، فحمِد الله وأثنى عليه . ثمّ إنّ أبا شَجَرة بعد ذلك أسلم ، ودخل فيما دخل فيه الناسُ ، وجعل يَعتذِر ويجحد أن يكون هو الّذى قال الشّعر المذكور .

وكان أبو شجرة السُّلَمىّ من فُتّاك العرب ، أتى إلى عمرَ بن الخطّاب بعد الرِّدّة يستحمِله ، فقال له: مَن أنت ؟ فقال : أنا أبو شجرة السُّلَمىّ، فقال له عمر : أىْ عدوَّ نفسه ، ألستَ القائلَ حين ارتددْت :

ورَوّيْتُ رُمْحِى من كَتيبةِ خالدٍ   وإنّى لأرجو بعدَها أن أُعمَّرَا[١]
وعارضْتُها شهباء تَخْطِرُ بالقنا   ترَى البِيضَ فى حافاتِها والسَّنوّرَا[٢]

---

(١) من مقطوعة له فى تاريخ الطبرى ٣ : ٢٦٦ ، والبيتان فى كامل المبرد ١ : ٣٨٨ .

(٢) شهباء ، من الشهبة ، وهو بياض فى خلاله سواد ، وتخطر من الخطران ، وهو الاهتزاز ، والسنور : كل سلاح فيه حديد .

ثم انحنى عليه عمرُ بالدِّرّة ، فسعى إلى ناقته فحلّ عِقالَها ، وأقبَلها حَرّة بنى سُلَيم ، يَحُثّ السَّيرَ هَرَبا من الدِّرة ، وهو يقول :

قد ضَنَّ عَنَّا أبو حفصٍ بنائِله ... وكلّ مختبطٍ يوماً له وَرَقُ[1]

ما زالَ يَضرِ بُنى حتّى خذيتُ له ... وحَال من دون بعض الرغبة الشَّنَق[2]

ثمّ التفتّ إليها وهى جاثية[3] ... مِثلُ الطريدَةِ لم ينبتُ لها وَرَقُ[4]

أوْرَدتُها الخلَّ من شوْران صادرةً[5] ... إنّى لأزرى عليها وهى تَنطَلِقُ

يُطيرُ مرواً خُطَاها عن مَناسمِها ... كما تنوقدَ عند الجهبذ الورَقُ

إذا يُعارضُها خَرقٌ تعارضُه ... وَرْهاء فيها إذا استعجلْتَها خُرُق

يفوء آخِرها منها بأوّلها ... مُرَّحُ اليَدْين بها نهاضةُ العُنُقِ[6]

* * *

٤٧ — وقوله : ومزّقتُ الأديم الذى باركت يد الله عليه .

يشير بذلك إلى قتل عمر بن الخَطّاب ، قال عبد الله بن الزّبير ، عن أبيه : غدوتُ مع عمرَ بن الخطّاب إلى السّوق وهو متّكِىء على يدى ، فلقِيَه أبو لؤلؤة ، غلامُ المُغيرة بن شُعْبة ، فقال : ألا تُكلِّم مولاىَ أن يضعَ عنِّى من خَراجى ؟ قال له : كم خراجك ؟ قال : دِينار ، قال : ما أَرَى أن أفعل ، إنك لعامل محسنٌ ، وماهذا بكثير . ثم قال له عمر : ألا تعملُ لى رَحًى ؟ قال : بَلَى . فلمّا وَلّى قال أبو لؤلؤة : لأعْمَلَنّ لك رَحًى يتحدّث بها ما بين المَشرِق والمَغرِب . قال : فوقع فى نفسى قوله ، فلمّا كان وقت النّداء لصلاة الصّبح ، خرج عمرُ إلى النّاس يؤذنهم للصّلاة .

قال ابنُ الزّبير : وأنا فى مصلاىَ ، وقد اضطجع عدوُّ الله أبو لؤلؤة ،

---

(١) الأبيات فى تاريخ الطبرى ٣ : ٢٦٧ والخبط : ضرب ورق الشجر حتى ينحى عنه .

(٢) الشفق : الخوف وهو الإشفاق .

(٣) الطبرى : « ثم ارعويت إليها وهى جانحة » .

(٤) الطريدة : أصل العذق . (٥) حرة شوران ، من حرار الحجارة

(٦) وفى البيت إقواء .

فضربه بالسكّين ستَّ طعَنات ، إحداهنّ من تحت سُرَّته وهى الّتى قتلَتْه ، فصاح عمر : أينَ عبدُ الرحمن بن عوف ؟ فقالوا : ها هوذا ، فأمَرَه أن يُصَلّىَ بالناس ، واحتَمَلوا عمرَ ، فدخلوا به منزله ، فقال لابنه عبد الله : اخرج فانظُر مَن قتلنى ، فخرج فقال : من قتل أمير المؤمنين ؟ فقالوا : أبو لُؤلُؤة غلامُ المغيرة بن شُعْبة . فرجع فأخْبَرَ عُمرَ ، فقال : الحمد لله الذى لم يجعل قَتْلى بيَدِ رَجُلٍ يحاجُّنى بـ « لا إله إلاّ الله » .

وقال غيرُه : جاءه بسكّين له طَرَفان ، وطَعَن معه اثنَىْ عشر رَجُلا . فقال عمر : دُونَكُم الكَلْب ، فإنّه قد قَتَلنى . وماجَ الناسُ بعضهم فى بعض ، فرمى عليه رجل من أهل العراق برنسا ، ثم بَرك عليه ، فلما رأى أنه لا يستطيع أن يتحرك وجأ نفسه فقتلها .

وكان أبو لؤلؤة مجوسيًّا ، وقيل : نَصْرانيّا أزرق ، واسمُه فيرْوز .

وقال ابن عبد البرّ عن عمر إنّه قال حين احتُضر ، ورأسه فى حجْر عبدالله ابنه :

ظَلومٌ لنفسى غيرَ أنّىَ مُسلِمٌ أُصَلِّى صلاتِى كلَّها وأصومُ

وقالت عائشةُ رَضى الله عنهـا : ناحت الجنّ على عمرَ قبلَ أن يُقتَل بثلاث ، فقالت :

أبعد قتيلٍ بالمدينةِ أظلَمتْ له الأرضُ تهتزّ العضاهُ بأسْوُقِ !
جَزى اللهُ خيراً من إمامٍ وباركَتْ يَدُ الله فى ذلكَ الأَدِيم المُمزَّقِ
فمن يَسْعَ أو يركَبْ جناحَىْ نعامة ليُدرِكَ ما قدَّمتَ بالأمس يُسبَقِ
قضيتَ أُمورا ثمّ غادَرْتَ بعدَها بوائق فى أكمامها لم تُفَتَّقِ
وما كنتُ أَخشَى أن تكونَ وفاتهُ بكفّ سبنتَى أزرق العين مُطْرِقِ(١)

---

(١) السبنتى : النمر الجرىء . والمطرق : الخنق . والبيت فى اللسان منسوب إلى الشماخ . وانظر الاستيعاب ١١٥٧ .

وما أحسن ما نقلتُ من خط علاء الدّين الكِندى الوداعى ، على لسان صديق يسمّى عمر يهوى مليحاً فى أذنه لؤلؤة :

قد قلتُ لما مرَّ بى مُقرطقٌ يحكى القمَرْ
هذا أبو لؤلؤةٍ منه خذوا ثأر عمَرْ

وقالت عاتكة ابنة زيد بن عمرو بن نفيل ؛ امرأة عمر بن الخطاب ترثيه :

وأفجعنى فيروز لادرّ دره بأبيض تالٍ للكتاب منيبِ
رءوف على الأدنى غليظ على العدا أخى ثقة فى النائبات مجيبِ
متى مايقل «لا» يكذب القولَ فعلُه سريع إلى الخيرات غير قطوب

* * *

٤٨ — وقوله : وضحّيتُ بالأشمط الذى عُنْوان السُّجود به .

يشير بذلك إلى قتلة عثمان بن عفّان ، وسبب ذلك أنه قد كان وفد عليه قومٌ من مصرَ ، فيهم محمّد بن حُذَيفة بن عتْبة بن ربيعة فى جُنْد ، وكنانة بن بِشْر التُّجيبىّ فى جنْد ، وابن عدس البَلَوىّ فى جُنْد ، ومن أهلِ البصرة حكيم ابنُ جبلة العَبْدىّ ، وسَدوس بن عيسى السنىّ ، ونفرٌ من الكوفة ، منهم الأشترُ بنُ الحارث النّخعىّ ، فاستعتبُوه فأعتبهم وأرضاهم ، ثم إنّهم وَجَدوا بعد أن انصرفُوا إلى مكّة كتابا مِن عثمانَ ، عليه خاتمهُ إلى أمير مصرَ : إذا أتاك القومُ فاضرب أعناقهم .

فعادوا به إلى عثمانَ رضى الله عنه ، فحلف لهم أنّه لم يأْمر به ولم يَعلم ؛ قالوا : إنّ هذا عليكَ شديد ، يُؤخَذ خاتَمُك من غير عِلمك ! فإن كنتَ غُلِبتَ على أمرك فاعتزل .

فأبَى أن يعتزل وأبىَ أن يُقاتِلهم ، ونهى عن ذلك ، وأغلق بابَه ، فحُوصِر أكثر من عشرين يوما وهو فى الدّار ، فى ستمّائة رجل ، وقال لعبيده : من أغْمد سيفه فهو حرٌّ . ثمّ إنّهم دخلوا عليه من دار بنى حَزْم الأنصاريّ ، فضَرَبه نِيار بن عِياض الأنصاريُّ بِمِشْقصٍ فى وجهه ، فسال الدمُ على مصحفٍ فى حِجره ، ثمّ أخذ محمدُ بن أبى بكر بلحيته ، فقال : دع لى لحيتى ، فوالله لقد كان أبوك يكرمها ! فاستحيا وخرج . ثم دخل رُومانُ بنُ سِرْحانَ ، أزْرق قصير معه خِنْجَر ، فاستقبله به ، وقال : على أىِّ دِينٍ يا نعثَل ؟ فقال له : لستُ بنَعْثل ؛ ولكنّى عثمان بن عفّان ، وأنا على مِــلّة إبراهيم حنيفا مسلما وما أنا من المشركين .

قال : كذبتَ ، وضربَه فى صُدْغِه الأيسر فقتله ، وأدخلتْه امرأتُه نائلةُ بينَها وبين ثِيابها .

ودخل رجلٌ من أهلِ مصرَ معه السّيف مصلَتاً ، فقال : والله لأقطعنّ أنفه ، فعالج المرأة ، فكشف عن ذراعيْها ، وقبضتْ على السيف ، فقطع إبهامها ، فقالت لغلامٍ لعثمان معه سيف ، يقال له رباح : أعِنِّى على هذا ، فضربه بالسّيف فقتَله . وأقام عثمان يومه ذلك مَطروحاً إلى الليل .

وقيل : إن الذى قتَله محمد بن أبى بكر بمِشْقَص : وقيل : بل قتله سودان ابن حمران . قيل : بل رومان اليمانى ، وقيل غير ذلك .

وقال ابن عبد البرّ[١] : وأكثرهم يروى أن قطرة من دمه وقعت على المصحف ، على قوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله ﴾[٢] . انتهى .

وقيل : أخذَ ابنُ أبى بكر بلِحْيته يهُزّها ويقول : ما أغنَى عنك معاوية! ما أغْنى عنك ابن أبى سَرْح ! ما أغنى عنك ابن عامر !

---

(١) الاستيعاب ١٠٤٦ (٢) سورة البقرة ١٣٧ .

وقال كنانة مولى صفيّة بنت حُيَيّ : شهدتُ مَقتلَ عثمان ، فأخرِج من الدّارِ أربعة من شبابِ قُرَيش ، مضرّجين بالدّماء ، كانوا يَذُبُّون عن عثمان : الحسن بن عليّ وعبد الله بن الزُّبير ومحمد بن حاطب ومروان ابن الحكمَ .

وقال أبو هريرة : إنِّي لمحصورٌ مع عثمانَ في الدّار ، فرُمِيَ رجلٌ مِنّا ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، الآن طابَ الضِّراب ، قَتَلوا منّا رجلا ، قال : عزمتُ عليكَ يا أبا هُرَيرة إلاّ رميتَ سيفَك ، فرمَيْته ولا أدرى أين هو حتّى الساعة !

وكان معه في الدار ممن يُدافع عنه : عبدالله بنُ عمر وعبد الله بنُ سلاَم وعبدُ الله بنُ الزُّبير والحسنُ بن عليّ وأبو هُرَيرة ومحمد بن حاطِب وزيدُ بن ثابِتٍ ومروان بن الحكَمَ ، في طائفة .

وعن مالك ، أن عثمان لما قتِل ، أُلقِيَ على المزبلة ثلاثة أيام ، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

من سَرّه الموت صِرْفا لامزاج به فليأت مأدُبَةً في دار عثمانا[1]

ومنها :

ضحّوا بأشمَطَ عنوان السجود به يقطِّع الليل تسبيحا وقرآنا[2]
لَتَسمَعُنّ وشيكا في ديارهمُ الله أكبَرُ ياثارات عثمانا

وفيه يقول أيضا :

إن تُمس داربنى عثمان موحشةً[3]
بابٌ صريع وبابٌ موحشٌ خربُ[4]

(١) ديوانه ٤٠٩ ، وفيه : «مأسدة» . (٢) الأشمط : أبيض الشعر .
(٣) الديوان : «دار ابن أروى» . (٤) ديوانه ٢٢ ، وفيه : «وباب محرق» .

فقد يصادف باغي الخيرِ حاجتَه ... فيها ويأوى إليها الجود والحسبُ

وقيل : إنه كتب وهو محصور إلى علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه :

أما بعد ، فقد بلغ السيل الزُّبى ، وجاوز الحزام الطُّبيين[١] ، وطمع فىّ من لا يدفع عن نفسه ، ولم يعجزك كلئيم ، ولم يبلغك كمغلّب ، فأقبل إلىّ على أىّ أمْرَيْكَ أحببت :

فإن كنتُ مأكولا فكن خيرَ آكلٍ ... وإلاّ فأدركنى ولمّا أمزَّقِ[٢]

ومثل هذا البيت قول الآخر :

فإن كنت مقتولا فكن أنت قاتلى ... فبعضُ منايا القوم أكرم من بعضِ

وقال ابن عمر : أذنب عثمان ذنبا عظيما يوم التقى الجمعان بأُحُد ، فعفا الله عنه ، وأذنب فيكم ذنبا صغيرًا ، فقتلتموه .

وقال الحسن : سمعت عثمان يقول: يأيها الناس ، ما تنقمون علىّ ، وما من يوم إلا وأنتم تقتسمون فيه خيرا .

قال الحسن : شهدت مناديه ينادى : يأيها الناس ، اغدوا على أعطياتكم فيغدون ، فيأخذونها وافيةً . يأيها الناس ، اغدوا على أرزاقكم فيأخذونها وافية ، أغدوا على أكسيتكم فيغدون ، فيأخذون الحلل . اغدوا على السمن والعسل . أرزاق دارّة ، وخير كثير .

ومن البيّن أن ما على وجه الأرض مؤمن يخاف مؤمنا إلا يوده وينصره ويألفه ، فلو صبر الأنصار على الأمر لو سعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق ، ولكنهم لم يصبروا ، فسلّوا السيف فصار عن الكفار مغمودًا ، وعلى المسلمين مسلولا إلى يوم القيامة[٣] .

---

(١) الأطباء للخيل : موضع الأخلاف فى الناقة .

(٢) البيت للمزق العبدى ، واسمه شأس بن نهار ، وانظر المؤتلف والمختلف للآمدى ١٨٥ ، وكامل المبرد ١ : ١٧ .

(٣) الاستيعاب ٤١ ١ .

قلت : يراد بهذا الكلام فى الإسلام ، وإلا فقد تزوج يعقوب عليه السلام بنتى خاله لابان بن بهرازر وراحيل هى أمّ يوسفَ وأخيه بِنيامين .

وعثمان هو ذو النُّورَين ، وزَوْج الابنتين ، وصاحب الهجْرتين .

ولمّا دُفن دفِن بثيابه فى دِمائه لم يُغسّل ، ودُفِن بالبقيع . وقيل : صلى عليه مَرْوان ، ونائلةُ وأمُّ البنين زوجتاه ؛ وهما اللتان دلّتاه فى حُفْرته على الرّجال الّذين نزلوا فى قبْره ، ولَحدوا له ، وغيّبوا قبره .

وكانت قِتْلتُه بالمدينة يومَ الجُمُعة لثمانِ عشْرةَ ــ أو سبع عشْرةَ ــ خلت من ذى الحِجّة ، سنة خمسٍ وثلاثين للهجْرة ، وكانت ولايته اثنتىْ عشْرةَ سَنَة إلاّ اثنتىْ عشْرةَ ليْلة .

وفى ذلك يقول أيْمن بن خُرَيم بن فاتك الأسَدىّ :

تَفاقَد الذّابحو عثمانَ ضاحيةً ... فأىَّ ذَبْح حرام وَيْلَهُم ذبحُوا ! [1]

ضحّوْا بعثمانَ فى الشّهر الحرامِ ولمْ ... يخْشَوْا على مَطْمح الكفّ الّذى طَمِحوا

فأىّ سنّةِ كُفْرٍ [2] سنّ أوّلُهمْ ... وبابُ كُفرٍ على سُلطانهمْ فتَحوا !

ماذا أرادوا أضَلَّ اللهُ سَعْيَهُمُ ... بسَفْكِ ذاكَ الدّمِ الزّاكِى الّذى سَفَحوا

إنّ الّذين تولَّوْا قتْلَه سَفَهاً ... لَقُوا أثاماً وخُسْراناً وما رَبِحُوا

وقال بعضهم :

لَعَمْر أبيك فلا تكذِبَنْ ... لقد ذَهَبَ الخيرُ إلاّ قليلا [3]

لقد سفِهَ النّاسُ فى دينِهمْ ... وخَلّى ابنُ عفّان شرًّا طَويلا

ودَخَل كعبُ بنُ مالك وحسّان بنُ ثابت والنّعمان بنُ بشير على أمير

---

(١) الاستيعاب ١٠٥١ وروايته : « ضحوا بعثمان فى الشهر الحرام ضحى » .

(٢) الاستيعاب : « سنة شر » .

(٣) الاستيعاب ١٠٥٢ ونسبهما إلى بعض بنى نهشل .

المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضيَ الله عنه ، فقال كعب بنُ مالك : أخبِرْنا عن عثمان : أقُتِل ظالما فنقول بقولك ، أم قُتِلَ مظلوما فتقول بقولنا ، أو نَكِلُكَ إلى الشُّبْهة ؟ فالعَجَب من يَقِينِنا وشَكِّك ، وقد زَعَمت العربُ أنّ عندك علمَ ما اختلفنا فيه ، فهاتِه نعرِفْه ، ثم قال:

فكفَّ يديْهِ ثمّ أغلَق بابَهُ وأيقَنَ أنّ الله ليسَ بغافِل(١)
وقال لمن في دارِه لا تُقاتِلوا عَفَا الله عن كلّ امرئٍ لم يُقاتِلِ
فكيف رأيتَ الله صبّ عليهمُ الـعَداوةَ والبغضاء بعد التواصل
وكيف رأيتَ الخير أدبَرَ عنهمُ وولّى كإدبار النعام الجوافِلِ(٢)

فقال لهم عليٌّ رضي الله عنه : لكم عندي ثلاثةُ أشياء : استأثَر عثمانُ فأساء الأثَرة ، وجزِعتم فأسأتُم الجزَع ، وعند الله ماتَختلفون فيه إلى يوم القيامة . فقالوا : لا ترضى بهذا العرب ، ولا تعذِرنا به . فقال عليٌّ رضيَ الله عنه : أترِدّ عليّ بين ظَهراني المسلمين بلا نيّة صادقة ، ولا حجّة واضحة ! اخرجُوا عنّي فلا تُجاوِرُونني في بلدٍ أنا فيه .

فخَرجوا في يومهم حتّى أتَوْا معاوية ، فقال : لكم الكفاية والوِلاية . وأعطَى حسّان ألف دينار وكعب بن مالك ألفَ دينار ، وولّى النّعمان بنَ بَشِير حِمْص ، ثمّ نَقلَه إلى الكوفة بعدُ .

قال إسحاق بن عيسى : أعيذ عليّا بالله أن يكون قتل عثمان ، وأعيذُ عثمانَ بالله أن يكون عليًّا قاتِله .

قلت : ذهب إلى معنى الحديث في قوله صلى الله عليه وسلم : « أشدُّ أهل النّار عذابا من قَتَل نبيًّا ، أو قَتَله نبيّ » .

---

(١) الاستيعاب ١٠٥٠ ، وقال : « وتنسب لحسان أو للوليد بن عقبة » .
(٢) الاستيعاب : « كإدبار السحاب الحوافل » .

قال ياقوت فى مُعجم البلدان : وُجِد على خشبةٍ من خَشَب غُمدان لما هدمه عثمان مكتوبٌ برصاص مصبوب فى خشبة : « اسلم غمدان ، هادِمُك مقتول » فهدمه عثمانُ فقُتِل(١) .

وحُكى أنه أُتىَ به لعبدالملك بن مروان بسكران ، فقال له : ماشربتَ ؟ فقال:

معتّقة كانت قريشٌ تعافُها فلما استحلّت قتلَ عثمانَ حلّتِ

فقال : مع من شربت ؟ فقال :

شربتُ مع الشّعرا بكأسٍ رَوِيّةٍ وأخرى مع الجَوْزاء لمّا استقلّتِ

وقال له : فلِم عرْبدْتَ ؟ فقال :

سَقَوْنى وقالوا : لا تُغَنِّ ولو سَقَوْا جبالَ حُنينٍ ماسقَوْنى لغنّتِ

وقال ابن عَبدون فى رائيّته :

وخَضّبَتْ شيبَ عُثْمان دماً
وخطّتْ إلى الزبيرِ ولم تَسْتَحْيِ مِن عُمَرِ(٢)

* * *

٤٩ — وقوله : وبذلتُ اقطام :

ثلاثة آلاف وعبدا وقينةٌ وضرب علىٍّ بالحسام المسمّمِ

يشير بذلك إلى قتلة علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وذلك أن عليًّا لما قاتل الخوارج بالنّهروان ، واستأصل جمهورهم ، ولم يَنجُ منهم إلا اليسير ،

---

(١) معجم البلدان ٦ : ٢٠٣ .
(٢) البسامة ٣٠٠ .

انتدب له من بقاياهم عبدَ الرحمن بن ملجم ، وتعاقد الخوارج على قتل علىّ بن أبى طالب ومعاوية وعمرو بن العاص رضى الله عنهم ، وخرج منهم ثلاثة نفر لذلك ، ودخل ابن ملجم الكوفة فاشترى لذلك[1] سيفا ، وسقاه السم — فيما زعموا — حتى لفظه ، فقيل ذلك لعلىّ رضى الله عنه ، فأحضره ، فقال له : لِمَ تسقى سيفك السم ؟ قال: لعدوّى وعدوّك . فخلّى عنه ، وكان فى خلال ذلك يأتى عليا فيسأله ويستحمله ، إلى أن وقعت عينه على قطام — وكانت جميلة رائعة — فأعجبته ، فخطبها ؛ فقالت : لقد آليتُ ألا أتزوّج إلا على مَهر لا أريد سواه ، فقال : ما هو ؟ فقالت : ثلاثة آلاف وعبد وجارية ، وقتل علىّ ابن أبى طالب ، فقال : والله ما أتيتُ إلا للفتك به ، ولا أقدمنى هذا المصر غير ذلك ؛ ولكن لما رأيتكِ آثرت تزويجك ، فقالت : ليس إلاّ الذى قلتُ لك ، فقال : وما يُغْنِى منك ! إن أنا قتلت عليا أعلم أنى لم أُفت ، فقالت : إن قتلته ونجوتَ ، فهو الذى أردت من تبليغ شفاء نفسى ، وتهنأك العيش منى ، وإن قُتلتَ فما عند الله خير من الدنيا وما فيها ، فقال لها : لكِ ما شرطت ، ثم قال :

ثلاثة آلاف وعبد وقَيْنَةٌ ... وضرب علىٍّ بالحُسام المسمّمِ[2]
فلا مهرَ أغْلى من علىٍّ وإنْ غلا ... ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

فقالت : أرى من يشدّ ظهرك ، فبعثتْ إلى ابن عم لها يدّعى وردان ابن مجالد ، فأجابها . ولقىَ ابنَ ملجم شبيب بن شجرة الأشجعىّ ، فقال له : يا شبيب ، هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟ فقال : وماهو ؟ قال : تساعدنى على قتل علىّ بن أبى طالب ، فقال : ثكلتْك أمك ! لقد جئت شيئا إدًّا !

---

(١) ساقطة من ط
(٢) الاستيعاب ١١٣١ ، وفيه : «المصمم» ، وقبله هناك :
فَلَمْ أَرَ مَهْراً ساقَهُ ذو سَماحةٍ ... كَمَهْرِ قَطَامٍ فى فصيحٍ وأعْجَمِ

كيف تقدر على ذلك ؟ قال : إنه رجل لاحرس له ، ويخرج إلى المسجد منفردا فنتمكّن منه ، وقد كمنّا له فى المسجد فقتلناه ، فإن نجونا نجونا ، وإن قتلنا فقد سعدنا بالذكر فى الدنيا وبالجنة فى الآخرة ؛ فقال : ويلك ! إنّ عليا ذو سابقة فى الإسلام مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ والله ما تنشرح نفسى لقتله ، فقال : ويلك ! إنه حكّم الرّجال فى دين الله ، وقتل إخواننا الصالحين ، فنقتله ببعض من قتل : فلا تشكّنّ فى دينك . فأجابه ، وأقبلا حتّى دخلا على قطام ، وهى معتكفة فى المسجد الأعظم ، فى قبّة ضربتها لنفسها ، فدعت لهما ، وأخذا سيفهما ، وجلسا قبالة السّدّة التى يخرج منها علىّ رضى الله عنه . فخرج إلى صلاة الصبح ، فبدره شبيب فضربه فأخطأه ، وضربه ابن مُلجَم على رأسه وقال : الحكم لله ياعلىّ ، لا لك ولأصحابك ! فقال علىّ : فزتُ ورب الكعبة[1] لا يفوتنكم الكلب .

فشدّ الناس عليه من كل جانب فأخذوه ، وهرب شبيب خارجا من باب كندة ، فقال علىّ رضى الله عنه : فإن متّ فاقتلوه ولا تمثّلوا به ، وإن لم أمت فالأمر لى فى العفو أو القصاص .

واختلف أهل العلم بالأخبار : هل قتله فى الصلاة ، أو قبل الدُّخول فيها ؟ وهل استخلف مَن أتمّ بهم الصّلاة ، أو هو أتمّها ؟ والأكثر على أنه استخلف جعدة بن هبيرة ، فصلّى بهم تلك الصلاة .

وعن عثمانَ بن صُهيب أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال لعلّى : « مَن

---

(١) بعدها فى ط : « قوله رضى الله عنه : « فزت » يحتمل أن يكون من قولهم : فاز الرجل ، إذا مات ، ويحتمل : من قولهم : فزت بالشهادة ، وأصل المفازة الهلاك ، وسميت المفازة بذلك على التفاؤل ، كما يقال للديغ : سليم » .

أشقى الأولين ؟ » قال : الذى عقر الناقة ، قال : « فمن أشقى الآخرين ؟ » قال : لا أدرى قال : « الذى يضربك على هذا[١] » - يعنى نافوخه - « فيخضب هذه » ، يعنى لحيته .

وكان علىٌّ رضى الله عنه إذا رأى ابنَ ملجم قال :

أريدُ حياتَه ويريدُ قتلى عذيرَك من خليلِك من مرادِ[٢]

وكان علىٌّ رضىَ الله عنه كثيرا مايقول : ما يمنع أشقاها أن يخضب هذه من هذا - ويشير إلى لحيته ورأسه - خضابَ دمٍ لاخضابَ عطرٍ وعنبر .

وعن سُكَين بن عبد العزيز ، أنه سمع أباه يقول : جاء ابنُ مُلجَم يستحمل عليًّا ، فحمله ثم قال :

أريدُ حياتَه ويريدُ قتلِي عذيرىَ من خليلىَ من مُرادِ

أما إنّ هذا قاتلى ؛ قيل : فما يمنعُك منه ؟ قال : إنه لم يقتلنى بعد .

وقال بكر بن حماد يرثى عليًّا بنَ أبى طالبٍ رضى الله عنه :

وهزّ علىٌّ بالعراقَين لحيةً مُصيبتُها جلّت على كلّ مسلمِ[٣]
وقال سيأتيها من الله حادثٌ يُخضِّبها أشقى البريّة بالدّمِ
فباكرَهُ بالسّيف شُلّت يمينُه لشؤمِ قطام عند ذاك ابنُ مُلجَم
فياضربةً من خاسرٍ ضلَّ سَعْيُه تبوّأ منها مقعداً فى جهنّمِ !

واجتمع الأطبّاء لعلىّ رضى الله عنه ، وكان أبصرَهم بالطّب أثيرُ بنُ عمرو السّكونىّ ، وكان صاحبَ كسرى يتطبّب له - وهو الذى تُنسب إليه

---

(١) د : « يضرب على هذا » . (٢) لعمرو بن معد يكرب ؛ وانظر اللآلى ١٣٨

(٣) الاستيعاب ١١٣١ .

صَحراء أُثَيرٍ[١] ، فأخَذَ أُثَيرٌ رِئةَ شاةٍ حارّةً ، فتتبّع عِرْقاً منها فاستخرجَه ، فأدخله في جِراحةِ عليّ ، ثمّ نفخ العِرْقَ فاستخرجَه ، فإذا عليه بياضُ الدّماغ ، وإذا الضَّرْبة قد وصلتْ إلى أمِّ رأسه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، اعْهد عهدَك فإنك ميّت .

ولمّا مات عليٌّ رضيَ الله عنه ، أُحضِر ابنُ مُلجم ، وجاء الناسُ بالنِّفْط والبواريّ ، وقُطِّعت يداه ورجلاه ، وكُحلت عيناه ، ثمّ قطِع لسانُه ، ثمّ أُحرق في قَوْصَرة .

وقيل إنّه قُطعت يداه ورجلاه ولم يتأوّه ، بل أخذ يتلو القرآن ، فلمّا أرادوا قطع لسانِه ، امتنع عن إخراجه ، فتعجّبوا في ذلك ، فقيل له : قُطِعتْ يداك ورِجْلاك ولا تألّمتَ وما امتنعت ؛ فما هذا الامتناعُ عند قطعِ لسانِك ! قال : لئلاّ يفوتَني من قراءة القرآن شيء وأنا حيّ . فشقّوا شِدْقه ، وأخرجوا لسانه بكُلاّب وقطعوه .

وكانت قِتلة عليّ رضي الله عنه ليلةَ الأحدِ لإحدى عشرةَ ليلةً بقيتْ من شهرِ رمضانَ سنةَ أربعين من الهجرة ، عند صلاة الصّبح .

وقد اختُلف في تاريخ قتلِه وسِنّه ، فقيل : لثلاثَ عشرةَ ليلة الجمعة . وقيل : لثمان عشرةَ . وقيل : أوّل ليلةٍ من العَشر الأواخر . وقيل : وعمرُه سبعٌ وخمسون سنة . وقيل : ثمان وخمسون سنة . وقيل : ثلاث وستّون ، وقيل : خمس وستّون . وقيل: أربع وستّون وتسعة أشهر وستّة أيام - وقيل: أربعة عشر يوما .

واختُلف في مكان قبره ، قيل : في قَصر الإمارة بالكوفة ، وقيل : في رحبة الكُوفة ، وقيل : في نجَف الحيرة ، وقيل : إنّه وُضع في صندوق ، وأكثروا عليه من الكافور ، وحِمل على بعير يريدون به المدينة ، فلمّا كانوا

(١) صحراء أثير ، بالتصغير ، بالكوفة ، ذكره ياقوت وأورد الخبر .

بلاد طيِّئ أناخوا البعير، (١فأخذته طيء١)، ودفنوه بأرضهم.

وقال المبرّد عن محمد بن حبيب: أوّل من حُوِّل من قبرٍ إلى قبرٍ عليُّ بنُ أبى طالب رضى الله عنه.

وقالت عائشة لمّا بلغها قتله: لتصنع العرب ماشاءت بعده، فليس لها مَنْ ينهاها.

وكانُ ابن مُلجَم قد قرأ القرآن على مُعاذ بن جبل - وكان من العبّاد.

قيل إنّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى عمرو بنِ العاص رضى الله عنه: أن قرِّب الناس إلى دار عبد الرحمن بن ملجم؛ ليعلِّم الناسَ القرآنَ والفقه. فوسّع مكان داره، ثم كان من شيعة علىّ، وشهد معه صِفّين، ثمّ فعل بعد هذا كلِّه ما فعله.

وعند الخوارج أنّ ابن ملجم من أفضل الأمّة، وكذلك النُّصَيْرِيَّة يعظّمونه. قال أبو محمد بن حزم: يقولون إنّ ابن مُلجم أفضل أهل الأرض؛ لأنه خلّص رُوحَ اللاّهوت من ظلمة الجسد وكدره.

وعند الروافض أنّه أشقى الخلق فى الآخرة؛ وهو عند أهل السنة ممن نرجو له النار، ويجوز أن الله تعالى يتجاوز عنه، وحُكمه حكمُ قاتل عثمان والزّبير وطلحة وسعيد بن جبير وعمار وخارجة والحسين؛ فكلُّ هؤلاء نبرأ منهم ونبغضهم فى الله تعالى، ونكِل أمورهم إلى الله تعالى.

وفيه يقول عمران بن حطّان:

يا ضربةً من تَقِيٍّ ما أراد بهـــا ... إلا ليبلغَ من ذى العرش رِضوانا[٢]

(١-١) ساقط من ط

(٢) كامل المبرد ٣: ١٦٩، وفى زيادات طبعة أوروبا: «فلبه الفقيه الطبرى فقال: =

إني لأذكره يوماً فأحسبه   أدنى البرية عند الله ميزانا

وقال بكر بن حماد :

قل لابن ملجم والأقدار غالبة :   هدمت ويلك للإسلام أركانا[1]
قتلتَ أفضلَ مَنْ يمشي على قدمٍ   وأول الناس إسلاماً وإيمانا
وأعلمَ الناس بالإسلام ثم بما   سنّ الرسول لنا شرعاً وتبيانا
صِهْرُ النبيِّ ومَوْلاهُ وناصِرُه   أضحت مناقبُه نوراً وبرهانا
وكان منه على رَغْمِ الحسودِ له   مكان هارونَ من موسى بن عمرانا
وكان في الحرب سيفاً ماضياً ذَكَراً   لَيْثاً إذا لقِيَ الأقرانُ أقرانا
ذَكَرتُ قاتِلَه والدمعُ منحدِرٌ   فقلتُ سبحانَ ربِّ العرش سبحانا
إنّي لأحسبه ما كان من بَشَرٍ   يَخْشَى المَعادَ ولكنْ كان شيطانا
أشقى مُرادٍ إذ عُدّتْ قبائلُها   وأخسَرُ النّاسِ عند الله مِيزانا
كعاقِرِ النّاقة الأُولى التّي جَلَبتْ   على ثمودَ بأرضِ الحِجر خُسرانا
قَدْ كان يخبرهم أنْ سوفَ يَخضِبها   قبلَ المنيّة أزماناً وأزمانا
فلا عفا اللهُ عنه ما تَحمَّله   ولا سَقَى قبرَ عمران بن حِطّانا
لقوله في شَقيٍّ ضلّ مجترِما   ونالَ ما نالَه ظُلماً وعُدْوانا :
يا ضربةً من تَقيٍّ ما أرادَ بها   إلاّ ليَبلُغَ من ذي العرش رِضوانا

— يا ضربةً من شقيٍ ما أراد بها   إلا ليَهْدِمَ من ذي العرش بنيانا
إني لأذكره يوماً فألعنُه   إيهاً وألعن عمران بن حطانا

وقال محمد بن أحمد الطيب يردّ على عمران بن حطان :

يا ضربةً من غدورٍ صار ضاربُها   أشقى البرية عند الله إنسانا
إذا تفكرت فيه ظلت ألعنه   وألعن الكلب عمران بن حطانا

(١) الاستيعاب ١٠٠

بل ضربة من غَوِيّ أورَدْته لَظًى فسوف يَلقَى بها الرحمنَ غَضْبانا
كأنّه لم يرد قصدًا بضَرْبَتِهِ إلاّ ليَصلَى عذابَ الخُلْد مِيزانا

وما أحسنَ قولَ ابن عبدونَ فى قصيدته :

وليتها إذ فدت عَمْراً بخارجةٍ فَدَتْ عليًّا بمن شاءت من البَشَرِ (١)

وقال البُحترىّ :

ولا عَجَبُ للأُسْد إن ظَفِرتْ بها كلابُ الأعادى من فصيحٍ وأعجَمِ (٢)
فحربة وحْشِيّ سَقَتْ حمزةَ الرَّدَى وموتُ علىّ من حُسام ابنِ مُلجَمِ

وقال عُماره اليَمَنىّ يذكر الأربعة :

أودَى علىٌّ وعثمانٌ بِمخْلَبها ولم يقيها أبو بكرٍ ولا عُمرُ
ومن أرادَ التأسّى فى مصيبتهِ فللورَى برسول الله مُعْتَبَرُ

وما أحسنَ قولَ شيخ الشيوخ شرف الدين :

أدِرْ كأسَ خَمْرِكَ صرفاً ففِى حياةِ المُدام حياةُ الفُؤادِ
ولا تقتُلنها تكنْ ثالثاً لأشقَى ثمودَ وأشقَى مُرادِ

وأنشدَنى من لفظه شيخُنا الحافظُ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبىّ فقال :

إذا قرأ الحديثَ علىّ شخصٌ وأخلَى موضعاً لوفاةِ مِثلِى
فما جازَى بإحسانٍ لأنّى أريدُ حياتَه ويريدُ قتلى

فقمتُ عنه وجئتُه فأنشدْتُه لنفسى :

خليلُك ماله فى ذا مُرادٌ فدُمْ كالشّمس فى عُلْيا مَحَلٍّ

---

(١) قصيدته ص ٣٠٠ (٢) ديوانه ٢ : ٢٦٥

وقصْدى أن تعيشَ مَدَى الليالى   وأنك لا تملّ وأنت تُمِلى

فأعجبه قولى :

* خليلُك ماله فى ذا مرادٌ *

لأنه تمام البيتِ الذى ضمّنه .

* * *

٥٠ — وقوله : وكتبتُ إلى عمر بن سعد أن جَعْجِعْ لحسين .

يشير بذلك إلى قتلة الحسين بن علىّ رضى الله عنهما ، وذلك أنه لما أُخِذتِ البيعةُ ليزيد بن معاوية لم يُبايِعْهُ الحسين ، وكان أهل الكوفة كتبوا إلى الحسين يدعونه إلى الخروج زمن معاوية وهو يأبَى ، فقَدم قومٌ منهم إليه ، ثمّ غلب على رأيه ، فخرج ومعه من أهل المدينة تسعةَ عشرَ رجلا من نساء وصبيان ، وتبعه محمد بن الحنفيّة ، وأعلَمه أنّ الخروج ليس برأى . فأبى الحسين ، فحبس محمد ولده ، وخرج من مكة متوجِّهاً إلى العراق فى عشرِ ذى الحِجّة ، سنَة [ستّين][1] .

فكتب يزيدُ إلى عُبَيد اللهِ بن زياد : إنّ حسيْنا صائرٌ إلى الكوفة ، وقد اُبتُلِىَ به زمانُك من بينِ الأزْمان ، وبلدك من بين البُلْدان ، وعِندها تعتق أو تعود عبدا .

فندب له عبيد الله بن زياد وعمرَ [بن سعد] بنَ أبى وَقّاص ، فقاتَلَهم ، فقال الحسين: ياعمر ، اخترْ مِنّى إحدى ثلاث : اما تركتَنى أرجع ، أوسَيّرتَنى إلى يزيد فأضعَ يدى فى يده ، فيحكم فىّ بمايَرَى ؛ فإن أبيت فسَيِّرْنى إلى التُّرك فأقاتلهم حتى أموت .

فأرسل[2] عمر بذلك إلى ابن زياد ، فهمّ أن يسيّره إلى يزيد ، فقال شِمر

---

(١) من ط   (٢) د . « فأوصل » .

ابن ذى الجوشن : لا أيها الأمير ، إلا أن ينزل على حُكمك ، فأرسل إليه ، فقال الحسين : والله لا أفعل . وأبطأ عمر عن قِتاله ؛ فأرسل إليه ابنُ زياد أن جعجع بالحسين — قال الأصمعيّ : معناه احبِسْه ، وقال ابن الأعرابيّ : ضَيِّق عليه .

وجهَّز إليه شَمِراً وقال : إنْ تقدَّم عمرُ وقاتل وإلاّ فاقتُله ، وكن مكانه . فقاتلوه إلى أن أصابه سهمٌ فى حَنَكه ، فسَقط عن فرسه ، فنزل إلى الحسين[١] شمر بن ذى الجوشن — وقيل غيره — فاحتزّ رأسه . إنّا لله وإنّا إليه راجعون !

وقُتِل معه يوم عاشوراء إخوته بنو أبيه : جعفر وعَقِيل ومحمد والعبّاس الأكبر بنو علىّ ، وابنه الأكبر علىّ ، وهو غير علىّ زين العابدين ، وابنه عبد الله بن الحسين ، وابن أخيه القاسم بن الحسن ، ومحمد بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وأخوه عون ، وعبد الله وعبد الرحمن ابنا مسلم بن عَقيل رضى الله عنهم .

وحُمِل رأسُ الحسين إلى يزيدَ ، فوضعه فى طست ، وجعل ينكُت ثناياهُ بقضيبٍ فى يده ، ويقول : إنه كان حسَنَ الثَّغر ، فقال زيد بن أرقَم : ارفع قضيبَك ، فطالَمَا رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يَلثُم موضعَه ، فقال : إنَّك شيخ قد خَرِفْتَ . فقام زيدٌ يجرّ ثوبَه .

وعن محمد بن سوقة[٢] بن عبد الواحد القرشيّ ، قال : لمّا أُتِى يزيدُ برأسِ الحسين ، تناوَله بقضيب ، فكشَف عن ثناياه ، فوالله ما البَرَدُ بأبرد من ثناياه ، ثمّ قال :

---

(١) م : « فنزل إليه شمر بن ذى الجوشن » .
(٢) ط : « سراقة »

نُفَلِّقُ هاماً من رجالٍ أعزّةٍ علينا وهمْ كانوا أعقَّ وأظلَمَا[١]

فقال رجل كان عندَه : يا هذا ارْفع قضيبَك ، فوالله لربما رأيتُ شفتَيْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مكانَه ، فرفعه متذمِّما مغضَبا .

وفى ذلك يقول شرف الدين المُبارك مستوفى إرْبل ، من جملة قصيدة :

أتَجْحَدُ قتلَه وتَرَاهُ إثْماً وقد أقبلته بالطّفّ شمرَا
وتَقْرَعَ بالقضيبِ ثَنيّتَيْهِ أرَاكَ أتيتَها نُكراء بكْرَا

وذكر ابن سعد : أنّ جَسده دُفِن حيث قُتل ، وأنّ رأسَه كفّنه يزيد ، وأرسَلَه إلى المدينة ، فدفِن عند فاطمة رضى الله عنها .

قال شيخنا شمس الدين الذّهبي : وعُلّق الرأسُ - على ما قيل - بدِمَشْق ثلاثة أيام ، ومكث الرأسُ فى خزائن السّلاح حتى ولىَ سليمان ، فبعث له فجيء به ، وقد بقىَ عَظْما أبيَض ، فجعلَه فى سَفَطٍ وطيّبه وكفّنه ، ودَفَنه فى مَقابِر المسلمين ، فلمّا دخلت المسوِّدة نَبَشُوه وأخَذوه ، والله أعلم بمكانِه الآن من ذلك الوقت .

وروى عن عمر بن عبد العزيز ، أنّه قال : لو كنتُ فى قَتَلة الحسين ، وأمِرت بدُخول الجنّة لما فعلْت ؛ حياءً أنْ تقع عيني على محمد[٢] .

لمّا قتِل قالت مَرجانة ابنة عُبيد الله من زياد : ياخبيث ، قاتل ابن بنتِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم[٣] لا يرَى الجنّة أبدا .

وقال أعرابيٌّ : انظروا ابنَ دَعيِّها ، قتَلَ ابنَ نبيِّها .

---

(١) للحصين بن الحمام المرى ، ديوان الحماسه ١٩٩ - بشرح المرزوقى .

(٢) ط : « حياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقع عيني على عينيه » .

(٣) م : « ياخبيث ، قتلت ابن بنت رسول الله »

وعن رأس الجالوت أنَّه قال : والله إنَّ بيني وبين داود سبعين أبًا ، وإن اليهود لتَلقانى فتعظّمنى ، وأنتم ليس بينكم وبين نبيِّكم إلاّ أب واحد ، وقتلتم ولدَه .

وقيل : إنَّ الحسين رَمى بدمه[1] نحوَ السماء ، وقال : أطلُب بدم ابن بنتِ نبيِّك .

وكان قد توجّه نحوَ الفرات ، فعَرضوا له ، وحالوا بينه وبين الماء . وأشار بذلك رجلٌ من بنى أبانَ بن دارِم ، فقال الحسين رضى الله عنه : اللهمَّ أظمئه[2] ؛ فما لبث الأبانىّ إلاّ قليلاحتّى رُئِىَ وإنّه ليُؤتى بعُسٍّ يُرَوِّى عدّة ، فيشرب به ، فإذا نزعه عن فيه قال: اسقونى فقد قتلنى العطش ، فانقدّ بطنه كانْقِداد البعير .

وقال الزّبير : قتله سنانُ بن أبى أنس النَّخعىّ ، وأجهزَ عليه خولىّ بنُ يزيدَ الأصبَحىّ من حِمْيَر ، وقتل معه سبعةَ عشرَ شابًّا . قال محمد بنُ الحنفيّة : كلّهم قد ارتكضوا فى رَحِم فاطمة .

وقيل: إنَّ النبىّ صلى الله عليه وسلم رأى فى نومه كأنّ كلبًا أبقع ولَغَ فى دمه ؛فلمّا قتِل الحسين ـ وكان شِمر بنُ ذى الجَوْشَن به وَضَح ـ ففسِّرتْ رؤياه .

وقال أبو الأسود الدُّؤَلىّ ـ ويرُوى لغيره :

أيرجو معشرٌ قتَلوا حُسَيْنًا ... شفاعةَ جَدِّه يومَ الحسابِ

وقال بعضُ الشعراء :

عبدُ شمسٍ قد أضمَرتْ لبنِى ها ... شم حَرْبا يشيبُ منه الوَليدُ

فابنُ حَرْبٍ للمُصطفى، وابن هندٍ ... لعلىٍّ ، وللحُسَين يزيدُ

وقال الخفاجىّ من أبيات:

يا أمّةً كفرتْ وفى أفواهها الـ ... قرآنُ فيه ضَلالُها ورَشادُها

أعَلَى المنابر تُعلِنون بسَبِّه ... وبسَيْفه نُصِبَت لكم أعوادُها

(١) د : « رمى بيديه » .

(٢) م ، ط : « أضمه » .

تلكَ الضغائنُ بينكمْ بذْرِيَّةٌ ... قُتِلَ الحسينُ وماخَبَتْ أحقادُها

وقال أبو الحسين الجزّار :

ويعودُ عاشُورَا يذكّرُنى ... رُزْءَ الْحسين فليتَ لم يَعُدِ
وَلَيْتَ عَيْنًا فيه قد كحلتْ ... بمسرَّةٍ لم تَخْلُ من رَمَدِ
ويداً به لشماتةٍ خُضِبتْ ... مقطوعةً من زَنْدِها بيَدِى
يومٌ سبيلى حينَ أذكُرُه ... ألاَّ يدور الصّبر فى خَلَدى
أمَّا وقد قُتِل الحسينُ به ... فأبو الحسين أحقّ بالكَمَدِ

ولقد أحسن فى البَيْت الثالث والخامس كلّ الإحسان .

وقال أحمد بنُ عيسى الهاشمىّ من ولد الواثق ، يَعتذِر من الكحل فى يوم عاشوراء :

لم أكْتَحِلْ فى صباحِ يومٍ ... أريقَ فيه دَمُ الْحُسَين
إلاّ لِحُزْنِى وذاكَ أنِّى ... سوّدْتُ حتّى بياضَ عَيْنِى

وقال عُمارة اليمنىّ :

غصبت أمّةٌ إرْثَ آل محمد ... سَفَهاً ، وشنَّت غارة الشَّنآنِ
وغدَتْ تخالف فى الخلافة أهْلَهَا ... وتقابل البرهان بالبهتان
لم يقتنعْ حُكّامهمْ بركوبِهِمْ ... ظهر النّفاق وغارب العُدْوَانِ
وقعودهم فى رُتْبة نبويّة ... لم يَبْنِها لهمُ أبو سُفْيانِ
حتّى أضافوا بعدَ ذلك أنّهم ... أخذوا بثأر الكفر فى الإيمان
فأتى زيادٌ فى القبيح زيادةً ... تركت يزيدَ يزيدُ فى الطُّغيان

وقيل لابن الجوزىّ وهو على المنبر : كيف يقال إنّ يزيدَ قتل الحسين وهو بدِمَشق ، والحسين قُتِل بكَرْبلاء من أرض العِراق ! فأنشد :

سَهْمٌ أصابَ وراميه بذِى سَلَمٍ ... مَنْ بالعراق لقد أبعدتِ مَرْماك[1]

(١) للشريف الرضى ٢: ٥٩٣ .

وقد رثاه من المتقدّمين والمتأخّرين خَلْقٌ لا يَعلمهم إلاّ الله ، وخمّسوا فيه القصائدَ المشهورة ، فمنهم الموفق الحكيم المعروف بالورَل ، خمّس الدريدية مرثية فيه ، والسّراج الورّاق خمّسَ فيه قصيدتىْ أبى تمّام إحداهما قوله :

أَصَمَّ بكَ الناعِى وإن كان أسمَعَا[1]

والأخرى قوله :

أىُّ القلوبِ عليكَ ليس تنصدعُ[2]

وقال رزق الله بن عبد الوهّاب بن عبد العزيز الحَنْبلىّ : اجتمعت بالعمد المعرّة — يعنى أبا العلاء المَعَرِّىَّ — فقال لى : [3]سمعت فى مَراثِى الحسين بنِ علىّ رضى الله عنهما مرثية تُكتب ؟ ، فقلت : قد قال بعض فلاحى بلادنا أبياتا تعجز عنها شيوخ تَنُوخ ، فقال : ماهى ؟ قلت : قوله[3] :

رأسُ ابنِ بنتِ محمد ووصيّه ... للمسلمين على قَنــاةٍ يُرفَعُ
والمسلمونَ بمَنظَرٍ وبمَسْمَعٍ ... لا جازعٌ فيهمْ ولا مسترجعُ
أيقظْتَ أجفانــاً وكنتَ أنمْتَها ... وأنمْتَ عَيْنا لم تكن بك تهْجَعُ
ماروضةٌ إلاّ تمنّتْ أنّهـــا ... لك تُربةٌ ويُخَطُّ قُرْبكَ مَوضِعُ

فقال المَعَرِّىّ : ماسمعتُ أرقَّ من هذه .

* • *

٥١ — قوله : وتمثلت عندما بلغنى ما بلغنى من وقعة الحَرة :

ليت أَشياخى ببَدْرٍ شهدوا ... جزَعَ الخزرج من وَقْعِ الأسَلْ

---

(١) ديوانه ٣٧٤ وبقيته :

* وأصْبَحَ مَغْنَى الجودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا *

(٢) ديوانه ٣٧١ ، وبقيته :

* وأىّ دمع عليكم ليس يمْتَنِعُ *

(٣ – ٣) ساقط من ط .

يشير بذلك إلى يزيد بن معاوية وما فعله بأهل المدينة في واقعة الحَرّة، وسبب ذلك أن أهل المدينة أخرجوا عثمانَ بنَ محمد بن أبي سُفْيان، عامل يزيدَ بن معاويةَ من المدينة، وخلعوا يزيدَ، وبايعوا عبدَ الله بنَ حنظلة [الغسيل]، وحاصروا بني أُميَّة ومَن رأى رأْيهم من قريش، وكانوا نحوا[١] من ألفِ رجل؛ حاصروهم[٢] في دار مَرْوان. فكتب بنو أميّة كتابا إلى يزيد على يد حبيب بن كُرّة، وهو: أمّا بعد، فإنّا حُصِرْنا في دارِ مرْوانَ بن الحَكَم، ومنعنا من العَذْب، ورمينا بالجَبوب[٣]، فياغَوْثاه! ياغوْثاه!

قال حبيب: فوصلت إلى يزيد، فأدخِلت عليه وهوَ على كرسيّ، واضع رِجْلَيه في ماء في طست من وَجَع النّقرِس، فقرأه وقال:

لقد بدّلوا الحِلْمَ الّذى مِن سَجِيّتى ... فبدّلتُ قومى غِلظَةً بِليانِ

ثم بعث إلى عمرَ بن سَعْد، فأقرأه الكتاب، وأمره بالمسير إليهم، فقال: إنّما هى دماء قريش تُهراق بالصعيد، فلا أحبّ أن أتولّى ذلك؛ يتولاها من هو أبعَد منها مِنّى.

فبعث إلى مسلم بن عُقْبة ـ وهو شيخ كبير ضعيف ـ وخرج مُنادِى يزيدَ بالناس؛ أن سيروا إلى الحِجاز. وبعث مع مسلم اثْنَىْ عشرَ ألف رجل، وخرج يزيدُ يتصفّح الخيلَ ويُنشِد:

أبلغْ أبا بكرٍ إذا اللّيلُ سَرَى ... وهَبَطَ القوم على وَادِى القُرَى

عشرون ألفا بين كهلٍ وفتى ... أَجَمْعَ سكران من القوم ترى

أم جَمْعَ يَقْظان نفِى عنه الكرى ... ياعجباً من ملحد يا عجباً!

* مُخادِع بالدّين يَقْفو بالْعُرى *

---

(١) الجبوب: الأرض الغليظة، وفي الأصول: «الحبوب»، وما أثبته من تاريخ الطبري ٥: ٤٨٢

وجهّز الجيش، وقال لمسلم بن عُقْبة : أدعُ القومَ ثلاثا ، فإن همْ أجابوك وإلاّ فقاتِلْهم؛ فإذا ظهرتَ فأبِحْها ثلاثاً بما فيهامن مالٍأو زينة[1] أو سلاح أو طعام فهو للجنْد. فإذا مضت الثلاث فاكفُفْ عن الناس،وأنظر إلى عليّ بن الحسين فاكفُفْ عنه ، وأستَوْصِ به خيراً ، وأدْن مجلسه ، فإنه لم يدخل فى شىء مما دخلوا فيه .

ولمّا بلغ الجيشُ المدينةَ ، خرج بنو أميّة بأثقالهم ؛ حتّى لقوا مسلمَ بنَ عقْبة بوادى القُرَى ، وأتوا المدينة من قِبَل الحرّة . ولمّا أصبح نادَى : يا أهل المدينة ، إنّ أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل ، ويقول : إنى أكره هِراقةَ دِمائكم ، وإنى أؤجّلكم ثلاثا ، فمن أرعوى وزجع قبلنا منه ، وانصرفت عنكم ، وسِرْتُ إلى هذا المُلْحِد الّذى كان بمكّة ، وإن أبَيْتم كنّا قد أعذرْنا إليكم .

ولمّا انقضت المدّة قال : أتسالمون أم تحاربون ؟ قالوا : بل نُحارب ، وتقابل الفَرِيقان ؛ فقُتِل عبد الله بن الغسيل وأخوه لأمّه محمد بن ثابت ابن قيس بن شمّاس ، ومحمد بن عمرو بن حزم الأنصاريّ وجماعة من كبار الصّحابة وغيرهم .

وكان مسلم بن عُقْبة ضعيفا ؛ فكان يجلس على كرسيّ ويحمله الغلمان بين الصّفين يحرّض الناسَ على القتال ، إلى أن كلّ أهلُ المدينة ، وتَفانَى أكابرُهم ، وأباح مُسلمْ بن عقبة المدينة ثلاثا ، يَقتُلون [الناس[2]] ويأخذون الأموال .

ثمّ إنّه بايَعَ الناسُ ليزيد ، ومن تأبّى أو تلكّأ قتله[3] .

ولمّا فرغ مسلمُ بنُ عقبة من أهل المدينة ، توجّه إلى مكّة لقتال عبد الله بن الزّبير ، وخلّف على المدينة رَوْح بن زِنْباع الجُذاميّ . فوصل مكّة ، وحاصر أبن الزبير ، وأدركته الوَفاة فقال : اللّهمّ إنّى لم أعمل عملا صالحا قطّ بعد شهادة أن لا إله إلاّ الله وحدَه لاشريك له وأنّ محمدا عبدُه ورسولُه

(١) الطبرى . « أورقة » ، والرقة : الدراهم . (٢) من الطبرى .

(٣) انظر خبر الوقعة فى تاريخ الطبرى ٥ : ٤٨٢ ـ ٤٩١ .

أحبَّ إليّ من قتلِ أهل المدينة ، ولا أرجى عندى فى الآخرة . ومات ، فكانت وقعة الحَرَّة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذى الحِجّة سنة ثلاثٍ وستّين .

وقال محمد بن أسلمَ الأنصاريّ الساعديّ يومَ الحَرَّة :

إن تقتلونا يومَ حَرَّةِ واقِمٍ فنحنُ على الإسلام أوّل من قتَلْ[1]

ونحن تركناكمْ ببَدْرٍ أذِلّةً وأُبْنَا بأسلابٍ لنا فيكمُ نفَلْ

فإن ينج منّا عائذُ البَيْتِ سالما فما نالنا منكمْ وإن شَفّنَا جَلَلْ

وكان يزيد قد كتب إلى أهل المدينة :

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم . أما بعد يا أهل المدينة ، فإنّى أنظرتكم حتّى لانظِرة ، ورفقت بكمْ حتّى عجزتُ عنكم ، وحملتُكم على رأسى ثمّ على عينى ثمّ على نحرى . وإنِّى والله إن وضعْتُكم تحتَ قدَمى لأطأنّكم وَطأةً أجعَلكم فيها أحاديث ترتّل مع أحاديث عادٍ وثمود . ثمّ قال :

أظنّ الحِلم دَلَّ علىَّ قَوْمِى وقد يُستجهَل الرَّجلُ الحليمُ[2]

ومارَسْتُ الرِّجال ومارَسُونى فمعوجٌّ علىَّ ومستقيمُ

وقيل : إنَّ هذا البيتين لمعاوية رضى الله عنه ، قالهما متمثّلا بهما فى بعض وقائعه[2] .

ولمّا استكمل يزيدُ ، حرّض جنده ، وأركبهم بريّة الحجاز ؛ وكتب وَرقة لطيفة ، وأرسل بها رسولا إلى ابن الزبير مفردا ، ليسبق القومَ ، وفيها من شعره :

اِستَعْدِ ربَّك فى السّماء فإنّنى أدعو إليك رجال عَكّ وأشْعَرِ[3]

---

(١) معجم البلدان ٣ : ٢٦٣ ، وحرة واقم ، إحدى حرتى المدينة .

(٢) الصواب أن الشعر لقيس بن زهير العبسى من مقطوعة له فى ديوان الحماسة ١ : ٢٩٧

(٣) المسعودى ٣ : ٧٩ ، وفيه «ادعو إلهك فى السماء فإننى» .

ورجال كَلْب والسَّكون ولخمها   وجُذام تقدمها كتائبُ حِمْيَر
كيف النجاة أبا خُبيبٍ منهمُ   فاحتل لنفسك قبل بأتى عسكرى

وبالغ أبو بكر الخُوارزْمى فيما كتب به إلى جماعة الشِّيعة بنَيْسابُور ، لمَّا قَصدهم واليها محمد بنُ إبراهيم ، من جملة رسالةٍ مطوَّلة . قال أميرُ المؤمنين ويعسوب الدين عليه السلام : المِحَن إلى شيعتنا أسرع من الماء إلى الحُدُور[1] . هذه مَقَالَةٌ أسِّسَت على المحن ، ووُلد أهلُها فى طالع الهزاهز والفِتن ، فحياةُ أهلها نَغَص[2] ، وقلوبُهم حَشْوُها غُصَص ، والأيَّام عليهم متحاملة ، والدنيا عنهم مائلة ، وإذ كنَّا شيعة أئمّتنا فى بعض الفرائض والسُّنَن ، ونتبع آثارَهم فى كلّ قبيح وحَسَن ؛ فينبغى أن نتبع آثارَهم فى كلّ المِحن .

غُصِبَتْ سيِّدتُنا فاطمةُ صلوات الله عليها ميراثَ أبيها صلوات الله وسلامه عليه يومَ السَّقيفة ؛ وأُخِّرَ أميرُ المؤمنين رضىَ الله عنه عن الخلافة ، وسُمَّ الحسن رضى الله عنه سِرًّا ، وقُتِل أخوه كرَّم الله وجهه جَهْرا ، وصُلِب زَيْد بنُ علىّ بالكُناسة ، وقُطع رأسُ يحيى بن زَيْد فى المعركة ، وقُتِل أبناه محمد وإبراهيم على يد عيسى بن موسى العبَّاسىّ ، ومات موسى ابنُ جعفر فى حَبْس هارون الرَّشيد ، وسُمّ علىُّ بن موسى على يد المأمون ، وهُزم إدريس بفخّ[3] حتّى وَقَع إلى الأندلس فريدا ، ومات عيسى بنُ زَيْد طريدا شَريدا ، وقُتِل يحيى بنُ عبد الله بعد الأمان والأيْمان ، وبعد تأكيد العُهود والضَّمان ؛ هذا غيرُ فعل يعقوب بن اللَّيث بعلَوِيَّة طَبَرِسْتان ، وغير قتل محمد بن زَيْد والحسَن بن القاسم الدّاعى على أيدى آلِ ساسَانَ ، وغير ماصنعه أبو السَّاج فى علويّة المدينة ؛ حملهم بلا غطاء ولا وطاء ، من الحِجاز إلى سامَرَّا . وهذا بعد قتل قتيبة بن مُسلم الباهلىّ لابن عمر بن علىّ حين أخذه بأبويه ،

---

(١) الحدور : المكان ينحدر منه   (٢) النغص : كدر العيش .
(٣) فخ : واد بمكة .

وقد ستر نفسَه ، ووارَى شخصَه ، يصانع حياته ، ويدافع وفاته ، ولا كما فعله الحسين بنُ إسماعيل المصعبىّ بيحيى بن عمر الزَّيدى ّ[١] خاصّة ، ومافعله مزاحِم ابن خاقانَ بعلويّة الكوفة كافّة ؛ وحَسْبُكم أن ليس فى بَيْضة الإسلام بلد إلاّ وفيها لقتيل طالبىّ تُربة[٢] ، تَشارَك فى قتلهم الأموىّ والعبّاسىّ ، وأطبق عليهم العدنانى والقحْطانىّ .

فليس حىٌّ من الأحياء نعرفه من ذى يمانٍ ولا بَكرٍ ولا مُضَرِ
إلاّ وهُمْ شُركاء فى دِمائهِمُ كما تَشارَكَ أيسار على جَزَرِ

وهذا البيت الّذى اُستشهد به يزيد فى وَقْعة الحرّة ، وهو :

* لَيْتَ أشياخِى بَبدْرٍ شَهِدُوا *

قائله عبدُ الله بنُ الزِّبَعْرَى .

* * *

٥٢ ـ وقوله : ورجمتُ الكعبة ، وصلبتُ العائذ على الثّنيّة .

يشير بذلك إلى واقعة عبد الله بن الزّبير رضىَ الله عنه ؛ وذلك أنّه كان فارسَ قريش فى زمانه ، بُويع بالخلافة سنةَ أربعٍ وستّين ، وحَكَم الحِجاز واليَمَن ومصرَ والعِراق وخُراسان وأكثر الشام ، فضاق عطن عبدِ الملك ابنِ مروان منه ، فجاء الحجّاج إليه ؛ وقال : رأيت فى نومى كأنّنى علّقت عبد الله بن الزبير وسلختة ؛ فقال : اخرج إليه ، فأنت له .

فخرج الحجّاج إلى مكّة فيمن معه من العسكر ، فأحاطَ بها ، ونَصَب المَنْجَنِيق على أبى قُبَيْسٍ . وكان ابنُ الزبير قد نَصَب فُسْطاطا عندَ البيت فاحترق ، فطارت منه شرارةٌ فاحترق البيت ، واحترق قرْنا الكَبْش الّذى فُدِى به إسماعيل ، ثمّ إنّه جَدّد عمارة البيت .

(١) فى الأصول : « الزائدى » ، وما أثبته من الرسائل .
(٢) الرسائل : « ترة » .

ولما نصب الحجّاج المنجنيق رمى به الكعبة على ابن الزّبير وعلى من معه فى المسجد ، وجعل ابن الزّبير على الحجر الأسود بيضة تردّ عنه ، ودام الحصار ستة أشهر وسبع عشرة ليلة .

ولما كان قبل قتله بعشرة أيام دخل على أمه وهى شاكية ، فقال لها : كيف تجدينَكِ يا أماه ؟ قالت : ما أجدنى إلا شاكية ، فقال لها : إن فى الموت لراحة ، قالت : لعلك تمنّيته لى ! ما أحبّ أن أموت حتى آتىَ على أحدِ طَرَفيك ، إما قُتِلتَ فاحتسبتُك ، وإمّا ظفرتَ بعدوّك فقرّت عَيْنى ؛ قال عُرْوة : فالتفتَ إلىّ وضَحِك .

ولما كان فى اليوم الذى قتل فيه دخل عليها فى المسجد ، فقالت : يا بُنىّ ، لا تقبلنّ منهم خُطّةً تخاف فيها على نفسك الذلّ مخافةَ القتل ؛ فوالله لضَرْبة بالسّيف فى عزٍّ خيرٌ من ضربةٍ بالسَّوْط فى مَذَلّة ، فقال لها : إنّما أخاف المُثْلَة ، قالت : يابنىّ ، إنّ الشاةَ لا يَضُرُّها سلخُها بعد الذَّبح .

فخرج وقد جُعِل له مِصراعٌ عند الكعبة ـ وكان تحته ـ فأتاه رجل من قريش فقال : ألا نفتح لكَ بابَ الكَعْبة فتدخلها ؟ فقال عبد الله : من كل شىء تحفظ أخاك إلاّ من نفسه ، والله لو وَجَدوكم تحت أستارِ الكعبة لقتلوكم . وهل حرمة المسجد إلاّ كحرمة البيت ! ثمّ قال :

ولستُ بمبتاعِ الحياة بسُبّةٍ
ولا مُرتقٍ من خشيةِ الموتِ سُلّمَا(1)

ثمّ شدّ عليه أصحاب الحجّاج ، فقال : أين أهل مصر ؟ فقالوا : هم هؤلاء من هذا الباب ، فقال لأصحابه : اكسروا أغماد سيوفكم ولا تَميلوا عنّى ؛ فإنّى

(1) لابن حام المرى من المفضلية ١٢

فى الرَّعيل الأوَّل ، ففعلوا . ثمّ حَمَل عليهم وحملوا معه ، وكان يضْرب بسيفين فلَحِق رجلا فقَطع يدَه . وانهزموا ، فجعل يضربهم حتّى أخرجهم من المسجد ، فجعل رجلٌ أسود يسبُّه ، فقال : اِصْبِرْ يا بن حام ؛ ثم حمل عليه فصرعه . ثم دخل عليه أهل حِمصَ من باب بنى شيبة ، فشدّ عليهم ، وجعل يرتجز ويقول :

لو كان قِرْنِي واحِدًا كفيتُه ... أوردْتُه الموتَ وقد رَكِبْتُه[١]

إلى أن أخرجهم من المسجد ، ثمّ دخل عليه أهلُ الأُرْدُنّ من بابٍ آخَرَ فجعل يَضرِبهم بسَيْفه حتّى أخرجهم من المسجد ، وهو يقول :

لا عهدَ لى بغارةٍ مثل السَّيْلْ ... لا ينْجلِى قَتَامُها حتّى اللّيْلْ

فأقبل عليه حجرٌ من ناحية الصفا ، فأصابه بين عيْنيه ، فنكّس رأسه وهو يقول :

ولَسْنا على الأعقابِ تَدْمَى كُلومُنا

ولكنْ على أقدامِنا تقْطُرُ الدِّمَا[٢]

ثمّ اجتمعوا عليه ، فلم يزالوا يضربونه حتّى قتلوه ؛ ولمّا قُتِل كبّر أهلُ الشام ، فقال عبدُ اللهِ بن عمر : المكبِّرون عليه يومَ وُلِد ، خيرٌ من المكبِّرين عليه يوم قُتِل .

قلت : لأنّه لمّا قدم المهاجرون المدينة أقاموا مُدّةً لا يُولد لهم ، فقالوا : سحَرتْنا اليهود ، حتّى كثرت المقالة فى ذلك ، فلما وُلِد عبدُ الله بنُ الزبير بعد الهِجْرة بالمدينة كبّر المسلمون تكبيرةً واحدة حتى ارتجّت المدينة .

وقُتِل معه مائتان وأربعون رجلا ، منهم مَنْ سال دمه فى جَوْف الكعبة

---

(١) لدويد بن زيد ، وانظر طبقات الشعراء لابن سلام ، ٢٨ ، والرواية هناك :

لَوْ كان للدّهر بِلًى أبليْتُه ... أو كان قِرْنِى واحدًا كفيتُهْ

(٢) للحصين بن حمام ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ١٩٢ .

وأَخَذه الحجّاج وصَلَبه منكّساً ؛ وآلى الحجّاج أنّه ما يُنزِله حتى تتشفّعَ فيه أمُّه ؛ فلم تفعل، فبقيَ مصلوبا على الثنيَّة سنةً ، فمرت أمّه بعد سنة تحتَ جذعه ، فقالت : أما آن لهذا الراكبِ هذه المَطِيَّة أن يترجَّل! فيقال: إنّه قيل للحجّاج : إن هذا الكلام شفاعةٌ فيه ؛ فأنزله .

وقيل : بل رحل عروةُ بنُ الزّبير إلى عبد الملك بن مَروان ، وسأله إنزاله عن الخَشَبة ؛ فأذِن له .

ولمّا بُشّرت أمّه بذلك ؛ قال ابن أبي مُلَيكة : فدعت بمَرْتَكٍ[١] وشَبٍّ يمانى ؛ وأمرتنى بغسله ، فكنّا لا نتناوَل عضوا إلاّ جاء معنا ؛ فكنّا نَغسِل العضوَ ونضعه فى أكفانِه ، ونتناوَل العضوَ الّذى يليه فنَغسِله ونضعه فى أكفانه حتّى فرغْنا منه . ثمّ قامت فصلّت عليه ، وما أتَى عليها بعد ذلك جمعة حتّى ماتت رضيَ الله عنها . وكانت تقول : اللّهمّ لا تُمِتْنى حتّى تقرّ عينى بجُثّته .

وقيل : إنّه لمّا جيء به إليها وضعتْه فى حِجْرها ، فحاضت ، وَدَرّ ثَدْيُها . فقالت : حنّتْ عليه مَواضِعُه ، ودَرّت عليه مراضعُه .

وكانت قِتلتُه سنةَ ثلاثٍ وسبعين للهجْرة .

وقيل : إنّ أمّه صلّت عليه وحملته إلى المدينة ، فدفنتْه فى المدينة فى دار صفيّةَ بنت حُيَيّ ؛ ثمّ زيدت دار صفيّة فى المسجد ، فهو مدفونٌ مع النبيّ صلى الله عليه وسلّم ومع أبى بكر وعمرَ رضى الله عنهم .

وكان كثيرَ الصلاة ، كثير الصّيام، شديدالبأس ، كريم الجَدّات والأمهات والخالات .

قال مالك : إنّ ابن الزُّبير كان أفضلَ من مَرْوان ، وكان أولَى بالأمرِ منه ومن أبيه .

---

(١) المرتك ، كلمة فارسية ، وهو دواء مجفف ، وانظر المعرب وحواشيه ٣١٧ .

وقال عليّ بن زيد الجدعانيّ : إلاّ أنّه كان فيه خلالٌ لا تَصلُح مع الخلافة ، لأنه كان بخيلا ، ضيّق العطن ، سيّئ الخُلق حسودا ، أخرج محمّدَ أبنَ الحنفيّة ، ونفى عبد الله بن العبّاس إلى الطائف ، وكان يسمّى حمامة المسجد لملازمته له .

وقال عمرو بن دينار : كان أبنُ الزّبير يصلّي في الحِجْر وحجَر المنجنيقِ يُصيب طرَف ثوبِه ، فما يلتفت إليه .

قال أبن اسحاق : ما رأيت أحدا أعظم سجدةً بين عينيه من أبن الزبير .

وقيل : إنّه جاءته شُرْفة من شُرَف المسجد ، فوقعتْ على رأسه فصرعَتْه وهو يتمثّل :

أسماء يا أسماء لا تبكيني لم يَبْق إلاّ حَسَبي ودِيني

* وصارمٌ لانَتْ به يميني *

وهو أوّل مولودٍ وُلِد بالمدينة في الإسلام ، وأمّه ذات النِّطاقَين أسماء بنتُ أبي بكر الصدّيق رضى الله عنه ، وخالتُه عائشةُ أمّ المؤمنين ، رضى الله عنهم أجمعين .

وكان يلقّب بالعائذ ـ يعنى أنّه عاذ بالبَيْت ، وأستجار به ، ولهذا قال محمد ابن كثير يخاطبُه ؛ لمّا حبس محمد بنَ الحنفيّة في سجن عارِم :

تُخبِّر من لاقيتَ أنّك عائذٌ
بل العائذ المحبوسُ في بَطنِ عارِم (١)
ومَن يَلْقَ هذا الشيخ بِالْخَيْفِ مِن مِنًى
من النّاس يَعلمْ أنّه غيرُ ظالِم

(١) معجم البلدان : ٤ : ٩ ، قال : « ولا أعرف موضعه وأظنه بالطائف » .

سميُّ النّبي المصطفَى وابنُ عمِّه
وفكّاك أغلالٍ وقاضِى مَغارمِ

أبَى فهوَ لا يَشْرِى هُدًى بضلالةٍ
ولا يَتّقى فى اللهِ لومةَ لائِمِ

قلت : هؤلاء أدباء العرب ؛ هم الأدباء ، وكتّابهم هم الكتاب الألِبّاء ، قد تفرّدوا بهذه الطريقة العريقة ، واستظلّوا هذه الغصون الوريقة ، واُستباحوا حِمى هذه الرياض الأنيقة ، ووصلوا من مجازات هذه الصّناعة إلى الحقيقة ، وآووا المعانى الغريبة ، وانتاشوا الألفاظَ العَريقة ، وجلسوا من الآداب على فرُشها الوَثيرة ، وتَمسّكوا بعُراها الوَثيقة . ألا ترى إلى ابن زيدونَ من قوله : « وما أرانى إلاّ لو أُمِرْت بالسُّجود لآدمَ فأبيتُ واستكبرتُ . . » إلى آخر هذا الفصل ، كيف سرد الذّنوبَ الكائنة فى الزمان ، والوقائع المتشابهة ؛ من المَعايب كلَّ نقيصة وما آخاها ، وكلَّ مصيبةٍ وما والاها ، حتّى أطرب الأسماع ، وسلّم يتفرّده الإجماع .

وهكذا فعل الوزير الكاتبُ أبو بكر بن سعيد بن القبطرنّة البطليوسىّ فى رقعةٍ كتبها إلى الوزير أبى الحسين بن سراج :

ولولا عوائقُ الزّمان لطِرْتُ إليه بجَناح ، أو لاُمتطيْتُ أعناقَ الرّياح ، ولاستبطأت السّلاهيب ، واُستهجَنْت الجرْد اليعابيب ، ولم أرض بالذى يَنفُخ فى البرى ، واُستقْصَرْت بريد الثُّرَى بالليل خيل بربرا ، ولاُرتحلتُ الكوكب ، وحملتُ إليك قلباً كقلب العقرب ، ولاتخذت المجرّة سبيلا ، وسُهيلا دليلا ، ولقدت البدر المنير ، وركبتُ الشّعْرَى العَبُور ، وتترّست بالثُّرَيّا ، وطعنت بالسِّماك ؛ هذا لو أردت البرّ ، ومُقاساة السّهل منه والوَعْر . ولاتّخذت السّمكة سفينة ، وأقمتُ لها من النعائم ألواحا ، وعُطارِد مَلاّحا ،

وشرّعتها بالغُيوم ، وسمّرتُها بالنّجوم ، وجدّفتُ بالفَرْقَدَين ، وحمّلتُ من آمالى فيها من كلٍّ زَوْجين اثنين ، واعتصمْت بالقوة والحوْل ، وخالفتُ كلَّ من سَبَق عليه القَوْل ، واستعذتُ من شيطانِ الكسل وهو رَجيم ، وقلت : ﴿ بسم الله مجراها ومرساها إنّ ربّى لغفور رحيم ﴾ .

ومن رسالة لأبى عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، قال : فأومأت إلى الجوزاء بكفّى أنْ تأمّلى ، وإلى العوّاء أنْ أقبِلى ، وقلت : المجرّة فى عينى أن تكون لى منديلا ، وصفرُ الزِّبْرِقان عندى أنْ أتخذَه وكيلا[1] .

* * *

٥٣ — وقوله : لكانَ فيما جرَى علىَّ ما يَحتمِل أن يسمَّى نَكالا ، ويُدعَى ولو على المَجاز عِقابا .

وحَسْبُك من حادث بامرئٍ ترَى حاسدِيه له راحِمينا

يريد بذلك أنه لو كنتُ أتيتُ بهذه الذنوب التى عددْتُها ؛ من تكبّر إبليس على آدم وعدم السّجود ، وكنت مِثل ابن نوح ، ولم أركبْ معه فى السّفينة وقلتُ ماقاله ، وكنتُ مِثلَ فرعون الّذى كفر وبَنَى صَرْحا ليطّلع فيه إلى إله موسى ، وكنتُ مِثلَ الّذين عَكفوا على العجل ، فكفروا بعد الإيمان بموسى ، ومثلَ الّذين اعتَدَوْا فى السّبت من بنى إسرائيل ، وكنت مثل الذين خالفوا طالوت من بنى إسرائيل ، وشربوا من النّهر الذى نَهاهُم عنه ، وكنتُ كقُدَار فى ثمودَ الّذى عَقَرَ الناقة ، وكنتُ كأبْرَهَة بن الصّبّاح صاحب الفيل الّذى قاده لحرب[2] الكعبة ، وكنتُ من جملة قريشٍ الّذين تعاقدوا على مهاجَرة بنى هاشم وبنى عبدِ مناف ، ومنعهم من نكاحِهم ، وبيعِهم وشرائهم ، وكتبوا صحيفةً بذلك ، وعلّقوها فى الكعبة ، وأقامَ رسولُ الله

---

(١) « إكليلا » .   (٢) ط : « لخراب » .

صلى الله عليه وسلم هو وأهله فى الشِّعب محصورين سنتين أو ثلاث ، وكنتُ ممّن تأوّل فى بيعة العقبة ، وكنتُ ممّن نفَر إلى العير ببَدْر ، وكنتُ كابن أبىّ رأس المنافقين الذى انخزل بثلثُ الناس يومَ أُحُد ، وكنت ممّن تخلّف عن صلاة العَصْر فى بنى قُرَيظَة ، وكنتُ ممّن جاء بالإفك على عائشةَ رضى الله عنها ، وكنتُ ممّن أنِف من إمارة أُسامةَ بن زيد ، وقد جَهّزه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى سَرِيّة فيها مثل أبى بكر وعمر ، وكنتُ ممّن قال: إنّما كانت بيعةُ أبى بكرٍ فلتة ، وكنتُ مثل الذى قال : « وَرَوّيْتُ رُمْحِى من كَتِيبةِ خالد» ، وكنتُ مِثْلَ أبى لؤلؤة الذى مَزّق الأديم الّذى باركتْ يدُ الله عليه ، وقتل عمرَ بن الخطاب، وكنتُ ممّن ضَحّى بالأشمط الذى عنوانُ السّجود به ، فقتَل عثمانَ بنَ عفّان ، وكنتُ مثل ابن ملجم قاتل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكنتُ مثل عبيد الله بن زياد إذ كتب إلى عمر ابن سعد أن جَعْجِع بالحسين، وكنتُ مثلَ يزيد ، وقد جرى بالحَرّة ماجرى ، وتمثّل بذلك البيت ، وكنت مثل الحجاج الذى هدم الكعبة بالمنجنيق ، وصلب عبد الله بنَ الزُّبير العائذَ بالبيت . . . لكان فى الذى جرى علىَّ مافيه جزاء وكِفاية ، وكان نَكالا وعِقابا ولو على المجاز .

وقد اختصر هذه الأشياء المعدودة ، والذنوب المذكورة ، وزاد عليها كلَّ مايمكن زيادتُه أبو الطيِّب المتنبِّى ، واختصَرَ هذا ومابعدَه فى بيتٍ واحد ، وهو :

وإن كان ذنبى كلَّ ذَنْبٍ فإنّه محا الذَّنْبَ كلَّ المَحْوِ من جاء تائبا[1]

وقال ابن المعتزّ : رُبَّ ذَنْب مقدارُ العُقوبة عليه إعْلام المُذنب به ، ولا يُجاوز به حدّ الارتياع إلى الإيقاع .

---

(١) ديوانه ١ : ٧١

وأمّا قوله :

* وحَسْبُك من حادثٍ بامرئ * البيت

فهو للعُتْبيّ . وقال فى مثلِ هذا ابنُ عُنَين :

ضَنِيتُ به حتّى رثَتْ لى عَواذلى ورَقَّ لِما أَلقَى العدوّ المناصِب
وما كنتُ ممّن يَستكِين لحادثٍ ولكنّ سلطانَ الهَوَى لا يُغالَبُ

وقال أبو تمّام :

وحَسْبُك حسرةً لكَ مِن صديقٍ يكون زِمامُه بيَدَىْ عَدُوٍّ[1]

وقال أبو الطيِّب :

كَفَى بك داءً أن تَرى الموتَ شافِيًا وحَسْبُ المَنايا أن يكنّ أمانِيَا[2]

[3]ونقلتُ من خطِّ السِّراج الوَرّاق يذُمّ عبدَه :

متلوّن الأخلاق حِرْباوَاتُها[4] وسَوادُه يمتاز منــه القارُ
ويسيء آدابا علىَّ وذأبِىَ الْـ إغضاء عنــه، وذأبُهُ الإصرارُ
وله ذكاء إياس فى حاجاته وإذا قضا لى حاجةً فحِمارُ
ورقادُ أهلِ الكَهف دونَ رُقادِهِ ماجَنّ ليلٌ أو أضاء نَهـارُ
وله فُضُـــولٌ ما لأقمارِ الدُّجَى معـه ولا متحدِّثين سِرارُ
ومُسائلٌ : من ذا ؟ وما هـذا الّذى تحتَ الغطاء ؟ ودار من ذى الدّارُ ؟
ودخولُه بين اللّذَيْن تضارَبا والحُكمْ بينهما وذا مـدرارُ
ومسيرُه لذوِى الفُضول لعـلّه يمتازُ بين القـــوم أو يمتارُ

---

(١) ديوانه ٤٦٦ (٢) ديوانه ٤ : ٢٨١

(٣) من هنا إلى الآخر ساقط من ط.

(٤) جمع حرباء : يريد أن أخلاقه متلونة تلون الحرباء .

ومغيبُه عنّى وإن ساءلتُه فجوابُه لى ضجرةٌ ونِفارُ
وَلَكمْ أقول ولا تفيد مقالتى زنهارُ من حركاته زنهارُ !

* * *

٥٤ — قوله : فكيف ولا ذنبَ إلاَّ نميمةٌ أهْداها كاشحٌ ، ونبأٌ جاء به فاسق .

يريد بذلك : فكيف يصدُر فى حقّى منك هذا كلُّه من الذلّ والإبعاد والجفاء والإقصاء والغضب والإعراض والصدّ ، ولا ذنبَ لى بعد هذا كله إلا نميمةٌ أهْداها كاشح — والكاشحُ الذى يُضمِر لك العداوة — ونبأٌ أتاك به فاسق ، وقد قال الله تعالى : ﴿إنْ جاءكُمْ فاسِقٌ بنَبَإٍ فتبيَّنوا أنْ تصيبُوا قَوْماً بجَهالَةٍ فتُصْبحوا على ما فَعَلْتُمْ نادِمِين﴾[1] ، وقد قرىء : «فتثبّتوا» بالثاء ثالثة الحروف ، وأيضا بالثاء المثلّثة ، و بالباء الموحدة ، و بالتاء ثالثة أيضا .

اغتاب الأعمشَ رجلٌ من أصحابه ، فطلع الرّجل ففمّه ذلك ، فقال بعض أصحابه : أعلمْه بما قلت حتى لا تكون غيبة ، فقال الأعمش : اسكت أنت حتى لا تكون نميمة !

وفى المثل : أنمّ من الصُّبح ، وأنمّ من جلْجل ، كقول الشاعر :

فإنكما يابنىْ جَناب وجدْتُما كمن دَبَّ يستخفِى وفى العنق جُلجلُ[2]

وأنمّ من زُجاجةٍ على ما فيها ، وأنمّ من ذُكاء ، وأنمّ من جَوْزَقٍ جُوالق .
وقال الخفاجى :

أمّا الوُشاة فقد أصابوا عندكُمْ سُوقا ينفِّق كل قولٍ كاذبِ[3]

---

(١) الحجرات ٦ (٢) لأوس بن حجر ، ديوانه ٧٢ .
(٣) ديوانه ٩٤

فَمَلِلْتُم عن صابرٍ ، ورقدْتُم عن ساهرٍ ، وزهِدْتم في راغبِ
وأقلُّ ما حكم الملالُ عليكمُ سوءُ القِلَى وسماعُ قولِ العائبِ

وقد وضع الحريريُّ بعض مقاماته — وهي الثامنة عشر — في النميمة وذمها ، فأجاد فيها ما شاء .

أوصت أعرابيّةٌ ابنها ، وقد أراد السفر ، فقالت : أيْ بُنيَّ ، إياك والنميمة ؛ فإنها تزرع الضغينة ، وتفرّق بين المحبين ، وإياك والتعرّضَ للعيوب ، فتتّخذ غرضاً ، وخليقٌ ألاّ يثبت الغرض على كثرة السهام .

وفي المثل : النميمةُ إرثُ العداوة .

وقال عمر بن أبي ربيعة :

ولما التقينا سلّمتْ وتبسّمتْ وقالت مقال المُعرِض المتجنّبِ (١)
أمِن أجلِ واشٍ كاشحٍ بنميمةٍ مشَى بيننا صدّقْتَه لم تُكذّبِ
قطعتَ حبالَ الوصلِ منّا ومن يُطعْ بذي وُدِّه قولَ المحرِّش يُعتَبِ (٢)

وأحسنَ ابن الساعاتي فقال :

أتتْ فتلاقَى كلُّ شيء ومثله وفود الدُّجى من هامَةِ الأفقِ مسوَدُّ
فجسمي وجفناها ، ووجْدي وردْفُها وقلبي وقُرْطاها ، ودمْعي والعِقْدُ
لقد كتمَ الخلخالُ والقلبُ والدُّجى فنمَّ عليها الشَّعْرُ والحَلْيُ والنَّهْدُ

وقال ابن التِّلِمْسانيّ :

نمَّ بها حَلْيُها ومَبْسَمُها وطيبُ أنفاسِها وواشيها

---

(١) ديوانه ٤٢٧ ، فيه : « مقال المعرض » .
(٢) يعتب ، على البناء للمجهول ، أي يلام .

وأرى أنا أنّ هذا كلّه مأخوذٌ من قول أبي الطَّيِّب :

قَلَقُ المليحة ، وهي مسكٌ هَتْكُها   ومسيرُها في اللّيلِ وهي ذُكاءُ(١)

قيل وما لأبي الحارث : ما تشتهي؟ فقال : أعيُنَ الرُّقباء ، وألسنة الوُشاة ، وأكبادَ الحسّاد ، أخَذ هذا بعضُهم فنظمه :

قال لي عُوَّدِي غداة أتَوْني   ما الّذي تشتهيه ؟ واجتهدُوا بي

قلت : مقلى فيه لسانُ وُشَاةٍ   قطَّعوه فيه بصُنْعٍ عجيبِ

وأضيفت إليه كِبْدُ حَسُودٍ   فُقِئَتْ فوقَها عيُونُ رقيب

وقال آخر :

عندي لكم يوم التّواصُل دعوةٌ   يا معشر الخُلَطاء والنُّدَماء

أَشوِي قلوبَ الحاسِدِين بها وألْـ   ـسنة الوشاة وأعين الرُّقباء

وأنشدني لنفسه إجازةً القاضي زين الدين عمر بن الوردي ، فقال :

لي شَهْوَتان أُحبُّ جَمْعَهما   لو كانت الشّهَوات مَضْمونَهْ

أعْناق عذّالي مدقّقة   ومَفاصلُ الرُّقباء مدْفونهْ

وقلت أنا في هذه المادّة :

بِتْنَا وما نُقلُنا سِوَى قُبلٍ   وريقٌ فيه سُلافُ مَشْروبي

نِمنا وما نمَّتِ الوشاةُ بنا   لولا فضولُ الحلْيِ والطِّيبِ

* * *

---

(١) ديوانه ١ : ١٣ .

٥٥ ــ قوله: وهم الهَمَّازون المَشَّاءون بنَمِيمٍ ، والواشون الذين لايلبثون أن يصدعوا العصا.

هذا تفسيرٌ لما تقدّم ، يعني أنّ هؤلاء ذَكَرهم الله فى القرآن العظيم فى قوله تعالى : ﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾[1].

الهمّاز المُغتاب الّذى يأكل لحومَ الناس بالطّعن عليهم والغيبة.

وقال الحسن: يُلوّى شدْقيه فى أقْفية الناس. والنَّميم والنّميمة واحد، وهو نقل الكلام السيِّئ ، والمعنى أنّه قتّات يَسعَى بين الناس بالنّميمة ليُفسِد مابينهم.

والمراد بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ ﴾[2] الوليد بن المغيرة والأسوَد بن عبد يَغوث والأخنس بن شَرِيق.

وقد جاء فى السنّة النبويّة أحاديثُ كثيرةٌ فى ذمّ النميمة ، منها ماهو متَّفقٌ عليه ، وهو مارواه حُذيفة رضىَ الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنّة نمّام ».

وعن ابن عبَّاس أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بقبرين ، فقال : « إنّهما يعذَّبان ؛ وما يعذّبان فى كبير ؛ أمّا أحدُهما فكان يمشِى بالنَّميمة ، وأمّا الأخرُ فكان لا يستبرِئُ من البَوْل ». وهذا لفظُ إحدى روايات البُخارىّ. ومعنَى « فى كبيرٍ » هنا أنّه صغيرٌ فى زعمهما ، وإلاّ فهو كبيرٌ فى نفسه.

وعن ابن مسعود ، أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أنبّئكم ما العضْه ؟ هى النّميمة ، القالة بين الناس »[3]. رواه مسلم بفتح العين المهملة ،

---

(١) سورة القلم ١١ (٢) سورة القلم ١٠ (٣) صحيح مسلم ٢٠١٢

وسكون الضاد، وبعدها هاء، على وَزْن الوَجْه. ورُوى العِضَة بكسر العين، وفتحِ الضّاد على وزن العِدَة، وهى الـكَذِب والبُهْتان.

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم: «لعن الله المثلث»، فقيـل: يارسول الله، وما المثلث؟ قال: «الّذى يَسعَى بصاحبِه إلى السلطان فيُهلِك نفسَه وصاحبَه وسلطانَه».

وقولُ ابن زيدون رحمه الله تعالى: «والواشون الذين لايلبثون أن يصدعوا العصا»؛ الأصل فيه قول كُثيِّر عَزّة:

لَعَمْرُ أبى الواشِين لاعَمرُ غيرِهِمْ لقد كَلَّفونى خُطَّةً لا أُرِيدُها

ولا يَلبثُ الواشُون أن يصدعوا العَصَا إذا هىَ لم يَصلُبْ على البَرْى عُودُها

كان الخلنجىّ القاضى عبدالله بن محمد، ابن أخت علّويه المغنّى، تيّاهًا صَلِفًا، تقلّد القضاء للأمين. وكان علّويه عدوًّا له، فجرت له قضيَّة فى بَغدادَ، فاستعفى من القضاء، وسُئل أن يولَّى بعضَ الـكُوَرِ البعيدة، فتولّى قضاءَ دِمَشق أو حِمْص، ولما تولّى المأمونُ الخلافةَ غنّاه يوما علّويه بشعرِ الخَلنجىّ، وهو:

بَرِئتُ من الإسلام إن كانَ ذاالذى أتاكِ به الواشُون عنّى كما قالوا

ولـكنّهم لمّا رأوكِ غريّةً[1] بهَجْرى تواصَوْا بالنّميمة واحْتالوا

فقد صِرْتِ أذْنًا للوشاة سَميعةً ينالُون من عِرْضِى ولو شئتِ ماناَلوا

فقال المأمون: مَن يقول هذا الشعر؟ قيل: قاضى دمشق، فأمر المأمون بإحضاره، فأشخِص، وجَلَس المأمونُ للشُّرْب، وأحضِر علّويه، ودعا بالقاضى، فقال: أنشدْنى قولَك: «بَرِئتُ من الإسلام..» الأبيات، فقال: يا أمير

---

(١) غريّة: مولعة، وفى تاريخ الطبرى: «سريعة».

المؤمنين ، هذه أبيات قلتُها منذ أربعين سنةً ، وأنا صَبِيٌّ ، والذى أكرَمَك بالخلافة ، ووَرَّثك ميراثَ النبوّة ، ماقلتُ شعراً منذُ أكثرَ من عشرين سنةً إلاّ فى زهدٍ أوعتاب صَديق. فقال له : اجلس، وناوله قدحَ نبيذ كان فى يدِه[1] ، فارتَعدَ وبَكَى ، وأخذ القدح من يدِه وقال : والله يا أميرَ المؤمنين ، ماغيّرت الماء بشيءٍ قطّ مما يُختلف فى تحليله ، فقال : لعلّك تُريد نَبيذَ التَّمْر ، أو نبيذ الزَّبيب ! فقال : والله يا أميرَ المؤمنين لا أعرف شيئا من ذلك . فأخذَ المأمونُ القَدَحَ من يدِه ، وقال : أما والله لو شربتَ شيئاً من هذا لضربتُ عنقك ، ولقد ظننتُ أنّك صادقٌ فى قولك كلّه ، ولكن لايتولى لىَ القَضاءَ رجلٌ ، بدأ فى قوله بالبراءة من الإسلام ؛ انصرِفْ إلى منزلك . وأمرَ علّويه فغيّر هذه الكلمة ، وجَعَل مكانها : « حُرِمْتُ مُنَاىَ منكِ[2] » .

قلتُ : ماجَرَى للمأمون مع هذا القاضى المسكين على خلافِ المَعْهود من حِلْمه ، ومكارم أخلاقه ، وكان غير هذا الفعل أولى به وبرياسته ، ولكنّه صانَ مَنصِب القضاء ووَقّره وأجَلّه ، فعفا الله عنه . وأمّا هذا القاضى الخلنجىّ رحمه الله فقد اخْتَلَج فى خاطره من الوُشاة ما أضرّ به عند محبوبته وعند الخليفة ، وهذا من كَهانة الشعر ، ومّما يتّفق للشاعر وقوعه بعد مدّة مَديدة . وأمّا علّويه فأعَلّه الله ، ولا أعلى له كعبا ، لقد أضرّ بحالِه ، وعَطّله مِن حَلْيِ القَضاء .

قال الواثق يوما لابن أبى دُواد : قد سعى بك عندى قوْم ، قال : فماقلتَ لهم يا أمير المؤمنين ؟ قال : ماقال صاحبُ عزّة :

وَسَعَى إلىَّ بعَيْبِ عَزّةَ نِسوَةٌ   جَعَل الإله خُدُودَهُنّ نعالَهَا

---

(١) فى الأغانى : « قدح نبيذ التمر أو الزبيب » .

(٢) الخبر فى الأغانى ١١ : ٣٣٩ ، ٣٤٠ . وتاريخ الطبرى ٨ : ٦٥٦ .

ونقلتُ من خطّ القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر قوله :

يامن يَنِمُّ ولا يُقسِّمُ اللهُ معه ماخشى
مافى اُقتدارِك أنْ تشا ءَ، وفى اقتدارِك أنْ تشى

وقال أبو سعيد الرّستمىّ :

مالى وللواشينَ ، لا يَهديهمُ ما نمنموه من النّميم وزخرفوا
أعياهُمُ سَبب التّهاجرِ بيننا فتقاءلوا لى بالفراق وأرجفوا!

وقال ناصر الدين حسن بن النقيب :

صدّتْ وعلّمتِ الصدودَ خيالَها فحُرِمْتُ حتّى فى المنام خيالَها
مازالَ واشِيها بزُورِ حديثهِ فأصدّها عن عهدِها وأحالَها
وسعَى فغيّرها وغيّر فى الهوى أخلاقها وطباعها وخِلالَها

وقال غيرُه :

يانازحًا بودادِه لمّا وَشَى واشٍ ، وليس من الفؤاد بنازحِ
ما كان أحسنَ شَمْلَنا ونِظامَه لو لم تكن تُصْغِى لقولِ الكاشح
إنّى لأعْجبُ كيف يعزبُ عنك ما أضمرْتُ فيكَ وأنت بينَ جوانِحى

وقال أبن الساعاتى فأحسن :

ثلاثةٌ منعتْها مِن زيارتِنا إذا دَجَى الّليلُ خوفَ الكاشحِ الحَنِقِ
ضوءُ الجبينِ ، ووَسْواسُ الحُلِىّ ، وما تُبديه من عَرَقٍ كالعنْبرِ العَبِقِ
هَبِ الجبينَ بِفضْلِ الكمّ تستره والحَلْىَ تنزَعُهُ ، ما الشأنُ فى العَرَقِ !

وقال عُمارة اليَمَنىّ :

واهًا لِما نطَقَ الواشون كمْ أُذنٍ سَعَى إليها بترْداد المُحالِ فَمُ

ونقلتُ من خطّ السِّراج الورّاق :

كتمَ الزيارةَ فى الدُّجى فضياؤُه ... وحُلِيُّه وشَذاه؛ كلٌّ قد وَشَى
وكتمتُ وَجْدى فيه لولا أدْمُعٌ ... نَمَّت بما أُخفيه حتّى قد فشَا

* * *

٥٦ — وقوله : والغُواة الَّذِين لا يتركون أدِيماً صَحِيحاً .

يشير بذلك إلى قول القائل :

ولا تُفْشِ سرّك إلاّ إليكَ ... فإن لكلِّ نَصيحٍ نَصيحَا
فإنى رأيتُ غُواةَ الرِّجا ... ل لا يَتْركون أدِيماً صَحِيحا

وبعضُ النّاس يَزْعُم أنَّ هذين البَيْتين لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، والصحيح أنه كان يتمثّل بهما كثيراً .

والغواة : جمع غاوٍ ، وهو اسمُ فاعلٍ من الغَىّ ، وهو ضدّ الرُّشْد .

وقوله : « لا يتْرُكون أديماً صحيحا » ، أى لا يدَعون جِلْداً صَحِيحا ، بل يفرونه ويُمزِّقونه .

وقد جمع الأمير تميم بن المعزّ جماعة ممن ينكر على المحبّ ، فقال :

أوانسُ فى أثوابهنّ وفى المُلاَ ... غصونٌ ، وفى تَنْقيبهنّ بدُورُ(١)
فهنّ المُنَى لولا رقيبٌ وحاسدٌ ... عدوٌّ وواشٍ كاشحٌ وغَيورُ

وقال أمير المؤمنين القائم بأمر الله :

جُمِعتْ لدىّ من الغرامِ عَجائبٌ ... خلّفن قلبى فى إسارٍ مُوحِشِ
خِلٌّ يَصُدّ ، وعاذِلٌ متنصِّحٌ ، ... ومعاندٌ يؤذِى ، ونمّام يَشِى

---

(١) ديوانه ١٢٢.

وما أحسن قول ابن الخيّاط :

فلا تَعدِل إلى الواشين سَمْعًا ... فإنّ كلامَ أكثرِهِمْ كِلامُ[1]
وإنّ الودّ عنـدهمُ نِفاقٌ ... إذا طاوَعْتَهم والحمـــدَ ذامُ
وللأقوالِ إن سُمِعتْ سِهامٌ ... تُقصِّر عن مواقِعِها السِّهامُ
فما نُصْحًا لمجْدِك بل مرادًا ... لمـا قد ساءني قَعدوا وقامُوا
فليتَكَ تَسمعُ القولَين حتّى ... يُبيّنَ في مَن الحقُّ الخصامُ

وقول ابن عطية :

لاتسمعنّ من الحسودِ نَميمةً ... فـكلامُه ضَربٌ من الهَذَيانِ
إن كان قد أَوْحَى إليكَ تَخرُّصًا ... فالناسُ قد كَذَبوا على الرَّحمٰنِ
سلْ غَيره عنّي لتَعْلَمَ إفْكَهُ ... واسخَطْ عليه ، فبالمُحالِ رَماني
لايثْبت الحق المبين لحاكمٍ ... في الحقّ حتّى يَنطِقَ الخصْمانِ

* * *

(١) ديوانه ١٧٩ ، ١٨٠

٥٧ ــ وقوله: والسُّعاة الذين ذكرهم الأحنف بن قيس، فقال: ما ظنّك بقومٍ الصدق محمود إلا منهم!

السُّعاة: جمعُ ساعٍ، مِن السَّعى، وهو الحركة مطلقا، ولكن قد غلب هذا فى العُرْف على مَنْ يذكُر النَّاس بالسُّوء، وهو الَّذى يريد للناس المواقع.

أنشدَنى لنفسه إجازةً شيخُنا الإمام شهاب الدين أبو الثَّناء محمود رحمه الله تعالى، من قصيدةٍ مَدَح بها الصاحب تاج الدين محمد بن حنا:

خَرِسَ السُّعاةُ وكان قبلَ زَمانِهِ ... لِكَلا مِهِمْ بينَ الضُّلوعِ كِلامُ
وتجنَّبوا سُوقًا إلى سوقٍ به ... نَفَق الصَّلاح وبارَتِ الآثام

وما أحسنَ قولَ القائل:

سعَى إليكَ بِىَ الواشِى فلم تَرَنِى ... أهْلا لتكذيبِ ما ألقى من الخَبَرِ
ولو سَعَى بكِ عِندى فى ألَذِّ كَرًى ... طَيفُ الخيالِ لبِعْتُ النومَ بالسَّهَرِ

وقد وَضَع لهذين البيتين شيخُنا شهاب الدِّين محمود رحمه الله بيتين أوَّلَين وهما قولُه:

يا مُلزِمى بذنوبٍ ما أحطْتُ بها ... عِلمًا، ولا خطَرتْ يومًا على فِكَرِى
صدَّقْتَ فىَّ أباطيلَ الظنون وكم ... كذَّبتُ فيكَ يقينَ السَّمْعِ والبصرِ

وأمَّا قولُ الأحنَف بن قيس: «ما أقولُ فى قومٍ الصدْقُ محمودٌ إلاَّ منهم» فهذا قول (١ فى غاية البلاغة الجامعة لضروب من المعانى، لأن هذا غاية فى ١) الذمّ للسُّعاة، لأنهم يُذمّون بما يُحْمَد به الناس؛ لأنَّ هؤلاء لمّا تعاطَوا هذا

(١ ـ ١) ساقط من ط.

الصِّدْق الّذى أجمع الناسُ على مدحه ، ومدَحَه اللهُ ورسوله[1] وأكابرُ النّاس وعلماؤهم ؛ وتَلَبّس به هؤلاء الأنذال الأوْباش صار مَذْموما عند العقلاء والرُّؤساء ؛ وصِدْق هؤلاء السعاة مذموم ، وكَذِب الشعراء محمود .

قال بعضُهم فى وصف الشعراء : ما ظَنُّك بقومٍ الاقتضاء[2] محمودٌ إلاّ منهم ، والكَذِب مذمومٌ إلاّ منهم .

ودَفَع بعضُ السُّعاةِ إلى الأمير[3] السَّفّاح قصّةً بسعاية على بعض عُمّاله ، فوقّع فيها : « هذه نصيحةٌ[4] لم تُرِدْ بها ما عندَ الله ، ونحن لا نَقبَل قولَ من آثَرَنا على الله » .

وكَتَب بعض شُهود الأهْواز إلى الوزير أبى الفَرَج محمّد بن جعفر : قد مات فلان ، وخلّف خمسين ألفَ دينار عَيْنا ، ولم يُخلِّف غيرَ طِفْلة ، فإنْ رأى استعراضَ المالِ إلى أن تَبلُغ الطِّفلة ، ففي عَقارها وأملاكها كفاية ! فوقّع على ظَهر كتابه : « الطفلةُ جَبَرها الله ، والمالُ ثَمّره الله ، والساعِى لعَنه الله ، لا حاجَة للسُّلطان إلى المال » .

ولما وُلّىَ عبد العزيز بن عبد الملك دِمَشق ، ولم يكن فى بنى أميّة ألَبُّ منه فى حَداثةِ سِنّه ؛ قال أهلُ دمشق : هذا غلامٌ شابٌّ ولا عِلْمَ له بالأمور ، وسيَسْمع مِنّا . فقام إليه رجلٌ فقال : أصلَح الله الأمير ! عندى نَصِيحة ، فقال : ليتَ شِعرى ، ما هذه النَّصيحة الّتى ابتدأتنى بها من غير يدٍ سَبَقتْ منّى إليك ! قال : جارٌ لى عاصٍ ، مخلّف معه[5] . فقال : ما اتقيْتَ الله ، ولا أكرَمْتَ أميرَك ، ولا حفِظْتَ جارَك ، إن شئت نظَرْنا فيما تقول ،

---

(١) ط : « رسله » .

(٢) م : « الاقتصاد » .

(٣) ط : « أمير المؤمنين » .

(٤) ط : « النصيحة » .

(٥) م : « فيه » .

فإن كنتَ صادقا فيما قلتَ لم ينفعك ذلك عندنا ، وإن كنت كاذبًا عاقبناك ، وإن شئتَ أقلناك ؛ قال : أقِلْنى ، قال : اذهبْ حيثُ شئتَ ، لاصحبكَ الله ! إنّى أراكَ شرَّ رجل . ثمَّ قال : يا أهلَ دِمَشق ؛ لولا أنه لاينبغى للوالى أن يُعاقِب [(١)] قبلَ أن يعاتِب ، كان لى فى ذلك رأى ، فلا يأتنى أحدٌ منكم بِسعايةٍ على أحدٍ بشىء ؛ فإن الصادق فيها فاسق ، والكاذبَ فيها بهّات .

وحُكِى أنَّ أميرَ المؤمنين القادرَ بالله أحمد ، بينما هو ذاتَ ليلةٍ يمشى فى أسواقِ بَغدادَ إذْ سَمِع شخصا يقول لآخَر : قد طالت علينا دولةُ هذا المشئوم ، وليس لأحدٍ منّا عندَه رِزْق . فأمر خادما كان بين يديه أن يتوكَّل به ، ويجهِّزَه بين يديه ، فسأله عن صفته [(٢)] فقال : إنّى كنتُ من السُّعاةِ الّذين يستعين بهم أربابُ هذا الأمر على معرفةِ أحوالِ النّاس ؛ فمذْ وَلِىَ أميرُ المؤمنين أقْصانا ، وأظهر الاستغناء عنّا ، فتعطّلتْ معيشتُنا ، وانكسَر جاهُنا عند الناس ؛ فقال : أتعرِف من فى بَغدادَ مِن السُّعاة ؟ قال نعم : فأحضر كاتبا فكَتبَ أسماءهم ، وأمر بإحضارهم . ثم إنه أجرَى [(٣)] لكلّ واحد معلوما ، ونفاهم إلى الثُّغور القاصية ، ورتّبهم هنالك عيونًا على أعداء الناس ، ثم الْتفَت إلى مَن حولَه ، وقال : اعلَموا أنَّ هؤلاء ركَّب اللهُ فيهم شرًّا ، وملأصدورَهم حِقْدا على العالم ، ولا بدّ لهم من إفراغ ذلك الشرّ ؛ فالأوْلى أن يكون ذلك فى أعداء الدِّين ، ولا يُنغَّص بهم على المسلمين .

قلتُ : وأعرِف نظيرَ هذه الواقعة [واقعة] [(٤)] ، اتفقتْ للسلطان المَلِك

---

(١) كذا فى ط ، م ، وفى الأصل : « يعاقب » .

(٢) ط : « صنعته » .

(٣) ط : « وأجرى » .

(٤) من ط .

الناصرِ محمد بن قَلاوون رحمه الله ، وهو أنَّه حضر فى سنة ثمانٍ وعشرين وسبعمائة تاج الدين كاتب الفتاح أو غيره ، إلى الأمير علاء الدين مُغْلطاى الجَمالى ، لمَّا كان وزيرا ، وذكر عنده أناسا [معروفين](١) بكلّ قبيح ، والتزم(٢) فيهم جملةً من الذهب إذا صُودِروا ، وأُخِذَتْ منهم وظائفهم . فدخل الجَمالىّ إلى السلطان وحَكى له ماقاله ، فقال : أحضِره ، فلمَّا استحضَرَه سَمِع كلامه ، وقال له : هل لك عِلمٌ بأحدٍ فى القاهرة يَعرف شيئا من هذه الأحوال؟ فقال : نعم ، جماعة ، وعدّهم . فقال للوزير : خذ هذا عندك واستحفظ به(٣) ، وأَحسِن إليه ، وإذا أَحْضَرَ إليك كلَّ هؤلاء الَّذين ذكَرَهم عَرِّفْنى بهم . فخرجا من عنده ، وذكر له جماعةً وهو يُحْضرهم إلى أن لم يَبق منهم أحد ، ودخل على السلطان وعرَّفه بهم ، فقال : اخرج الآنَ فى هـذه الساعة ، وجَهِّز الجميع إلى قوص ، ولا تدَعْ أحدا منهم فى القاهرة فإنَّ هؤلاء مَناحيس ، يرافعون الناس ، فنفاهم أجمعين .

قال معاويةُ يوما للأحنف بن قيس فى أمرٍ بلغه عنه ، فأنكرَ الأحنف ؛ فقال له معاوية : الثِّقَة بلَّغنى عنك ، فقال : الثِّقة لايبلِّغ .

ووقّع ذو الرياستين فى رقعة ساعٍ(٤) : « نحن نَرَى قَبولَ السِّعَايةِ شرًّا منها ؛ لأن السِّعاية دلالة ، والقبولَ إجازة ، وليس من دَلَّ على شىء وأَخبَرَ به ، كمن قبِلَه وأَجازَه ، فاتَّقوا السَّاعِيَ ؛ فإنَّه لوكان فى سِعايته صادِقًا لكان فى صِدْقه آثما إذ لم يحفظ الحُرْمة ، ولم يستر العَوْرة » .

ولـمَّا قبضَ أميرُ المؤمنين المستظهر بالله على الوزيرِ أمينِ الدّولة بن

---

(١) من د
(٢) م : « ألزم » .
(٣) ط ، د : « واحتفظ به »
(٤) ساقطة من ط .

جُهَير ، كتب إليه بعضُ الأشرار سِعايةً في الوزير ، وأغراه به غايةَ الإغراء ، فكتَب المستظهِرُ على الرقعة :

غير ما طالبين ذَحْلا ولـكن   مالَ دَهرِى على أناسٍ فمالُوا

وقال رجل المهدىّ : عندى لك نصيحةٌ ياأميرَ المؤمنين ، قال : لمن هىَ؟ لنا أمْ لعامَّة المسلمين أم لنفسك ؟ قال : لك يا أمير المؤمنين ، قال : ليس الساعى بأعظمَ عورةً، ولا أقبح حالا من قابلٍ سِعايته ، ولا تخْلو من أن تكون حاسدَ نعمة ، فلا نَشفِى غَيْظك ، أو عَدُوًّا فلا نُعاقِب لك عدوّك . ثمّ أقبل على النّاس فقال: لا يَنْصحْ لنا ناصحٌ إلاّ بمافيه رِضَا الله ، وَللمسلمين فيه صلاح ، فإنّما لنا الأبدان ، وليس لنا القلوب ، ومن استَتَر لم نكتشف له[1] ، ومن أخطأ أقَلْنا عَثْرتَه ، إنّى أرَى التّأديب بالصّفح أبلَغَ منه بالعقوبة ، والسّلامة مع العَفْو أكثر منها مع المُعاجَلة ، والقلوب لاتبقى لوالٍ لا ينعطف إذا استُعطف ، ولا يَعفو إذا قدر ، ولا يغفر إذا ظفِر ، ولا يَرحَم إذا استُرحم .

قلت : وقد كان الأمير سيف الدين سلار رحمه الله إذا جاءه أحد رانع في كتّابه والمباشرين الذين في بابه ، قال : هؤلاء قد أخذوا وشبعوا ، لاتغيّروهم ؛ فإن الذى يأتى من بعدهم يكون جوعان . وما ألطف قول البهاء زهير وأرقّه ! قال :

حبيبىَ ما هذا الجفاء الذى أرَى   وأين التغاضِى منكمُ والتعطُّفُ[2]
لكَ اليومَ أمر ـ لا أشُكّ ـ يَريبُنى   فما وَجْهُك الوجهُ الذى كنتُ أعرف
نعم نَقَل الواشُون عنِّىَ باطلا   ومِلْتَ لِما قالوا ، فزادوا وأسرَفوا
كأنك قد صدّقتَ فىّ حديثَهم   وحاشاكَ من هذا ، فخُلْقُك أشرف

---

(١) ط : « نكشفه »   (٢) ديوانه ٩٧

وقد كان قولُ النَّاسِ فى النَّاس قَبْلنا فـكُذِّب يعقوبٌ ، ومُزِّق يُوسُفُ
بعَيْشِك قل لى ما الذى قد صَنَعْتَه فإنكَ تدرى ما أقولُ وتُنصِف
فإن كان قولا صَحَّ أنِّىَ قلتُه فللقول تأويلٌ ، وللقول مَصرفُ
وهبْ أنه قولٌ من الله مُنزَلٌ فقد[1] بدَّلوا التَّوراةَ يوما وحرفوا[2]
وها أنَا والواشى وأنت جميعنا يكون لنا يومٌ عظيمٌ وموْقف

وما كلُّ ساعٍ ولا كلُّ نَمّام مثل ساعى سيف الدين بن المشدّ بن قُزُل حيث يقول :

ومَجلسٍ راقَ من واشٍ يكدِّرُه ومن رقيب له فى اللوم إيلام
مافيه ساعٍ سِوَى السَّاق وليس به على النَّدامَى سِوَى الريْحان نمّامُ

وأنشدنى صفىّ الدين لنفسه إجازة :

أقول وطرف النرجس الغضّ شاخصٌ إلينا ، وللنمّام حولىَ إلمامُ
يارب حتّى فى الحدائق أعينٌ علينا وحتّى فى الرياحين نمّام !

وقلتُ أنا :

قلت وقد أصبحتُ فى رَوْضةٍ بها حبيبى قد قَضَى دَيْني
بالله يا منْثورَنَا لاتشر بإصبَعٍ قَطُّ إلى البَيْن
وأنتَ يانَرْجسُ غمِّضْ ولا تُغامِز النَّمَّامَ بالعَيْنِ

وقد ذكر ابن المعتز أمثالَ هذه الجماعة الذين ذكرهم ابن زَيْدون فى هذا الموضع ، فقال من أبيات :

قومٌ همُ كَدَرُ الحياة وسُقْمُها عرض البلاء بهم علىَّ وطالا[3]
يتآكلون ضغينةً وخيانةً وَيَرَوْن لحْمَ الغافلين حَلالا
وهمُ فِراش الشَّرِّ يومَ مُلِمَّةٍ يتهافتون تَعاشيا وخَبالاَ

---

(١) الديوان : « وقد » . (٢) ط : « وحفورا » .
(٣) ديوانه ٢ : ٢٠ (مطبعة المحروسة) .

وهمْ غرابيلُ الحديثِ إذا وعَوْا سِرًّا تقطَّرَ منهمُ أو سالا

ولمّا اتّصل ابنُ زيدون بخدمةِ المعتمِد بن عبّاد ، وتمكّن منه ، وحسُنت حالُه عنده ، ألقى إليه بعضُ الحَسَدة رقعةً فيها مكتوب :

لا تتركنْ للناسِ موضعَ شُبْهةٍ واحزمْ فمثلُك في العظائمِ يَحزِمُ [(١)]

قد قال شاعرُ كِندةٍ فيما مضى بيتًا على مَرِّ الليالي يعلمُ :

لا يسلَمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتّى يُراقَ على جوانبِه الدّمُ

فوقّع المعتمِد على ظهرِها :

كذبتْ مُناكم، صرّحوا أو جمجِموا الدِّينُ أمتنُ ، والسجيّةُ أكرمُ [(٢)]

حاولتُمُ تضييقَ صدرٍ لم يضِقْ والسُّمْرُ في ثُغَرِ الصُّدورِ تحطَّمُ

وزحفتمُ بمُحالِكم لمجرَّبٍ ما زالَ يثبُتُ للمُحالِ فيَهزِمُ

أنّى رجوتم غدرَ من جرّبتمُ منه الوفاءَ وجَوْرَ من لا يظلِمُ !

أنا ذلكم ، لا البغيُ يُثمِرُ غرسَه عندي ، ولا مَبْنى الصنيعةِ يُثلَمُ

وبلغ ذلك ابن زيدون ، فصنع قصيدةً للمعتمِد رحمه الله يشكره فيها ، منها :

قلْ للبُغاةِ المُنتضين قِسيَّهم ستَرَوْن مَن تُصْميه تلك الأسْهُمُ [(٣)]

أسررتمُ فرأى نجيَّ غُيوبِكم شيْحانُ مدلولٌ عليه مُلهَمُ [(٤)]

وهذا الفصل من قوله : « فكيف إلاّ نميمةٌ أهداها كاشح . . . » ، إلى آخره ، قد استعملَ مثلَه ابنُ زيدون في رسالةٍ أخرى ، كتبَ بها ، وهي طويلة [(٥)] ، جاء منها : « والله ما استجزتُ هذا بعد أن هتكتَ من ستري ما هتكتَ ، وانتهكتَ

(١) من قصيدة في ديوان ابن زيدون ٣٠٦ ، ٣١١ .

(٢) قلائد العقيان ١٧ .

(٣) ديوانه ٣١٤ .

(٤) الشيحان : الحازم الشجاع .

(٥) من رسالته البكرية التي كتبها إلى أستاذه وصديقه أبي بكر مسلم بن أحمد عاتبا ، وشارحا موقفه ؛ وهي في الذخيرة ١ : ٣٠٥ ، وهي أيضا في ملحق ديوانه ٧٤٣ .

من حُرُماتِي ما اُنتهك ، إذ كنت أقولَ معذورا ، وأنفثُ مَصْدورا[١] ، فكيف ذاك ، ولم يَحْدث سبب ، ولا عَرَض من موجِب !

* ومالى وإهداء الخَنى ثمَّ ماليا *[٢]

و ﴿ ستُكتَب شهادتهم ويُسألون ﴾[٣] . وليست هذه ببكْرٍ من النمائم التى دُخِلَ بها بين العصا ولِحائها[٤] .

فإنِّى رأيت غُواةَ الرجا ... ل لا يَترُكون أديمًا صحيحًا[٥]

* * *

ومَنْ يأذَنْ إلى الواشِين تُسلقْ ... مَسامِعُه بألسنةٍ حِدادِ[٦]

ويا سيدى :

لو بغير الماء حَلْقِي شَرِقٌ ... كنتُ كالغَصَّان بالماء اعتِصارِى[٧]

واللهِ ما توهَّمتُ أنى أولى ممَّن يَزعُم أنى أتيت منه ، مع اتصالى به وانقطاعى إليه ، وارتسامى بالتأميل له ، والتعويل عليه .

---

(١) المصدور : المريض بصدره .

(٢) لصخر بن عمرو ، أخى الخنساء ، وصدره :

* وَقَالُوا أَلاَ تهجُو فوارسَ هاشمٍ *

وبعده :

أبىَ الْهَجْوَ أنى قدَ أساءوا كريمتِي ... وأنْ ليس إهداء الخنا من شِماليا

(٣) سورة الزخرف ١٩ .

(٤) اللحاء : القشرة ، وأصله من المثل : « لاتدخل بين العصا ولحائها » ، أى قشرتها .

(٥) قبله :

ولا تُفْشِ سِرَّكَ إلاَّ إليكَ ... فإنَّ لكل نصيحٍ نصيحا

والبيتان ينسبان لعلى بن أبى طالب .

(٦) لأبى تمام ، ديوانه ٨١ .

(٧) لعدى بن زيد ، وانظر الأغانى ٢ : ١١٤ .

* إنَّ المعارفَ فى أهل النُّهى ذِمَمُ *[1]

وقال ابن زيدونَ من جملة قصيدة :

كأن الوُشاةَ وقد بُليتُ بإفْكِهِمْ ... أسباطَ يعقوبٍ وكنتَ الذِّيبَا[2]

* * *

٥٨ — وقوله :

حلفتُ فلم أتْرُكْ لنفسِكَ ريبةً ... وليْس وَراءَ الله لِلمرءِ مَذهَبُ

هذا البيتُ من جملةِ أبياتٍ قالها النّابغةُ الذُّبْيانىّ — واسمُهُ زِياد بن مُعاوية — يَعتذِر فيها إلى النعمان ويَمدَحه ، أوَّلُها :

أتانى أبيتَ اللّعنَ أنك لُمْتَنى ... وتِلْكَ التى أهتمُّ منها وأنْصَبُ[3]

فبتُّ كأنَّ العائداتِ فرَشْنَ لى ... هَرَاساً به يُعلَى فِراشى ويقشَبُ[4]

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً ... وليسَ وراءَ اللهِ للمرء مَذهَبُ

لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عَنّى خِيانةً ... لَمُبلِغُك الواشى أغشُّ وأكذَبُ

ولكنَّنى كنتُ امْرَأً لى جانبٌ ... من الأرض فيه مستَرادٌ ومَذهَبُ[5]

ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما مدحتُهمْ ... أحكَّمُ فى أموالهم وأقرَّبُ

كفِعلِك فى قومٍ أراكَ اصطنعتَهم ... فلم ترَهُمْ فى شكر ذلك أذنَبُوا

عن الشّعبى ؛ قال عمرُ رضى الله عنه : من أشعَرُ الناس ؟ قالوا : أنتَ أعلم يا أميرَ المؤمنين ، قال : من الذى يقول :

---

(١) للمتنبى ، ديوانه ٣ : ٣٧٠ ، وصدره :

* وبيننا لو رعيتمْ ذاك معرفةٌ *

(٢) ديوانه ٣٣١ .

(٣) ديوانه ١٢ . وأبيت اللعن : أبيت أن تأتى أمراً تلعن عليه ، والنصب : الإعياء .

(٤) العائدات : الزائرات الإنسان فى المرض . الهراس : نبت له شوك كثير . ويقشب : يخلط ويجدد .

(٥) مستراد ومذهب ، أى إقبال وإدبار .

إلاَّ سُليمانَ إذ قال الإلهُ لهُ قمْ فى البريّة فاحدُدْها عن الفَنَد (١)
وخَيِّسِ الجِنَّ إنِّى قد أذنْتُ لهم يَبْنون تَدْمُرَ بالصُّفَّاح والعَمَد (٢)

قالوا : النابغة ، قال : فمَن الذى يقول :

أتيتُكَ عارياً خَلَقاً ثِيابى على خوفٍ تُظَنُّ بِيَ الظُّنونُ (٣)

قالوا : النابغة ، قال : فمَن الّذى يقول :

حلفتُ فلَمْ أترك لنفسِك ريبةً وليس وراءَ اللهِ للمرءِ مَذهَبُ

قالوا : النابغة ، قال : فهو أشعَر العَرَب .

وقد سَمّى الجاحظ هذا النوعَ من البديع بالمَذْهب الكلامىّ .

وزعم ابنُ المعتزّ أنه لا يوجد منه شىء فى الكتاب العزيز . وهو كثيرٌ فيه إلى الغاية ، ومنه قولُه تعالى : ﴿لو كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدَتا﴾(٤) ، وقولُه : ﴿ما اتَّخَذَ اللهُ من وَلَدٍ وما كانَ مَعَهُ مِن إلهٍ إذاً لَذَهَب كلّ إلهٍ بما خلق...﴾(٥) الآية ، وقوله تعالى : ﴿وهو الّذى يَبْدأ الخلْقَ ثمَّ يُعيدُه وهوَ أهْوَنُ عليه﴾(٦) ، وقوله تعالى : ﴿وحاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ إلى قوله : ﴿وتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إبراهيمَ على قَوْمِه﴾(٧) .

والنابغة كانَ يَتحدّث مع النُّعمان فى هذه الأبيات ، فيقول : أنتَ أحسنتَ إلى قومٍ فَمَدحوكَ ، وأنا أحسَنَ إلىَّ قومٌ فمَدَحْتُهم ، فكما أنَّ مَدْحَ أولئك لا تعدّه ذَنْباً ، فكذلك مَدحى لمن أحسنَ إلىَّ لا يكون لى ذَنْباً عندَك .

---

(١) ديوانه ٢١ . والفند : الظلم ، وفى بعض روايات الديوان « فازجرها عن الفند » .
(٢) خيس ، أى ذلل ، ومنه سمى السجن « مخيساً » .
(٣) ملحق ديوانه ، العقد الثمين ١٧٦ . (٤) سورة الأنبياء ٢٢ .
(٥) سورة المؤمنين ٩١ .
(٦) سورة الروم ٢٧ .
(٧) سورة الأنعام ٨٠ ــ ٨٣ .

وقد رُوِى عن ذى النُّون المِصرىّ ، عن مالك بن أنس ، عن أبى الزُّبير ، عن جابر ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « من تُنُصِّل إليه ، ولم يَقْبَل لم يَرِدْ علىّ الحَوْض » .

وسَخِط هارونُ الرشيدُ على حُمَيد الطُّوسىّ ، فدعَا له بالنِّطع والسَّيف ـ وهو واقف ـ فلمّا أُخِذ من بين يديه ليُضرَب عنقُه ، بَكى حُمَيد ، فقال هارون الرشيد : ما يُبكيك ؟ أجزعاً من الموت ! قال : لا ، ولكن بكيتُ لأن أخرُج من الدنيا وأميرُ المؤمنين علىّ ساخط ! فضَحِك هارونُ الرّشيد ، وأنشد :

* إنّ الكريم إذا خادَعْتَه انْخَدَعا *

ثم أنه وهبه للحَسَن بن قحطبة . وذكرتُ هنا بقوله :

* إنّ الكريم إذا خادعتَه انْخَدَعا *

قضيَّةٌ جرت لأبى الحُسَين الجزار ، وهى أنه توجَّه مرةً إلى عند ابن يَغْمُور بالمحلّة ، وأقام عنده مدّة ، ثم إنّه أعطاه وزوّده[1] ، وجاء ليودّعه ، فاتّفق أن حضرَ فى ذلك الوقتِ وكيلٌ لابن يغمور على إقْطاعه ، فقال له : ما أحضرْت ؟ قال : كذا وكذا درهما[2] ، فقال : أعْطِه للخازِنْدار ، قال : وكذا وكذا غَلّة ، فقال : احمِلْها إلى الشونة ، قال : وكذا وكذا خروفاً ، فقال : أعطِها الجَزّار ، فقام الجزّار وقبّل الأرض ، وقال : يامولانا ، كم إحسان وكم تفضّل[3] ! فتبسّم ابن يغمور وانْخَدَع ، وقال : خُذْها .

ومِثل هذا البيت الذى أورَدَه ابنُ زَيْدون ، قولُ العبّاس ابن الأحنف ، وهو :

---

(١) ط : « ورده » .
(٢) د ، م : « دراهم » .
(٣) ط : « كم وكم تتفضل » .

ألا جَعَل الله الفِدَى كلّ حُرَّةٍ لفوز المُنَى إنّى بها لَمُعذَّبُ[1]
فما دونَها فى النّاس للقَلْب مَطْلَبٌ
ولا خلفَها للقَلب فى النّاس مذهَبُ

* * *

٥٩ — وقوله : والله ما غششتُك بعد النصيحة .

الغِشّ خلاف النُّصح ، كأنّه شىءٌ غَطّى عليه . والنُّصح ضد ذلك . والنصح : الإخلاص ، والناصح : الخالصُ من العَسل . والغِشّ أمرٌ مذمومٌ منهىٌّ عنه ؛ وعن أبى هُرَيرة رضى الله عنه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « من حَمَل علينا السِّلاح فليس منّا ، ومن غَشَّنا فليسَ مِنّا » رواه مسلم[2] .

وفى رواية : إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مرّ على صُبْرة طعام ، فأَدخَلَ يدَه فيها ، فنالت أصابِعُه بَلَلا ، فقال : ما هذا ياصاحبَ الطّعام ؟ قال : أصابتْنا السماء يارسولَ الله ، قال : « أفلا جَعَلْتَه فوق الطّعام حتّى يَراه الناس ! من غَشّنا فليس منّا »[3] .

والنصيحة أمرٌ واجب ، قال الله تعالى إخبارا عن نوحٍ عليه السلام : ﴿ وأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾[4] ، وعن هود عليه السلام : ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾[5] .

---

(١) ديوانه ١٣ .
(٢) صحيح مسلم ٩٩ . والصبرة : الكومة المجموعة من الطعام .
(٣) م : « فأصابت » (٤) الأعراف ٦٢ . (٥) الأعراف ٦٨ .

وفي مُسلِم عن أبي رُقَيَّة تميم بن أوس الداريّ رضيَ الله عنه ، أنَّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، قال : « الدين النَّصيحة » ، قلنا : لِمَن ؟ قال : للهِ ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامَّتهم »(١) .

وفي البخاريّ ومسلم ، عن جرير بن عبد الله رضيَ الله عنه ، قال : بايعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة ، وإيتاء الزَّكاة ، والنُّصْح لكلّ مُسلم .

وفيهما عن أنَس رضيَ الله عنه ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « لا يُؤمن أحدُكم حتَّى يُحبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه »(٢) .

حُكي أن القاضيَ الفاضلَ رحمه الله توجَّه يوما إلى دار العماد الكاتب ، فوجد آثارا أنْكرها الفاضل من آلات مجالس الأُنْسِ ، فأنشده :

ما ناصَحَتْك خفايا(٣) الوُدِّ من أحدٍ
ما لَمْ يَنلْكَ بمكروهٍ من العَذَلِ

مَحَبَّتي فيكَ تأبَى أن تسامِحَني
بأن أراكَ على شيءٍ من الزَّلَلِ

فاستحيَا العمادُ الكاتب رحمه الله ، ولم يَعاوِدْ ما كان عليه من تلك الحال .

حُكي عن محمد بن المثنى بن الأجدع الهَمْدانيّ ، قال : دفع لي الحجاج أزاد مرد بن الهربد ، وأمَرَني أن أستخرج منه مالا وأُغلظ عليه ، فلمّا انطلقتُ به قال : يا محمّد ، إنَّ لك شرفا ودِينا ، وإني لا أُعطِي على القَسْر شيئا ، فاستأدِنِي وارفق بي . قال : ففعلتُ ذلك ، فأدَّى إليَّ في أسبوع واحدٍ

---

(١) صحيح مسلم ٧٤ .
(٢) صحيح مسلم ٦٧ .
(٣) ط : « خبايا » .

خمسمائة ألف . فبلغ ذلك الحجّاج فأغضبه وانتزعه من يدى ، ودفعه إلى رجل غيرى ، فدقّ يديه ورجليه ، فلم يعطهم شيئا . قال محمد بن المثنى : فإنى لأمرّ يوما فى السّوق ، إذا صائح بى : يا محمد! فالتفتّ إليه ، فإذا به معرّضا على حمار مدقوق اليدين والرّجلين ، فملت إليه ، فقال : إنك وليت منى ما ولى هؤلاء فأحسنت ، وإنهم صنعوا بى ما ترى ، ولم أعطهم شيئا ، وها هنا خمسمائة ألف عند فلان ، فخذها فهى لك ، فقلت : لا آخذ على معروف صنعته أجرا ؛ قال : فأمّا إذ أبيت فاسمع حديث بعض أهل دينك عن نبيّك صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رضى الله عن قوم أمطرهم المطر فى وقته ، وجعل المال فى سمحائهم ، واستعمل عليهم خيارهم . وإذا سخط عليهم استعمل عليهم شرارهم ، وجعل المال فى بخلائهم ، وأمطرهم المطر فى غير وقته » . قال : فما وضعت ثوبى حتى طلبنى الحجّاج ، فألفيته جالسا والسيف فى يده منتضى ، فقال : ادن ، فدنوت فقال : ادن ، فدنوت ، ثم صاح الثالثة : ويلك ! ادن لا أبالك ! فقلت : مالى حاجة إلى الدنوّ والسيف هكذا ! فضحك وأغمد سيفه ، وقال : اجلس [حدّثنى] ما كان من حديث الخبيث ، فقلت : والله أيها الأمير ماغششتك منذ استنصحتنى ، ولا كذبتك منذ استخبرتنى ، ولا خنتك منذ ائتمنتنى . . . ثم حدّثته الحديث ، ولمّا صرت إلى[1] ذكر الرّجل الذى المال عنده ، أعرض عنى بوجهه ، وأومأ إلىّ بيده ، قال : لا تسمّه ، إن للخبيث نفسا ، وقد سمع الأحاديث .

وقال بعض الفضلاء :

أخلاقك الغرّ السجايا ما لها حملت قذى الواشين وهى سلافة

---

(١) ط : « عند » .

والغِشُّ فى مِرْآةِ ذِهْنِك كيف لا ... يَبْدو وأنت الجوهرُ الشَّفّافُ

وقال :

أنتَ عَيْنى وليس مِن حَقِّ عَيْنى ... غَضُّ أجفانِها على الأقْذاء[1]

. . .

٦٠ — وقوله : ولا انحرفتُ عنك بعد الصّاغية .

الانحراف : المَيل ، يقال : انحرَف عنه وتحرَّف واحرَوْرَف ، إذا مال ، أو عدَل عنه .

والصاغية كأنَّها مصدر صَغَى ، يَصغُو صَغْواً وصاغِيَةً ، تقول : أصغَيْتُ إليه إذا مِلت بسَمْعِك نحوَه ، وأصغيت الإناء إذا أملتَه ، وأصغتِ الناقة إذا مَيَّلت رأسها للرحْل .

قال الرَّشيد يوما ليزيد بن مزيد ، فى لعب الشِّطْرنج : كن علىَّ مع علىِّ بن عيسى ، فأبى ، وقال : إنى حلفتُ ألاَّ أكونَ عليك فى جِدٍّ ولا هزْل .

ومن هذه المادّة قولُ الرشيد أيضاً : قلبُ العاشِق عليه مع مَعشُوقتِه .

قال الأصمعىّ : فقلت : والله يا أمير المؤمنين ، قولُك هذا أحسَنُ من قول عُروَةَ بن حِزام :

وإنى لَتَعرُونِى لِذِكْراكِ رَوْعَةٌ ... لها بين جِلْدِى والعظامِ دَبيبُ[2]

وماهوَ إلاّ أنْ أرَاها فُجاءةً ... فأُبهتَ حتّى ما أكاد أُجيبُ

وأُصرَفُ عن رَأْيِى الذى كنتُ أرْتَئِى ... ويَقْــرُب مِنّى ذكرُها ويغيبُ

---

(١) لابن الرومى ، نقله فى مختارات البارودى ١ : ٣١٧ .

(٢) انظر الأغانى ٢٠ : ١٥٤ (ساسى) ، واللآلى ٤٠٠ ، ومصارع العشاق ٢٠٩ .

وَيُضمِر قلبي ذِكرَها فيعينُها   عليّ ، فمالي في الفؤادِ نَصيبُ

فقال الرشيد : من قال ذلك وَهْمًا ، فقد قلته عِلْمًا .

وما أحسَن قولَ الحماسيّ :

ولقد أردتُ الصبرَ عنكِ فعاقني   عَلَقٌ بقلبي من هواكِ قديمُ
يَبقى على حَدَث الزمانِ ورَيْبِه   وعلى جفائكِ إنَّه لكريمُ

وقوله : « ولا أنحرفتُ عنك بعدَ الصاغية » ، أنشدَني في هذه المادَّة لنفسه الشيخُ صفيّ الدين عبد العزيز الحِلّي سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة ، قال :

للتُّرك مالَى تَرْكُ   ما دِينُ حُبِّيَ شِرْكُ
سَوالفٌ وعُيونٌ   تُشكِي المُحِبَّ وتَشكو (١)

يشير بذلك إلى قول ابن الرُّوميّ :

تشكِي المُحِبَّ وتشكو وهي ظالمةٌ
كالقوسِ تُصمِي الرَّمايا وهي مِرْنَانُ

وقلت أنا في هذه المادَّة الثانية :

تُشكي المُحِبَّ وتَشكو   فالقلبُ لا يطمئنُّ
كالقوسِ تُصمِي الرَّمايا   وبَعْدَ هذا تَئِنُّ

* * *

٦١ — وقوله : ولا نصبت لك بعد التشيّع فيك .

النَّصْب في اللغة : مَصدَر نصبْتُ الشيء إذا أقمْتَه ، ونَصَبت لفلان إذا عادَيْته ، وناصبته الحربَ مُناصَبةً ، والتشيُّع هو الدُّخول في الشِّيعة ، وهم كل

(١) يقال : أشكيت فلانا ، إذا فعلت به فعلا أحوجه إلى أن يشكوك .

قومٍ أمرُهم واحدٌ غيرُ مُختلف. وتشيّع الرجُل إذا ادّعى دَعْوَى الشّيعة، وقال بمقالتهم. وقد جرى العُرف بأنَّ كلّ من انحرف عن عليٍّ وبنيه يسمّى ناصبيًّا، وكلّ من أحبّ عليًّا وبَنيه يسمّى شيعيًّا، فالناصبيّ ضدّ الشّيعيّ، وما أحسَنَ قول الحظيريّ الورّاق في ناصبيٍّ اسمُه الفتْح:

يا فَتْح، يا أشهَرَ كلّ الوَرَى بالُّلؤْمِ والخسَّة والكذبِ (١)
كم تدّعى شيعةَ آل النبي وأسمُك يُنبِينا عن النصْبِ

وكان إبراهيم بنُ المَهدِيّ منحرفا عن عليٍّ رضى الله، ولمّا مات إبراهيمُ ركبَ المعتصِم حتّى صَلّى عليه، ثمّ قال للواثق: قمْ يابنيّ حتّى تدفِنَه، وقيل: بل لم يُصلّ عليه تحرُّجا، وأمرَ الواثقَ بالصلاة عليه، وسأل عن وصيّته، فوجده قد أمر بمالٍ عظيمٍ أن يفرّق على أولاد الصّحابة كلّهم إلا أولادَ عليّ رضى الله عنه. فقال الواثق: والله لولا طاعةُ أميرِ المُؤمنين لما وقفْتُ عليه، ولا انتظَرْت دفنَه. ثم انصرَف وهو يقول: منحرفٌ عن شرَفه وخيرِ الأهل، والله لقد وارَيْتُه في قبرِه كافراً. وأمر الواثق أن يفرّق في أولاد عليٍّ رضى الله عنه مالٌ فاضل، فأصابَ كل رجل منهم أضعافَ ما أصابَ غيرهم من وصيّة إبراهيم.

قال يحيى بن أكثم: لو يُحسِن أحدٌ من بَنى العبّاس إلى آل أبي طالب إحسانَ الواثق؛ ماماتَ فيهم فقير.

وكان المتوكّل منحرِفا عن العَلَويّين، فأمر في سنة ست وثلاثين ومائتين بهَدْم قبر الحُسَين رضى الله عنه، وهَدْم ماحولَه من الدُّور، وأن يُعمَل مَزارعَ،

(١) ط: «هذا الورى»

ومنع الناسَ من زيارته ، وحُرِث وبقي صَحْراء ، فتألّم الناسُ لذلك ، وكتبوا سبَّه على الحيطان ، وهَجاه الشُّعَراء ؛ دِعْبِل وغيرُه ، وفي ذلك يقول يعقوبُ ابن السِّكِّيت ـ وقيل : لعليّ بن أحمد البسّامي :

تالله إن كانت أُمَيَّةُ قد أَتَتْ   قتلَ ابن بنتِ نبيِّها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثلِه   هذا لَعَمْرُكَ قبرُه مَهْدوما
أسِفُوا على أن يكونوا شاركوا   في قتلِه ، فتتبّعوه رميما

ودخل ابنه المنتصر رحمه الله عليه ليلةً ، وقدّامه رجلٌ قد تزيّا بزيّ عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد كبر بطنه ، فتبيّن الغضب في وجه المنتصر ، فنال منه المتوكّل[1] . وكان ذلك أحد الأسباب الباعثة للمنتصر على قتل أبيه المتوكِّل ، على ما هو مذكورٌ عند أهل العِلْم بالتّواريخ وأيام الناس .

ولمّا تولّى الخلافةَ المنتصرُ دَفَع إلى أحمد بن الخصيب مالاً جَزيلا ، وقال : فَرِّقْه في العلويّين ، فقد نالهم جَفْوة ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، سوف ترى ما أفعل معهم . فقال : إذاً تسعد عند الله وعندي ، فإني ما ولّيْتك الوَزارةَ إلاّ لتخلُفَني فيهم ، وتتفقّد أحوالَهم ، وتَقضِيَ حوائجهم ، فقال يزيد ابن المهلّب :

ولقد بَرَرْتَ الطالبيّةَ بعدَ ما   ذمّوا زماناً بعدهم وزَمانا[2]
ورددتَ أُلفةَ هاشمٍ فرأيْتَهُم   بعدَ العداوة بينهمْ إخوانا
لو يعلمُ الأسلافُ كيف بررْتَهُمْ   لرأوكَ أثقلَ منهمُ ميزانا

وكان عبد الله بنُ المعتزّ منحرفا عن العَلَويّين ، وله فيهم قصيدة مطوّلة أولها :

---

(١) كذا في م ، وهو الصواب ، وفي الأصل، ط « فقال المتوكل » وهو خطأ .
(٢) المسعودي ٣ : ١٣٥ .

ألاَ ما لِعَيْنِي وتَشكابِهــا تَشكَّى القَذَى ، وبِها ما بِها

وأجابه عنها صفىُّ الدِّين الحِلّى من أهل عصرِنا . ولابن سُكَّرةَ الهاشمىّ قصيدةٌ ميميَّة ، يَفخرَ بها على الطالبيِّين ، فردَّ عليه أبو فِراس بن حَمْدانَ بقصيدة فى وَزْنها ورَوِيِّها . ولابن المعتزّ غير قصيدة يذمُّ فيها الطالبيِّين ، وهى موجودة فى ديوانه .

وكان المَلِكُ الأفضل علىّ بن السلطان صلاح الدِّين يوسف ابن أيّوب كاملَ الفضائل ، يتظاهر بالتشيُّع لأجل الإمامِ الناصر ، صاحبِ بغداد ، فمن ذلك أنّه كَتَب إليه لما تغضَّب عليه عمُّه العادلُ أبو بكر وأخوه العزيزُ عُثْمان ، قال :

ذِى سُنّةٌ بين الأيام قديمةٌ أبدا أبو بكْرٍ يجورُ عَلَى عِلِى

وكتب إليه أيضا :

مولاى إنَّ أبا بكر وصاحبه عثمانَ قد غَصَبَا بالسَّيفِ حَقَّ عَلِى

وهو الذى كان قد وَلَّاه والدُه عليهماَ ، فاستقام الأمرُ حينَ وَلِى

فخالَفَاه وحَلاَّ عَقْـــــدَ بيْعتِه والأمرُ بينهما ، والنَّصّ فيه جَلِى

فانظر إلى حَظِّ هذا الإسمِ كيف لَقِى

من الأواخِرِ ما لاقَى مِن الأُوَلِ

فكتب الإمامُ الناصر إليه جوابا :

وافَى كتابُكَ يابن يوسفَ مُعلِناً بالحقِّ يُخـبِر أنّ أصلكَ طاهرُ

غَصَبوا عليًّا حقَّه إذ لم يكُنْ بعد النبيِّ له بمكّة ناصِرُ

فاصبِرْ فإنَّ غـداً عليَّ جزاءَهم وابشرْ فناصرُكَ الإمام النّاصرُ

وكتب الصاحبُ شرفُ الدين بن عُنَين من الهِنْد قصيدةً يقول فيها :

هيهاتَ أن آتي دِمشقَ ومُلكُها يعزَى إلى غيرِ المليك الأفْضَلِ
ومِن العجائب أن يقومَ بها أبو بكرٍ على علمِ الوصيَّة فى عَلِى
مهلا أبا حَسَنٍ فتِلكَ سَحابةٌ صيفيَّةٌ عمَّا قليلٍ تَنْجَلِى

على أنَّه لمَّا عاد إلى الشام ووَجَد العادِلَ فى دِمَشق ، كتب له قصيدة أوَّلُها :

ماذا على طَيْف الأحبَّةِ لو سَرَى وعليهمُ لو سامَحونى بالكَرَى

وقال فى جملتها :

ما فى أبى بكرٍ لمن رامَ الهُدَى شكٌّ يريبُ بأنَّه خيرُ الوَرَى

ومن نظم المَلِكِ الأفضلِ نور الدين علىّ بن السُّلطان صلاح الدين يوسف ابن أيُّوب رحمهم الله تعالى يقول :

أما آنَ للسَّعْدِ الَّذى أنا طالبٌ لإدراكه يوماً يُرَى وهو طالبى
وهَلاَّ يُرِينى الدهر أيْدِىَ شيعتى تمكَّنَّ يوماً من نَواصِى النَّواصِبِ

وما أحسنَ قولِ أبى الفتوح نصر بن قلاقس رحمه الله تعالى :

وفى كَبِدِى ـ أستغفرُ الله ـ لَوْعةٌ إلى مولَعٍ عنى بما هوَ مُولَعُ
يناصِبُنى فى الْحُبِّ والحبُّ حاكِمٌ يجوِّزُ لى فى النَّاصِبِىِّ تشيُّعى

وكان الصالح بن رُزِّيك قد ألزم الأثيرَ بن بُنان بمالٍ دفع عليه لكونه كان يتولَّى أموالا له ، فأرسل إليه يَمُتُّ بقَدِيم الخِدْمة ، والتشيُّع الموافقِ لمذْهَبه ، فقال الصالح :

أتى ابن بنان بِبُهتانِهِ يحصِّن بالدِّين ما فى يَدَيْهِ

برئت من الرّفض إلاّ لَهُ ... وتُبْتُ من النّصْب إلاّ عَلَيْه

وكان قدر المال ستّين ألف دينار، فأخذ منه اثنَىْ عشَرَ ألفا، وترك له الباقى. وقال نصير الدين محمد بن الإخميمىّ فى شيعىٍّ صُفِع بدمشق فى سوق علىّ:

تحبُّ عليّا كما تدّعى ... كذبتَ وخالق مخلوقِهِ

فلو كنتَ تَصدُق فى حُبِّه ... حماكَ من الصّفْع فى سُوقِهِ

قيل: إنّ جُعَيْفِران المُوَسْوِس كان يتشيّع، فقيل له يوما: أتشتُم فاطمة وتأخذ لك دِرهما؟ فقال: لا، إلاّ أنّى أسبّ عائشةَ وأباها، وأعطونى نصفا.

وقيل يوما لبهلول: أيّما أفضل، أبو بكر أو علىّ؟ فقال: أمّا وأنا فى كِنْدةَ فعَلِىّ، وأمّا وأنا فى بنى ضَبَّة فأبو بَكْر؛ وكِنْدة فى الكوفة من غُلاةِ الرّوافِض، وبنو ضَبّة أهلُ نَصْبٍ، وهم أصحاب الجَمَل.

قال سليمان بن زير[(١)]: اجتمعتُ أنا وعشرة من المشايخ فى جامع دِمَشق، فيهم أبو بكر بن أحمد بن سعيد الطائىّ، فقرأنا فضائلَ علىِّ بن أبى طالب رضىَ الله عنه، فوثب علينا قريب من مائة يَضْربوننا، ويَسْحبوننا إلى الوالى، فقال لهم أبو بكر الطائىّ: يا سادة، استمعوا لنا، إنّما قرأْنا اليوم فضائلَ علىٍّ، وغداً نقرأ فضائلَ أميرِ المؤمنين معاويةَ رضى الله عنه، وقد حضرتْنى أبياتٌ فإن رأيتمْ أن تَسْمَعوها، فقالوا له: هاتِ، فقال[(٢)] بَدِيهاً:

حُبُّ علىٍّ كلّه ضَرْبُ ... يَرْجف من خيفتِه القلْبُ

ومَذهَبى حبُّ إمامِ الهُدَى ... يزيد، والدِّين هو النّصْبُ

مَن غيْرُ هذا قال فهوا مرؤٌ ... ليس له عَقْلٌ ولا لُبُّ

---

(١) م: «بن زيد». (٢) ط: «فأنشأ».

والناس من يَنْقَدْ لأهوائهم يَسلَمْ، وإلاَّ فالقفا نَهْبُ

قال: فخلّوا عنا، فقال أبو بكرٍ الطائيّ: والله لا أقمتُ في بلدٍ يجرى فيها ما جرى، ثمّ إنّه خرج منها وسكن حِمْصَ.

قال الباخَرْزِيّ رحمه الله مصنِّف دُمْيَة القَصْر، في ترجمة عليّ بن محمد الجَزَرىّ: وقع من بعض الجزائر إلى باخَرْز، فارتبطَ بها للتأديب، وبقىَ بين كُبَرائها موفورَ النّصيب، وبلغ من الغلوّ في التشيُّع مَبلَغًا حفزه حتى ادّرَع اللَّيل، وشمّر الذَّيل، وشدَّ الأقتاد، وطَوى البلاد، وأقام في مُجاوَرة قبرِ معاويةَ بالشام سنةً جرداء[2]، يطوف ببُنيانه، ويتبرّك باستِلام أركانه، ووراء تملُّقه ذلك أمر، وخلَل رمادِه وَميضُ جَمْر، ولم [يزل][3] ينتهز الفُرْصة حتى خلا وجهُه يومًا من الأيَّام، وانقَضَ عنه بعض هؤلاء الأقوام، فنقَض على القبر عيابه، وأسال فوقه مزرابه[4]، وأنقى به جَفِينَه، وخَلَط بذى بطنه طينَه، وخرج منها خائفا يترقَّب، قال ربِّ نجنى من القَوْم الظالمين. وفي هذا المعنى يقول:

رأيتُ بنى الطوامِثِ والزَّوانى ... بَمقْتٍ يَنْظرون إلىَّ شَزْرَا
لأنِّى بالشآمِ أقمتُ حَوْلا ... على قبرِ ابنِ هند كنتُ أخْرَى

انتهىَ ما أَوْرَده الباخرزِىّ.

وقلت أنا ردًّا على هذا الشاعر الأحمق أخزاه الله تعالى:

أتَحْسَبُ أن ذا يُرْضِى عليًّا ... عليك وقد خَرِيتَ جُزِيتَ شَرًّا
وكيف يكونُ وَجْهُك يومَ تأتى ... غداً، ويقالُ هذا وجه خَرًّا

---

(١) دمية القصر ٥٢.
(٢) في الأصل؛ د: «جوداء» وما أثبته من الدمية
(٣) من الدمية
(٤) كذا في الدمية.

ولكن كانَ هذا نقصَ عقلٍ ودينٍ ، من تحرّى ماتجرّا

* * *

٦٣ — وقوله : ولا أزمعتُ يأساً منك ، مع ضمان تكفّلتْ به الثقة عنك .

قال الخليل : أزمَعْت على أمرٍ فأنا مُزمِعٌ عليه ، إذا ثبّتَّ عليه عزمَكَ .

وقال الكسائىّ : يقال : أزْمَعت الأمْر ، ولا يقال : أزمَعْت عليه . واليأس ضدُّ الطمع . وتكفَّل تفعّل من الكَفالة ، وما أحسنَ قولَ أبى العَتاهِية :

ولربّما استيأستُ ثمّ أقولُ لا إنّ الذى ضَمِن النّجاحَ كَريم

وقولَ آخر :

لا زلت أسمع كَمْ من واثق خجِلٍ
حتّى ابتليتُ فكنتَ الواثقَ الخجِلا

وقال أبو بكر الخوارزْمىّ :

رمَيْتُ بك الأعداء عن قوْسٍ غنية
وأصبح حبّ الناسِ منّى مطلّقا

وصغّرت عندى الخلقَ حتّى حسِبْتنى على كلّ من خاطبتُه متصدّقا

وكنتُ متى أنقل إلى أهل مجلسٍ ثنا مجلسٍ من فيك قمت مصدّقا

وكنت متى ما أرْوعتك قصيدة غدوتُ بها أصفى نشيداً وأحذقا

وكنتُ إذا استفتحتُ باسمِك سفْرةً
تطايرَ عنّى نحسُهـــا وتفرّقا

وكنت متى أذكرك والكأس فى يدى
صفتْ ، وغـــدا الداذىّ فيها معتقّا[1]
وكنت متى أحسُدْ غنيًّا على الغِنَى
ذكرتُك سرًّا واستطلْتُ لك البقا

وقال ابن الخيّاط الدِّمشْقى :

أبعد تمسُّكى بنداك دهْراً وحبْلُ نداك ليس له انصرامُ[1]
وكونى من دفاعك فى حُصونٍ منيعاتِ الذّوائب لا تُرامُ
وأخذى منكَ ميثاقاً كريماً وعَهْدا ما لِعُروتهِ انفصامُ
يَنال مُرادَه منى حسُودى ويُمكن عادياً فىّ اهتضامُ

* * *

٦٣ — وقوله : وَعَهْدٍ أَخَذَه حُسنُ الظنّ عليك .

العهد لغةً الأمان ، واليمين والمَوْثِق والذِّمّة والحِفاظ والوصيّة ؛ والمراد به هنا المَوثِق ، وقد استعار هنا الأخذ لحسن الظنّ عليه ، كأنّه تناوَل حسنَ ظنّه فيه ، وأخذه عليه ، واقتطعه منه ، وصار عندَه فى قَبْضته . وحُسنُ الظنِّ بالله أمرٌ قد ندَب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إليه ، وحَثّ عليه ، فمن ذلك يقولُ الله تعالى : « أنا عندَ حسن ظَنِّ عَبْدِى بى فليظُنَّ بى خَيْرا » .

وقد رَوَى أبو نواس الحسنُ بنُ هانِئ عن حمّاد بن سَلَمة ، عن ثابت البُنَانىّ عن أنس بن مالك قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لا يموتَنّ أحدُكم حتّى يُحسِن الظنّ بالله ، فإنّ حُسنَ الظّنّ بالله ثمن الجَنّة » .

ورُوِى عن بعضِ أهلِ البيت رضى الله عنهم أجمعين ، أنه قال عند نزاعه ،

---

(١) الداذى : نبت له حب مثل الشعير يتخذ منه شراب مسكر .

يابنيّ ، اقرءوا عليّ شيئاً من الرُّخَصِ حتى ألقى الله تعالى ، وأنا أحسن الظن به .

وقوله تعالى : ﴿ وأَوْفُوا بالعَهْدِ إن العهد كان مَسْئُولاً ﴾[1] كلّ عَقْد من العقود مثل عقد البَيْع والشَّرِكة ، وعَقْد النَّذْر واليَمين ، وعَقْد الصُّلح ، فإنه يَجب الوفاء بأيّ شيء وَقَعَ من هذه العقود ممّا يَجري ذلك بين إنسانَيْن ، إلاّ إذا دَلَّ دليلٌ منفصلٌ على أنه لايَجِب الوفاء به .

وقولُه : ﴿ إنّ العَهْدَ كان مَسْئُولا ﴾ ، أي مطلوباً من المُعاهد ألاّ يُضَيِّعه، وقد أخرجه مُخْرَج ﴿ وإذا المَوْءودَةُ سُئِلَتْ ◎ بأيّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾[2] ، هذا سؤال لها ، هو تقريع لِمَنْ وَأَدَ البنَاتِ .

وكقوله تعالى : ﴿ وَإذ قالَ اللهُ ياعيسَى بنَ مريمَ أأَنْتَ قلتَ للنّاسِ أتّخِذونِي وأُمّيَ إلٰهَيْن مِن دُونِ الله قال سُبْحانك ﴾[3] هذا سؤال له ، وهو تقريعٌ في الباطن لمن اعتقَد ذلك وتوبيخٌ له ، فكذلك سؤالُ العَهْد نفسه إنّماهو توبيخٌ لمن لم يَفِ به ومَن نَكَثه ، وإلاّ فالعَهْد نفسُه غيرُ مسئولٍ قَطْعا .

أنشَدَني لنفسِه إجازةً شيخُنا العلاّمةُ شهابُ الدّين محمود رحمه الله ، ومِن خطِّه نقلتُ :

قيل ما أعدَدْتَ للحَـ ـتْفِ ، وقد جئتَ محلّهْ
قلتُ أعددتُ مع التوحيـ ـدِ حُسنَ الظَّنّ باللهْ

وقلتُ أنا في ذلك :

ثمَنَ الجنّة حُسْن الظّـنّ بالله تعالَى
فهوَ عندي رأسُ مالي أشتري ممّا تعَالَى

---

(١) الإسراء ٣٤ .
(٢) التكوير ٨ .
(٣) سورة المائدة ١١٦ .

وقال عبد الصمد[١] بن بابك :

أصبحتُ ذائقةٍ بالوَفْرمنك وإن قال العواذلُ ظَنٌّ ربّما كذبا
إنّ المُنى ضَمِنت عنكَ الغِنى فأجِبْ
فالبحرُ يمنح فَضْلَ الرّىِّ مَن شَرِبا
فحُسْنُ ظَنّىَ[٢] استوْفَى مَدَى أمَلِى وحُسْنُ ذلك لم يُبقِ لى أربَا

وما ألطفَ قولَ السّراج الورّاق :

أقولُ وكَفّى على خَصْرِها وقد كاد يخفى سَقاماً عَلَىْ
أخذتُ عليكَ عهودَ الهَوَى وما فى يَدى منكَ يا خَصْرُ شَىْ

ومن قول ابن زيدونَ رحمه الله تعالى : «ووَالله ماغشَشْتُك بعد النصيحة ..» إلى قوله : «وعهد أخذه حُسنُ الظّنّ عليك» ، ممّا تسميه العَرَب وأربابُ البَديع : الاستقصاء ، وهو أن يتناول البليغُ معنًى فيَستقْصيَه ، ويأتى فيه بجميع عوارضه ولوازِمِه ، وأوصافِهِ الذاتيّة ، ولا يَترُك فيه لمن بعدَه ممّن يتأمّله فضلة . وكذا فعل ابنُ زَيْدون رحِمه الله تعالى لما أراد أن يتبرّأ عند ابنِ جَهْوَر من الذّنوب ، فقال : ماغشَشْتُك ، ولا انحرفْت عنك ، ولا نصبتُ لكَ ، ولا أزمَعْت يأسا منك ، مع ثقتى بك ، وحُسْنِ ظَنّى بك .. فقد استقصى فى التبرّى من الذّنوب التى يتوهّم وقوعَها ، ولم يرض بذلك حتى قال : ومع براءتى من ذلك أنا لم أيأس منك لحسن ظنى فيك ؛ وهذا [كمال الاستقصاء][٣] لذلك ، حتى يقرر وجوب الرحمة له ، والعاطفة عليه . ومن أحسن ماورد فى الاستقصاء ، قوله

---

(١) ط : «عبد الملك» (٢) ط : «ظن» .
(٣) من ط و د

تعالى : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾[1] إلى قوله تعالى : ﴿ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ ؛ لأنه بعد قوله : ﴿ جَنَّةٌ ﴾ ، لو اقتصر على ذكرها لكان كافيا ، فلم يقف عند ذلك حتّى قال : ﴿ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ ، لأنّ الجنّة تُطلَق على كلّ شجر يستر بظلّ ورقه الأرض. فإذا قال: ﴿ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ كان مُصابُ ربِّها أعظم . ثمّ لم يقف عند ذلك حتّى قال : ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ، متمّما لوصفها بذلك ، ثمّ كمّل وصفها بعد التّتميمين ، بأن قال: ﴿ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ؛ وذلك لمّا علم أنّ الاقتصار على وصفها بالنّخيل والأعناب ، لا يكون ذلك وصفاً كاملا ، فأتى بكلّ ما يكون في الجنّات ليشتدّ الأسف على فسادها . ثم قال في وصف صاحب الجنّة : ﴿ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ ﴾ . ثمّ استقصى المعنى في ذلك بما يُوجِبُ تعظيمَ الجنّات بقوله بعد وصفه بالكبر : ﴿ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ﴾ . ولم يقف عند ذلك حتّى وَصَف الذّرّيّة بالضّعف . ثم ذكر استئصال تلك الجنّة ــ التي ليس لهذا الّذي أصابه الكبر وليس لذرّيّته الضّعفاء غيرُها ــ بالهلاك في أسرع وقتٍ ، حيث قال : ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ ﴾ ؛ فلم يقتصر على ذكر الإعصار للعلم بأنه لا يحصُل به سرعةُ الهلاك ، فقال : ﴿ فِيهِ نَارٌ ﴾ . ثمّ لم يقف عند ذلك أيضاً حتّى قال : ﴿ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ ؛ لاحتمال أن تكون النارُ ضعيفةً لا تقوم بإحراقها لما فيها من الأنهار ورُطوبة الأشجار ، فاحترز عن هذا الاحتمال بقوله : ﴿ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ .

ومن أحسن ما وقع في الاستقصاء قول ابن الروميّ :

وحديثُها السِّحرُ الحلالُ لو أنّه ... لم يَجْنِ قتلَ المُسلِم المتحرّز[2]

(١) سورة البقرة ٢٦٦ .

(٢) أمالي القالي ١ : ٤٨ .

إن طالَ لم يُمْلَلْ وإن هي أوْجزَتْ وَدَّ المحدِّث أنّها لم تُوجِزِ
شَرَكُ العُقولِ ونُزْهةٌ ما مِثْلُها للمطمئنِّ وعُقْلَةُ المستوفِزِ

ومن الاستقصاء قصيدةُ ابن الرُّوميّ القافيَّة ، التي يصف فيها الجاريَةَ السَّوْداء ، منها قوله :

أكسبَها الحبُّ أنها صُبِغَتْ صِبغةَ حَبِّ القُلوبِ والحَدَقِ

فإنّهْ استقصَى فيها جميع ما تُوصَف بِهِ السَّوْداء من المحاسن .

ومنه[1] قصيدةُ القاضى ناصح الدين أبى بكر أحمد الأرّجانيّ فى الشّمْعة التى أوّلها :

نمّتْ بأسرار ليلٍ كان يُخْفِيها وأَطْلَعَتْ قلْبَها للناس مِن فيها[2]

فإنّه استَقْصى فيها جميعَ ما تُوصَف به الشَّمعةُ من المحاسِن .

* * *

٦٤– وقوله: فَفِيمَ عَبَثَ الجفاء بأذمّتى .

ففيمَ أصلُه : «ففي ما» ، وهذه ما الاستفهاميّة ، إذا دخلتْ عليها حروفُ الجرّ حُذِفَتْ ألفُها ، فيقال: علامَ ، وإلامَ ، وعَمَّ ، ومِمَّ .

قيل : إنّ بعضهم قال لبعض الأفاضل : بما تُوصِيني ؟ فقال : بتقْوَى الله ، وإسقاطِ الألف .

وقوله : «أذمّتي» جمع ذِمام ، مِثْل زِمام وأزِمّة ، وسِنان وأسِنّة ، والذِّمام والذِّمّة : الحُرْمة .

---

(١) ط « ومن الاستقصاء » .

(٢) ديوانه ٤٢٥ .

وكانت العربُ تُراعِي أمرَ الذِّمّة ، وتُحافِظ عليه ، ويقوِّمون الوفاء به ، ولو جرَت الدماء ، وقامت الحُروب ودامتْ ؛ فمن ذلك أمرُ كُلَيْب وائل ، فإنّه كان يقول : قد أجرْتُ وَحْشَ صحراءَ كذا وكذا ، فلا يتعرّض له أحد ، ولا يُقدِم على صَيْد ذلك الوَحْش أحدٌ أبدا ، وكان يَمنَع أن ترد إبلُ أحدٍ مع إبلِه حتّى تَصدُر إبلُه ، ثمّ تَرِد إبلُ الناسِ بعد ذلك ، ولذلك قال عبد الله ابنُ محمد بن ورقاء الشَّيْبانيّ من قصيدته المشهورة :

وعِزُّ كُلَيْبٍ كان أُحدوثةً بها   تَبَنَّى من العِزّ الأصيلِ المبانِيَا

يُجيرُ وحوشَ البِيدِ من أن تَصيدَها
رجالٌ ويَحمِي للوُحوش الصَّحارِيا

ويَختَصِر الوِرْدَ المُباح فتنتَهِي الـ
جماعَةُ عمّا عنه صَرّح ناهيـــا

وعمرو بن سكن بن سليمان ، قتَل أخاه وفاءً لجاره[1] الكلابيّ ، حتّى قال شاعرُ بني شَيْبان :

قَتلْنا أخانا بالوَفاء لجارِنا   وكان أبُونا من تجير مقابِرُهْ

وقال غيرُه يردّ عليه بما فعلوا :

تَعُدُّ معاذِراً ليست بشيء   ومن يَقْتُلْ أخاهُ فقد ألاَمَا

وقصة السّموءل بن عادياء مع الحارث بن أبي شمر وقَتْل ولده بسبب أَدْرُع امرئ القيس ، ولم يَدفَع الأَدْرُع ، وذبح ولدَه ، وهو يشاهدُه من الحصن .

---

(١) ط : « مجاوره » .

ومن ذلك ماذكره صاحبُ الأغاني[1] ، قال: كان المهلّب بن أبي صُفْرة بخُراسان ، فخرج إليه زياد الأعجم فمدحه ، فأمر له بجائزة ، وأقام عنده أياما ، قال : فإنّا العشيّة نشرب مع حبيب بن المهلّب في دارٍ له وفيها حمامةٌ ، إذْ سجعَتْ الحمامة ، فقال زياد فيها :

تَغَنّيْ ، أنتِ في ذِمَمي وعهْدِي ... وذِمّةِ والدى ألاّ تُضارِي[2]
وبيتِكِ أصلِحيه ولا تخافِي ... على صُفْرٍ مُزَغَّبةٍ صِغـــارِ
فإنّكِ كلّما غنّيْتِ صوْتا ... ذكرتُ أحبّتي وذكرتُ داري
فإمّا يقتلوكِ طلبتُ ثأراً ... له نبأٌ لأنّكِ في جِوارِي

فقال حبيب : ياغلام ، هاتِ القوْس ، فقال له زياد : وما تصنع بها ؟ قال : أرمي جارتَك هذه . قال : والله لئن رمَيْتَها لأستعدينّ عليكَ الأمير ، فأُتِيَ بالقوْس فنزعَ فيها سَهْما فقتلها ، فوثبَ زياد ، ودخل على المهلّب ، فحدّثه الحديثَ وأنشدَه الشعر . فقال المهلّب : عليّ بأبي بِسْطام ، فأُتِيَ بحبيب ، فقال له : أعطِ أبا أمامةَ دِيَةَ جارتِهِ ألف دينار ، فقال : أطالَ الله بقاء الأمير ! إنما كنت ألعب . فقال : أعطه كما أمرْتُك[3] ، فأعطاه ، فقال زياد :

فلِلّهِ عيْنَا من رأَى كقضيّةٍ ... قضى لى بها قَرْمُ العِراق المهلّبُ
رَماها حبيبُ بنُ المهلّب رَمْيَةً ... فأثبتَها بالسَّهم والسّهْم يَغرُبُ[4]
فألزَمه عقْلَ القتيل ابنُ حُرّةٍ ... وقال حبيبٌ : إنما كنتُ ألعبُ
فقال : زيادٌ لا يُرَوَّعُ جارُه ... وجارةُ جاري مثلُ جاري[5] وأقربُ

قال : فحمَل حبيبٌ إليه ألف دينار على كُرْهٍ منه ؛ وإنّه ليشرب يوماً مع حبيب إذ عربد عليه حبيب — وقد كان حبيب اضطغن عليه ممـا جرى

(١) الأغاني ١٥ : ٣٨٣ ، ٣٨٤ .
(٢) الأغاني : « إن لم تطارى » .
(٣) الأغاني : « آمرك » .
(٤) أثبتها : « قتلها في مكانها » .
(٥) الأغاني : « مثل جلدى » .

فأمر بشق قَباءِ ديباج كان عليه ، فقام وقال :

أَعَمْرُكَ ما الدِّيباجَ خَرَّقْتَ وحدَهُ ولكنَّما خَرَّقْتَ جِلْدَ المهلَّبِ

فبعث المهلب إلى حبيب فأحضره ، وقال : صدَقَ زياد ، ما خَرَّقْتَ إلاّ جلدى ، فدعه يهجونى[1] ! ثمّ طلب زيادا ، وسَلَّ سَخِيمَته ، وأمرَ له بمالٍ وصرَفَه .

وقال أبو هلال الحسنُ بنُ عبدالله بن سهل العَسكرىّ : أخبرنا أبو أحمد ، أخبرنا أبو الحسن البَرْمكىّ ، أنبأنا أحمد بن جعفر : حدّثنى محمد بن ناجية الرُّصافِىّ ، قال : كنتُ أحدَ من وقع عليه التُّهمة أيّام الواثق بمالِ مصر ، فطلبنى السلطانُ طلبا شديدا حتّى ضاقت علىّ الأرضُ برحْبِها ، فخرجتُ إلى البِلاد مُرْتادا رجلاعزيزاً ، منيعَ الدّار ، أعوذُ به ، وأنزِل عليه ، حتّى انتهيتُ إلى بنى شيبان بن ثعلبة ، فدفعت إلى بيت مشرف بظهر رابية ، وإلى جانبه فَرَسٌ مَرْبوط ، ورُمْح مركوز ، يَلمع سنانُه ، فنزلتُ عن فرسى ، وتقدّمتُ فسلّمتُ على أهلِ الخباء ، فردَّ علىَّ نساءٌ مِن وراء السِّجْف يرمقْنَنِى من خَلَل السُّتور ، بعيونٍ كعيونِ أخْشاف الظِّباء . فقالت إحداهنّ : اطمئنّ ياحَضَرِىّ . فقلت : وكيفَ يطمئنّ المطلوب ، أو يَأْمَن المَرْعوب ، وقلّما يَنْجُو مَن السُّلطان طالِبُه ، والخوفُ غالبُه ، دون أن يأْوِىَ إلى جبلٍ يَعصِمه ، أو مَعقِلٍ يَمنَعُه ! فقالت : ياحَضَرِىّ ، لقد ترجم لسانُك عن قلبٍ صغير ، وذَنْب كبير ، وقد نزلتَ بفِناء بيتٍ لا يُضامُ فيه أحد ، ولا يَجُوع فيه كَبِد ، ما دام لهذا الحىِّ سَبَدٌ أو لَبَد . هذا بيتُ الأسوَد بن قنان ، أخوالُه كَلْب ، وأعمامه شَيبان ، صُعْلوكُ الحىِّ فى مالِه ، وسيِّدُهُمْ فى فعالِه ، لا ينازَع ولا يدافَع ، له الجُوار ،

---

(١) الأغانى « تبعث هذا على أن يهجونى » .

وموقد النار ، وطَلَب الثار ، وبهذا وصفته أمامةُ بنتُ الجُلاح الكلبيّة حيث تقول :

إذا شئت أن تلقى فتى لو وَزنتَهُ ... بكلِّ مَعَدِّيٍّ وكلِّ يمانِ

وَفى بِهِمُ جُوداً وحلما وسُؤدَدًا ... وبأساً ، فهذا الأسودُ بن قنانِ

فتًى كالفتاةِ الرُّؤْدِ يُسفر وجهُه ... كأنّ تلألي وجهه القمرانِ

أغرُّ أبرُّ ابْنَيْ نزارٍ ويعرُبٍ ... وأوثقُهم عقْدا بكلّ مكانِ

وأوفاهمُ عَهْدا وأطولُهمْ يداً ... وأعلاهمُ فعْلا بكلّ مكان

وأضربُهُمْ بالسيف من دونِ جارِه ... وأطعنُهم من دونِهِ بسنانِ

كأن العطايا والمنايا بكَفّه ... سَحابانِ مَقْرونانِ مُؤتلفان

فقلت : الآن ذهبتْ عنّي الوَحْشة ، وسكَنتْ عنّي الرّوعة ، فأنّى لي به ! فقالت : ياجارية ، اخرجي فنادي مولاك . فخرجَتِ الجارية ، فما لبثتْ إلا هنيهةً حتى جاءت وهوَ معها في جَمْع من بني عمِّه ، فرأيتُ غلاما قد اخضرّ شاربُه ، واختط عارضُه ، وخَشُن جانبُه ، فقال : أيّ المنعِمين علينا أنتَ ؟ فبدرَت المرأةُ فقالت : يا أبا مرهف ، هذا رجلٌ نَبَتْ به أوطانُه ، وأزعجَه سُلطانُه ، وأوحشَه زَمانُه ، وقد أحَبّ جوارَكَ ، ورَغب في ذمّتك . وقد ضَمِنّا له ما نَضْمَن لمثله على مثلك . فقال : بَلّ اللهُ فاكِ ! قال : فأخذَ بيدي ، وجلس وجلستُ ، ثم قال : يابني أبي وذوي رَحمي ، أشهدكم أنّ هذا الرجلَ في ذِمّتي وجواري ، فمن أرادَه فقد أرادَني ، ومن كادَه فقد كادني ، وما يلزمني في أمره من حالٍ إلاّ ويلزمُكم مثلُه . فليَسمع الرجلُ منكم ما يَسكُن إليه قلبُه ، وتطمئنُّ إليه نفسُه . فما سمعتُ جواباً قطُّ أحسنَ من جوابهم ، قالوا بأجمعهم : ما هي بأوّلِ مِنّةٍ مَنَنتَ بها علينا ، ولا أوّل يدٍ بيضاء طوّقتَنا بها ، وما زال أبوكَ قبلَك في

بِناء الشَّرَف لنا ، ودَفْع الذَّمِّ عنّا ، فهذه أنفسنا وأموالنا بين يديك ، ثم ضَرب لى قُبّةً إلى جانب بيته ، فما زلتُ عنده عزيزا مَنِيعا حتّى منَح لى من السلطان ما أمّلت ، فانصرفتُ إلى أَهْلى .

وكان حارثة بنُ مُرَّة يُسمّى مُجيرَ الجَرَاد ، وذلك أنّه نزل بِفِنائه جراد ، فغدا الحىّ[1] إليه ليَدْفَعوه عنهم ، فمَنَعهم ، وقال لهم : ما تُريدون منه ؟ قالوا : قَتْله ، لأنّه نزل بجوارك ، فقال لهم : أمّا إذ سمَّيْتموه جارى ، فوالله لاتَصِلون إليه أبدا ، وطرَدَهم عنه .

وكان ثَوْرُ بن شَحْمة العَنْبَرىّ يسمَّى مُجيرَ الطَّيْر ، وكانت الطَّير لا تُصاد بأرضه ولا تُثار .

والّذى وقع فى عصرِنا أيضا ، وهو أنّ الأمير شمسَ الدين قَراسُنْقُر لمّا هَرَب من المَلِك الناصر محمد بن قلاوون ، ترك رفاقه وجماعته لما وصل إلى قريب من بيوت مُهنّأ بن عيسى ، وقال : قفوا هنا ، ولا يَجِئ منكم أحد . وتوجّه هو إلى البيوت ، فقَصَد بيتَ مهنّأ ودخل إلى كاملة أمّ أحمد ، زَوج مهنّأ ، فرفع ثوبَها برأسه ، ودخل برأسه تحته ، وقال لها : الجِيرة ! فقالت : من أنتَ ؟ قال لها : قَراسُنْقُر ، فقالت : يا أبا محمد ، إنّ الله أجارك . ولم يزل عندها إلى آخِر النهار ، فحضر مهنّأ من مَصيده[2] ، فتلقّته أمّ أحمد ، وقالت : ترى أبا محمد قد وصل إلينا وأنّنى قد أجرْتُه ، فقال : يا كامِلة ، إنّ الله أجار من أجَرْتِه . واُجتمعوا وتلقّاه بكلّ بِشْرٍ وَطِيبِ خاطِره . فلمّا حضر محمد أخو مهنّأ ، وَوَجَد قراسُنْقُر ، قال : يا مهنّأ ، أبشر بالخير والسّعادة من المَلِك الناصر .

---

(١) ط : « فعدَى الحى عليه » .

(٢) فى الأصل : « تصيده » ، وما أثبتنا من ط ، م

واللهِ لنأخذنّ منه كلّما أردْنا ، فظهر لقراسُنْقر مَيْلُ مهنّاً إلى كلامِ محمد ، فقال : يا كاملة ، إنّى فى جيرتك ! فقالت : ياَمهنّاً ، وأيْشٍ تتحدّث عنك العَرَب غداً إلى يوم القيامة ، تجيرُ مِثْل قراسُنْقر ومن معه من الملوك ، وتَغْدِر بهم ! واللهِ العارُ ولا النار . فقال : معاذَ الله ! إنِّى أجَرْت من أجرته ، والله ماعاد يصل إليه أحدٌ بعدَ اليوم . فقال أخوه محمد : ألأحدِ حرَمْتنا يا مهنّاً نسيم الشام وبلادَه وخيرَه ! واللهِ ما عادَ أحدٌ منّا يَرَى الشامَ . فقال مهنّاً : صار هذا الأمرُ وكان . فعندها عادَ قراسُنْقُر إلى جماعته ، وأحضر الأقرم والزَّردكاش ومن معهم ، وجاءوا ونزلوا فى بيُوت مهنّاً ، وكتب من وقته إلى جرابند ملك التَّتـار ، وقال : أحضرتُ ثلاثةَ ملوكٍ من ملوكِ الشام ، فجهِّز لهم الأمانات لأحضرَهم إليك ، فجهـز ذلك ، وتوجّه بهم مهنّاً ، وسلّمهم لجرابند ، وبقىَ مهنّاً لا يَدخُلَ الشام مدّة أربعٍ وعشرين سنة ، إلى أن توجّه بنفسه إلى السلطان الملكُ الناصر . وَوَفَى بذمّته لقراسُنْقر ، وجرى عليه ماجَرَى فى هذه المدّة من قَطْع إقطاعهم وإنعامه ، ومُنَا بَذَته لصاحب مصرَ .

* * *

٦٥ — وقوله : وعاثَ العقوق فى مواتّى .

عاث يعيث عيثا ، إذا فسد ، والعُقوق ضدُّ البرّ ، يقال : عَقّ والدَه وبَرّه . والمَواتّ بتشديد التاء ، جمع ماتّة ، وهى الحُرْمة والوسيلة ، يقال : فلان يَمُتّ إليكَ بقَرابة ، فالمواتّ : الوسائل .

يُرْوَى أنّ الحجاج جلس يوما لقَتْل أصحابِ عبدِ الرحمن بن محمد ابن الأشعث ، فقام رجلٌ منهم فقال : أصلحَ الله الأمير ! إنّ لى عليك حقّا ، قال : وما حقُّك ؟ قال : سَبّكَ عبدُ الرحمن يوما ، فرددتُ عنك ؛ فقال :

مَن يعلم ذلك ؟ فقال : أنشُد اللهَ رجلاً سَمِع ذلك إلاّ شَهِد ، فقام رجلٌ من الأَسْرَى فقال: قد كان ذلك أيُّها الأمير ، فقال : خَلُّوا عنه . ثمّ قال للشاهد : ما منَعَك أن تُنْكِر كما أنكَرَ ؟ فقال : لقديم بُغضِي فيك ! فقال الحجّاج : ولْيُخَلَّ عنه لصِدْقِه .

دَخَل على الفَضْل بن يحيى يوما حاجِبُه ، فقال : إنّ بالباب رجلاً يزعُم أن له سَبَبا يَمُتّ به إليك ، فقال : أدخِلْه ، فدَخَل شابٌّ حَسَنٌ رثُّ الهَيْئة ، فسَلَّم ، فأومى إليه بالجلوس فجلس ، فقال له بعدَ ساعة : ما حاجَتُك ؟ قال : أعلمَتْك بها رَثاثةُ حالِي ، قال: نعم ، فما الذي تَمُتّ به ؟ قال : وِلادَةٌ تقرب من وِلادتِك ، وجِوارٌ يَدْنو من جوارِك ، واسمٌ مشتقٌّ من اسمِك ، فقال : أمّا الجِوار فيُمكِن ، وأمّا الاسم فقد يُوافِق الاسمُ الاسمَ ، ولكنْ مَن أعلمَك بالوِلادة ؟ قال : أخبَرَتْني أمي أنّها لمّا وَلَدَتْني ، قيل لها : وُلِد في هذه الليلة ليَحيَى بن خالدٍ غلام ، وسمّاه الفَضْل ، فسمّتني أمّي فُضَيلاً إكباراً لاسمِك أن تُلحِقَني به ، وصَغَّرَتْه لصِغَر قَدْري عن قَدْرِك . فتبسّم الفضل وقال : كم أتى عليك من السِّنين ؟ قال : خمسٌ وثلاثون سنة ؟ قال : صدقتَ هذا القدر أعدّ ، قال: فعلتْ أمُّك؟ قال : ماتتْ ، قال : فما منَعَك من اللحوق بنا قديما ؟ قال : لم أرْضَ نفسي للقائك لأنّها كانت في عامّيّةٍ معها حَداثة تمنعني من الالحاق[1] بالملوك ، وعَلِق هذا بقلبي منذُ أعْوام ، فشُغِلت بما يَصلُح للقائك حتّى رضيتُ عن نفسي ، قال : فما تَصلح له ؟ قال : للكبير من الأمر والصّغير ، قال : يا غلام ، أعطِه لكلّ سنةٍ مضتْ من سنيه ألف درهم ، وأَعطِه عشرةَ آلاف دِرهم ، يَتحمّل بها إلى وقتِ استعماله . وأعطاه مركوبا سَرِيًّا .

---

(١) ط : « اللحوق » .

وقد رُوِى عن جابر بن عبدِالله ، أنه قال : جاء رجـلٌ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسولَ الله ، إنّ أبى أخذ مالى ، فقال صلى الله عليه وسلم : اذهبْ فأتنى بأبيك . فنزل جبريلُ عليه السلام على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إنّ الله عزّ وجلّ يُقرِئك السّلام ، ويقول لك : إذا جاءه الشيخُ فَسَلْه عن شيء قاله ما سمعتْه أُذُناه ، فلمّا جاء الشيخُ قال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : ما بالُ ابنِك يَشْكوك ؟ أتريد أن تأخُذَ مالَه ! فقـال له : سَلْه يارسولَ الله : هل أنفَقْتُه إلاّ على عَمّاتِه أوخالاته ، أو على نفسى ! فقـال النبيّ صلى الله عليه وسلم : أيُّها الشيخ ، دَعْ عنك هذا ، أخبرْنى عن شيء قُلتَه فى نفسِك ماسمعتْه أُذُناك ! فقال الشيخ : يا رسولَ الله ، ما زالَ اللهُ يزيدُنا بكَ يقينا ، لقد قلتُ فى نفسى شيئًا ما سمعتْه أُذُناى ، فقال : قل : فأنا أسمع ، فقال :

غـذَوْتُك مولوداً وعُلْتُـك يافِعاً ... تُعَلُّ بما أَحنو عليكَ وتَنْهَـلُ

إذا ليلةٌ ضافَتْك بالسُّقْم لم أبِتْ ... لسُقْمِـك إلاّ سـاهِراً أتَمَلْمَـلُ

كأنى أنا المطروقُ دونَك بالّذِى ... طُرِقْتَ به دُونى ، فعَيْنِىَ تَهْمُـلُ

تخافُ الرَّدَى نفسِى عليكَ وإنّها ... لَتَعْـلم أنّ الموتَ وقتٌ مؤجَّلُ

فلمّا بلغتَ السِّنّ والغـايةَ الّتى ... إليهـا مَدَى ما كنتُ فيك أُؤمِّل

جَعلتَ جَزائى غِلظَةً وفَظـاظَةً ... كأنّكَ أنتَ المنعِمُ المتفضِّـلُ

فلَيْتَـك إذْلم تَرْعَ حَـقَّ أُبُوّتى ... فعلتَ كما الجارُ المُجاوِرُ يَفعَل

قال : فحينئذ أخذ النبىُّ صلى الله عليه وسلم بتَلابيبِ ابنِه ، وقال : « أنتَ ومالُك لأَبيك » (١)

* * *

(١) الحديث والخبر والشعر فى كشف الخفا ومزيل الإلباس ص ٢٠٧ ، نقله عن البيهقى فى الدلائل.

٦٦ — وقوله: وتمكَّن الضَّياعُ من وسائلى!

الوَسائل: جمع وسيلة، وهى ما يُتقرَّب بها إلى الغَيْر، وما أحسَن قوله: «وتمكّن الضّياع»، كأنّ الضياع شيء ثبت واطمأنّ وشَدّ أواخيَه، وأحكمَ عَقْده، حتى لم يَعد يُرجى زَواله، ولا يُطمَع فى مَحْوِه. وما أحسن قولَ ابنِ الخيَمىّ:

كلّ الشدائد دونَ ما يُفضِى إلى إسخاطِ مِثلِك، فهو ممّا يَسهُلُ
لستَ المَلومَ إذا هَجَرتَ ولا أنا أيضا على طلبى وصالك أُعذَلُ
إنْ لم يكن منك الحُنُوُّ وسيلةً منّى، بأيّةِ حالةٍ أتوسّلُ!

وقول أبى سعيد محمد بن محمد الرُّسْتَمىّ:

إذا لم تكنْ لى أنتَ عَوْنا ومُعديًا
على الزّمنِ العادِى علىّ فقلْ مَنْ لِى!
فمالى رجاءٌ فى سواكَ ولا يُرَى يُمِرُّ قَريضى عند غيرك أو يُحْلِى
وهل بارقٌ يُشتامُ إلاّ من الحَيا وهل عَسَلٌ يُشتارُ إلاّ من النّحْلِ!

وما أحسنَ قولَ ابن التّعاويذىّ يمدح القاضى الفاضل:

فاستجْلِ أبكارَ المديح عَرائساً أبدَيْنَ زينَتهنّ غَيْرَ عواطلِ[1]
أبرزْتُهنّ على عُلاكَ سَوافِرا وجَعَلتُهُنّ إلى نَداكَ وَسائلى
فاجلسْ لها وارفع حجابَك دونها واسْمَعْ إلى إنشادها وتطاولِ
واعرف لها تأميلَها يامن يرى كرماً على المأمول حق الآمل

وقد خالفت الناس فى التوسّل وقلت:

أردتُ حِلْمَك يبدُو إذْ كانَ ذنبِىَ هائِلْ
فهل رأيت خلافى خلّى الذّنوب وسائِلْ

* * *

(١) ديوانه ٣٣٥.

٦٧ — وقوله : ولِمَ ضاقتْ مذاهبي ، وأكْدَتْ مطالبي !

لِمَ ضاقت ، استفهامٌ عن العِلّة في ضيق مذاهبِه ، كأنه قال : ولأيِّ علة ضاقتْ بيَ السُّبُل ، حتى ما أجد مضطربا !

والمذاهب : الطُّرُق ، واحدها مذهب . وذهب فلانٌ مذهبا حسنا ، أى اختار طريقًا حسنا . وأكْدَتْ ، الإكْداء المَنع ، من قوله تعالَى: ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى ﴾[1] ، أى ومنع القليل . وأكْدَى الحافر ، أى بلغ الكُدْية من الأرض ، فلم يمكِنه أن يحفِره بعد ذلك ، وأكْدت الأرضُ إذا أبطأ نباتُها .

وقال بعضُ الأعراب :

لقد بَخِلَتْ حتّى لو أنّى سألتُها
قذَى العَيْن من ضاحِي التُّراب لَضَنَّتِ
فإنْ بَخِلَتْ ، فالبُخْل منها سجيّةٌ
وإن بَذَلَتْ أعطت قليلاً وأكْدَتِ

وما أحسنَ قول شرفِ الدين بن عُنين :

وأقبلتُ أجتابُ البلادَ كأنني
قَذًى حالَ دونَ النَّوم ِفى أعينِ الرُّمْدِ
أكُدُّ ويُكْدِى الدهرُ لى كلَّ مطلبٍ
فيابؤسَ دَهْرِى ، كم أكُدُّ وكم يُكْدِى !

---

(١) سورة النجم ٣٤

وقال محمد بن أحمد الخيّاط الدمشقيّ :

نفضتُ يدي من الآمال لمّا | رأيتُ زمامها بيد القضاء
وما تنفكّ معرفتي بحظّي | تريني اليأسَ في نفس الرّجاء

وقال أبو إسحاق الغزّيّ :

فكيف على بختي غفلتُ ولم تشمْ
غواديك غُفْلا ، وهي كاشفة المَحْلِ
وما غاظني إلاّ اطّراحُك حرمةً
شَكَتْ منك صدَّ العاشقين عن العَذْلِ

ومّما يناسب هذه الكلمات على الجملة دون التفصيل قولُ أبي العتاهية :

تذكّرْ أمينَ الله حقّي وحُرْمتي | وما كنتَ تُوليني، لعلّك تذكرُ
لياليَ تُدْني منكَ بالقُرْب مجلسي | ووجهُك من ماء البشاشة يقطُرُ
فمن ليَ بالعَيْن التي كنتَ مرّةً | إليَّ بها في سالف الدّهر تنظُرُ !

وقال عبد الصّمد بن بابك :

ألاَ ياعامرَ الآمالِ مالي | أشيمُ الطّرفَ في أملٍ خَرابِ !
أفوتُ مطارحَ الأمَل انتظاراً | وأسرحُ بين سُقْمي واغترابي
أُراعُ ولا أُراعي والأماني | لَقًى بين اكتئابٍ وارتيابِ
وكم كَسْرٍ جبرْتَ فكان طَوْقا | على نَحْرِ الدُّعاء المُستجابِ

* * *

٦٨ – وقوله : وعلام رضيتُ من المركَبِ بالتعليق ، بل من الغنيمةِ بالإياب !

هذان مثلان أوردهما يستفهم عن حالِه ، فقال ذلك . والمَثل الأوّل لفظه : « ارضَ من المَركَب بالتّعليق »[1] . معناه أرضَ مِن عظيمِ الأمرِ بصَغيره ، وهو يُضرب فى القناعة بإدراك بعضِ الحاجة . والمَركَب هنا يجوز أن يكون بمعنى الرُّكوب ، أى أرضَ بدَلَ رُكوبك بتعليق أمتعتِك عليه ، ويجوز أن يراد به الركوب ، أى أرضَ منه بأن تتعلق به أمتعتك .

والمَثَل الثانى ، وهو قولهم : « قنِعت من الغنيمة بالإياب » ، أوّل من قالَه امرؤُ القيس نَظْماً ، وهو :

وقد طَوَّفْتُ فى الآفاقِ حتّى ... قَنِعْتُ من الغَنيمةِ بالإيابِ[2]

وهو من قصيدةٍ أوّلها :

أرانا موضِعين لأمرِ غَيْبٍ ... ونُسحَرُ بالطّعامِ وبالشّرابِ

والإياب هو العَوْد والرُّجوع ، وهو مثل قولهم : قَنِع من الغنيمة بالسّلامة ، ومنه قول الطُّغرانىّ :

والدّهر يَعكِس آمالِى ويُقنِعنى ... من الغنيمة بعْدَ الكَدِّ بالقَفَلِ

وهو أحسَن من الأوّل ؛ لأنّه زاد فيه قوله : « بعد الكَدّ » ، يعنى أنى قَنِعت من الغنيمة بعد ما كَدَدْت نفسِى وأتْعبتُها بالقَفلِ ، وهو الرُّجوع . وقلتُ أنا ردًّا على الطُّغْرانىّ :

تقولُ « يَعْكِسُ آمالِى » وأنت كما ... تراه فى عالَمٍ فى التُّرْب مُستَفِلِ

أمَا ترَى الشمسَ تَلقى عكسَ مَقصِدها ... فى كلّ يوم ، ولولا ذاك لم تقُلِ

---

(١) الميدانى ١ : ٣٠٠ ، قال : « أى ارض من عظيم الأمور بصغيرها ، يضرب فى القناعة بإدراك الحاجة » .

(٢) ديوانه ٩٩ .

وقلتُ في ذلك أيضا :

لا يَعجَب المرءُ لعكسِ المُنى ... ما فِكرُه في مثل ذا نافعْ
والأنجمُ السّبعُ العُلا ما نجتْ ... من عكسِها بالفلك التاسعْ

وقال عبدُ الله بنُ أبي عُيَيْنة :

إذا نحن أُبْنا سالمين بأنفسٍ ... كِرامٍ رجَتْ أمراً فخابَ رجاؤها
فأنفُسُنا خيرُ الغنيمة أنّها ... تئوب ، وفيها ماؤُها وحياؤُها

وما أحسنَ قولَ أبي الطيّب :

أغَرُّ ، أعداؤه إذا سَلِموا ... بالهرب استكثروا الذي فعلوا[1]

وقول البُحتريّ :

ولكنّني أُعلِي محلّكَ أن أُرَى ... مدِلاًّ ، وأستحييك أن أتعظّما[2]
وكان رَجائي أن أعودَ مملّكا ... فأضحى رَجائي أن أعُودَ مسلّما

وقلت أنا في معنى قول امرئ القيس : « قنعت من الغنيمة بالإيابِ » :

قنِعْتُ بالعَوْد إلى منزلي ... وذاكَ دأبُ المرء في خيبَتِهْ
كالحجَر المُلقَى إلى صاعدٍ ... ليس له همٌّ سِوَى عَوْدَتِهْ

وقد أخذته من قول أبي الطّيّب :

وما أنا غيرُ سَهمٍ في هواءٍ ... يَعُود ولم يجِد فيه امتِساكا[3]

وقد اختلف أهلُ النظر في هذا الموضع ، فقال قوم : إنّ السّهم والحَجَر وغيرهما إذا رمي به ، وصعد وتناهَى صعودُه ، كان له في آخِر صعوده لبثة ، ثمّ يتصوّب منحدِرا .

---

(١) ديوانه ٢ : ٢١٣ ، وأغر خبر لمبتدأ محذوف ، أي هو أغر . (٢) ديوانه ٢٢٨ (٣) ديوانه ٢ : ٣٩٦ .

وقال آخرون : لا لُبث له هناك ، وإنّما أوّل وقتِ حدورِه آخِر وقتِ صعودِه . والأوّل ذهب إليه الرئيس أبو عليّ بن سينا ، وقد أوضحتُ هذا في شرح لاميّة العجَم في قوله : « والدّهر يَعْكِس آمالِي » ... البيت

* * *

٦٩ – وقوله : وأنّى غابني المغلّب ، وفخر عليّ العاجز الضّعيف ، ولطمتْني غيرُ ذاتِ سِوار !

وهذه ثلاثة أمثلة من أمثلة العرب ، فالأوّل من بيت شِعرٍ لامرئ القيس ، وهو :

وإنّكَ لم يَفخَرْ عَلَيْكَ كفاخرٍ ضعيفٍ ، ولم يَغْلِبْكَ مِثلُ مُغلَّبِ (١)

يريد بذلك أنّه أشدّ ما على الإنسان أن يَفخَرَ عليه فاخرٌ ضعيف ، وأن يغلبَه مُغلّب ، وهو المغلوب ، وهذا من قصيدته الّتي أوّلها :

خليليّ مُرّا بي على أمّ جُنْدُبٍ نُقَضِّ لُباناتِ الفُؤادِ المعذَّبِ (٢)

وبعد البيت الأوّل :

وإنّك لم تَقطَعْ لُبانةَ عاشِقٍ بمثلِ غدوٍّ أو رواحٍ مؤوِّبِ (٢)

والبيت الأوّل كذا رويناه عن شيخنا العلّامة أثير الدين أبي حيان رحمه الله تعالى ، صحّفه ابنُ زيدون ، فقال : « وفخَر عليّ العاجز الضعيف » ، فجَعَل ألفَه عينا مهملة ، والخاء المعجمة جيما ، والرّاء زايا ، وهو تصحيف حَسَن ، أفادَ المعنى قوّة لقوله : « العاجز الضعيف » .

---

(١) ديوانه ٤٤ . (٢) ديوانه ٤٠ .

وقول امرئ القيس :

وإنك لم يَفْخَرْ عليك كفاخرٍ ... ضعيفٍ ولم يغلبك مِثلُ مُغَلَّبِ

وإنك لم يَغلِبك مِثلُ مُغَلَّبِ .... البيت

قيل لأنّ المُغلَّب والعاجزَ الضعيف إذا قدَرا لم يُبقيا . وقيل : إنّ ذلك أشدُّ ذُلاّ على المغلوب ، وهو الأقرب . وكان فى الشُّعراء الأقدمين ومَن بعدهم جماعةٌ غلبَهم مَن دُونَهم ، فإنّ نابغة بنى جَعْدة غلَب عليه أوسُ بنُ مغراء القُرَيعىّ وليلى الأخْيَلية ، ولم يكونا قريبين منه .

ومنهم الزِّبْرِقان بنُ بَدْر ، غلبه عَمرو بن الأهتَم ، وواقعتُهما بين يدىْ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم مشهورة[1] .

وقال يونس بن حبيب : وكان البَعيث مغلَّبا فى الشِّعر ، غلاَّبا فى الخُطَب .

ومن المغلَّبين فى الإسلام أيضا بَشَّار بنُ بُرْد ، غلَبه حَمّاد عَجْرد ولم يكن من أكفائه ، وقد هجاه وأنْكاه ، ومّما قال فيه :

له مُقْلةٌ عَمْياء وأسْتٌ بَصيرةٌ ... إلى الأيرِ من تحتِ الثِّياب تُشيرُ
على ودِّه أنّ الحمير تَنيكُه ... وأنّ جميعَ العالَمين حَميرُ

وغلَبه أيضا أبو الشَّمَقْمَق ، وليس بقريبٍ منه ؛ وكان يُصانِعه فى كلّ سنة بمائتىْ دينار ، ومن قوله فيه :

هَلِّلِينَهْ هلِّلِينَهْ ... طعنُ قِثّاةٍ لِتينَهْ[2]
إنّ بَشّار بنَ بُرْدٍ ... تَيْسٌ أعمى فى سَفينَهْ

ومنهم علىُّ بنُ الجَهْم ، هجاه أبو السِّمْط مَرْوان بن أبى الجَنوب فغلبه ، وهو دونَه ، وهجاه البُحترىّ أيضا ، فغلبه البُحترىّ ، وكان علىٌّ أقذعَ لسانا منه .

---

(١) انظر الخبر فى الميدانى ١ : ٢٧ (٢) الأغانى ٣ . ١٩٥ .

وأبو تمّام هجاه ابن المعذّل فغلبه ، وأبو تمام هو ما هو . وهجا ابن حجاج أبا الطيب ، فغلبه وأخرجه من بغداد .

وقولُ امرئ القيس : « ولمَ يغلِبْك مِثل مُغلَّب » أخذه أبو تمّام الطائيّ فقال يصف الخمْرَ :

وضعيفةٍ فإذا أصابتْ قُدْرةً فتكتْ كذلكَ قُدرةُ الضُّعفاءِ(١)

وقال عُمارةُ اليَمَنيّ :

وارَحمتَا منّى لِذِي جلدةٍ صحيحةٍ تحتكّ بالأَجْرَبِ
من سَفَه الدّنيا ومِن لؤمِها جُرْأةُ مَغْلوب على أغْلَبِ

والمَثَل الثالث هو قولُهم: «لو غيرُ ذاتِ سِوَارٍ لطَمَتْنى» .

قال الأصمعيّ : هذا المثل يروَى على هذا الوجه ، وذلك أن حاتماً الطائيّ مرّ ببلاد عنَزة فى بعض الأشهر الحرُم فناداه أسير لهم : يا أبا سفّانة ، أكلنى الإسار والقَمْل ، فقال : ويحك ! أسأت أن نوّهت باسمى فى غير بلاد قومى . فساوم القوم فيه ، فقال : أطلقوه وحطُّوا يدَىّ فى القيد مكانه ، فجاءته امرأة فلطمته ، فقال : لو غيرُ ذات سوار لطمتنى ! يعنى أنِّى لا أقتصّ من النساء ، فعرف ، ففَدَى نفسه فِداءً عظيما . ومعنى المَثَل : لو لطَمَنِي من كان كُفئاً لى لهَانَ علىّ ، ولكن لطَمَنى من هو دونى . وقيل: فى تفسيره : لو لطمتْنى حُرّة ، جَعَل السِّوار علامةً للحُرّة ؛ لأنّ العرب كانت قلّما تُلبس الإماءَ السِّوارَ ، ومن قول الشاعر :

ولو أنِّى بُليتُ بهاشمىّ خُئولَتُه بنو عبدِ المَدانِ(٢)
لهَانَ علىّ ما ألقَى ولكنْ تعالَوْا فانْظُروا بمَن ابتلانِى

(١) ديوانه ٣ .
(٢) لدعبل الخزاعى ، وانظر ديوانه ١٥٧

وقال الفرزدق :

وإنّ حراماً أن أسُبّ مقاعِساً ... بآبائيَ الشُّمِّ الكرامِ الخضارِمِ

أولئكَ آبائي فجئني بمثلِهِمْ ... وأبعد أن أهجُو عبيداً بدارِمِ

ولكنّ نصفاً لو سببتُ وسبّني ... بنو عبدِ شمسٍ من مَنافٍ وهاشمِ

* * *

٧٠ — وقوله : وَمالَكَ لَمْ تَمْنَعْ مِنِّي قَبْلَ أَنْ أُفْتَرَسَ ، وتُدْرِكْنِي وَلَمَّا أُمَزَّقْ .

هذا الاستفهام معناه الإغراء والحضّ والحثّ على إنجاده ، والسّرعة إلى إلى إنقاذه من هذه الشدّة .

وما أحسنَ قَول بعضِ العرَب يرْثِي قومَه :

وقدغادَرُونى بعدَهُمْ لُحْمَةَ العِدَى ... وَطُعْمة ماتَبغِى الخُصومُ العوابِثُ

أُضامُ فلا يأوِى لضَيْمِيَ مانِعٌ ... وأُظلَمَ لا يأتى لصَوْتِيَ غائثُ

وأعطى بِكَفِّى للقليلِ من الأذَى ... وقد كان يخشانى الألدُّ الماغثُ[(١)]

وحيدٌ بنفسى لا ألائِمُ منزلا
كما اعتزَلَ النُّسكَ الإماءُ الطَّوامِثُ[(٢)]

وقال أبو سعيد محمّد بن محمّد الرُّستمىّ :

فخُذْ لىَ من أنيابِ دَهْرِى بعاجلٍ ... من النّصرِ دانٍ أكرمُ النّصرِ عاجلُه

وقوله : «وتُدرِكنى ولمّا أمزّق» مأخوذٌ من بيت الممزّق العَبْدىّ ، وهو :

(١) الماغث : الرجل الذي يلاح الناس ويلادهم .
(٢) الطامث : المرأة الحائض .

فإنْ كنتُ مأكولاً فكنْ خيرَ آكلٍ
وإلا فأدرِكْني ولمّا أمزّقِ(١)

وقد تقدّم فى قصة عثمان بن عفّان رضى الله عنه ما كتب به إلى علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه ، ومن جملته هذا البيت . وهذا البيت لشأس بن نهار العبدىّ ، وبه لقّب الممزّق ، ولذلك قال عبّاد بن شأس بن نهار :

أنا الممزِّقُ أعراضَ اللئام كما كان الممزّقَ أعراضَ اللّئام أبى

ومن كلام القاضى الفاضل رحمه الله تعالى : فلولا أنّ الليلَ كان يستفيث بدُجاه ، وأدرَكَنى بالرّجاء ولمّا أمزّق ، والنّهار أنضجنى بالنّداء ولمّا أُخرّق ، لكان الزمن فى زمنه قد خلَع الجديدين ، ولم تميّز العينُ فيه بين الخيطين .

وحُكى أن المُجَيرَ السّلولى هجا قوما من بنى حنيفة ، فأقاموا عليه البيّنة عند نافع بنِ علقمة الكِنانىّ ، فأمَر بطلبه ليقيم عليه الحدّ وقال لهم : إن وجدتموه فأقيموا عليه فى ملإٍ من الناس يشهدون ، لئلا يدّعى عليكم تجاوُزَ الحدّ ، فهرب المُجَير ليلا حتى أتى نافعا ، فوقَف له متنكّرا حتى خرج من المسجد ، ثم تعلّق بثوبه ، وقال :

إليك سبَقْنا السَّوْط والسِّجنَ تحتَنا حِيالٌ يُسامِين الظِّلالَ ولُقَّحُ(٢)
إلى نافعٍ لا نرتجى ما أصابنا تَحومُ علينا السّانِحاتُ وتبرح
فإن كنتُ مجلودا فكنْ أنتَ جالدى
وإن أكُ مذْبوحا فكنْ أنتَ تذْبَحُ

فقال له : انجُ بنفسك ، فإنى سأرضِى خُصومك . ثمّ إنه بعَث إليهم وأرضاهم عنه .

---

(١) طبقات الشعراء ٢٣٢ ، واسم الممزق شأس بن نهار بن أسود .
(٢) الأغانى ، ١٣ : ٦٠ . حيال جمع حائل ، والحائل : الناقة التى ضربها الفحل فلم تحمل . ولقح : جمع لاقح ، واللاقح : الناقة الحامل . ويسامين الظلال : يبارينها .

وحُكِيَ أنَّ الصاحب شمس الدين بن السَّلعوس ، كان يَكرَه الأمير شمس الدين قراسُنْقر ؛ فحضر الملك الأشرف إلى دِمَشْق ، وبلغ قراسُنْقر عمل الوزير عليه ، فحصَّل من التقادُم شيئا كثيرا من الأكاديش[1] المليحة ، والنِّياق الغريبة ، وحضر ليلا إلى دِمَشْق ، وما أصبحَ السلطان الملك الأشرف بالقصر الأبلق إلاّ وقراسُنْقر قد ملأَ المَيْدان الأخضر بالأكاديش والنِّياق والهُجْن ، وهذا أخذ بعنان إكديش ، وعلى رأسه كُوفيَّة الأوشاقيّه[2] ، فلما رآه السّلطان قبَّل الأرض ، وقال : ياخوند[3] ، قد رَجَع المملوك إلى ما كان عليه من خدمه الإصْطَبْلات السعيدة ، كما كان أوّلا فى أيَّام الشَّهيد ، وهذه التَّقدِمه قد سُقْتُها إلى الإصْطَبلات والمُناخات السّعيدة . فقال السلطان : لأىّ شىء فعلتَ هذا ؟ فقال : ياخوند ، بَلَغنى أنّ ابن السَّلعوس يحمل علىّ ، ويغيّر علىّ خاطر مولانا السلطان ، وقد جئت أنا بنفسى ، ويأكُلُنى السَّبع ، ولا يأكلنى الكَلْب ! فأعجب السلطان ذلك منه ، وقَبِل تقدمته ، وعفا عنه ، إلا أنه تولّى نيابة حَلَب الأمير سيف بَلَبان الطباخىّ ، وتوجّه هو مع السّلطان إلى مصر .

وما أحسنَ قولَ الصّابى فى أبى الوَرْدِ البغدادىّ :

ومن عَجَبِ الايّام أن صُروفَها ... تَسوءُ امْرأً مثلِى بمثلِ أبى الوَرْدِ

فياليتَها اُختارتْ نظيراً وأنّه

رَمانِى بشنعاء الدّواهى على عَمْدِ

فكم بين مَقْتور الكلابِ وإنْ نَجا

ذَليلاً ومقتولِ الضَّراغِمَةِ الأسْدِ

---

(١) الأكاديش : جمع أكديش ، وهى ضرب من الخيل . وانظر دوزى .

(٢) كوفية أو قاشية ، منسوبة إلى الأوقاش ، وهو الذى يتولى ركوب الخيل للرياضة ، صبح الأعشى ٩ : ٤٥٤ .

(٣) خوند : لفظ تركى ، ومعناه السيد أو الأمير ، وانظر حواشى السلوك ٤٥٤ .

٧١ — وقوله : أَمْ كَيْفَ لَا تَتَضَرَّمُ جَوَانِحُ الأَكْفَاءِ حَسَداً لِي عَلَى الخُصُوصِ بِكَ .

تتضرَّم : تتوقد . والجوانح : جمع جانِحة ، وهى الأَضلاع التى تحت التَّرائب مما يلى الصَّدْر .

والأَكفاء : جمع كافٍ ، وهو الرَّجل الَّذى يكفيك ما أهمَّك من الأمور ، والَّذى هو كُفْءٌ لغيرِهِ فى الحَسَب والنَّسَب وغيرِ ذلك ، فهو عديلُه . وقوله صلى الله عليه وسلم : « المسلمون تتكافأ دماؤهم » ، ولذلك قيل : إنَّ أن أبا الرَّبيع الغَنَوىَّ ، قيل له : أيَسُرك أنَّ تحتَك ابنةَ يزيدَ بن المهلَّب ؟ قال : لا والله ؛ قيل : ولك ألف دينار ، قال : لا والله ، قيل : ولك الجنَّة . فأطرق مَلِيًّا ثمَّ رَفَع رأسَه وقال : على ألاَّ تَلِدَ منى ، وأنشدَ :

تأبى لِيَعْصُر أعراقٌ مُهَذَّبةٌ ... من أن تناسِبَ قوماً غيرَ أكفاء[1]
فإن يكن ذاكَ حَتماً لا مردَّ له ... فاذْكر حُذَيْفَ فإنّى غيرُ أَبّاء

ويقال : فلان كِفْءُ فلانٍ ، وكُفُوُه بضم الكاف والفاء . وقد قُرِئ بهما فى قوله تعالى : ﴿ ولم يكن له كفوا أحَدٌ ﴾ . والكفاءة فى النِّكاح عند الإمام الشافعىّ رضى الله عنه واجبة ، فلا يجوز لأحدٍ من الأولياء أن يزوِّج المرأة من غير كفء إلاّ برضاها ، ورضا سائر الأولياء ، فإذا رضُوا بإسقاط الكفاءة صحّ النكاح ، خلافاً للإمام أحمدَ بنِ حَنْبل رضى الله عنه ، حيث ذَهَب إلى أنّ الكفاءة شرْط فى الصّحة ، وقال الأصحاب : وسبيلُ من سَلَك الطريقَ القَطْعى فى بُطلان مَذْهبه ، واضْمحلال رأيه أن يقول رادًّا على الخصْم : فقد تزوّج علىُّ بنُ أبى طالب رضى الله عنه فاطمةَ بنتَ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم

(١) الشعر والخبر بتفصيل أوسع فى الكامل للمبرد ٢ : ٢٠٥ .

وأبوه كافر، وأبوها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والكفاءة سبعة أمور، وهي: الدِّين، والنَّسب، والصناعة، والحُرِّية، والنقاء من العيوب، واليَسارُ على أحد الوَجْهين، وألاّ يكون الزَّوْج مولىَ الزَّوْجة أو أهلها؛ فموالي قريش ليسوا بأكفائهم. وفي وجه أنّهم أكفاء، لأنّ مواليَ القوم منهم، وقد نَظَم ذلك بعضُ الأفاضل فقال:

شرطُ الكفاءة ستّةٌ قد حُرِّرَتْ ... ينبيك عنها بيتُ شِعْرٍ مُفرَدُ

نَسَبٌ ودينٌ صَنْعةٌ حُرِّيةٌ ... فَقْدُ العُيوب وفي اليَسارِ تردّدُ

وما أحسن قول القائل:

إنْ يَحسُدوني فإنّي غيرُ لائِمِهمْ ... قَبْلي من النّاس أهلِ الفَضْلِ قد حُسِدُوا[1]

أنا الّذي وَجَدوني في حُلوقِهِمُ ... لا أرتَقِي صَدَراً مِنْها ولا أَرِدُ

ويقال: إنّ بعض الفضلاء حسده جماعة من أهل عصره، واتفقوا أن كتَبُوا فيه مَحضرا، وشَهِدوا عليه فيه بشهاداتٍ تؤدِّي إلى تكفيره، واستفْتَوْا عليه أهلَ العَصْر في ذيْل المكتوب، وأحضروه إلى الشيخ تقيّ الدين ابن دقيق العيد ليَكتُب فيه بالتّكفير، فأخَذَه وكَتَب:

حَسَدُوا الفَتَى إذْ لم يَنالُوا سَعْيَه ... فالكلُّ أعداءٌ له وخُصُومُ[2]

فلما رأوا ما كَتَب به الشيخُ رحمه الله تعالى توقّفوا، وتفلّلتْ شَوْكتُهم وعزائمُهم، وبَطَل ما كانوا يَصْنَعون.

---

(١) أمالي المرتضى ١ : ٤١٤ ونسبهما إلى الكميت بن زيد، وهما أيضاً في شرح المختار من شعر بشار ٦٧ وشرح نهج البلاغة ١ : ٣١٨ من غير نسبة.

(٢) لأبي الأسود الدولي، ملحق (ديوان) ٥

وقال الشاعر :

إنّ المُقدَّمَ في حِذْقٍ بصَنْعَتِه ... أنَّى توجَّه منها فهو محسودُ

وأنشدني لنفسِه إجازةً الشيخُ صفيُّ الدين عبد العزيز الحِلّيّ :

مولاي دعوةَ عبدٍ غيرِ مفتتنٍ ... بشِعره ، وله الحُسّاد قد شَهِدُوا
قد صُنْتُ شعرِي وكلُّ النّاس تَخْطُبُه ... وذاكَ لولاكَ لم يَظْفَرْ به أَحَـــدُ
بك انتصرْتُ على الأيام منتصِفاً ... وصار لي فوقَ أيدِي الحادِثاتِ يَدُ
وكيف تَعجز كَفِّي أنْ أنالَ بهـا ... هامَ السِّماكِ ، وأنتَ الباعُ والعَضُدُ

وكتبت أنا إلى من أحسن إليّ ، أحسَنَ الله إليه :

تُبالِغ في جبْرِي إذا كنتُ حاضِراً ... فأزدادُ إشفاقاً بذاك وإسعادَا
وأنتَ تُثْني بالّذي أنتَ أهلهُ ... فيزداد قَدْري بالمراتب إصْعادَا
وكان الورَى من قبلِها يرحمُونَني ... فَصيرتَهمْ لي بعد ذلك حُسّادَا

* * *

٧٢ — وقوله : وَتَنْقَطِـعُ أَنفاسُ النُّظَرَاءِ مُنَافَسَةً فِي الْكَرَامَةِ عَلَيْكَ .

أنفاس جمع نَفَس ، وقد تَنفّس الصُّعَداء ، وكلّ ذي رِئة يتنفّس ، ودوابّ[1] البحر لا رِئات لها . والنُّظَراء جمع نظير ، وهو المماثل .

---

(١) ط : « وذرات الماء لا رئة لها » .

والمنافسة : غاية الرّغبة فى الشىء على وجه المباراة لغيرك .

كتب القاضى الفاضلُ رحمه الله إلى المَلِكِ النّاصر صلاح الدّين يوسف بن أيوب ، وقد بلغه كلامٌ عن المَلِكِ العادل : قد بَلَغ المملوكَ ما أنكره المولى العادل من الإكرام ، وتَوالى الإنعام بعد الإنعام ، ونَسِىَ أنّ آثار السيوف طاحتْ وبقيتْ آثارُ الأقلام . وكم للخادم من موقفٍ مَشْكور ، يَعجز عنه السّيف المَشْهور ، والعلَمَ المنشور . والعادل يُمَنِّى نفسَه ؛ فأدامَ اللهُ أيّامَ مولانا ما دامت السمٰوات والأرض ، وإن تقدم المملوكُ فهو أكبر مُرادِه ، وإن تأخر لشِقْوَته فما يخرج الأمر عن السادة الملوك من أولاده .

قلت : إنّما كتب القاضى الفاضل بهذا الفصل لأنَّ العادلَ قال وقد بلَغَه تَواتُر الإنعام على القاضى الفاضل : وكم القاضى الفاضل ، القاضى الفاضل ! أَيش يَعمل الفاضل حتّى يستحقّ هذه الإنعامات !

وكان المَلِكُ الناصر صلاح الدّين رحمه الله يقول : والله ما فتحتُ البلادَ إلاّ بأقلام القاضى الفاضل .

وقال أبو الطيِّب فى مَدْح كافور :

وغيرُ كثيرٍ أن يَزُورَكَ راجلٌ فيَرجِعَ مَلْكا للعراقينِ واليا[1]

* * *

(١) ديوانه ٤ : ٢٩٠

٧٣ — وقوله : وقد زانني اسْمُ خِدْمَتِكَ ، وَزَهانِي وَسْمُ نِعْمَتِكَ

زَهى : الزَّهْوُ : المنظر الحسن ، يقال : زُهِيَ الشيءُ لعَيْنِك ، وزُهِيَ الرجلُ فهو مَزْهُوّ ، أي تكبّر ، والعرب لا تنطق بهذا الفعل إلاّ مُغيّرًا لِما لم يُسَمَّ فاعلُه .

والوسم : العلامة ، هذا من باب المُغالَطة والمكابرة ، وهو ضربٌ من سِحر الكلام ، وهو أن يقول المخاطب لمن يريد استمالته للعطف عليه ، والانقياد له مغالطا : أتفضّل لى هذا ، ومازلت فى بِرّك وحُسْن صنيعك ، وجميلِ معروفك ! وما أحسنَ قولَ أبي جعفر الخرّاز فى المعتمد بن عبّاد :

ومازلتُ أجْنِي منك والدهر مُمْحِلٌ … ولا ثَمَرٌ يُجنَي ولا زَرْعَ يُحصَدُ

ثمارَ أيادٍ دانياتٍ قُطوفها … لأغصانها ظِلٌ علىّ ممدَّدُ

يُرَى جارياً ماء المكارمِ تحتَها … وأطيارُ شكْرى فوقَهن تغرِّدُ

وقول البُحترىّ :

أَلَنتَ لىَ الأيّامَ من بعد قَسْوَةٍ … وعاتبتَ لى دَهْرى المسىء فأَعْتَبا(١)

وألبَسْتَنى النُّعمى التى غيّرتْ أخِي … علىَّ ، فأمسَى نازحَ الوُدِّ أجنبَا

وقال أبو فِراس بن حَمْدان :

أمّا أياديكَ عندى فهىَ واضحةٌ … ما إن تَزالُ يدٌ منها تَسوقُ يدَا

لِمْ لا أَمُدّ يدِى حتّى أنالَ بها … مَدَى النُّجوم ، إذاما كنتَ لى عَضُدا

وقال أيضاً :

وإنّك لَلمولَى الذى بكَ أقتَدِي … وإنّك لَلنّجمُ الذى بك أهتَدِى(٢)

---

(١) ديوانه ١ : ٥٦

(٢) ديوانه : ٨٠ نشرة الدهان

وأنتَ الذى بلّغْتَنى كلّ رُتْبَةٍ   مشيتُ إليها فوقَ أعناقِ حُسَّدِى
فيامُلْبِسِى النُّعْمَى الّتِي جلّ قدرها   لقد أخلقَتْ تلك الثيابُ فجَدِّدِ

وقال أيضاً :

أَلبَسْتَنِي نِعَما على نِعَمٍ   ورَفعتَ لى عَلَما على عَلَمِ
وعلوْتَ بى حتّى مَشَيْتُ على   بُسُطٍ من الأعْناق والقِمَمِ

وقال بعضهم :

لا تَهجُروا من لا تَعوّدَ هَجرَكمْ   وهو الّذى بِلِبانِ وصلكمُ غُذِى
ورَفعتُمُ مقدارَه بالإبتدا   حاشا كمُ أن تَقْطعوا صِلَةَ «الّذى»

وقال أبو سَعيد محمّد الرُّستمىّ :

ووَسائِلِى ما قَدْ علمتَ ولايةٌ   مذ كنتُ أعهدُها وصَفْوُ وِدادِ
هذا وحُرْمة خِدمةٍ مَرْعِيَّةٍ   للأبعدين قريبةِ الميلادِ
مازلتُ من أبرادها متوشِّحاً   بمفوّفٍ يُزْهَى على الابْرادِ

وقال ابن المعلّم :

أمولاىَ نُعماكَ التى ملأتْ يدِى
فطالتْ ، وَجَدْواكَ التى نوّهتْ باسْمِى
وكيفَ ـ وقد شيّدْتَ مجْدى وزِدْتَنى
على الرّسمِ ـ لا أجزيك مِنّى على الرّسْمِ

ومن رسالةٍ كَتَب بها صالحُ بنُ صالح الشنتريني :

ولستُ أَضرب المَثل فى سُقوطى عليك ، وأنجذا بى إليك ؛ ولكنّى أقول : أسقط سُقوطَ الطّل على الرّياض ، وأتزيّن بخدمتك تزيُّن الجمالِ بالبَياض .

٧٤ — وقوله : وأَبْلَيْتُ البَلاءَ الجميلَ في سِماطِكَ ، وقُمتُ المَقامَ المَحْمُودَ في بساطك .

أبليت : جرّبت وأختبرت ، والبَلاء : الاختبار ، والمقام بين السّماطين من المقامات الزّلقة الدّاحضة ، حتّى قال أعرابىّ :

بَرِئْتُ إلى الرّحمٰن من كلّ صاحبٍ
أصاحِبُه إلاّ جمّاس بن نائلِ[1]

وظنّى به بين السّماطَين أنّه سيَنجو بحقّ أو سيَنجو بباطِلِ

وقال أبو سعيد محمّد بن محمّد الرُّستَمىّ :

وما كنتُ — لولا طِيبُ ذكرك — شاعراً
ولا مُنشِداً بين السّماطين في حَفْلِ

ولكنّنِي أقضى به حَقّ نِعمةٍ سَرَتْ مَثَلاً لمّا وَسمت به عَقْلِي

وقال كمال الدين بن النَّبيه :

ألمْ ترَنى بين السّماطَين مُنشِداً كأنّى على شاهَ أرْمَنٍ أنثر الدُّرّا[2]

فقوله : « وأبليْتُ البَلاءَ الجميلَ » أى بعد صبرِه عليه ، واختبارِه له ، وتجْرِبته له في مَواطِنِ البَلاء .

وما أحسَنَ قولَ الأمير شديدِ المُلْك بن مُنقِذ :

يَجني فأعرِف مايَجنِي فأُنكِرُهُ ويدّعى أننى الجانى فأعترفُ

وكَم مُقامٍ لما يُرضِيه قمتُ على جَمرِ الغضى وهو عندى رَوضة أُنُفُ

---

(١) العقد ٣ : ١٥ من غير نسبة ، وفيه « عراك بن نائل » .
(٢) ديوانه ٥١ .

وقول أبي الحسين الجزّار :

لستُ أنسى وقد وقفتُ فأنشدْ ... تُ قصيداً يفوقُ نظمَ الجمانِ
كلّ بيت يُزْرى على خلَفِ الأحـ ... ـمرِ بالحسنِ وهو شيخُ ابنِ هانِي
ببديعٍ يحارُ في نظمه الطّا ... ئىُّ بل مُسلمٌ صريعُ الغواني
ومديحٍ ما نالَ جودته قدْ ... ماً زيادٌ في خدمةِ النُّعْمانِ
قمتُ وسْطَ الإيوانِ بين يدَىْ مَلْـ ... ـكٍ تسامى على أنوشِرْوانِ

وما أحسن ما مت به أبو تمّام بقصائده ، فقال :

وأين قصائدٌ لى فيك تأبى ... وتأنفُ أنْ أُهانَ ، وأن أُذالاَ (١)
مِن السِّحْرِ الحلالِ لمجْتنيهِ ... ولم أرَ قبلَها سحراً حلالا

وقال ابن قلاقس من مرثية :

ولمّا سرَى بى نحوَه الوجْدُ قاصداً ... ولم أستطعْ عقْراً عقرتُ القوافيَا
وقمتُ بها بين السِّماطين معْوِلاً ... أقلّ المراثى أن تسُدّ المرازِيا

وقال ابن الساعاتيّ :

أردِّد لحظَ ظنّى فى وُجوهٍ ... من الآمالِ كاسفةِ الصّباحِ
وقد أعدَتْ جُفونُ الغيد حظِّى ... وليستْ بالمراضِ ، ولا الصِّحاحِ
وكم لى فيكَ من عذْراء زُفّتْ ... لِفهمِك فى غُدُوٍّ أو رَواحِ
مِن الغيدِ الحسانِ بلا شبيهٍ ... فكيف يفوتُها حظُّ القباحِ

---

(١) ديوانه ٢٦٧ ـ بيروت

٧٥ — وقوله :

أَلستُ المُوالى فيكَ غُرَّ قَصائدٍ هى الأنجُم اقتادتْ مع اللَّيلِ أنجُما
ثَناءٌ يُظَنُّ الروضُ منه منوَّرًا ضُحًى ويخالُ الوَشْىَ فيه منمنَما

المُوالى : اسمُ فاعل ، من وَالَى الشىء ، إذا اتبعه بعقبه .

واقتادت : « افتعلَتْ » من القَوْد . منوّرا « مفعَّلا » من النَّوْر الموشَّى ، وهو الزّهر .

والوشْى هو ضَرْب من حُلَل الحرير ذو ألوان ، والمنمنم هو الثوب الموشَّى ، وهو ذو الألوان ، ولا بدّ فى تلك الألوان من لون البَياض .

وهذان البَيْتان من قصيدةٍ للبُحترىّ ، يعاتِب بها الفَتْحَ بن خاقانَ أولها :

يهُون عليها أنْ أَبِيتَ مُتيَّماً أعالِجُ وَجْداً فى الضَّميرِ مكتَّما[1]
وقد جاورَتْ أرض الأعادِى وأصبحتْ
حمًى وصلُها مذْ جاوَزَت أبْرَقَ الحمَى

وقبل هذين البيتين من هذه القصيدة ، يليق بهذه الرّسالة لو أورده ، وهو :

أُعيذُك أن أخشاكَ من غيرِ حادثٍ تبَيَّنَ أو جُرْمٍ إليك تقدَّما

---

(١) القصيدة فى ديوانه ٢ : ٢٢٧ — ٢٣٠

وبعد البيتين اللذين في الرّسالة يقول البحتريّ :

ولو أنّني وقّرتُ شعري وقاره ... وأجللتُ مدحي فيك أن يتهضّما
لأكبرتُ أن أومي إليكَ بإصبع ... تضرّعُ ، أو أدني لمعذرةٍ فما
وكان الذي يأتي به الدهرُ هيّناً ... عليّ ، ولو كان الحِمامُ المقدّما
أعِدْ نظراً فيما تسخّطتَ هل ترى ... مقالاً دنيّاً ، أو فعالاً مذمّما
حياءً فلم يذهب بيَ الغيّ مذهباً ... بعيداً ، ولم أركبْ من الأمر مُعظَما
ولمْ أعرفِ الذنبَ الذي سؤتني به ... فأقتلَ نفسي حسرةً وتندُّما
ولو كان ما خُبّرتهُ أو ظننته ... لما كان غرْوًا أن ألوم وتكرُما

وهذا البيتان لأبي عُبادةَ البُحتُريّ مأخوذان من قولِ أبي تمّام [1] :

ووالله لا أنفكّ أهدي شوارداً ... إليك تحملنَ الثناء المبجّلا
تخالُ به بُرْداً عليك مُحبّرا ... وتحسبها عِقْدا عليكَ مُفصّلا
ألذّ منِ السّلوى وأطيبُ نفحةً ... من المسكِ مفتوتاً وأيسر محملاَ
أخفّ على قلب وأثقل قيمةً ... وأقصر في سمْع الجليسِ وأطوَلاَ

وقوله : « هي الأنجم اقتادت مع الليل أنجما » أخذه البحتريُّ أيضا : منه في قوله :

أصِخْ تستمعْ حُرّ القوافي فإنّها ... كواكبُ إلاّ أنّهنّ سُعُودُ
ولا تُمكنِ الإخلاقَ منها فإنّما ... يَلَذُّ لِباسُ البُرْد وهوَ جديد

إلاّ أنّ البُحتريّ قصّر عن أبي تمّام كلّ التقصير .

---

(١) ديوانه ٢٥٥ .

٧٦ — وقوله : وهل لَبِسَ الصباحُ إلا بُرْداً طرزته بفضائلك .

قد جرت العادةُ بين البُلغاء وفُرْسان البيان وأرْباب النَّثْر والنّظم أن يستعيروا للثناء — وهو شيء يُدرَك بالسمع — أشياء تُدرك بحاستي البَصر والشمّ ، فيقولون : ثناءٌ كأنه المِسْك الأذفر ، أو زَهْر الرَّوْض الأنضر ، أو كالنجوم الزاهرة ، أو البرود المَرْقومة ، أو كأنفاس النَّسيم السَّحَريّة . ومن هذا وأمثاله ، لأنّهم يريدون المبالغة فيما وَصَفوه[1] .

قال الإمام فخر الدين : الاستعارة ذِكْرُ الشيء باسم غيره ، وإثبات ما لغيره له لأجل المبالغة في التشبيه ، ووجهُ تشبيه الثَّناء بالمِسك ، وبأنفاس الرِّياض في السَّحَر ، هو أنّ الثناء الحَسَن يقال فيه : فلانٌ طيِّب الثَّناء ، فاستعاروا له رائحةَ المِسْك ، وأنفاسَ الرِّياض ، فقالوا : ثناءٌ كالمِسْك ، ووجْهُ تشبيه الثّنايا بالكواكب وبالصَّباح وبغير ذلك ، هو أنّ الثَّناء الحَسَن يقال فيه : إنّه لا يَخفَى وصفُ فلانٍ على أحد ، ولا أوضحَ للعَين من النّجوم ، ومن الصّبَاح . ووجه تَشْبيه الثّناء بالبُرود المرقومة هو أنّ الثّناء الحسَن يقال فيه : فلانٌ يحوكُ أوصافَ فلان ، ويَنسِجها على مِنوالٍ غريب ، ويَرقُم بُرودَها ؛ وما يريدون بذلك إلاّ المبالغة ، لأنّه صار بحيث يدرَك بعد حاسّة السّمع بحاسّتي البَصَر والشّمّ .

وما أحسنَ قَول محمّد بن غالب الرُّصافيّ :

أجرِي حديثَك ثمّ أعلمُ أنه ... قولٌ يقال وعَرْفُه مشمومُ

أمّا إذا قالوا : ثناءٌ يَهُزّ الأعطاف ، ويُطرِب الأسماع ، فهو على أصلِه فيما يدرك بحاسّتي السمع ؛ نعم يَستعيرون له سَجْع الحمَام وتغريده ، وأصواتَ المَثاني والمَثالث ، ونَغَمات الألحان .

---

(١) م : « وصف » .

فقول ابنِ زيدون رحمه تعالى : « وهل لَبِس الصُّبح إلاَّ بُرْداً طرّزته بفضائلك » ، من هذا الباب الّذى قدّمته ، وكذلك مابعدَه إلى قوله: « وبثّ المِسك إلاّ حديثا إذعتَه عن محامِدِك » .

وما أحسنَ قولَ ابنِ عُنين :

يُهدِى إليك من الثّناء مَلابساً ... تَصْفو وتصْفُو من قذَى الأطماعِ(١)
مصقولَةَ الألفاظِ يَلقاها الفَتى ... من كلّ جارحةٍ بسمعٍ واعِ

* * *

٧٧ — وقوله : وتَقَلَّدَتِ الجوْزاءُ إلاَّ عِقْداً فَصَّلْتُه بمآثِرِكَ .

الجَوْزاء أحد البرُوج الاثنَى عشر ، وهى عدّة كواكب ، ومن صورته ثلاثةُ كواكبَ ، صُفّت على قَدْرٍ واحدٍ فى الهيئة والبُعْد يسمّى منطقة الجَوْزاء ، وإيّاها قصد ابنُ زَيْدون .

وفصّلتُه : جعلتُه فصُولا .

والمآثِر جمعُ مأثُرة ، وهى المَكْرُمة ، لأنّها تؤْثَر ، أى يُتحدّث بها وتُذكَر فى النّاس .

وما أحسَنَ قولَ أبى بكر يحيى بن بقىّ الأندلسىّ :

عليكَ أبا عبدِ الإلهِ خلعتُها ... لها البدرُ طَوْقٌ والنجُوم دلائلُ
وماهىَ إلاّ الدّهر فى طُول عُمرِها ... وإن لم يكن فيها الضّحى والأصائلُ

قلت : إلاّ أنّه هجّن البيت الثانى بنَفْى الضّحى والأصائل عنها ؛ ولو قال :

---

(١) ديوانه ٢٥ .

* وحُسْن الثنا فيها الضُّحَى والأصائلُ *

لكان قد كَمل نَسجُه ، وجَمُلَ نَهْجُه .

وقال شرف الدين بن عُنين :

ومقصِّرٍ عن بعضِ ما أثنيتُه
شُكْرى وإن كنتُ الفصيحَ المُسْهِبَا (١)
ولو أنّنى نظَّمتُ فيك قلائد الْ جَوْزاء كنتَ أجلَّ منها منصبا

وقال حسّان بن المصّيصى الشبلىّ :

وجدتُ مَعاليك أصلاً لشِعرى وهل يُنظَمُ الدُّرّ لولا النِّصَاحْ (٢)
لك الفَضْل إنْ طابَ شُكْرِى ونَشْرِى
بطِيبِ الرِّياض تطيبُ الرِّياحْ

* * *

٧٨ — وقوله : واستملَى الربيع إلا ثناء مَلأْتَهُ من محاسنك .

تقول : أمليتُ الكتابَ أُمليه ، وأملَلْتُه أُملّه ؛ لُغتان جيّدتان جاء بهما القرآن المجيد . واُستمْلَيْتُه الكتابَ ، سألتُه أن يمليَه علّى ، أى يقول لك بما فيه ، وقد أَتى بالجِناس بين قوله : «ملأته» و «استملى» ، وهو جناس اُشتقاق على قولٍ ، واستعارَ الاستملاء للرّبيع ، والمَحْل للمحاسن ، فأحسَنَ فى كلّ ذلك . وما أحسَن قولَ أبى فِراس بن حَمْدانَ :

وما زالَتْ رِياحُ الشِّعْر شتَّى فمِن رَيَّا الهبوب ومن سَموم
مَنَحْتُك من محاسِنِها بَديعاً مقيم الزّهر سيّار النّسيمِ

---

(١) ديوانه ٤٠ . (٢) النصاح : السلك الذى ينظم الخرز .

وقال أبو سعيد محمد بن محمد الرستمى :

قريضٌ كساهُ المزنُ أثوابَ روضةٍ
فراقَتْ أعاليه ورقَّتْ أسافِلُهْ
يطيبُ على الأيام ريّا نشيدِهِ
وأطيبُ من ريّاه ما أنتَ فاعِلُهْ

وقال ابن المعلم :

ولم يكُ إلاّ عاطلاً فكسوْته
حُلَى بيواقيتِ العلاءِ ترصَّعُ
كذاكَ اكتسى من نَشْرِك الشّعر نفحةً
وها هى فى أعطافه تتضوَّعُ

وقال بعضهم :

حدّثتُ عنكَ غصونَ البانِ فانعطفَتْ
ومال بالشُّكرِ منها كلُّ ميّادِ
لم يَبْقَ فى الرَّكْب من لاهزَّه طَرَبٌ
إلى لقائكَ حتّى سَرْحة الوادى

* * *

٧٩ — وقوله : وبثّ المسكُ إلا حديثا أذعتُه فى محامدِك .

بثّ الخبرَ وأبثّه بمعنى نشره، يقال بثثتك سرى ، أى أظهرته لك وبثثت الخبر فانْبَثّ ، أى انتشر . وذاعَ الخبرُ ، يذيع ذيْعا وذُيوعا وذيوعةً وذيعانا ، أى انتشر ، وأذاعه غيرُه ، أى أفشاه . وفى الحديث « ليسُوا بالمذاييع البُذْر » .

والمحامِد جمعُ محمَدة ضدّ المذمّة ، وقد استعارَ الحديثَ لرائحةِ المسك، وهى استعارةٌ حسنة .

(١) البذر : جمع بذور ، يقال : بذرت الكلام بين الناس كما تبذر الحبوب ، والحديث فى ابن الأثير ١ : ١١٠ .

وما أحسنَ قولَ أبي عبدالله محمّد الرُّصافي رحمه الله :

هذي مساعي ابن حربون وكيف بها
فبارها شرفاً بأنجم أو ساري

فهل نسائمُ مِسك تنشُرون معي ، أم تقطفون معي أكمامَ أزهاري

حتّى لقد خِلتُني شَمَمت بينهم خمراً فمن بين مخمورٍ وخمّار

وقوله أيضا :

أُجري حديثَك ثمّ أعجَبُ أنّه قولٌ يقال وعَرفُهُ مَشمومُ

فبكلِّ أرضٍ من ثنائك شائعٌ عَبِقٌ كما وَلَجَ الرّياض نَسيمُ

يَسري فلا يَخفَى على مُستنشِقٍ ولو أنّه عن أذنهِ مَكتومُ

يُطوَى فيَنتَشِرُ الثّناء بَطَيّه ذكرُ الكريم بعنبرٍ مختومُ

وقال ابن حيّوس :

وطيبُ ثناء طبّق الأرضَ فاكتَست
مَشارِقها من عَرفه والمَغارِبُ(١)

وقوله أيضا :

أعانَتْ على إدراك ما تستحقّه طَريقتُك المُثلَى وهِمّتك البِكرُ(٢)

والثّناء هو العمر الثانى المديد الباقى الخلد .

وقال الحادرة :

فأَثنُوا علَينا لا أبَا لأبيكُمُ بأحسابِنا إنّ الثناء هو الخُلدُ(٣)

وقال الشّاعر :

وإذا الفتَى لاقَى الحِمامَ وَجدْتَه لولا الثّناء كأنّه لم يُولَدِ

---

(١) ديوانه ١ : ٢٦ .
(٢) ديوانه ١ : ٢٤٥ .
(٣) البيان والتبيين ٣ : ٣٢٠ .

وقال عمر بنُ الخطّاب رضى الله عنه لابنة هَرِم بن سِنان المُرّىّ : ماوَهَب أبوكِ لزُهَير ؟ قالت : أعطاهُ مالاً وأثاثا أفناه الدّهر ، فقال عمر رضى الله عنه ، لكنّ ماأعطا كُموه لا يُفنيه الدهر .

وقال الشّريف الرّضِيّ :

أودَى وما أودَتْ مَنا قِبُه ومِن الرّجال معمَّرُ الذِّكْرِ (١)

وقال معاوية رضى الله عنه لابن الأشعث بن قيس : ما كان جَدُّك قيس بنُ مَعدِي كَرِبَ أعطَى الأعشى ؟ فقال : أعطاه مالا وظَهْرا ورَقيقا وأشياء نسيتُها ، فقال معاوية : لكن ما أعطاكم الأعْشَى لا يُنْسَى .

وقال أبو الطّيّب :

ذِكْرُ الفتى عُمرُه الثّانى وحاجَتُه ما قاتَهُ ، وفُضُول العَيْش أشغالُ (٢)

وقال المفسّرون فى قوله تعالى: ﴿واجْعَلْ لى لسانَ صِدْقٍ فى الآخرِين﴾ (٣): أى ثَناء حَسَنا .

وقال أبو إسحاق الغزّىّ :

المالُ يُفْنِيه الزمان وإنّما يَبقَى لكُمْ ماخلّدَتْه شَوارِدِي

وقوله أيضا :

فشُهْب الدّرارِى للأفولِ طُلُوعها وشُهْب القوافِي مالهنّ أفُولُ

وقد خالف الناسَ أبو تمّام الطائىّ فى هذه الطريقة ، فقال :

لئن بَقِيتَ لِى فيكَ آثارُ مَنطِقٍ لقد بقيتْ آثارُ كَفّيْكِ فى دَهْرِى (٤)

---

(١) ديوانه ٣٧٣ (٢) ديوانه ٣ : ٢٨٨

(٣) سورة الشعراء ٨٤ (٤) ديوانه ١٤٤

لقيتَ صُروفَ الدّهر دونيَ تابعــــا
لأمر العُلا وأختَرتَ شُكرى على عُذرِى
فأوليتَنى فى النّائبات صنائعاً كأنّ أياديها فُجرنَ من البَحْرِ
خــلائق لو كانتْ من الشعر سَمّجتْ
بدائعُها ما أُستحسن الناسُ من شِعْرى
فعلّمْتَنى أن أُلبِسَ الحمدَ أهلَه وذكّرتنى ماقد نسيت من الشُّكر

وقال عُمارة اليَمَنى فى المـادّة الأولى :

وأين الثّياب المُذْهَبات قشيبةً ولى مُذْهَبات فيك ليست بأسْمالِ
سيَبْلَى على قُرْبٍ جديد فَعالـكمْ وتَبقَى على مرّ الجديدَين أقْوالِى
ويُعْطَلُ جِيدى من حُلِىٍّ نَداكمُ وجيدُ مَعاليكمْ بها أبداً حالِى

وقال أبن دَرّاج القَسْطَلّى :

أبا الأَصبَغ المغنىّ هل أنت مُصْرِخى؟
وهل أنتَ لِى مغنٍ وهل أنتَ لِى مُعْلِ (١)
فأكسُولكَ الايام من خَزّ ماأشى وأملا سَمْعَ الدهرمِنْ سِحرماأُملِى!

* * *

٨٠ — وقوله : مايومُ حليمة بسِرّ .

هذا مَثَل من أمثال العرب ، وأصلُه أنّ حليمةَ بنتَ الحارث بن أبى شِمر ، كان أبوها قد وَجّه جيشا إلى المُنذِر بنِ ماء السّماء ، فأخرجَتْ لهم طِيبا فى مِرْكَن فطيّبتْهُمْ .

قال المبرّد : هو أشْهَرُ أيام العرب ، يقال : أرتفعَ فى هــذا اليوم من

(١) ديوانه ٤٦ ، ٤٧ .

العَجاج ماغطّى عَين الشّمس ، حتّى ظهرتِ الكواكب . وهو يُضرب فى كلّ أمرٍ متعاظمٍ مَشْهور ، قال النّابغة فى وَصْف السُّيوف :

تُوُرِّثْنَ من أزمانِ يوم حليمةٍ
إلى اليومِ قد جُرِّبْنَ كلَّ التّجاربِ[1]

تَقُدُّ السّلوقىَّ المضاعَفَ نَسْجُه وَيُوقِدْن بالصُّفّاح نارَ الحُباحِب

وذكر عبد الرحمن بن المفضّل عن أبيه ، قال : لمّا غزا المنذر بنُ ماءِ السّماء غزاتَه التى قُتِل فيها ، وكان الحارث بن جَبَلة الأكبر مَلِكُ غسّان يخافه ، وكان فى جيش المُنْذِر رجلٌ من بنى حنيفة يقال له : شَمِر بن عَمْرو ، وكانت أمّه مِن غسّان ، فخرج يتوصّل بجَيْش المنذر ، يريد أن يَلحَق بالحارث بنِ جَبَلَه ، فلمّا تَدانَوْا سارَ حتّى لحق بالحارث ، فقال : أتاك ما لا تُطيق ، فلمّا رأى ذلك الحارث ، نَدَب من أصحابه[2] مائةَ رجل اختارهم رَجُلا رجلاً ، فقال : انطلِقوا إلى عسكر المُنذر فأخبِروه أنّا نَدِين له ، ونُعطيه حاجتَه ، فإذا رأيتم منه غِرّةً فاحملوا عليه . ثمّ أمرَ ابنتَه حليمةَ بنتَ الحارث فأخرجتْ لهم مِرْكَناً فيه خَلُوق[3] ، فخرجتْ إليهم فخلّقتْهم ، وهى من أجملِ النساء ، حتّى مرّ عليها فَتًى منهم ، يقال له : لَبيد بن عمرو ، فذهبتْ لتُخَلِّقَه ، فلمّا دنَتْ منه قبّلها ، فلطمَتْه ، وأتت أباها فأخبرتْه الخبر ، فقال لها : وَيْلَكِ ! اسكُتِي عنه ، فهو أرجاهُمْ عِندى ، وأَكفؤُهم . ومَضَى القومُ ومعهم شَمِر بن عَمرو الحَنَفى ، حتّى أتَوا المُنذِر ، فقالوا : له أتيناك من عند صاحبِنا ، وهو يدِينُ لك ، ويُعطيك

---

(١) ديوانه ٦ .

(٢) ط : « رجاله »

(٣) المركن : إناء يتخذ للماء وغيره ، والخلوق : ضرب من الطيب ؛ قيل : هو الزعفران .

حاجَتك ، فباشر أهل عسكر المُنذِر بذلك ، وغفلوا بعضَ الغفلة ، فحملوا على المُنذر فقتلوه ، فقيل : ليسَ يومُ حليمةَ بسِرّ ؛ فذهبت مَثَلا .

قال أبو الهيثم : (١ إنّ العرب تسمّى بلقيسَ حليمةَ العرب ١) .

* * *

٨١ — وقوله : وإن كُنْتُ لَمْ أَكْسُكَ سَلِيباً ، ولا حَلَّيْتُكَ عَطِلاً ، ولا وَسَمْتُكَ غُفْلاً .

أَكْسُكَ : أصلُه أكسُوك من الكِسْوة ؛ ولكن حُذِفت الواو لدخول الجازم على الفعل المضارع ، تقول : لم أغزُكم ، ولم أجفُكم ، ولم أنحُكم ، وأصلُه : أغزُوكم ، وأجفُوكم ، وأنحوكم .

سليباً أى مَسْلوبا ، تقول : سَلبتُ الشىء أسلُبه سَلْبا إذا أعريتَه (٢) عمّا كان عليه . وقولُهم : نخل سَليب لا حمل عليه ، وشجرٌ سَلِيب لا ورقَ عليه ، وسَلِيب « فَعيلٌ » بمعنى مَفْعول ، مِثل : قَتِيل وجَرِيح ، بمعنَى مَقْتول ومَجْروح .

حلّيتك ألبَسْتُك الحلْى ، [والعُطْل المَصدَر من العطل ، تقول : عُطّلت المرأةُ إذا خلا جيدُها من القلائد (٣)] فهى عَطِل ، وعاطِل ، ومِعطال .

والوَسْم : العلامة ، تقول : وسمته وسْماً وسِمةً ، إذا أثرتَ فيه بِسِمَةٍ أو كَىّ .

والغُفْل ، يقال : أرضٌ غُفْل لا عَلَم بها ؛ ولا أثر عِمارة ، ودابّة غُفل

(١-١) ط : « إن بلقيس تسمى حليمة العرب » .

(٢) ط : عريته .

(٣) تكملة من ط .

لا سِمَةَ عليها ، وقد أغفلتها إذا لم تَسِمْها . وقد أستعار الكسوة والتّحلية للنّساء ، والعُطلة والإغفال له ، وهى أستعارةٌ جيّدة . وما أحسَنَ قَول أبى الحُسَين الجزّار رحمه الله تعالى :

ولقد كسوتُكَ من قَريضِى حُلّةً جَلّتْ عن التضييق والتّرْفيعِ
حَسُنَتْ برَقْمٍ من خلالِك فاُغتَدَتْ
كالروض فى التّسهيم والتوشيع

والأصل فى هذه المادة كلها قولُ أبى الطّيّب :

وأخلاق كافورٍ إذا شئتُ مَدْحه
ـ وإن لم أشأ ـ تُملِى علىّ وأكتُب[1]

وقوله أيضا :

وما أنا وَحْدى قلتُ ذا الشِّعْرَ كُلَّهُ
ولكنْ لشِعْرى فيك من نفسِه شِعر[2]

وقول الغَزّىّ :

يداىَ تَكتُب ما تُملِى مَناقِبُه
فى خاطِرِى قبلَ كَتْبِ المَدْح فى صُحُفِهْ

وما أحسَن قَول الأمير تميم ابنِ المُعِزّ :

وسارَ بمَدْحى فيكَ كلُّ مهجّرٍ
وغَنّى به فى السّهل والوَعْر من يَغْدُو[3]

---

(١) ديوانه ١ : ١٨١
(٢) ديوانه ١ : ١٥٨ .
(٣) ديوانه ١٠٥ .

وصاغَتْ له عَلْياك حُسْنا وزِينةً
وحسبُكَ لهـــا من حَلْى ألفاظه بُرْدُ
وليسَ لكلِ الناس يُستحسَن الثنا
كما ليسَ فى كلّ الطُّلَى يَحسُن العِقْدُ (١)

ومن هذه المادّة قولُ أبى الطيّب :

أنت يافَوْقَ أن تُعزَّى عن الأحْـ ـبابِ فوقَ الّذى يُعزّيك عقلا (٢)
وبألفاظك اهتـــدَى فإذا عزّ اكَ قالَ الّذى له قلتَ قبلا

وقال :

لك الحمدُ فى الدرّ الذى لِىَ لفظُه فإنّك معُطِيـه وإنّى ناظِـمُ (٣)

وهو مأخوذٌ من قولِ ابن الرُّومىّ :

ودُونكَ من أقاوِيلى مَديحـاً غَـدَا لك دُرُّه ولِىَ النِّظامُ

وقول ابن المعلِّم :

مجـدُه صاغَ حُـلَى المَجْـدِ له فالحُلى بلآليه المُحَـــلِّى
أىّ فَضْلٍ لى بشِعْرى عندَ مَنْ فضلُه عِندى أغْلى سِعْرَ فضلى

وقال أبو تمّام الطائىّ :

أنا من كَساكَ محبّة لا حُلَّةً حِبرَ القصائد فُوِّفَتْ تَفْوِيفاً (٤)
متنخِّلٌ حَلاّكَ نظم قصائدٍ صارَتْ لآذانِ الملوك شُنُوفاً

---

(١) الطلى : جمع طلية ، وهى العنق .
(٢) ديوانه ٣ : ١٢٣ . (٣) ديوانه ٣ : ٣٩١ .
(٤) ديوانه ٢٠٨ .

وقوله أيضا :

لقد زِدْتَ أوضاحى امتداداً ولم أكُنْ
بَهِيماً ولا أرضَى من الأرض مَجْهَــلاَ[١]
ولــكنْ أيادٍ صادفَتْنى جِسامُها أغرَّ فأَلْفَتْ بى أَغَرَّ مُحَجَّلا

وقال أبو إسحاق الغزّى :

والواصفوك بما خُوِّلْتَ من شِيَمٍ مَتُّوا إليكَ بشىء منك مسترق[٢]

وقوله أيضا :

مَعانيكَ فى الأشعار تنظِم نفسَها ومن لم يخنه السَّجْل والشُّطنُ أُستقى

وقوله أيضا :

وما أنا فى مَدْحيكِ إلاَّ كماسِحٍ بــكمّيْه مَتْنَ السَّيفِ وهو صَقِيلُ

وقال أبو نُخَيلة فى مَسلَمة بن عبد الملك :

وألقيتَ لمّا أن أتيتُك زائراً علىَّ رداءً سابغَ الطُّولِ والعَرْضِ[٣]
ونوَّهْتَ من ذكرى وما كان خاملاً
ولــكنَّ بعض الذكر أنبهُ من بَعْضِ

وقال أبو الفِتْيان بن حَيُّوس :

وهل بالّذى يأتى إلى الوصف حاجةٌ وأخباره فى الغَرْب والشّرقِ تُشْهَرُ[٤]
ولــكنّه بالشِّعر يَزْداد بَهجةً كما ازْدَادَ حُسْنُ الرّوضِ وهو منوَّرُ

وقال أيضا :

يا عاطفَ النُّعمَى علىَّ أصِخْ لمــا يَهْتَزّ من طَرَبٍ له عِطفاكا

---

(١) ديوانه ٢٥٢ ، والأوضاح : الغرر .
(٢) أمالى القالى ١ : ٣٠ .
(٣) ديوانه ٢٧٣ .
(٤) ديوانه ٤١٩

مِدَحًا إذا نشرت تَضوّع نَشرُها ... قد كِدْتُ أطوِى ذكرَها لولاكا
كرهتْ بدائعها سواكَ وأقبلتْ ... تختالُ فيك لأنّهــا تهواكا
فاليومَ أُلفِيَ درُّ وصفِك ناظمًا ... منّى ، وصادف دُرّه سِلْكا

وقال أبو عبد الله محمّد بن أحمدَ الخازن :

ومِن سُقْيَا سَحابك جادَ طَبْعى ... ولولا الغَيْثُ لم يَنْبُعْ قَلِيبُ

وما أحسنَ قولَ ابنِ سَناء المُلْك :

حُلِيُّها مِن حلاها وهى عاطِلَةٌ ... وأحسنُ الحَلْىِ حَلْىُ صِيغَ من عُطُلِ
وإن تحلّت فوسواسُ الحُلِىِّ بها ... خِصامُ مابينَ ذاكَ الخَصْرِ والكَفَلِ

وقول ابن الشِّبل البغدادىّ :

مَلِكٌ تُعِين المادِحِينَ صِفاتُه ... فيصيبُ قائلُهم بغير تَقَوُّلِ
والسَّيْفُ لولا جَوْهَرٌ فى حَدِّه ... لم تَبْدُ منــه فَضِيلَةٌ للصَّيْقَلِ

* * *

٨٣ — وقوله : بَلْ وَجَدْتُ آجُرًّا وجِصًّا فبنيتُ ، ومكانَ القولِ ذا سعةٍ فقُلْتُ .

يعنى أنّه لافضل لى فى مدائحك ، لأنّنى فيها كمَنْ وَجَد آجُرًّا وجِصًّا فبَنَى بيتًا[1] من ذلك ، وشيّد مكانا ، ولكنّ لى فى ذلك بعض فضل ، كما قال الخفاجىّ :

ولِى فيكَ مِن غُرِّ القوافى قصائدٌ ... تُقبِّلُ أفواهُ الرُّواة لهــا رشفا[2]
يَنِمّ بها طيبُ النّسيم إذا هفا ... وينشرها نور الرياض إذا رَفّا
وما أدّعِى هذا الكلامَ لأنّه ... صِفاتك إلاّ أنّنى أحسِنُ الوَصْفا

---

(١) من ط.   (٢) ديوانه ٧٣

وقول ابن المعلم :

أخذتُ منكَ الّذى أثنِى عليك به ... فأنت لا أنا بالتَّقوى مؤلِّفُهُ

فما أمتّ بشعرٍ فيك أنظمه ... للمدح فيك؛ ولا سَجْع أصنِّفُهُ

وقوله : « وجدت آجُرًّا وجِصًّا فبَنيت » . جاء مثل هذا لأبى حَفْص ابن بُرْد الأكبر المغربىّ ، فقال من جملة رسالة : وأبو الرّبيع مِن علم لسانه قال ، وبنى به صرحا وطال ، وأنه أشد بناة الكلام حِرْصا ، ماوجد آجُرًّا وجِصّا ، فمن أوثقه بِرًّا ، طوّقه تِبْرا ، ومن خَلَع عليه ثياب الفضل من طراز الإكرام ، نزع إليه بجياد الحمد من مَرابِط الكلام .

وقوله : « ومكان القول ذا سَعةٍ » هو معطوفٌ على قوله : « بل وجدتَ آجرًّا » ، وهو يشير بهذا إلى قول أبى الطيّب :

وقد وجَدْت مكانَ القول ذا سعةٍ ... فإن وجدتَ لساناً قائلاً فقلِ

وهذه من قصيدته الّتى مَدَح بها سيفَ الدّولة ، وأوّلها :

أجابَ دَمْعى وما الدّاعى سِوَى طَلَلِ ... دَعَى فلبّاه قبلَ الرَّكْب والإبلِ(١)

وقبل البيت الّذى أشار إليه :

ليت المدائحَ تَستوفِي مَناقِبَه ... فما كُلَيْبٌ وأهلُ الأَعْصُر الأُوَلِ

خذ ماتَراهُ وَدَعْ شيئاً سمعتَ به ... فى طلعةِ الشّمس ما يُغنيك عن زُحَلِ

وكنتُ قد كتبتُ جواباً إلى شيخنا الإمام الحافظ ، فتح الدين محمّد ابن محمّد بن سيّد النّاس رحمه الله تعالى ، عن كتاب بعثه إلىّ من الديار المصريّة ، وأنا يومئذ مُقيمٌ بصَفَد ، فجاء من جُملةِ جوابى إليه(٢) :

---

(١) القصيدة فى ديوانه ٣ : ٧٤ ــ ٨٨

(٢) من رسالة له ذكرها فى الواف بالوفيات ١ : ٢٩٩

وقد أثنيتُ على تلك الرّوضة ، ولو وفِّقْتُ لأثنَيْتُ وما أثنيت ، ووقفت عند قدرتى فما أجَبْت ، ولكنّ اتّقحْتُ وما استحييت ، على أنّى لو وجدت لساناً قائلاً لقلت : فإنّى وجدتُ أوّل البيت .

ومن مادة ابن زَيْدون ماقاله ابنُ المعلِّم :

أرَتْنِي ما أصوغُ عُلاكَ مَدْحِي وعلّمنى سماحُك ما أقولُ
فجئتك بالذى أوليتَ أُثْنى بما أنا عن سواكَ بِهِ بخيلُ

وقوله أيضاً :

علّمَتْها أيّامُكم مَذْهَبَ الشُّكْـ ـرِ فها نحنُ بينَكمْ وفدُ شُكْرِ
وأرَتْنا طرْقَ المديح معاليـ ـكُمُ ، ومنها جاءتْ معانِى الشِّعْر

وقول أبى إسحاق الغزى :

ولمّا جالَ فى علياكَ فِكْرى وجَدتُ القولَ مُتّسِعَ المَجالِ
وسابقنى المَديحُ وصار لفْظِى به أجْرَى من الماءِ الزّلالِ

وقول ابن حَيوس :

ولو فِي غير بَحْرِك غُصْتُ عاماً لأعْوَز فيه ذَا الدّرّ الثَّمينُ[١]

وقوله أيضاً :

لمّا اعتمدتُك بالقَريض أطاعَنى ولو اعتمدْتُ به سِواكَ عَصانى[٢]

وقول الرُّستَمىّ :

وإذا مادعوتُ شِعْرِىَ فيه طرب المدحُ واستهلّ النسيب

---

(١) ديوانه ٦٦٢
(٢) ديوانه ٦٤١

وقال عُمارة اليَمَنيّ :

مَلَكَ الجوارح فاللسان بحَمْدِه مستخدَمٌ وكذا الفؤاد لودِّهِ
وقفتْ مدائحُنا عليه لأنّها ماعقدَها إلاّ الّذى مِن عِقْدِه

وقال ابن قَلاقس :

ومنكَ وفيكَ تنتظِم القَوافى ومَن وَجَد المَقالَ الرَّحْبَ قالاَ

وأنشدنى لنفسه أجازةً الشيْخُ صفىُّ الدين عبدُ العزيز الحِلّى :

استجلِ درًّا أنتَ لُجّةُ بحرِهِ والبس ثناء أنتَ ناسجُ بردِهِ
يَزْداد حُسْناً كلّما كرّرته كالتِّبر يَظهر حُسْنُه فى نَقْدِهِ

وأنشدَنى له أجازةً أيضاً :

لافَضْلَ لى فى نظامِى دُرَّ فَضلِكمُ بقيمةِ الدّرّ لا بالسِّلْكِ يُفْتَبرُ
لَم تُزه صنعتُهُ إلاّ بصنعتكمْ تُزهَى الخمائلُ أنَّى يهطِل المَطَرُ

وأنشدَنى له إجازةً أيضاً :

ليس لى مِنْ صِفاتِ مَجدِك فخرٌ هىَ أبدتْ انما بديعَ المعانى
كلّما أبْدعتْ سجاياكَ معنًى نظمتْ فكرَتى وخطّ بنانِى

وقول ابن حَيُّوس :

ولئن شعرتُ فإنّ آثرَ ما أرَى من مأثُراتك يُنطقُ الجُلمودَا[1]
ألفيتهنّ جواهراً منثورةً وعلى القوافى أن يَصِرْن عُقودَا
فلكَ الفَريدُ وقد وجدت نظامَه ولىَ النِّظامُ وقد وجدتُ فَريدا

وقال محمّد بنُ الحدّاد المغربىّ :

ومنكَ أخذْنا القولَ فيك جلالةً وما طاب ماء الوَرْد إلاّ من الوَرْدِ

---

(١) ديوانه ١٧١ .

٨٣ — وقول : وحاشاك أن أعدّ من العاملة الناصبة

يقال : حاشاكَ ، وحاشا لك ، ويقال : حاشا لله ، وقرىء ﴿ حاشَ للهِ[1] ﴾ بلا ألف اتباعاً للكتاب ، والأصل «حاشا» بألف ، وحاشا كلمة يُستثنى بها .

وقوله : « أعدّ من العاملة الناصبة » يشير بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ وُجوهٌ يومَئذٍ خاشعة عاملةٌ ناصِبَة ﴾[2] ، المراد بذلك وجوهُ اليهود والنّصارى ، أو جميع الكفّار ، وجوه عملت في الدنيا ونَصِبتْ ، أي تَعِبَتْ في أعمال لاتنفَعها في الآخرة ؛ لأنّ الرُّهبان ينصبون بصيام النّهار وقيام الليل ، ويَترُكون مَلاذَّهم .

وقيل : عاملة ناصبة في النار ، تجرّ سلاسلها وأغلالها في النار كخوض الإبل في الوحل .

وقال الحسَن : لم يعمل لله في الدنيا ، فأعمَلَهم وأنصَبَهم في الآخرة ، ينقلهم من عذابٍ إلى عذاب ، أو يجرُّون على وجوههم ، ويكلَّفون ارتقاء جبلٍ من حديد في النار . أو تكبّروا في الدّنيا عن طاعة الله ، فأعمَلَهم وأنصَبَهم في الآخرة بأنواع العذاب .

وما أحسن قول هبة الله بن الفضل الطّبيب :

أمْدَحُه طَوْراً ، وأهْذِي به   طَوْراً ، ولا أطمَعُ في رِفْدِهِ
مِثل إمامٍ بين أهلِ القُرَى   صَلّى بهم والزّيْتُ مِن عِنْدِهِ

وما أحسنَ قولَ القائل :

ذاكَ الّذي قرحتْ بُطُون جفونِه   مرهًا وتربةُ أرضِهِ مِنْ إثْمِدِ

وقول البحتريّ :

وبدراً أضاء الأرض شرقًا ومغربًا   وموضع رجلى منه أسود مُظلِمُ[3]

---

(١) سورة يوسف ١٣   (٢) الغاشية ٢ ، ٣
(٣) ديوانه ٢ : ٢٧٢

وقول الآخر :

أنا فى ذمّة السّحاب وأظْمَى !　　إنّ هذا لَوَصْمَةٌ فى السّحابِ

وقد ذكرتُ بهذا البيتِ مالى فى هذه المادّة :

يا حبيبى الّذى أرَى فيه عُمْرِى　　ضاعَ منّى وضاقَ بالصّدِّ صَدْرِى
أنتَ أظلَلْتَنى وَوَجْهُك بادٍ　　أفهذا يليقُ قَطّ ببــدرٍ !

وقال أبو سعيد محمد بن محمد الرُسْتُمِىّ :

من النّاس من يعطى المَزيدَ على الغِنَى
ويُحرَم مادونَ الغِنَى شاعرٌ مِثْلى
كما ألحِقــتْ واوٌ بعمرٍو مَزيدةً
وضُويِقَ بِسمِ اللهِ فى ألفِ الوَصلِ

* * *

٨٤ — وقوله : وأَكُونَ كالذُّبَالةِ المَنْصُوبَةِ تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ .

الذُّبالة : الفَتيلة ، والجمعُ الذُّبال ؛ ويشير بذلك إلى قول العبّاس بنِ الأحنَف :

أُحْرَم منك ما أُقولُ وقد　　نالَ به العاشقونَ ماعَشِقُوا[1]
صرتُ كأنّى ذُبالةٌ نُصِبتْ　　تضىءُ للنّاس وهىَ تحترقُ

---

(١) ديوانه ١٩٧

قال الرِّياشيّ ـ وقد ذُكِر عنده العبّاس بنُ الأحنف : والله لو لم يَقُل إلاّ هٰذَين البَيْتَين لَكفاه .

وقال الشاعر :

وفَتيلة المِصباح تحرِق نفسَها ... وتضيءُ للسّارى وأنتَ كذا كا

ومن هذه المادّة قولُ أبي الحُسَين الجزّار :

أحمِّل قلبي كلَّ يوم وليلةٍ ... هموماً على من لا أفوزُ بخَيْرِه
كما سَوَّد القصّارُ فى الشَّمس وجهَه ... حريصاً على تبْييض أثوابِ غَيْرِه

ويَقرُب من هذا :

ومِن أيْنَ لى صبرٌ وفى كلِّ ساعةٍ
أرَى حَسَناتى فى موازينِ أعدائى

ومنه أيضاً :

إذا محاسِنىَ اللاتى أمتُّ بها
عُدَّتْ مَساوىءُ قُلْ لِي كيفَ أعتذِرُ !

وما أحسَنَ ما قاله أبن المظفّر محمد بن عليّ الواعظ الدوريّ :

يتوبُ على يَدِى قومٌ عُصاةٌ ... أخافَتهم من البارى ذُنوبُ
وقلبي مُظلِمٌ من طُولِ ما قَدْ ... جَنَى ، فأنا على يدِ مَن أتوبُ !
كأنِّى شمعةٌ مابين قومٍ ... تُضِىءُ لهم ويحرِقها اللّهيبُ
كأنّى مِخْيَطٌ يَكسو أناساً ... وجِسْمى من ملابِسهم سليبُ

وقال أبو طالب بن زيادة :

تستضيئون بى فأهلِكُ وَحْدى ... فكأنى ذُبالةٌ فى سِراجِ

وقد ذكر الحافظ شهريار بن شيرويه في كتاب الفردوس الأعلى : أنبأنا أبى رحمه الله تعالى ، أنبأنا أبو علىّ بن البناء البغدادى ، حدثنا أبو علىّ بن شاذان، حدثنا محمد بن الحسن بن مِقْسم العطَّار ، حدثنا إدريس بن عبد الكريم المقرئ ، حدثنا الحكم بن موسى ، حدثنا محمد بن مسلمة الحرَّانىّ ، عن جعفر بن مُخارِق ، عن إبراهيم ، عن الحسن ، عن جُندب بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : «العالِم بغير عَمَل كالمصباح يحرِق نفسَه ويضئ للنّاس» .وقال:« مَثَل العالم الذى يُعلِّم النّاسَ الخيرَ ويَنسَى نفسَه كمَثَل السِّراج يضئ للنَّاس ويحرِق نفسَه ». رواه الطَّبَرانىُّ عن أحمد بن المعلّى الدِّمشْقى ، عن هشام بن عمار ، عن علىّ بن سُليمان الكلبىّ، عن الأعمش ، عن أبى تميمة ، عن جُنْدُب بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . الحديث .

* * *

٨٥ — وقوله: فَلَكَ الْمَثَلُ الأَعْلَى، وَهُوَ بِكَ وَبِى ـ فيكَ ـ أَوْلَى .

يشير بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ المَثَل الأعْلَى فى السَّمٰوات وَالأرْض وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[1] . والمَثَلُ الأعلى الصّفة العُليا ، قال ابن عبَّاس رضى الله عنهما : هى أنْ ليس كمِثْلِه شىء ، أو هى أنّه لا إله إلاّ هو .

وما أحسَنَ قولَه : « وهوَ بكَ وبى فيك أَوْلى » ؛ كأنّه يقول : هو بكَ أَوْلى وهو بى كذلك إذا كان فيك ، فكِلاَ الحالَيْن مخصوصٌ بك .

---

(١) سورة الروم ٢٧

وما أحسنَ ما يُنسب إلى الإمام الشافعىّ رضى الله عنه :

قالوا يزورُك أحمدٌ وتزورُه ... قلتُ الفضائلُ لا تُفارِق منزِلَهْ

إنْ زرتهُ فلِفضله ، أو زارَنى ... فبِفَضْلِه ؛ فالفضلُ فى الحالَيْن لَهْ

وقال ابن صردرّ :

لكَ المثَل الأعلى بكلِّ فضيلةٍ ... إذا ملأ الرَّاوى بها الفَورَ أتْهَما

لآلئُ من بحْرِ الفضائِل إنْ بدتْ ... لِفائصِها صلّى عليها وسلّما

وقال أبو بكر بنُ عمّار :

لكَ المثَلُ الأعلَى وما أنا حادثٌ ... ولا أنا ممّن غيّرتْه الحوادثُ

أظنُّ الّذى بينى وبينَك غيَّرتْ ... حلاوتَه عنى الرجالُ الأخابِثُ

وقال الوزير أبو حَفْص عُمر بنُ شُهَيد :

لكَ المثَلُ الأعلى إذا ذُكِر النَّدَى ... ودَعْ هَرِما فيما سمعتَ وحاتِمَا

وقلتُ أنا من جملةِ أبيات :

كريمٌ تخطَّى الناسَ من أهل عصره ... أجلَّهُمُ قولاً ، وأحلاهمُ فِعْلاَ

إذا عُصْبةٌ ما بينها ذُكِر النّدَى ... يكون له من جُودِه المثَل الأعْلَى

* * *

٨٦ — وقوله : وَلَعَمْرُكَ مَا جَهِلْتُ أَنَّ صَرِيحَ الرَّأْيِ أَنْ أَتَحَوَّلَ ، إذا بلَغتْنِي الشَّمْسُ وَنَبَا بِيَ الْمَنْزِل .

لَعَمْرُكَ ، اللامُ لتأكيد الابتداء ، وتقديرُه « وحَياتِك قَسَمِي » .
نَبَا بفلانٍ مَنزِلُه إذا لم يُوافِقْه ، وكذلك فِراشُه ، وهو يشير بذلك إلى قول أبي تمّام من قصيدةٍ مَدَح بها محمد بنَ عبد الملك الزيّات ويُعاتِبه :

وإنّ صَريحَ الرأي والحَزْمِ لامرئٍ
إذا بَلَغتْه الشمسُ أنْ يتحوّلاَ[1]

وهذا من قصيدةٍ عاتَبَ فيها ابنَ الزيّات ، وأوّلها :

لَهَانَ علينا أن نَقُول وتَفْعَـــلا
ونَذكُرَ بعضَ الفَضْلِ منكَ فتفضُلا

ومنهـا :

سأَقْطع أَمطاءَ المَطايا بِرِحْلةٍ إلى الوطنِ القُربى هجراً ومَوصِلاَ

وقَفَ بُهلُول على رَجُل فقال له : خَبِّرْني عن قول الشاعر :

* وإذا نَبَا بكَ منزلٌ فتحوّلِ *

كيف هوَ عندكَ ؟ قال : جيِّد ، قال : فإن كان في الحَبْس كيف يتحوّل ؟ فانقَطَع الرَّجل ، قال بُهلول : الصوابُ قولُ الآخَر :

إذا كنتَ في دارٍ يسوءكَ أهلُها
ولم تكُ مَكبُولاً بهـا فتَحَوّلِ

---

(١) ديوانه ٢٥٤

وما أحسنَ قولَ معْن بن أوْس المُزَنى :

وفى النّاس إن رَثّتْ حِبالُك واصلٌ
وفى الأرْض عن دارِ القِلَى متحوّلُ[١]

إذا أنتَ لم تُنصِفْ أخاك وَجَدْتَه
على طَرَفِ الهِجْران إن كان يعقلُ

ويَرْكَبُ حدّ السّيف من أن تضيمَه
إذا لم يكن عن شَفْرَةِ السّيف مِزْحَلُ

وكنتُ إذا ما صاحبٌ رَام ظِنّتِى
وبَدّلَ سوءًا بالّذى كان يَفعَـــل

قلبتُ له ظهْرَ المِجَنّ فلَمْ أقم على ذَاكَ إلاّ رَيْثَما أتحوّلُ

وقال عنترة العَبْسِىُّ فى رواية بعضهم :

إحذَرْ مَحَلَّ السّوْء لاتَحْلُلْ به وإذا نَبَا بِكَ مَنزلٌ فتحوّلِ[٢]

وقول أبن الخيّاط الدمَشْقى :

لا تُنكِرنّ رَحيلى مِن دِيارِكُمُ ليس الكريمُ على ضَيْمٍ بصَبّارِ[٣]
يأبَى لىَ الضّيْمَ فرسانُ الخِلاَجِ وما حبّرت من غُرَرٍ تُهدَى وأشعار

وقول أبن العَميد :

متَى لَفظَتْنى دَارُ قومٍ تركتُها وسِرْتُ ولى منها ومِن أهلِها بُدّ

وقول الآخر :

ونَبَتْ بنا أرضُ العِرا ق فما محنّاها بمِحْنَة

---

(١) ديوانه ٥٩ ، ٦٠
(٢) العقد الثمين ١٨١
(٣) ديوانه : ١٥٦

غير الرّحيل كَفَى البلا ... دَ برحلة الفُضَلاء هُجْنَه

وقال ابنُ المنير الطّرابُلسيّ من أبيات طويلةٍ فى هذا المعنى :

وإذا الكريمُ رأى الخُمولَ نَزيلَهُ ... فى منزلٍ فالحَزْمُ أن يتحوَّلا

كالبَدْر لمّا أن تضاءلَ جَدّ فى ... طلب الكمالِ فحازَه متنقِّلا

سَفَهاً لحلمك إن رضيت بمَشْرَب ... رَنْقٍ ، ورِزْقُ الله قد ملأ الفَلا

فارِق تَرُق كالسَّيفِ سُلَّ فبانَ فى ... مَتْنَيْه ما أَخفَى القِرابُ وأخْمَلا

للفَقْر لا للفقر هَبْهَا إنما ... مَغْناك ما أغناك أَنْ تتوسّلا

لا ترض من دُنياك ما أدْناك من ... دَنَسٍ ، وكن طَيْفاً جلاَ ثمّ انجَلى

وقال أبو بكرٍ الخُورَازمىّ :

لِمْ لا أجانِس دَهْرى فى تقلُّبه ... لِمْ لا أُبادِلُ إنساناً بإنسانِ

لِمْ لا أحاكى حَبيباً فى مَقالته ... ما اليومُ أوّلَ توديعى ولا الثّانى

لِمْ لا أُقارِض ما قد قاله حَسَنٌ ... وَصْلا بوصلٍ وهِجراناً بهِجْران

وأنشد أبو محمد غانم من شعراء الذّخيرة هذين البَيْتين :

وإذا الدّيار تنكّرتْ عن حالها ... فذَرِ الدّيار وأسْرِعِ التّحويلا[1]

ليس المُقامُ عليكَ حَتْماً واجباً ... فى بَلْدةٍ تدَعُ العزيزَ ذَليلا

وسئل الزيادة عليهما فقال :

لا يَرتَضِى حُرٌّ بمنزلِ ذِلّةٍ ... لو لَمَ يَجِدْ فى الخافِقَين مقِيلا

---

(١) الذخيرة ٢ : ٣٤٦

فاخصُصْ لودّكَ من خبرتَ وَفاءَهُ لا تتّخِذْ إلاّ الوفيَّ خَليلاَ
فلقد خبرتُ النّاسَ منذ عرفتُهمْ فرأيت جنْس الأوْفياء قَليلا

وقلتُ أنا :

سافِرْ تَنَلْ عزًّا فما مِسْكُ الوَرَى إلاّ دماً فى سُرَّةِ الغِزْلانِ
والرّمحُ لمّا فارَقَ الوَطَنَ اغتدَى بذُؤابة خفَقَتْ وتاجِ سِنانِ

وقلت أيضاً :

سافر تَنَلْ رُتَبَ المَفاخِرِ والعُلاَ كالدُّرّ سارَ فصار فى التيجانِ
وكذا هِلالُ الأُفْقِ لو تَرَكَ السُّرَى
ما فارَقَتْه مَعرَّة النُّقْصــــــانِ

وقلتُ أيضاً :

سافرْ فإنّ الليثَ لمّا غاب عن غابٍ حَواهُ أشْبَعَ الأشْبالاَ
والسيفُ لو لَزِمَ المُقامَ بجَفْنِـه ما راعَ أعداءً وراقَ صِقالا
وكذاك بَدْرُ التِّمِّ لو تَرَكَ السُّرَى
أبصرْتَه طولَ الزّمان هِلالاَ

* * *

٨٧ — وقوله : واصفح عَنِ المَطَامِعِ الَّتِي تُقَطِّعُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ .

يشير بذلك إلى قول البعيث المجاشعي :

طَمِعتَ بلَيْلى أن تريعَ وإنّما تُقطِّع أعناقَ الرِّجال المطامعُ[1]

وقول أبي الفتح البُسْتيّ :

فكم دَقّت وشقّتْ واسترقّت فضولُ العَيْش أعناقَ الرِّجالِ

قال أبو عُبيدة : وفى بعض الأحاديث : « إنّ الصّفاةَ الزّلاّء الّتي لا تَثْبُت عليها أقدامُ العُلماء الطّمع »[2] .

وفى الأمثال المولّدة : أخرِج الطمعَ من قلبك ، تَحُلّ القَيْد مِن رِجْلك .

وفى الأمثال الحكيمة : أكثرُ مَصارِع العقول تحت برُوق المطامع .

وقال أبو العتاهية :

* أَذَلَّ الحِرْصُ أعناقَ الرِّجالْ *[1]

قال أبنُ عائشة : عتبتُ على أبن شُبْرُمَةَ يوماً فى شيء ، فلقيتُه داخلاً من باب المسجد يريدُ مجلسَ الحكمْ وأنا خارج ، فقلتُ معرِّضاً له :

طَمِعت بلَيْلى أن تريعَ وإنّما ... البيت

فقال معرّضاً ، وتركَ[3] ما قصدت :

---

(١) فى أبيات ستة فى معجم البلدان ٧ : ١٣٢

(٢) ديوانه ٥٥ ، وأوله :

* تعالَى اللهُ ياسَلْمَ بن عمروٍ *

(٣) م : « تاركا » .

وبايعتُ لَيلَى في الخلاءِ ولم يَكُنْ
شهودي على ليلى عدولٌ مَقانِعُ

وقال الأصمعيُّ : سمعتُ أعرابيًّا يقول : إنّ الآمال قَطَعتْ أعناقَ الرِّجال ؛ كالسَّراب غرَّ مَن رآه ، وأخلفَ مَن رَجاه .

وقال الشريفُ الرَّضيُّ :

لم يَشتمِل قلبي الرَّجاءَ ولم يكنْ طَرْفي جنيبةَ كلِّ برقٍ نائرِ (١)
وأَبَيْتُ أن تردَ المَطالِبَ هِمَّتي
أوْ أن يسفَّ إلى المَطامِعِ طائري

وقال أبو الفتح البُسْتيّ :

يامن عقدتُ به الرَّجاءَ ولم يكنْ لي منهُ إرْفادٌ ولا إيناسُ
إن كان قد جَرَحَ المَطامِعَ عِفّتي
فوراءَ ذاكَ الجرحِ يأسٌ ياسُو

ومما يُنسَب إلى أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه :

إذا عُوفيَ المرءُ في جِسمِه وخَوَّله اللهُ قَلبًا قَنوعا
وألقى المطامِعَ عن نفسِه فذاكَ الغَنيُّ ولو ماتَ جُوعا

وقال ابنُ نُباتة السَّعديّ :

أرْضى وأَقنَع بالآمال كاذِبَةً فما يَضُرُّك لو أَلْقَيْتُ أَطماعِي
قدكان يُعرَف وجهُ الذُّلّ في نظَري ويَظهَر العجزُ والتَّقصير في باعِي

وقال أبو رَوْح ظفر الهَرَويّ :

ولو أنّ أطرافَ الرماح وفَيْنَ لي لأخذتُ حقَّ الدَّهر مِن أبنائهِ

---

(١) ديوانه ١ : ٣٧١

هَمٌّ مؤرِّقةٌ جفونى كلما   أرخَى الظلام علَى ذيلَ خبائِه
هَمُّ النفوس مَنُوطة بعنائها   والمرء يَخدَعه لسانُ رَجائِه

وقال الأمير أبو الفضل المِيكالىّ :

دَعِ الحرصَ واْقنعْ بالكفافِ مِنَ الغِنَى
فرزقُ الفتَى ما عاش عنه بعَيْشِه
وقد يُهلِكُ الإنسانَ كثرةُ ماله
كما يُذبَح الطاوسُ مِن أجلِ رِيشِه

وعن عبد الله بن الحَسَن قال : أُنشِد المأمونُ بيتَ أبى العتَاهية يخاطب سَلْمًا الخاسر :

تعالَى اللهُ يا سَلْمَ بنَ عَمرٍو   أذلّ الحِرص أعناقَ الرجالْ

فقال : إنّ الحرص لمَفسَدة للدّين والمروءة ، والله ما عرفتُ من رجل قطّ حِرْصا ولا شرها ، فرأيتُ فيه مُصطَنَعا ؛ فبلغ ذلك سَلْمًا فقال : وَيْلِى على المخنَّثِ الزِّنْدِيق ، جَمع الأموال فكنزها ، وعبّأ البِدَرِ فى بيته ، ثمّ تزهّد رياء ونِفاقا ، وأخذ يهتِف بى إذا أنا تصيّدت للطّلب .

قال المدائنىّ : كان أبو الأسوَد يَدخُل على عُبيد الله بن زيادٍ ويشكو أنّ عليه دَيْنا لا يجد إلى قضائه سَبيلا ، فيقول له : إذا كان غداً فارفعْ إلىّ حاجتَك ، فإنّى أُحبُّ قضاءها ، فيَدخل عليه من غدٍ فيُذكِّره وعدَه ، فيتغافَل عنه ، ثمّ يعاودُه فلا يَصنع فى أمره شيئا ، فقال أبو الأسوَد :

دعانى أميرى كى أقولَ بحاجتى   فقلتُ فما رَدّ الجوابَ ولااستَمعْ[1]

---

(١) ديوانه ٣٠ ، وروايته : « ماصين » .

فقلتُ ولم أحسُنْ بشيء ولم أصُنْ
كلامِي ، وبعضُ القَوْلِ ماضَرّ أو نَفَعْ
وأجمعتُ يَأْساً لا لبـانةَ بعدَه ... ولَلْيأْسُ أَدنَى للعَفافِ من الطَمَعْ

وفى المَثَل : الطّمع الـكاذب يدُقّ الرّقبة ، قاله خالد بن صفوان لأنّهُ كان قد بنَى دكّانا مربّعا لا يسَع غيرَه ، ولا يصل الراجلُ إليه . وكان إذا تغدّى قَعد عليه وحيداً يأكل لبُخْله ، فجاء أعرابىّ على جَمَـل ساوَى الدّكان ومدّ يدَه إلى طعامه ؛ فبينما هو يأكل إذ هبّت ريحٌ فحركت شيئا هنا لك ، فنَفَر البعيرُ فانْدَقت رقبتُهُ ، فقال خالد : الطّمَع الكاذب يدقّ الرّقَبَة .

* * *

٨٨ — وقوله : فلا أستوطىء العجْز ، ولا أطمئنّ إلى الغرور .

استوطأْتُ المَركَب إذا وجدتَه وطيئاً ، أى ليّنا سَهْلا .

والعَجز ضدُّ القُدْرة ، والطُّمأْنينة : السّكون ، والغُرور : ما اغتُرَّ به من مَتاعِ الدُّنيا . وفى المثل : العَجْزَ وطىء ، أى وثير ، يُضرَب لِمن اسْتَوْطَأَ مَركَب العَجز ، وقَعد عن طلَب المَكاسب ، ولمنْ ترَك حقَّه مَخافةَ الخصومة .

وفى المَثَل أيضا : العَجْز ريبة ؛ يَعنُون أنّ من أقرّ بالعجز على نفسه ، فهو مُريب ، قال بعضُ الشعراء :

خاطرْ بنفسك لاتقعد لمَعجَزَةٍ ... فليس حُرٌّ على عَجْزٍ بمعْذور
إن لَمْ تَنَلْ فى مقـامٍ ماتطالبه ... فأَبْلِ عُذْرًا بإدْلاج وتَهْجير
لَمْ يَبلُغ المرء بالإحجامِ همّتَه ... حتّى يُباشِرها منـه بتغْرير
حتّى يواصَل فى أنحـاء مَطلَبِها ... سَهْلا بحَزْنٍ وإنجاداً بتَغْوِير

وفى المَثَل : أغرّ من الدُّباء فى الماء . الدُّباء : القرْع .

ويقال أيضا : لا يَغُرّنّكَ الدُّبّاء ، وإن كان فى الماء .

قال حمزة الأصفهانىّ : لا أعرفُ معنَى هٰذين المَثَلين .

قال المَيْدانىُّ : مَعنى الأوّل منتزَع من الثانى ؛ لأنّ أعرابيًّا تناول قرعا مطبوخا ، وكان حارًّا فأحرقَ فمَه ، فقال : لا يَغُرّنك الدُّبّاء ، وإن كان [نشوءه] فى الماء[1] .

ويقال أيضا : أغَرُّ من سراب .

ويقال أيضا : أغَرّ من الأَمانىّ .

وقال الشاعر :

إنّ الأمانىّ غَرَرْ والدّهرُ عُرْفٌ ونُكُرْ

* مَن سابَقَ الدهرَ عَثَرْ *

ويقال أيضا : أغرُّ من ظبي مقمر ، لأنّ الخِشْف[2] يغترُّ باللَّيل القمر ، فلا يحترز حتى تأكله السباع .

وقال ابن سناء الملك :

ولكم وجدتُ الموتَ حُلْواً حين ذُقْتَ الذّلّ مرّا

ولكم أُعيِّر بالغرور نَعَمْ فَفِطِنْتُ وكنت غرّا

سأسِيرُ عنهم ظائعاً فسى الهلالُ يعودُ بدْرا

وأجِدُّ لى رزقًا وإخوا نا ومنزلةً وعمرا

---

(١) الميدانى ٢ : ٦٤

(٢) الخشف : الظبى أول مايولد .

٨٩ — وقوله : ومن الأمثال المضروبة : خامرى أم عامر

وهذا من الأمثال المضروبة تقول العَرَب : خامِرى حَضاجِرُ ، أتاكِ ما تُحاذِر[١]. وحَضاجِر اسمٌ للضَّبُع يقع على الذَّكر والأنثى . ومن أسجاعِهم فى مثل هذا : لِمْ تُرَعْ ياحَضاجِر ، كفاكِ ما تُحاذِرُ ، ضُبارِم مُخاطِر ، ترهبهم القَساور — يعنى الأُسُود — وهذا جعل مَثَلا لمن عَرَف الدُّنيا فى نقْضها عقودَ الأمورِ بإيراد البلاء عقيبَ الرَّخاء . ثمّ يسكَن إليها مع عِلمه بأنَّ من عادتها أن تسلب ما وَهبتْ كما تغترّ الضَّبُع بقول القائل : خامِرى أمّ عامِر[٢] ، وأمّ عامر كُنْيَة الضَّبُع ، وهى من أشهر كُناها .

وقولُه : «خامِرى أمْ عامر » ؛ هذا من الأمثال المضروبة للغافل المغرور .

وفى المَثل أيضا : لا أكون كالضَّبُع تَسمَع اللَّدْم فتَخرج حتّى تُصاد .

وقوله : « خامرى » ، أى تَستَّرى ، كأنّه من الخمار ، وزَعموا أنّها أحمق الدّوابّ ؛ لأنَّهم إذا أرادوا صيدها رموا فى جحرها بحَجَر ، فتَحسبه شيئا تَصيدُه ، فتَخرُج لتأخذَه فتُصاد . ويقال لها : أبشرى بجرادٍ عظالٍ[٣] ، وكمر الرّجال ، فلا يزال يقال لهـا ذلك حتّى يَدخُل عليها رجل ، وهو يقول : خامِرى أمّ عامر ، فيَربط يديْهَا ورجليها ، ثمَّ يُجُرّها إلى خارج الُجحْر .

وما أحسَنَ قولَ البهاء زُهَير :

يا هذه لا تغلطى والله مالى فيكِ خاطر[٤]

---

(١) الميدانى ١ : ٢٣٩

(٢) الميدانى ١ : ٢٣٨

(٣) الجراد العظال : الذى ركب بعضه بعضاً كثرة .

(٤) ديوانه ٧٤

خدعوكِ بالقول المُحـا ... لِ فصَحّ أنّكِ أمُّ عامِرْ

وذكرتُ هنا لى بَيْتَيْن نظمتهما فى معنى اقتضته الحالُ ، وهما :

وغـانيةٍ عُلِّقتها ظبيـةً ومذْ ... غدت ضَبُعًا سلبتُها من ضمائرى

فبالأنس كانت أم عمرو جميلةً ... فما بالُهـا قد أصبحتْ أمّ عامِرِ !

* * *

٩٠ — وقولُهُ : وإنّى مع المَعرفة بأن الجلاء سِباء ، والنقلة مُثْلَة

ومَن يَغترِبْ عن قومِه لم يزَلْ يَرَى

مصارِع مَظْلوم مِجرًّا وَمَسْحَبًا

وتُدفن منه الصَّالحاتُ وان يُسَأْ

يكنْ ما أساء النّار فى رأس كبكبا

الجَلاء : الخروجُ من البلد والوَطن .

والسِّباء والسَّبْى والإسباء كلّه بمعنى الأسر ، تقول منه : سَبَيْتُ العدوّ سَبْيا ، وسباً ، واستباء . والنقلة : الانتقال من مكانٍ إلى مكان . والمُثلة التنكيل ، مَثّل بالقتيل جدّعه .

وكبكب : اسم جبل عالٍ ، وقد صرّفه امرؤُ القيسِ فى قوله :

فريقان منهمْ جازعٌ بطن نَخْلةٍ ... وآخَر منهمْ قاطعٌ نجد كبكبِ

وقوله : الجَلاء سِباء ، أخرجه مخرج المثل .

وأما قوله : النقْلة مثلة ، فليس هو من أمثال العرب ، وإنما هو من أمثال المولدين .

وابتلاء من الأمور الشاقة التى لا تُقبل عليها النُّفوس ولا تتجرع مرّ مذاقها ، وقد قرنه الله ... بالقتل فى قوله : ﴿ ولَوْ أنَّا كتبْنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجُوا من دِيارِكُم ما فعَلوه إلاَّ قليلٌ منهم [١] ﴾ : وقوله تعالى : ﴿ كتبْنَا ﴾ أى أوْجبْنا وفرضنا . كما أمر بنى إسرائيل من قبل بقتل أنفسهم وبخروجهم من دِيارهم . وهذه الآية نزلت فى ثابت بن قيْس ابن شمّاس ؛ لأنه كان قد سَمِع يهوديًّا يقول للمِقداد : قاتل الله هؤلاء ، يزعمون أنَّه نبيٌّ ، ويتّهمونه فى الحكْم بينهم ، واللهِ لقد أذنبنا مرة فى حياة موسى ، فدَعَانا إلى التوبة ، فقال : ﴿ اقتلُوا أنفسكم ﴾ ، فبَلغ قتْلانا سبعين ألفًا فى طاعة ربِّنا حتّى رضى عنّا . وقال اليهوديُّ ذلك لما رأى الأنصاريّ قد سَخِط من حُكْم رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم . فقال شمّاس عند ذلك : والله لو أمَرنى محمد أن أقتُل نفسى لفعلتُ .

ولما نزلتْ هذه الآية قال عمر وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم القليل : والله لو أمرنا بذلك لفعلنا ، فالحمد الله الذى عافانا ؛ فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسَلم قال : « إن من أمتى رجالا الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى » .

وما أحسن قول القاضى الفاضل رحمه الله تعالى : الخروج من الديار مقرونٌ بالقتْل فى كتاب الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان الناس كما قال الشاعر

نفوسُ الدِّيار ، فخروجهم منها قتلُها ، وانتقال ولا يتهمْ عنها عزْلُها .

وأمَّا المثل الأوّل المولّد وهو قولُه : النُّقلة مُثلة ، فقد قلت أنا : النوى توى ، الأول بالنون ، والثانى بالتاء ثانية الحروف وهو الهلاك ، والغربة كربة ، والشتات ممات ، والافتراق احتراق .

ومن كلام الحكماء : الغريب كالفرس الذى زايل أرضه ، وفقد شربه ،

---

(١) سورة النساء ٦٦

ما مِن غريب وإنْ أبدَى تجلُّدَه إلاّ سيَذكر عندَ الغُربة الوَطَنا

وهذان البَيْتان اللّذان أورَدَهما ابن زيدون، من شعرِ عُرْوة بنِ الوَرْد، وبعضُهم يَنسبهما إلى الأَعشى، والغُرْبة عندهم في نظير الفقْر.

قال شاعر باهلة[1]:

سأَعمِل نصّ العيسِ حتّى يكفّنى غِنَى المالِ يوماً أو غِنَى الحَدَثانِ
فلَلموتُ خيْرٌ من حياةٍ يُرَى لها على الحرِّ بالإقلال وَسْمُ هَوانِ[2]
متَى يتكلّمْ يُلْغَ حرُّ كلامِه وإن لم يَقُل قالوا عَديمُ بيانِ
كأنّ الغِنَى في أَهْله بُورِكَ الغِنَى
بغيرِ لسانٍ، ناطقٌ بِلِسانِ

وقلت أنا مضمِّنا:

تمتّعْ من الأَوْطان بالظلّ بالذُّرَى
فلَم يَلْقَ رِفقًا مَن تجافَى رَفيقَه
ولا تَنْأَ عن أرضٍ أَلِفتَ رُبوعَها فمَن يَغترِبْ يَحْسَبْ عدوًّا صَدِيقَه

* * *

٩١ — وقوله: عَارِفٌ بِأَنّ الأَدَبَ الْوَطَنُ لا يُخْشَى فِرَاقُه، وَالْخَلِيطُ لا يُتَوقّع زِيالُه.

الخليط: المُخالِطُ، كالنّديم والمُنادِم، والجَليس والمُجالس، وهو واحد وجَمْع، وقد يُجمَع على خُلَطاء وخُلُط. والزِّيال: مصدرُ زايَلَه مُزايلةً وزِيالاً إذا فارَقَه.

---

(١) الكامل للمبرد ١ : ٣١٥ (٢) الكامل: «مس هوان».

وقوله : «عارفٌ» ، خبر «إنّ» في قوله : «وإنّي مع المعرفة بأنّ الجلاء سِباء» وما بعده إلى آخر البيتين . وقوله : «بأنّ الأدب» إنّ واسمها .

وقوله : «الوَطن لا يُخشى فراقهُ» ، هذه الجملة من المبتدأ والخبر في موضع الخَبرَ ؛ لـ«إنّ» في قوله : «بأنّ الأدب» كأنه قال : الأدب ألاّ يخشى فراقُ الوَطن ؛ وهذا كثير في كلامِهم .

* * *

٩٢ — وقوله : والنَّسيب لا يُجفَى ، والجمالُ لا يخفى .

النَّسيب : ذو النَّسَب . وفي المَثَل : القريبُ من تقرَّب لا مَن تنسَّب ، أي ادَّعى أنه نَسيبُك . هذه الجُمَل كلُّها معطوفة على قوله : الوطنُ لا يُخشى فِراقُه » .

وقال المغيرة بن حَبْناء :

ليسَ العزيزُ بمَن تُغشَى محارمُه
ولا الكريمُ بمَن يُجْفَى وَيُحتقَرُ

* * *

٩٣ — وقولُه : ثمّ مَا قِرانُ السَّعْد للكواكب أبهى أثرًا ، ولا أسنَى خَطرًا ، مِن اقترانِ غِنَى النَّفسِ به ، وانتظامِها نَسقًا معه .

اقترن الشيء بغيره وقارنته قِرانا : صاحَبْتُه ، ومنه قِران الكواكب ، والقرانُ أن تجمع بين تمرتين في الأكل .

أبهى ، أفعَل من البهاء ، وهو الحُسْن . والسَّناء ، ممدود : الرِّفعة . والشرف .

الخَطَر : رجُل خَطِير ، أى له قَدْر وخَطَر ، وقد خَطُر ، بضم الطاء .

والنَّسَق من الكلام : ما جاء عن نظام واحد . وثغر نَسَق ؛ إذا كانت الأَسنان مُسْتَوِية .

وأمَّا قولُ ابنِ زَيْدونَ رحمه الله تعالى : « ثمّ ما قِرانُ السَّعْد للكواكب أبْهَى أثراً » فمأخوذٌ من قولِ أبي الفَتْح البُسْتِيّ :

وأتمُّ الأشياء نوراً وحُسْناً بكرُ شُكرٍ زُفَّت إلى صِهْرِ بِرّ
ما قِران السعدَيْن فى الجوِّ أبْهَى مَنظَرا من قِرانِ بِرٍّ وشُكرِ

* * *

٩٤ — وقولُه: فإنّ الحائزَ لهُمَا ، الضّارِبَ بِسَهْمٍ فِيهما ، وقليلٌ ما هُمْ .

الحائز : اسمُ فاعل ، من حازَ يحوزُ حَوْزا وحِيازَةً ، وكلّ من ضَمَّ شيئا إلى نَفْسه فقد حازَه .

الضارب والضّريب: الّذى يَضرِب بالقِداح الّتى يقسم بها ، وهو الموكّل بها .

* * *

٩٥ — وقوله : أيْنَمَا تَوَجّهَ وَرَدَ مَنْهَلَ برّ ، وَحَطّ فى جَنَابِ قَبول .

وَرَدَ منهل برّ ، أى أتى عين إحسان وخير ؛ لأنّ البِرّ ضِدّ العُقوق . وحَطّ فى جَناب قَبول ، أى نَزَل فى ناحيةٍ من يُقبِل عليه ، ولا يُدبِر عنه ، وقد قال أبو الطيب :

إذا صديقٌ نكِرْتُ جانِبَه   لم تُعْيِنِي في فِراقِهِ الحِيَلُ[(١)]
في سَعةِ الخافِقَينِ مُضطرَبٌ   وفي بلادٍ مِنْ أُختِها بَدَلُ

وقال عمرو بنُ أوْس :

شَرِّقْ وَغَرِّبْ تَجِدْ مِن غادِرٍ بَدَلا
فالأرضُ من تُرْبةٍ والناسُ من رَجُلِ

وقال محمّد بنُ شَرَف القَيْرَوانيّ :

وصَيِّر الأرضَ داراً والوَرَى رَجُلاً
حتّى ترى مقبِلا في النّاس مقبولا

ومن هذه المادّة قولُ أبي تمّام الطائيّ :

وَمَا رَبْعُ القطيعةِ لي بِرَبعٍ   ولانادِي الأذَى منّي بنادِ[(٢)]

وقول أبي الطّيب أحمد بن عبد العزيز المَقدِسيّ :

ياواقفاً بين الفرات ودِجْلةٍ   عَطْشانَ يَطلُب شَرْبَةً من ماء
إنَّ البلادَ كثيرةٌ أنهارُها   وسَحابُها وغزيرةُ الأنواء
ما اختلّت الدنيا، ولا عُدِم النّدَى   فيها ولا ضاقَتْ على العُلَماء
أرضٌ بأرضٍ والّذى خلَق الوَرَى   قد قسّم الأرزاقَ في الأحْياء

وقال الشريف الرضيّ :

مالِيَ لا أرْغَبَ عن مَنزلٍ   يُكْثِرُ فيه الدّهرُ حُسّادِي[(٣)]

---

(١) ديوانه ٣ : ٢١١ ، ٢١٢ .

(٢) ديوانه ٨٠ .

(٣) ديوانه ٢٢٩ ، وروايته :

مالِيَ لا أرغبُ عَنْ بلدةٍ   ترغبُ في كثرةِ حسادِي

ما الرِّزقُ في الكَرْخِ مقيمٌ ولا طَوْقُ العُلا في جيدِ بَغْدادِ

قال أيضاً :

أبغدادُ مالِي فيكِ نَهْلَةُ شاربٍ من العَيْشِ الاّ والخُطوب مِزاجُها[1]

وقال ابنُ سناء المُلْك :

لِمَ لا أهِينُ كِبارَهم وصِغارَهم تيهاً وكِبْرَا

ما النِّيلُ من ماء الحيا ةِ ولا جميعُ الأرضِ مِصرَا

كلّ هذا مستمدٌّ من قولِ ابنِ أخي أبي دُلَفٍ العِجْليّ ، وهو :

دَعِيني أجوبُ الأرضَ في طَلَبِ الغنى

فما الكَرْخُ بالدُّنيا ، ولا النَّاسُ قاسِمُ

* * *

٩٦ — وقوله :

وضُوحِكَ قبلَ إنزالِ رَحْلِهِ ، وَأُعطِيَ حكمِ الصّبيّ على أهْلِهِ .

وقيلَ لَهُ أهْلاً وسَهْلاً ومَرْحَباً فهذا مَبِيتٌ صَالِحٌ ومَقِيلُ

ضُوحِكَ قبل إنزالِ رَحْلِهِ، إشارةٌ إلى قول عَمْرو بن الأَهْتَم الْمِنْقَرِيّ .
والّذي أعرِفه من هذا البيت أنّه :

فقلتُ له : أهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَباً فهذا مبيت صالحٌ وصَديقُ[2]

وقوله : «وضُوحِكَ قبلَ إنزالِ رَحْلِهِ» من قول عَمْرو بن الأَهْتَم ـ وقيل

---

(١) ديوانه : ١٨٢
(٢) الذي في مفضليته ٢٣

فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحبا فهذا صبوحٌ راهنٌ وصديقُ

لحاتم الطائىّ :

أُضاحِكُ ضَيْفِى قَبلَ إنزالِ رَحْلِه
ويُخْصِبُ عِندى والزّمانُ جَدِيبُ

وماالخِصْبُ للأضْياف أنْ تُكْثِرَ القِرَى
ولكنّما وَجهُ الكَرِيم خَصِيبُ

كانوا يَعُدّون تلقّى الأَضياف بالبِشْر وتَهلّل الوجه وإظهار السرور به من كمَالِ مرُوءتِهم ، ولهذا قال :

بَشاشةُ وجهِ المرء خيرٌ من القِرَى
فكيفَ إذا أهدَى القِرَى وهو ضاحكُ !

وقال الفَزَارِىّ :

يا بنت من يَقرى الضيوفَ تَبَسَّمى
إنّ التبسُّمَ من قِرَى الأضْيافِ

وقال أبو تمّام الطائىّ :

فتطلّق مع المنايةِ إنّ البِشْـ مرَ فى أكثرِ الأُمورِ بَشيرُ (١)
إنّما البِشْر رَوْضَةٌ فإذا كا نَ ببذْلٍ فروضَةٌ وغديرُ

وقال أبو الأسود :

إذا ماأتاه السائلون توقّدتْ عليه مَصابيحُ الطّلاقةِ والبِشْرِ

وقال أبو تمّام الطائىّ :

يعطى عَطاءَ المُحسِنِ الخَضِلِ النّدَى عَفْواه ويَعتذِرُ اعتذارَ المُذنِبِ (٢)

---

(١) ديوانه ٣٩٧ (٢) ديوانه ١٣

ومرحّب بالزّائرين وبِشْرُه   يُغْنيك عن أهلٍ لديه ومَرْحَبِ

وقال أيضا :

إذا أمّه العافُونَ ألفَوْا حِياضَه   مِلاءً وألفَوْا رَوضه غيْرَ مُجدِبِ[1]
إذا قال أهلاً مَرْحبا نَبعَتْ لهم   مِياهُ النَّدَى من تحتِ أهْلٍ ومَرحبِ

وقد ضمّنتُ أنا صدرَ ذلك البيتِ في المجون ، فقلت :

وجاريةٍ تُلهى النّديم إذا علا   عليها بطول الدّهر في حالِ فعلِهِ
تقول كذا لى عادَة مستمِرّة   أضاحِك ضَيْفى قبلَ إنزالِ رَحْلِهِ

وقوله : « وأُعطِى حُكْمَ الصّبىّ على أهلِه » ، كانت العَرَب تقول : نزَلْنا على فلان ، فجعَل لنا حُكمَ الصّبىّ على أهلِه .

وقال ابن القِبطرِيّة في رُقعةٍ كتبَها :

يحقّ لى أن أذْهَب شَطَطا ، وأتكلّمَ مَنْبَسِطا ، وأبين غرضى كلّه ومذهبى ، وأتحكّمُ على مكارِمِك تحكّمَ الصّبِى ، وأبلُغ بك كلّ أمَلٍ وأرَب ، وأملأ دلْوى من جاهِك إلى عَقْد الكَرَب[2] .

وكان أبو سُفْيان إذا نزل به جار قال له : يا هٰذا إنّك قد اخترْتنى جاراً ؛ واخترتَ دارِى دارا ، فجناية يدك علىّ مَن دُونك ، وإن جَنَتْ عليك يدفاحتكم حكم الصبىّ على أهلِه .

قال الشاعر :

ولا تَحكُمَا حُكمَ الصّبىّ فإنّه   كثيرٌ على ظَهْر الصديقِ مَجاهِلُهْ

---

(١) ديوانه ٢٤ .   (٢) الكرب : الحبل الذى يشد على الدلو .

وقال أبو تمّام الطائىّ :

ظلّ عُفاةٍ يحبّ زائرَه حبَّ الكبيرِ الصغيرَ من وَلَدِه[١]

إذا أناخُوا ببابه أخذُوا حَقّهُم من لِسانه ويَدِه

وقال أبو فِراس :

ونفتدى الكومَ أشتاتاً مروّعة لا تأمن الدهرَ إلاّ مِن أعادينا[٢]

ويصبح الضّيف أَوْلانا بمَنْزِلنا نرضَى بذاكَ ويُمضى حُكمَه فينا

وقال شاعرُ الحماسة :

نزلتُ على آلِ المهلَّب شاتِياً غريباً عن الأوطان فى زَمَنِ المَحْلِ[٣]

فما زالَ بى إحسانُهُمْ وجميلُهُمْ وإلطافُهُمْ حتّى حَسِبْتهُمُ أهْلِى

أخذَه القاضى الرّشيد بن الزّبير فقال :

فلما نزلْنا فى ظِلالِ بُيوتِهمْ أمِنّا ونِلْنا الخصبَ فى زمَن مَحْلِ

ولو لم يَزِد إحسانهم وجميلُهم على البرّ من أهْلِى حسبتهمُ أهْلى

وأنشدنى لنفسه إجازةً الشيخُ صَفِىّ الدّين الحِلّى :

وكيف بِعادى مِن مَغانٍ أَلِفْتُها وأفنَيْتُ عُمرى بينها وشَبابيا

وقضّيتُ فيها الأربعين مُجاوِراً مُلوكَ البَرايا والبُحورَ الطَّواميا

أصيف وأشتو بينهمْ فكأنّنى نزلتُ على آلِ المهلّب شاتيا

---

(١) ديوانه ٩٢ (٢) ديوانه ٣٩٥ .

(٣) لبكير بن الأخنس ، وهما فى ديوان الحماسة ــ بشرح المرزوقى ٣٠٣ .

٩٧ — وقوله : غيرَ أَنَّ الوطن مَحْبُوب ، والمنشأَ مألُوف .

أَخذَ الآن فى نَقْض ماقرَّر من أنه الأدب ، ألاّ يَخْشى من فِراق الوطن ، وما عُطِف عليه من تِلك الْجُمَل ، فقال : غيرَ أنّ الوطن محبوب ، لِما طُبِعت النفسُ عليه . وقد جاء فى الحديث : « حبُّ الوطنِ من الإيمان » .

وتأوّلَه بعضُ العارفين بأن قال : المراد بذلك حُبُّ النفسِ وَطَنها الأوّل وعالمها القديم من الإيمان ، فأَخرَجه بذلك عن المعنى المتعارَف به ، وما يُفهَم من ظاهرِه .

وقال بعضُ الأدباء : كان الناسَ يَتشوّقون إلى أوطانهم ، ولا يَفهمون العلّةَ فى ذلك إلى أن أَوضحها أُبن الرُّومىّ فى قصيدته لسليمانَ بن عبدِ الله ابن طاهر يَسْتَعْدِيه على رجلٍ من التّجّار ، يُعرَف بأُبن أبى كامل ، أجْبَرَه على بيعِ دارِه ، وأُغتَصَبه بعضَ حُدودِها ، فقال :

ولى وطنٌ آليتُ ألاّ أبيعَهُ ⁂ وألاّ أرَى غيرِى له الدّهرَ مالِكَا

عَهِدتُ به شَرْخَ الشَّباب ونعمةً ⁂ كنَعمةِ قوم أصبَحوا فى ظِلالِكا

وحبَّبَ أوطانَ الرِّجال إليهمُ ⁂ مآربُ قَضّاها الشّبابُ هُنالِكا

إذا ذكروا أوطانَهمْ ذكّرَتْهمُ ⁂ عهودَ الصِّبا فيها فحَنُّوا لذلِكا

وقال أيضاً يتشوّق إلى بَغْداد :

بلدٌ صَحِبتُ به الشَّبيبةَ والصِّبا ⁂ ولبستُ ثوبَ العيشِ وهوجَديدُ

فإذا تَمثّل فى الضّمير رأيتَه ⁂ وعليه أَغْصانُ الشَّبابِ تَميدُ

وقال رجاء بنُ هارونَ العُكْلِىّ :

أحنّ إلى وادِى الأَراكِ صَبابةً ⁂ بعَهدِ الصِّبا فيه وتَذْكارِ أوّلِى

كأنَّ نسيمَ الرِّيحِ فى جَنَباتِهِ نسيمُ حَبيبٍ أو لقاءُ مُؤَمِّلِ

وقال أبو سَرْح : سَمِع أبو دُلَف قولَ القائل :

لا يمنعنَّك خفض العَيشِ فى دَعةٍ نزُوع نفسٍ إلى أهلٍ وأوطانِ
تَلقى بكلِّ بلادٍ إن حَلَلتَ بها أهلاً بأهلٍ وجِيرانًا بجيران

فقال : هذا ألأمُ بيتٍ قالته العرب ، وإنّما قال ذلك لأنّه يدلُّ على قِلّة رعائه ، وشدّة قساوتِهِ ، وحنينُ الرَّجلِ إلى وطَنِه إحدى مَناقِبِه التى يعتدّ بها ، وهذا مِن الأدلّة على كَرَم الطّينة ، ووُفور العَقل .

قالت الحُكماء : حَنينُ الرَّجل إلى وطَنِه من علاماتِ رُشْدِه .

وقال بُزُرْجُمْهر : من علامات العاقلِ بِرُّه بإخْوانِه ، وحَنينُه إلى أوطانِه ، ومُداراتُه لأهلِ زمانِه .

وقال أبو هلالٍ العَسْكريّ :

إذا أنا لا أشتاقُ أرضَ عَشيرتِى فليس مكانِى فى النُّهى بمَكِينِ
مِن العَقلِ أن أشتاقَ أوّلَ مَنزِلٍ غَنيتُ بخَفْضٍ فى ذَراهُ وَلِينِ
وروض رعاهُ بالأصائل نَاظِرى وغُصْنٍ ثَناهُ بالغَداةِ يمينى
وإن لا أنسى العهودَ إذا أتتْ بَناتُ النَّوى دونَ الخَليطِ ودُونى
إذا أنا لم أرعَ العهودَ على النَّوى فلستُ بمأمونٍ ولا بأمِينِ

* * *

٩٨ — وقوله : واللَّبيبُ يَحِنّ إلى وطَنِه ، حَنِينَ النّجِيبِ إلى عطنِه .

اللّبيب ، فَعيلٌ من اللُّبّ ، وهو العَقل ، وأُولو الألباب : أصحابُ العقول .

والحَنِينُ : الشَّوق وتوَقان النَّفس ، تقولُ : حَنَّ يَحِنّ حنيناً فهو حانٌّ .
والحَنِين : ترجيعُ النَّاقة صَوْتَها إثْرَ وَلَدِها .

والوَطن: مَحلّ الإنسان ، وأوطنْتُ الأرضَ ووَطّنتُها توطيناً ، واستوطَنْتُها ؛ إذا اتّخذْتَها وَطناً .

والنجيب : الواحدُ من الإبِل ، والجمع النُّجُب والنَّجائِب . والنَّجيب من الإبل ، هو الفَحْل الكريم .

والعَطَن والمَعطِن واحد الأعْطان والمعاطِن ، وهى مبارك الإبِل حولَ الماء لِتشْرَب عَلَلاً بعدَ نَهَل ، فإذا رَوِيَتْ رُدّت إلى المَرْعى . وفى المَثل : لولاَ حُبّ الوَطَن لخرب الوطن السوء .

وفيه أيضا : مَيلُكَ إلى مَولِدِك ، من كَرَم مَحْتِدِك .

ويقال : إنّه ليس فى الحيوان الطائر أشدّ وَفاء من الفاخِتة ؛ فإنّها إذامات إلْفها ؛ لا تزَالُ تَنْدُبه ، ولا تألفُ غيرَه حتّى تموت . وما أرَقّ قولَ مُرار بن هبّاش الطائىّ :

سَقَى اللهُ أطْلالاً بأخْبِيَةِ الحِمَى ... وإنْ كُنّ قد أبْدَيْن للنّاس مابِيَا

منازل لو مَرّتْ بهنّ جَنازَتى ... لقال صَدَاىَ : حامِلَىَّ انزلا بِيَا

***

٩٩ — وقوله : والكريمُ لا يَجْفو أرضاً فيها قوابِلُهُ ، ولا يَنْسَى بلداً فيها مراضِعُهُ ، قال الأول :

أَحَبُّ بلادِ اللهِ ما بَيْنَ مَنْعِجٍ إلَيَّ وَسَلْمَى أَن يَصُوبَ سحابُها
بلادٌ بها عَقَّ الشبابُ تمائمي وأوّلُ أرضٍ مَسَّ جِلْدِي ترابُها

وهذان البيتان يُشبِهان قولَ الآخر :

ذكرتُ بلادي فاستهلّت مَدامِعي لِشَوقي إلى عَهْد الصِّبا المُتقادِمِ
حننتُ إلى أرضٍ بها أخضرَّ شاربي وقُطِّع عنّي قبل حَلِّ التمائمِ

وقال ابن ميادة :

ألا ليت شِعْرِي هل أبيتنَّ ليلة بحرَّة ليلَى حيثُ رَبَّتْنِي أهْلي
بلادٌ بها نيطتْ عليّ تمائِمي وقطّعن عنّي حين أدركني عَقْلِي

وقال محمد بن غالب الرُّصافيّ :

بلادِي التي رِيشتْ قُوَيْدِمَتِي بها فُرَيخاً وآوَتْنِي قرارتُها وَكْرَا
مِيادِيَ أين العَيْش في رَوْنَق الصِّبا إلى اللهِ أن أنسَى اغترارِي بها غِرّا
لبِسْنا بها ثَوْبَ الشباب لِباسها ولكنّ عَرِينا مُن حلاه ولم يَعْرا

وهذان البيتان اللذان أوردَهما ابن زيدون رحمهُ الله تعالى لهما أوّل، وهو :

ألم تعلمي يادارَ مَلْحاء أنّني إذا أخْصَبَتْ أو كان خِصْباً جنابُها

وقوله : « والكريم لا يجفو أرضاً فيها قوابِلُه » . في الأمثال المَضْروبة : لا تَجْفُ أرضاً بها قوابِلُك ، ولا تَنْسَ بلداً فيها قبائلك .

وقال ابن عُذَين :

ولوَ أنّي خُيِّرت في هٰذه الدُّنـ ـيا لَمَا اخترتُ غيرَ قومي وداري

---

(١) أمالي القالي ١ : ٨٢ ، واللسان (نوط) وياقوت .

وقوله : « ولا ينسى بلداً فيها مراضعه » الرّضاع له حقٌّ وذِمّة تجب رعايتها . لمّا قدم زهير بن صُرَد الجُشَمِىّ السّعدىّ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم حنين وهو بالجعرانة قال : يارسولَ الله ، إنّما سُبيت منّا عمّاتك وخالاتُك وحواضنُك اللاتى كفلنك ، ولو أنّا ملحنا[1] للحارث ابن أبى شمِر أو للنُّعمان بن المنذر ، ثمّ نزَل منّا أحدهما بمثل ما نزلت به ، رجَوْنا فضلَه وعائدته ، وأنت خيرُ المكفولين ، ثمّ أنشد :

أمْنُنْ علينا — رسولَ الله — فى كَرَمٍ ... فإنّك المرء نرْجــوهُ ونَنْتَظِرُ[2]

امْنُنْ على بَيْضةٍ قد عاقَها قَدَرٌ ... مُشَتّتٌ شَمْلُها فى دهرِها غِيَرُ

إذ أنتَ طفلٌ لأُمٍّ كنت ترضَعُها ... إذْ فُوكَ تملؤُها من مَحْضِها الدِّرَرُ

لا تجعلنّا كمَن شالتْ نعامَتُه ... واستبقِ منّا فإنّا مَعشرٌ زُهُرُ

فالبِسِ العفوَ من قد كنتَ تَرضعه ... من أمّهاتكَ ، إنّ العفوَ مُشتهرُ

فى أبياتٍ أكثرَ من هذه ، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : «ما كان لى ولِبَنِى عبدِ المطّلب فهو لكم » ، وقالت قريش : ما كان لنا فهو لله ولرسوله . وقالت الأنصار : ما كان لنا فهو لله ولرسوله .

وما أحسنَ قولَ ابنِ سَناء المُلْك :

وكم حَنَّ صبرى خشية لتمائمى ... وكم مَسَّ جِلْدِى مسكه ، لا ترابُهُ

وفى غرْبِ ذيّاكَ العُذيب وبارقٍ ... وما ذاكَ إلاّ ثغره ورُضابُهُ

* ٥ *

---

(١) ملحنا : أرضعنا .

(٢) عيون الأثر ١ : ١٩٦ .

١٠٠ — وقوله : هذا إلى مُغالاتى بعقد جوارِكَ ، ومُنافستى لِلخُلطة مِنْ قُرْبِك .

المُغالاة ، مُفاعَلة من الغُلوّ . والمُنافَسة ، مُفاعَلة من المنافسة .

كان عند العرب فى رعاية الجوار ما هو أعجب العجب ؛ وذلك أنّ الإنسان إذا لَمس طُنُب بَيتِه طُنُبَ بيتٍ آخَر لِزمهَ حُرْمة الجوار والذِّمة ، وإذا علق له دلوٌ بدلوِ آخَر فى بئرٍ لزمه حُرْمة الجوار والذِّمة ، وإلى هاتين الفضيلتَين أشارَ أبو تمّام يُخاطِبُ ابْنَ الزَّيات :

لى حُرْمةٌ بكَ لولاَ ما رَعَيْتَ وما أوجَبْتَ من حَقِّها ما خِلْتُها تجِبُ[1]

بَلَى لقد سَلَفَتْ فى جاهليّتِهِمْ للحقّ ليس كحقّ نصرةٌ عَجَبُ

إن تَعلَق الدَّلْوُ بالدّلْوِ الغريبة أو يلامِسُ الطُّنُبُ المستحصِدَ الطُّنُبُ

وقال أبو إسحاق الغزّى :

ما بعتُ فيك الخَلْقَ حتّى زُرْتُهم فعلِمْتُ أنّك فوقَهم متيقّنا

وتخافتى ألاّ يكون لرغبتى أثرٌ فأبقى ، لا هُناكَ ولا هُنا

لا ترمنى رَمْىَ القُلامةِ وارْمِ بى فى مَطلَبٍ رَمْىَ الجمارِ إلى مِنَى

إنّى أعوذُ بما حَوَيْتَ من العُلا من أن يجرِّب فىّ رأيك ما بنَى

* * *

(١) ديوانه : ٥٥

١٠١ – وقوله : واعتقادى أنّ الطمع فى غيرك طبَع ، والغِنَى بِمن سواك عَناء .

الطَّبَع بتحريك الباء : الدَّنَس . والعناء بالمدّ : التّعب ، وفى المَثَل : ربّ طمع يُدْنى إلى طبع ، قال الشاعر :

لا خيرَ فى طمعٍ يُدنِي إلى طَبَعٍ　　　وغُفّةٌ من قِوامِ العَيْشِ تكفِينِي (١)

الغُفّة : القوت ، وأصْلها الفأرة ، سُمّيتْ بذلك لأنّها قوتُ السِّنَّوْر ، وهى بالغَيْن المعجمة والفاء . ويجوز أن تكون بالعَيْن المهملة ، وهو تصحيف حَسَن وأليق بالبيت ، لأنّ العُفّة والعُفافة بالضّم فيهما : بقيّة اللّبن فى الضَّرْع .

قال الأعشى :

ماتعادى عنـــه النّهار ولا يعـ　　　ـجوه إلاّ عُفافة أو فُواقُ (٢)

وقولُه : «واعتقادى أنّ الطَّمع فى غيرك طبَع» . هذا يَعُدّه بعضُ أربابِ البديع من الجناس المُطمِع ، وهو مَتَى فرَغ من ركنه الأوّل وابتدأ بالثانى أطمَع السامعَ أنّه موافق لحروف الأوّل ، فإذا كمَلَ الرُّكن الثانى خالَفَ الأوّل ، كقولِه تعالى : ﴿ وإذا جاءَهُمْ أمْرٌ مِنَ الأَمْنِ ﴾ (٣) ، وكقولِه صلّى الله عليه وسلّم : «الخَيْلُ مَعقودٌ بنَواصِيها الخَيْر» .

وهذا النّوعُ من أعلى هذا الجناس . ودونه أن يُخالفَ الرُّكنُ الثاني الأوّلَ بحَرْف فى وَسَطه ، كقوله تعالى : ﴿ وإنّه على ذلك لشَهيد * وإنّه لِحُبِّ الخير

---

(١) البيت فى اللسان (غفف) من غير نسبة .

(٢) ديوانه ٢١١ . تعادى : تباعد . تعجوه : توجر رضاعته . الفواق : ما بين الحلبتين من الوقت .　　(٣) سورة النساء ٨٣ .

لشديد ﴾(١) . وكقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عنه وينأون عَنْه ﴾ (٢) .

وقوله : « الطَّمَع في غيرِ مَطْمَع » من هذا القِسْم .

ومن مادّة قولِ ابنِ زيدون قولُ الأوّل :

وإنّي وتَرْكِي نَدَى الأكرمين وقَدْحِي بكَفِّي زَنداً شحاحا

كتاركةٍ بيضَها بالعَرا ء ومُلْحِفةٍ بيضَ أخرى جَناحا

وقال ابن حيّوس :

وها أنا ثاوٍ في جَنابكَ لم أَمِلْ إلى أملٍ يُمحَى ولامِنّةٍ تُسْدَى (٣)

يَعافُ وُرودَ الطَّرْقِ مَن وَجَد الحَيا

ويأبَى الرِّضا بالرَّشْحِ من جاور العِدّا ؟ (٤)

وقال أبو هلال العسكريّ :

كأنّي إذا أمسكتُ منك بمُرْوة أخذتُ بأهدابِ الغيومِ السّواكِبِ

وقال أبو الطيّب المتنبي :

ولم أَرْجُ إلاّ أهلَ ذاكَ ومَن يرِدْ

مَواطِرَ مِنْ غيرِ السحائبِ يَظْلِمِ (٥)

* * *

(١) سورة العاديات ٧ ، ٨ . (٢) سورة الأنعام ٢٦ .

(٣) ديوانه ١٥٠ (٤) والطرق : الماء الذى خوضته الإبل . والحيا : المطر . والرشح : تحلب الماء . والعد : الماء الجارى الذى له مادة لا تنقطع .

(٥) ديوانه ٤ : ١٣٩ .

١٠٢ — وقوله : كلُّ الصَّيْدِ في جوفِ الفَرَا

الفَرَا حمارُ الوَحْش ، وأصلُ المَثَل أنَّ ثلاثةَ نفَر خرَجوا متصيِّدين فاصطادَ أحدُهم أرْنبا ، والآخرُ ظَبْيا ، والثالث حِمار وَحْشٍ ، فاستبْشَر صاحبُ الأرْنبُ وصاحبُ الظبي بما نالاَ ، وتطاولا[١] عليه ، فقال الثالث : « كلُّ الصَّيد في جَوْف الفَرَا » ، أي هَذا الذى رُزِقْتُ وظَفِرتُ به يَشتمل على ما عِندَكما ، وذلك أنه ليس مما تصيدُه [الناسُ][٢] أعظم من حِمارِ الوَحْش.

وقد تألَّف النبي صلّى الله عليه وسلّم أبا سُفْيان بهذا القول حينَ استأذَن على النبيّ صلى الله عليه وسلم فحَجَبَه قليلا ، ثمّ أذِن له ، فلمّا دَخَل قال : « كِدْتَ تأذَن لحجارة الجَلْهَتَيْن » . قال أبو عُبَيدة : الصواب « الجَلْهَتَيْن » وهما جانِبا الوَادِي ، فقال عليه السلام : « يا أبا سُفْيان ، أنتَ كما قيل : كلّ الصَّيد في جَوْف الفَرا » ، يتألّفه على الإسلام . وقال أبو العبّاس : معناه إذا حجبتُك قنع كلُّ محجوب ؛ يضرب لمن يفضل على أقرانِه .[٣]

وقال العميد أبو بكر عليّ بن الحُسين القُهِسْتَانِي :

أنا ما قنعتَ[٤] بودّني لك عَدِّ عَن غَيْرِى ، فكلُّ الصَّيدِ في جَوْفِ الفَرا

وقال الصاحبُ شرفُ الدّين بن عُنَيْن :

نَسَخَتْ خلائقَهُ الكريمةُ ما أتى
في الكُتْب عن كِسْرَى الملوكِ وقَيْصرا[٥]
لا تسمعنّ حديثَ مَلْكٍ بعده
يُرْوَى ، فكلُّ الصَّيْد في جَوْف الفَرا

---

(١) م ، ط : « وتطولا » .
(٢) تكملة من ط
(٣) الميداني ٢ : ١٣٦ .
(٤) ط : « قبضت » .
(٥) ديوان ٦ .

وقال أبو إسحاق الغزّى :

لا تسألنّ سوى السماح ... سَبباً ، فكلُّ الصيد فى جَوْف الفَرَا

وقال ابن المعلّم :

طوى الورى شعرىَ عنّى وانثنى ... يقولُ كلُّ الصَّيْد فى جَوْفِ الفَرَا

وقال أحمد بن حسن المتصوِّف الدُّوَيْنى :

لو كان ظُلْمُ الشَّيْب ظُلْما يُتَّقَى ... لرَجَوْتُ للعَدْوَى الوَزِيرَ الأكْبَرا

إنّى اكتفيتُ من الورَى بلقائه ... إذ كان كلُّ الصيد فى جَوْف الفَرَا

وقال أبو الحسين الجَزّار يمدح كمال الدين بن العَدِيم :

وطالمَا حدّثتُ نفسى بالغِنَى ... مِنكَ وما كانَ حديثاً يُفتَرَى

ولستُ أختارُ كريماً بعدها ... عنكَ؛ وكلُّ الصَّيدِ فى جَوْف الفَرَا

وذكرتُ هنا ما أنشدَنى لنفسه الشيخُ صفىّ الدين الحِلِّى رحمه الله فى مليحٍ لابسٍ شمل فَرْوَة .

بَصُروا بفَرْوِك فازدَرَوْكَ لحالة ... أضحَى بها معروفُ حُسنِك مُنكَرا

كلٌّ أدارَ الطَّرف عنْكَ مُحاولاً ... صَيْداً، وكلُّ الصيدِ فى جوف الفَرَا

وكنتُ أنشدْتُه لبعض الناس فأنكره ، وقال : الفرا حِمارُ الوَحْش — بفتح الفاء — وكلام الصفى لا تصح معه التورية إلاّ بكسر الفاء؛ فقلتُ : الفَرا مفتوحُ الفاء ، مقصورٌ مَهموز — هو الحِمارُ الوَحْشى ، ويُجمَع على فِراء ممدود ، مكسور الفاء ، كجبل وجبال .

قال الشاعر(1)

---

(1) البيت لمالك بن زغبة ، وبقيته :

* بِضَرْبٍ كآذَانِ الفِرَاءِ فضوله *

* * *

١٠٣ — وقوله : والبَدَل منك أعوَر ، والعِوَضُ لَفاء .

وإذا نظرتُ إلى أميرِى زادَنِى
ضَنًّا به نَظَرِى إلى الأمَـــــراءِ

بَدَلٌ أعوَر ، أصلُ هذا المَثَل أنْ يَزيدَ بن المهلّب لمّا صُرِف عن خُراسان بقُتَيبةَ بن مُسلم الباهليّ ـ وكان شَحِيحًا وشَيْخاً أعوَر ـ قال الناس : هذا بَدَلٌ أعوَر ، فصار مَثلا لـكل من لا يُرتَضَى به بدلا من الذّاهب ، وفى ذلك يقول الشاعر :

كانت خُراسانُ أرْضاً إذْ يَزيدُ بهـا
وكلُّ بابٍ من الخَيْراتِ مَفْتـوحُ (٢)
حتّى أتَانا أبو حَفْـــــصٍ بإمْرتِهِ
كأنّما وجهُه بالخَلّ مَنْضـــــوح

واللَّفاء : الشيء الخسيس ، يقال : فلانٌ رضىَ من الوَفاء باللَّفاء ، أى عن حَقِّه الوافِر بالقليل الحَقِير .

ومن مَقاماتِ الحريريّ : أرْضَى من الوَفاء باللَّفاء وأقنع من الجَزاء

* وطعن كإيزاغ المخاض تبورُها *

(٢) الشعر والمثل فى الميدانى ١ : ٩٠ .

بأقلّ الأجزاء ، ولا أنظِلم حين أظلَم ، ولا أنعم ولو لدغني الأرقم[١] .

والأصل في هذا قولهم في المثل : أعطاني القفاء ، يضرب لمن يبخسك حقك ، ويظلمك فيه .

وقال أبو الطيب :

وما لاقَني بـــــلدٌ بَعدكُم
ولا اعتَضتُ من ربِّ نُعماىَ ربّا[٢]

ومَن ركِبَ الثورَ بعدَ الجـــوا
دِ أنكـــــرَ أظلافَهُ والغَبَب[٣]

وقال ابن حَيّوس :

وما المرء إلاّ من يضنّ بنفسه إباء ولا يرضَى من العزّ بالقفا

ومَن لا يَعيف الطير إن منحت له وإن خالط الماء امتنان تعيّفا

ببوء بخسرٍ بائع العزّ بالغِنَى وأخسَرُ منه مُشتري القَدرِ بالوفا

وهذا البيت الذي أورده ابن زَيدون رحمه الله تعالى ، هو لمدىّ بن الرِّقاع ، وبعده :

بل ما رأيت جبال أرضٍ تستوي
فيــــها غشيتُ ولا نجومَ سَماء[٤]

---

(٢) المقامة الرابعة ص ٣٤ . والأرقم : الثعبان .

(١) ديوانه ١ : ٩٨ . وما لاقني ، أي ما أسكنني .

(٢) الغبب من الثور : ما تدلى تحت حنكه .

(٣) ديوانه ٢ ٢٩٢ .

(٤) الشعر والشعراء ٦٠٣ ، والذي بعده هناك :

تَسْمُو العيونُ إليه حِينَ يرونَهُ كالبدرِ فرّج بُهمَة الظلماءِ

والأصلُ ينبتُ فرعُه متأثّلاً والكفُّ ليسَ بنانُها بسواءِ

كالغَيْمِ منه وابلٌ مُتَتابِـــعٌ[١] — غَدِقٌ وآخرُ لا يَجُودُ بمـــاء[٢]

والحرُّ يُورِثُ مَجْـــدَهُ أبناءه[٣] — ويَموتُ آخرُ وهْـــو فى الأحْياء

* * *

١٠٤ — وقولُه: وفى كلّ شجرٍ نارٌ، واستَمْجَدَ المَرْخُ وَالعَفَارُ

استمجد استفعل، من المجد.

والمَرخ، بالراء الساكنة والخاء المعجمة: شجر سَريعُ الوَرْىِ. والعفار بالعين المهملة والفاء وبعده الألف راء: ضربٌ من الشّجر كثيرُ النار.

والمَرْخ الزَّنْدَة، والعفار هو الزَّنْدُ الأعْلَى، وإذا حُكَّ الأعْلَى بالأسْفل خرج منها النار، قال الكميت:

إذا المَرْخُ لم يُورِ تحتَ العَفَا — رِ ضَنَّ بقَدْحٍ فلم يُعقِبِ[٤]

وقال أبو زَيْد: ليس فى الشّجر كلّه أورَى ناراً من المَرْخ، وربَّما كان المَرْخ متجمّعاً ملتفّاً، وهَبَّت الرِّيح فاحتكَّ بعضُه ببعض، فأوْرَى النَّار واحترق كلّه، ولم يُر ذلك فى سائر الشجر.

قال الأعْشى:

زِنادُكَ خيرُ زِنادِ الملو — كِ خالَط فيهنَّ مَرْخٌ عَفارَا[٥]

والقوم أشباهٌ وبين حلومهم — بَوْنٌ، كَذاكَ تفاضُل الأشياءِ

(١) فى الشعر والشعراء: «والبرق منه وابل».

(٢) فى الشعر والشعراء: «جود وآخر ما يض بماء».

(٣) الشعر والشعراء: «والمرء».

(٤) اللسان — مرخ، من غير نسبة.

(٥) ديوانه ٥٣

ولو بتَّ تَقدح في ظُلْمةٍ حَصاةً بنبعٍ لأوْرَيْتَ نارَا

ومعنى «استَمْجَد المَرخ والعَفار» ، أنَّ كلَّ شجرٍ أُخِذ منه عُودان وحُكَّا ، خَرَج منهما نار ، ولكن تفرّد بالمجد في هذا الشّأن المَرْخ والعَفار . وقال أبو القاسم عليّ بن جلباب :

ولا تحْسَبْن كلَّ عُودٍ يريـ ـكَ ما أنتَ مُورٍ من القَدْح نارَا

فما كلُّ وَحْشٍ يُرى ضَيْغَمًا ولا كلُّ عودٍ يُسمَّى عَفارَا

* * *

١٠٥ — وقولُه : فما هذه البَراءة ممّن يتولاّكَ ، والمَيْلُ عمّن لا يميلُ عنك !

البراءة : مَصدَر من بَرِئ من الدَّيْنِ والعَيْب ، يَبرأُ بَراءةً .

ويتولاّك : فعلُ مضارعٍ من تولاّه ، أي صار وليّه ، والميل ضِدُّ العدول .

وما أحسَنَ قول عليّ بن أحمد الجوهريّ :

وأُقسِم لو رَوّيتَ سيفَك من دَمِي لأَوْرَق بالوُدّ الصَّريح وأثْمَرَا

فكم مُدْبرٍ بالوُدّ تلقاه مُقبِلاً وكم مُقبِلٍ بالوُدّ تلقاه مُدْبِراً

وما أحسَنَ قول السراج الورّاق :

ومهفهَفٍ عنّي يَميلُ ولم يَمِلْ يومًا إليّ ، فَصِحْتُ من ألَم الجَوَى :

لِمْ لا تَميلُ إليّ ياغُصْنَ النَّقَا فأجابَ : كيفَ وأنتَ مِن جهةِ الهَوَى!

وقال آخَرَ :

أقولُ له : عَلامَ تَتِيه عُجْبًا على ضَعْفي ولِي قلبٌ سَقيمُ ؟

فقال : تقول عنّي : فِيَّ مَيْلٌ فقلتُ له : كذا نَقلَ النَّسيمُ

وقلتُ أنا فى هذا المعنى ، وهو من قديم نظمى[1] :

كَلامُ العِدا رِيحٌ إذا ما سَمِعْتُه أقول: وكم مالَتْ مع الرِّيحِ أغصانُ

وقريبٌ من هذه المادّة قولِى أيضا :

أقولُ ياغُصْن ، هلاّ مِلْت نحو فتًى فُؤادُه طارَ حتّى ليس يَألَفُه
فقال: مَن قال قَدِّى مِثل غُصْنِ نَقًا قلتُ النَّسيمُ الّذى مازالَ يَعطِفُه

وقلتُ أيضاً :

لمَّا تَثَنَّى ثَمِلاً قلتُ لا تَمِلْ فهذا المَيْلُ مَنْقولُ
وأنت تَدْرى أنّ قولَ الصَّبَا فى حَرَكاتِ الغُصْنِ مَقْبولُ

وقلتُ أيضا :

قال لِى لا تَفُهْ بمَيْلِ قَوامِى إنْ تَثَنَّى واستُرْه خوفَ العُيونِ
قلتُ قُلْ للصَّبا الّتى قد أشاعَتْ عنكَ هَذا الحديثَ بَيْنَ الغُصونِ

* * *

١٠٦ — وقولُه : وهلاَّ كانَ هَواكَ فيمن هَواهُ فيكَ ، ورِضاكَ لِمَنْ رِضاهُ لَكَ !

هلّا كلمةُ تحضيض . والهَوَى : مَيْلُ النَّفس إلى الشىء إذا كان مَقْصورا . والهَواء ، مَمْدود : الرِّيح التى تتموّج فى البَحْر . وما أحسَنَ قولَ أبى إسحاق :

إذا جاسَت الرِّيحُ البليلُ دِيارَكُمْ وصِحْتُ فَـقُمْ النّازحِ البُرَحاء
فكلّ هواء يَستَثيرُ الجوى هوًى وكلُّ هَوًى يَشفِى النفوسَ هَواء

ومن السعادة والتوفيق أن يكون هَوَى الإنسان فيمن هَواه فيه ، ورِضاه لمن رضاه له ، ومن الشَّقاوة والحِرمانِ عكْس القضيَّة .

(١) ط : « من شعرى القديم » .

وقال الحجاج يوماً لرجل من الخوارج : والله إنى لأبغضكم ؛ فقال : أدخل اللهُ أشدَّنا بُغضاً لصاحبه الجنّة . وقال :

لا تطمعوا أن تُهينونا و نُكرمَكم ... وأنّ نكُفّ الأذى عنكم وتؤذونا

كلٌّ له نِيّةٌ فى بُغضِ صاحبِه ... بنعمةِ الله نَقليكم وتَقلونا

وقال الشريف الرضى :

ياقلبُ ليتك حين لم تَدَعِ الهوى ... عَلِقتَ مثلَ هَواكَ من يَهواكا[1]

لا بل شَجيتَ بمن نبيت مسلما ... خالى الضلوع ولا يحسُّ شَجاكا

يا ليتَ شُغلك بالأسى أعداءَهم ... أولا ، فليت فراغهم أعداكا

أهوى وذُلاً فى الهوى وطاعةً ... أبداً ، تعالى اللهُ ما أشقاكا !

وقال شرفُ الدين شيخُ الشيوخ بحماةَ رحمه الله :

ومُغرمٍ قبح سلوانه ... حسناء تهواه ويَهواها

عانقها مرتشفاً ثغرها ... يَبكى فحلّته وحَلاّها

قلت : الأول من الحلاوة ، أى ريقُها حُلو ، والثانى من الحُلِيّ ، أى ودمعه عقيقٌ أو مرجان أو ياقوتٌ أحمر .

وقال أبو العتاهية :

المرء ما لم تُزرِه لكَ مُكرِمٌ ... فإذا ازدريت له تهون عليه

وكما يكونُ لذَنْبك من عاشرته ... فكذاك فارِضْ بأن تكون لديه

* * *

١٠٧ — وقوله :

يامن يعزُّ علينا أن نفارقَهمْ ... وِجدانُنا كلَّ شىءٍ بعدكمْ عَدَمُ

(١) ديوانه ٥٩٤ .

هذا البيتُ من قصيدةٍ[1] لأبي الطيِّب أوّلُها :

واحرَّ قَلْباه مِمّن قَلْبُه شَبِمُ   ومَن بجِسْمِي وحالِي عندَه سقَمُ

وكان سيفُ الدّولة بنُ حمدانَ إذا تأخّرت عنه مدائحُ أبي الطّيب ، شقّ ذلك عليه وأقْلقه ، وأكثرَ معاتبتَه إذا حضَر ، وتقدّم إلى مَن بحضرته بالتّعريض بالمكروه ، ومخاطبتِه بما لا يَحسُن ، فكبُر ذلك على أبي الطّيب ، وآلمَه غايةَ الإيلام ، فأنشدَه هذه القصيدةَ بمحضَر من العرَب والعجَم ، وكان سببَ الوَحشة بينهما وفساد الحال . وبعد البيت الّذى أورَده ابنُ زيدون :

ما كان أخْلقَنا منكم بتكرمةٍ   لو أنّ أمرَكُم من أمرِنا أَمَمُ
إن كان سرَّكُم ما قالَ حاسِدُنا   فما لجُرحٍ إذا أرْضاكُمُ أَلَمُ

ومنها قوله :

يا أعدلَ النّاسِ إلاّ في مُعامَلتي
فيكَ الخصامُ وأنتَ الخَصمُ والحَكَمُ
أُعيذُها نظَراتٍ منكَ صادِقةً
أن تَحسَبَ الشّحمَ فيمَن شحمُه وَرَمُ
وما انتفاعُ أخِي الدُّنيا بناظِرِه
إذا استوَتْ عندَه الأنوارُ والظُّلَمُ !

ولم أُورِدْ هذه الأبياتَ إلاّ لأنّها يليقُ بهذه الرِّسالة أن تُدرَجَ في أثنائِها ، وتَنخرِطَ في سِلْكِها .

---

(١) ديوانه ٣ : ٣٦٢ ــ ٣٧٤ .

وما أحسنُ ما أنشدَنيهِ لنفسهِ إجازة الشيخُ العلاَّمة شهابُ الدّين أبو الثّناء محمود صاحب ديوان الإنشاء بالشّام :

قل للّذين رَجَونا والأمورُ لهـا
حُـكْمٌ بأنّا سنَحظَى أن نرافِقَهمْ

أوحَشْتُمونا وعزَّ الصَّبرُ بعدَكُمُ
يا مَنْ يَعِزُّ علَينا أن نفارِقَهُمْ !

* * *

١٠٨ — وقولهُ : أعيذُكَ ونفسِي أن أُشيمَ خُلَّبا ، أو أستمطر جَهاما .

شام البَرْق ، إذا نظر إلى سَحابتِه أينَ تُمطِر .

والخُلّب : البَرْق الّذى لا غيْث معه كأنّه خادع .

والجَهام : السّحاب الّذى لا ماء فيه .

وَفد بشّار بنُ بُرْدٍ على خالدِ بنِ بَرْمك وهو بفارِسَ ، فمدَحَه ، فوعده ومَطَله ، فوَقَف على طريقه يوماً وأخَذَ بلِجام بغلته ، وأنشدَ فى الحال :

أظَلّتْ علينا منكَ يوماً سَحابةٌ ... أضاءتْ لنا بَرْقاً ، وأبطَا رشاشُها
فلا غَيْمُها يُجلَى فييئسَ طامعٌ ... ولا غَيْثُها يَهمِي فيروَى عِطاشُها

وقال المغيرةُ بن حَبْناء :

أرانى إذا استمْطَرْتُ منكَ سحابةً ... لتُمطِرَنى عادَتْ عَجاجاً وسافِيا
وأدْلَيْتُ دَلْوِى فى دِلاءٍ كثيرةٍ ... فأُبْنَ مِلاءً غيرَ دَلْوِى كما هِيا

وقال عَمْرُو بن معد يكرب :

لا تُمِنّى بعد إكرامِكَ لى ... فشَديد عادةٌ منتزَعَهْ
لا يَكُنْ بَرْقُك بَرْقاً خُلّباً ... إنّ خيرَ البَرْق ما الغَيْثُ مَعَهْ

وما أحسنَ قول الحسين بن الضحّاك وقد تَقدّم :

أنا فى ذِمّة السّحابِ وأظمَى ! ... إنّ هذا لَوَصْمَةٌ فى السّحابِ [١]

---

(١) ديوانه ٧٩

وقال شرف الدين بن عنين :

يا كعبةَ الفضلِ الذى نادَيْتهُ بالحجِّ أقدمَنى إليها مُحرِمَا
ما كانَ برقُكَ خلَّبًا إذْ شِمْتهُ فعلامَ بتُّ وقد همَى أشكو الظَّمَا !

وقال أبو الطيّب :

أنتَ الحبيبُ ولكنّى أعوذُ به من أنْ أكونَ مُحِبًّا غيرَ محبوبِ (١)

وقال ابنُ المُعلّم رحمه الله :

ولقد دعوتُ فكن مُجيبًا إنّنى بك عائذٌ من خَيْبةِ المَرْدودِ

وقال السّراج الورّاق ــ ومن خطّه نقلتُ :

مضَى النّاسُ الّذين عهِدْتُ قِدْمًا وقِدْمًا قيل إنَّ الدّهرَ قُلّبْ
فلا يَخْلُبْكَ بِشْرٌ مِن وُجوهٍ فكَمْ برقٍ يَرُوقُكَ وهْوَ خُلَّبْ

وقال ابن حَيّوس :

رامُوا المَودّاتِ من أعدَى عداتِهمُ وذاكَ رأىٌ إلى غيرِ الصّوابِ صَبَا (٢)
وفارقُوا عارضًا عمّت مَواطِرُهُ ويمّموا اللّمعَ برقٍ طالمَا كَذَبا
كطاردٍ إبلَه والأرضُ مُخْصِبةٌ يَبْغى سِباخًا يرجّى الغيثَ والعُشُبَا

* * *

---

(١) ديوانه ١ : ١٧٦ (٢) ديوانه ٥٥

١٠٩ — وقوله : وأكرم غير مكرَّم ، وأشكو شكوى الجريح إلى العِقبان والرخم .

هذا عجزُ بيت لأبي الطّيب ، وصَدرُه :

* ولا تَشَكَّ إلى خَلْق فتُشْمِتَهم *

وهذا من قصيدته[1] التي أولها :

حتّام نحنُ نُسارى النجمَ في الظُّلَمِ   وما سُراهُ على ساقٍ ولا قَدَمِ

قال أبو الطّيب هذه القصيدة عند قدومه من بغدادَ إلى الكوفة ، ويذكر مَسيرَه من مصرَ إلى العِراق . وقبلَ البيت الذى أورَد عجزه ابنُ زَيْدون :

هَوِّن على مَنْظَرٍ ماشقَّ مَنْظَرُه   فإنما يَقَظاتُ العَيْن كالحُلُمِ

وبعــده :

وكُنْ على حَذَرٍ للناس تَسْتُرُه   ولا يَغُرّك منهم ثَغْر مُبْتَسِمِ
غاض الوَفاء فما تلقاه في أحَدٍ   وأعوزَ الصِّدْق في الأخبار والقَسَم

وقوله : « وأُكرَم غير مُكرَّم » هو مأخوذ من قولِ زُهير بن أبي سُلْمَى :

ومن يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عَدُوًّا صَديقَهُ   ومن لايُكرِّم نفسَه لاَ يُكرَّمِ

وهذا البيتُ من قصيدته المعلّقة[2] ، وأولها :

أمِنْ أُمِّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ   بحومانَةِ الدَّرّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

---

(١) ديوانه ٤ : ١٥٥ — ١٦٣   (٢) ديوانه ١ : ٤ — ٣٢ .

وفى هذه القصيدة أبيات حِكم، وهى :

ومن لم يُصانع فى أمورٍ كثيرةٍ يُضرَّسْ بأنيابٍ ويُوطأْ بمنسمِ
ومن يَكُ ذا فضلٍ فيَبْخلْ بفضلهِ على قومهِ يُستغْنَ عنه ويُذْمَمِ
ومن يَجعلِ المعروفَ من دُونِ عِرْضِه يَفِرْهُ ومن لا يتّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ
ومن لمْ لا يَذُدْ عن حوضه بسلاحه يهدم، ومن لا يظلم الناسَ يُظلَمِ
ومن هابَ أسبابَ المنايا ينلْنَهُ ولو رام أسبابَ السّماءِ بسُلَّمِ
ومن يَعْصِ أطرافَ الزِّجاج فإنّه يُطيعُ العَوالِي رُكِّبتْ كلَّ لَهْذَمِ
ومن يُوفِ لا يُذمَمْ ومن يُفْضِ قلبُه إلى مُطمَئنِّ البِرِّ لا يتجَمْجَمِ

ومن يَغترب يحسب عدوّا صديقه . . . . البيت، وبعده :

ومَهْمَا تكنْ عند امرىءٍ مِنْ خليقةٍ وإنْ خالَهَا تخفَى على النّاس تُعلمِ
ومن لا يزَلْ يَستحمِل الناسَ نَفْسَه ولمْ يُغْنِها يوماً من الدّهر يُسْأَمِ

هذا الّذى ظهر لى من قول ابن زَيْدون، ويحتمل أنه أراد : كَدمت غيرَ مَكْدَم . الكَدْم: العضّ، والمكدَم موضع العَضّ؛ يضرب لمن يطلب شيئا فى غير مطلبه .

* * *

١١٠ — وقولُه : فما أبْسَسْتُ بك إلاّ لِتَدِرّ، وحرّكْتُ لك الحُوار إلاّ لتحنّ

الإبساس عند الحَلْب أن تَقولَ للنّاقة الحلوب : «بِسْ بِسْ» وهو صوت الرّاعى يُسكِّن به الناقة عند الحلْب . وناقةٌ بَسُوسٌ، إذا كانت لا تَدِرّ على الإبْساس .

وقال أبو عُبيدة: بَسَسْتُ الإبلَ وأبْسَسْتُ، لُغتان. وفي المَثَل: الإيناس قبلَ الإبْساس. الإيناس من الأُنس وهو ضِدُّ الوَحْشة، والإبْساس الرِّفق بالنَّاقة عند الحَلْب، وهو أن يقول: بِسْ بِسْ؛ قال الشاعر:

ولقد رَفَقْتُ فما حَظِيت بطائلٍ لا يَنفَعُ الإبْساسُ بالإيناسِ

تَدِرّ، فِعْل مُضارع، من دَرَّ اللَّبنُ يَدِرّ.

والحُوار: وَلَد الناقة، وفي المَثَل «حرِّكْ لها حُوارَها تَحِنّ»[1]، ولا يَزال الحُوارُ حُوارًا حتّى يَفصل عن أُمّه، فهو فَصِيل. وهذا المَثَل قالَه عَمْرو بن العاص لمعاوية حين أراد أن يستبصر بأهل الشام. ومعنى المَثَل: ذَكِّره بعض أشجانه يهيج لها، وقال الحُطَيئة:

لقد مَرَيتُكُمُ لو أنّ دِرَّتَكُمْ يومًا يَجِيء بها مَسْحِي وإبساسي[2]

لمّا بدا لي منكم عَيْبُ أنفسِكُمْ ولم يكن لجِراحي منكمُ آسِ

أزْمَعْتُ يأسًا مُرِيحًا مِن نَوالِكُمُ ولن تَرَى طارِدًا للحُرّ كالياسِ

وما أحسنَ قولَ أبي الفَتْح البُسْتيّ:

قالتْ وقد راوَدْتُها عن قُبلةٍ تَشفي بها قلبًا كئيبًا مُغْرَمًا

قَدِّمْ يدًا من قبل أن تُدْنِي يدًا ومَبرّةً من قبل أن تُدْني فَمًا

* * *

(١) الميداني ١: ١٩١

(٢) ديوانه ٥٣

١١١ ــ وقوله : وما نبهتُكَ إلاّ لأنام ، وما سريتُ لكَ إلاّ لأحمد السُّرَى إليكَ .

هذا فيه إشارةٌ إلى المثَل السائر ، وهو : « نَبِّهْ لها عَمْراً ثمّ نَمْ » .

وقال بَشّار بنُ بُرْد فى أبى عمرو العلاء :

إذا أيقظَتْكَ حُرُوبُ العِدَا فنَبِّهْ لهــا عُمَراً ثُمّ نَمْ
فتًى لا ينـــــامُ على غِرَّة ولا يَشرَب الماءَ إلاّ بدَمْ

وقال شَرفُ الدين مستوفِى إرْبِل :

إذا أيقظَتْكَ صِعَابُ الامورِ فنَبّه عَلِيّــا لهـا لا عُمَرْ
ونادِ به مُستَجِيرا يُجِبْكَ فتًى عزْمُه كاليمانِى الذَّكَرْ

وما أحسَنَ قولَ ابن قَلاقس :

ووزيرٍ مملـكةٍ غــدَا وَزَراً لهـا وسِواهُ وِزْرَا
يقظــانُ إن نبهتَـــه عُمَـراً ، أو استنْجَدْتَ عمْرَا

ونقلتُ من خطّ السِّراج الورّاق :

سُيوفٌ لهـا ناظرٌ نامَ عَنْ حَـــديثى وأيقظنِى للألَمْ
كأنّ ابنَ بُرْد له قائلٌ فنَبّه لهـا عُمَراً ثمّ نَمْ

وقال ابن قَلاقس أيضاً :

واخدُم بتقبيل البِساطِ لمن باتَ الزّمانُ له من الخَدَمِ
واعرض عليه حال خادِمه سِرّا ونبِّهْهُ لهـــا ونَمِ

وعَكَسَه فقال :

فما استجارتْ بعمرٍو حال مظلمةٍ بل حين جاءتك تسعى صادَفتْ عُمَرا

وما أحسنَ قول مُجير الدّين بن تميم :

يا طالباً حاجةً قد عزَّ مطلبُها ... وفعلها في مبادي نجحها عسرُ
نبّه عليها أبا بكرٍ فقد قُضيتْ ... وما عليك إذا لم يغتنبه عمرُ

وقول ابن شمس الخلافة يمدح العزيز عثمان :

صبرتُ على ريبِ الزمان ولم أزلْ
عليه أخا صبرٍ ومثلي من صبرْ
ونبّهتُ عثماناً لدفعِ خطوبه ... وأعرضتُ عمّن قال نبّهْ لها عمر

وقال أبو الطيّب :

لا أستزيدك ممّا فيك من كرمٍ ... أنا الذي نامَ مذ نبّهتُ يقظانا(١)
فإنّ مثلك باهيتُ الكرامَ به ... وردَّ سخطي على الأيّام رضوانا

وكتب الرشيد الفارقي إلى الصاحب بهاء الدين :

وقائلٍ قال لي نبّهْ لها عمراً ... فقلتُ : إنّ عليًّا قد تنبّه لي
مالي إذا كنتُ محتاجاً إلى عمرٍ ... في حاجةٍ فليتمّ حسْبي انتباهُ علي

وقال السلطان صلاحُ الدّين بن يوسفُ بنُ أيّوبَ بخطّه ، من إملاء القاضي الفاضلِ عليه ، كتابا إلى أخيه للملك العادل أبي بكر :

عظيمةٌ قيلَ لي نبّهْ لها عُمَراً ... فقلتُ إنّ أبا بكرٍ تنبّهِ لي
زماننا عمريُّ الفتح لا سيّما ... والدّين من سيفه قد هزّ سيف علي

وقال الخفاجي :

سللت منها على الأعداء مرهفةً ... لمثلهم كنت تقناها وتدخر(٢)
يقظان ما علقت بالنوم مقلته ... ولا تنبّه في حرب العدا عمرُ

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٣٠ . (٢) ديوانه ٤٥ .

وقال شيخُ الشُّيوخ :

لولا تلافى الطَّيْفِ أن يَعْبرا ... سَالَتْ من جَفْنى غِرارَ الكَرى
لكنَّنى أمَّلْتُ من زَوْرَةٍ ... تَجْفيفَ أجفانىَ إنْ زَوَّرا
لولا سُرَى طَيْفِكُمُ لم أكُنْ ... أحْمَدُ من قبل الصَّباحِ السُّرَى

وأنشدَنى لنفسه إجازةً شيخُنا الإمامُ شهابُ الدِّين أبو الثَّناء محمود :

ولقد حمدتُ ببابهِ صُبْحَ السُّرَى ... فَغَدَا وراء الشَّوْق وهو إمامُ
وَحَلَلْتُ عن أنضاءِ عَزْمى عِنْدَهُ ... فظهر رهنَّ عَلَى الرِّجالِ حرامُ

وقولُه : « وما سَرَيْتُ لكَ لأحْمَد السُّرى لَدَيْكَ » .

هذا المَثَل أصلُه من قول خالد بن الوَليد رضى الله عنه ، لمَّا بعث إليه أبو بكر رضىَ الله عنه ، وهو باليمامة أن سر إلى العراق فأراد سُلُوكَ المَفازة . فقال له رافع الطائىّ : قد سَلَكْتُها فى الجاهليَّة ، هى خِمْس للإبل الواردة ، ولا أظُنُّكَ تَقْدِر عليها إلاّ أن تحمِلَ من الماء . فاشترَى مائةَ شارِفٍ فعَطَّشها ، ثمَّ سقاها الماء حتى رَوِيَتْ ، ثمَّ كَبَتَها وكَمَم أفواهها ، ثمَّ سَلَكَ المَفازة ، حتَّى إذا مضى يومان وخاف العَطَشَ على النَّاس والخيلِ نَحَرَ الإبلَ ، واستخرَجَ الماء ممَّا فى بطونها فشربوا ، ومضى . فلما كان فى الليلة الرابعة قال رافع : انظُروا هَلْ تَرَوْا سِدْرا عظاماً ، فإن رأيتُموها وإلاّ فهو الهلاكُ ، فنَظَر الناسُ ، فرأَوا السِّدْر ، فأخبَروه ، فكبَّرَ وكبَّر الناسُ ، ثمَّ هجموا على الماء ، فقال خالد :

لِلّهِ دَرُّ رافِعٍ أنَّى اهتدَى ... فَوَّزَ من قُراقِرٍ إلى سُوَى
خِمْساً إذا سارَ به الجَيْشُ بَكَى ... ما سارَها من قَبْلِه إنْسٌ يُرَى
عند الصَّباح يَحْمَد القومُ السُّرَى ... وتنجلى عنهمْ غَيابَاتُ الكَرَى

وقال ابن قلاقس :

حمد السرى من كنت وجه صباحه ... من بعد ذم غدوه ورواحه
ورأى النجاح مؤملا أخفقته ... من حسن رأيك فيك ظل جناحه

وما أحسن ما استعمل القاضى الفاضل هذا المثل :

ركبنا رياحا من كرائم خيله ... نؤم سحابا من سماء سماحه
فقل لليالى الخطب : طولى أو اقصرى
فإنا على طول السرى من صباحه

وقال ابن قلاقس :

وإلى أحمد حمدت السرى ... حين طارحت الصبا والشمألا
أبت الآمال منه راحة ... تبغض الريث وتهوى العجلا

وخالف الناس ابن سناء الملك فقال :

آنست نار الجد لا نار القرى
وحمدت صبح الثغر لا صبح السرى

* * *

١١٣ — وقوله : وإنك متى سنيت عقد أمرى تيسر ، ومتى أعذرت فى فك أسرى لم تتعذر .

سنيت بمعنى سهلت ، وأعذرت بمعنى بالغت فى طلب العذر . لم تتعذر : لم يكن فيه عذر ، أى لا صعوبة .

وأصل قوله : « سنيت عقد أمره » قول بشار بن برد :

فبالله ثق إن عز ما تبتغى وقل ... إذا الله سنى عقد أمر تيسرا

على أن هذا العَجُزَ وقع فى كلام معاوية رضىَ الله عنه ، أعنى قولَه : « إذا الله سَنّى عَقْد أمرٍ تَيَسّر » . وأخَذَه محمّد بنُ شَرَف الدين القَيْروانىّ فقال :

لا يُؤيِسنّك من أمرٍ تَصعّبُه ... فالله قد يُعقِب التصعيبَ تسهيلا

كان أميرُ المؤمنين المأمونُ سَيِّء الرَّأى فى الحسين[1] الخَليع لمُنادَمَته لمحمد المخلوع ، واختصاصِه به ، فاُختلّت لذلك حالُه ، وكان بينه وبَين عَمْرو بن مسعدة حالٌ ، فكَتَب الحسين إلى عمرو[2] :

أنتَ طَوْدِى مِن بين هذى الهضابِ ... وشِهابِى مِن دون كلِّ شِهابِ

أنتَ رُكْنى وساعِدِى وَحياتِى ... واسانِى وأنتَ ظُفرِى ونابِى

أتَرانِىَ أنسَى حُقوقَ أيادِيـ ... ـكَ ورُوحِى من بعضِها وثِيابِى

أين عَطْف القريبِ فى بَلَد الغُرْ ... بَةِ جُوداً على ذَوِى الآداب !

أين أخلاقُك الظَّريفة حالت ... عنكَ ، أم أينَ رِقّة الكُتّاب

أنا فى ذِمّة السّحاب وأظمى ... إنّ هذا لَوَصْمَةٌ فى السّحابِ

حُرْمة سَقْفها السّماء ودارٌ ... حُلوة الأرض مُرّةُ الأَرْبابِ

أنا فيها عبدُ الزّمان ولو شِئْـ ... ـتُ لكان الزّمان عبدَ رِكابِى

وقال عُمارة اليَمَنىّ :

أنتَ الزمانُ فمَنْ ترفَعْه يَعْلُ ومَن ... تَخفِض مِن الناس لَمْ يُرفَعْ له عَلَمُ

ومن تَغافَلْتَ عنه فهو مُطَّرَحٌ ... ومن نَظَرتَ إليه فهو مُحتَشِمُ

وقال ابن المعلِّم :

فما ضاقَ صدرٌ باتَ يَرجُوك قَلْبُه ... ولا راعَ من أضْحَيتَ بغيتَه الدهرُ

---

(١) ط : « الحسن » تحريف ، وهو الحسين بن الضحاك المعروف بالخليع .

(٢) ديوانه ٢٧ .

وقال راويه العتابي :

وفي راحتيك الندى والردى ... وكلتاهما وع مختارها
وأقضية لله محتومة ... وأنت منفذ أقدارها

وبالغ أبو العلاء إذ قال :

ولو أن الرياح تهب غربا ... وقلت لها هلا هبت شمالا[١]
وأقسم لو غضبت على ثبير ... لأزمع عن محلته انتقالا
وأنك لو تعلقت الرزايا ... بنعلك ما قطعن لها قبالا
ومر بفراق شيمتها الليالي ... تجبك إلى إرادتك امتثالا

وبالغ أيضا في وصف ممدوحه فقال :

لشرفت المعاني والقوافي ... بلفظك والأخلة والخليلا[٢]
إذا المنهوك فهت به انتصارا ... له من غيره فضل الطويلا

قلت : لأن المنهوك أقصر الشعر ، والطويل أطوله ، إذ المنهوك إذا سلم من الزحاف أربعة عشر حرفا ، لأنه مركب من « مستفعلن مستفعلن » مرتين ، قال :

* يا ليتني فيها جذع *

فإذا لحقه الخبل ، وهو اجتماع الخبن والطي كان على عشرة أحرف ، كقوله :

* أغضبوا فرحلوا *

وأما الطويل فإذا سلم من الزحاف ، وكان مصرعا ولا علة ، كانت

---

(١) سقط الزند ٩٣ . (٢) سقط الزند ١٣٩٤ .

حروفه ثمانيةٌ وأربعين ، لأنه مركَّب من أربعة أجزاء خماسيّة ، وهى : فعولن أربع مرّات ، وأربعة أجزاء سباعية ، وهى مفاعيلن أربع مرات ، كقول امرىء القيس بن حُجْر :

قِفا نبْكِ من ذِكرى حَبيبٍ ومَنزِلِ
بِسقْطِ اللِّوَى بينَ الدَّخُول فحَوْمَلِ (١)

* * *

١١٣ — وقوله : وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ بأنّ المعروفَ ثمرةُ النَّعمة ، والشّفاعة زَكاة المروءة .

المعروفُ ضدُّ المُنكر ، وهو اسمٌ جامعٌ لكلّ خير .

ومن كلام الحكمة : بَذْل الجاه أحدُ المالَين ، وشفاعةُ اللِّسان أفضل زَكاة الإنسان . وبَذْل الجاه رِفْد المستعين ، والشفيعُ جَناحُ الطّالب ، والشّفاعة أمرٌ مندوب إليه ، نَطَق القرآنُ بذلك ، وجاءت عليه السُّنّة ، قال الله تعالى : ﴿ من يَشْفَعْ شَفاعةً حَسنةً يكنْ له نَصيبٌ منها ومن يَشْفَعْ شفاعةً سيِّئةً يكنْ له كِفْلٌ منها ﴾ (٢) .

وعن أبى موسى الأشعرىّ قال : كان النبىّ صلّى الله عليه وسلّم إذا أتاه طالبُ حاجةٍ أقبَلَ على جُلسائِه ، فقال : « اشفَعوا تُؤجَرُوا ويَقضِى الله على لسانِ نبيِّه ما أحَبّ » ، مُتّفقٌ عليه . وفى رواية : « ماشاء » .

---

(١) ديوانه ٨ (٢) سورة النساء ٨٥

وعن أبن عبّاس رضى الله عنهما فى قصّة بُرَيْرَة وزَوْجها ، قال : قال لها النبيُّ صلى الله عليه وسلم : لو راجَعْتِيه ! فقالت : يارَسولَ الله ، تأمُرنى ؟ قال : إنما أشفَع ، قالت : لاحاجة لى فيه .

وفى هذه الآية الكريمة سؤال ، وهو : ما الحِكْمَة فى قوله : « فى الشفاعة الحَسَنة نصيبٌ ، وفى الشَّفاعَة السَّيِّئة كِفلٌ منها » فالجواب : أنَّ النصيب الحظ ، والكِفْل مشتقٌّ من قولك : كَفَلْت البعيرَ إذا رددتَ على سَنامِه كِساءً ، وركبتَ عليه ، فأنتَ تَستعمِل جانباً من ظهره لأنّك تَحمِى سَنامَ البعير بالكِساء الذى وضعتَه عليه من الآفة دون باقى ظهرِه ، ويحمى الرّاكب بَدَنَه بذلك ، ومنه قيل للضامن : كفيل ؛ لأنّه يعتمد عليه ، فكان الكَفيلُ ذخيرته التى يعتمد عليها ، فجاء الكَفيلُ فى الشّفاعة السيّئة بهذا اللفظ ؛ لأنّ الشافع قد أدّخر ما يَعتمد عليه فى يومِ القيامة . وهذا الكلامُ قد خَرَج مَخرَج التهكّمِ ، كقوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهم بعذابٍ أَليم ﴾[1] .

والمقصود أنَّ الشفاعة الحَسَنة للشّافع منها نصيب ، وشَفاعة السَّيِّئة عِقابُها عَظيم ، ووِزْرُها كبير ، فهى مُغَلَّظة الأمرِ بخلافِ غيرِها .

وقولُه : المعروفُ ثمرةُ النِّعمة ؛ يشير إلى قول الخفاجىّ رحمه الله :

فدًى لمن لايَزال نائلُهُ تَخلف جُودا سحائبَ الدِّيَمِ[2]
يَمنح حتّى تَدومَ نِعمتـــه إنَّ العطايا تَمائمُ النِّعَمِ

وأمّا الشفاعة فحُكِيَ أنَّ عبد الله بن خارجة أمتَدَح عبدَ المَلك بن مروانَ

---

(١) سورة التوبة ٣٤   (٢) ديوانه ١٠٠

فأعطاه عشرةَ آلافِ دِرْهم ، وعشرةَ تُخوت من الثياب وعشرَ قلائصَ من الإبِل ، وأقطعه ألفَ جَرِيب ، وقال له : امضِ إلى زيد الكاتب يكتب لك بها ، وأجرى له على ثلاثين عائلاً ، فأتى زيداً فقال : ائتني غداً ، فتردّد إليه ، وكَتَب له شعرا ، فما أفاده شيئا ، فأتى سفيان بن الأبرد الكلبيّ ، فكلّمه سُفيان ، فأبطأ عليه ، فعاد إلى سُفْيان وقال له :

إذا بدأْتَ أبا يحيى فأنتَ لها ولا تكنْ حينَ هابَ الناسُ هَيّابَا
واشفعْ فإنك أنْفٌ لم تكنْ ذَنبًا فإنّ من شُفَعاء الناسِ أذْنابًا

فأتى سُفيانُ إلى زيد الكاتب ، ولم يُفارِقْه حتّى قَضَى شُغْلَه . وقضيّة الفَرَزدق والنَّوار امرأتُه حين قال :

أمّا بنوه فلم تُقبَل شفاعَتُهُمْ وشُفِّعتْ بنتَ مَنظورِ بنِ زَبّانا[1]
ليسَ الشفيعُ الّذي يأتيك مؤتزرًا مِثلَ الشفيعِ الذي يأتيك عُرْيانَا

مشهورةٌ فلا فائدةَ في ذِكرِها .

وقال قيس :

وُنُبِّئتُ ليلَى أرسلتْ بِشفاعةٍ إليّ ، فهلّا نَفْسُ ليلَى شفيعُها[2]
أأكرم من لَيْلَى عليَّ فتبتغِي به الجاهَ ، أمْ كنتُ امْرَأً لا أطيعُها!

وقال شرفُ الدِّين بن عُنَين :

ومِن عَجَبِ الأشياء أنّ شفاعتِي تُرجَّى لمن في وَجهِه ألفُ شافِعِ
لأبلج غسّال التدّني مهذّب الـ خلائقِ معسول الثنايا مُطاوِعِ

---

(١) ديوانه ٨٧٢ (٢) البيتان ينسبان للمجنون . ديوانه ١٩٤

يرومُ شفيعاً مِن سِواه جَهالةً ... ولا شافعا غير الحبيبِ المُضاجع

وقال ابنُ القَيْسَرانيّ رحمه الله تعالى :

ومستشفعٍ بى إلى من يحبّه ... وقد وقف الوَجْدُ مِنّى عَلَيْهِ

فكنتُ شفيعا له فى الهوى ... فمَن ذا يكونُ شفيعى إليهِ !

وما أظرَفَ قولَ دِعْبِل الخُزاعىّ :

جِئْنا به يَشفعَ فى حاجةٍ ... فاحتاجَ فى الإذْن إلى شافِعِ[1]

وما أظرَفَ قولَ القائل :

خَرجُوا ليستسقُوا وقد نَشَأتْ ... بَحْرِيَّةٌ قَمِنٌ بها السَّيْحُ

حتى إذا اصطفّوا لدَعْوتِهِمْ ... وبَدا لأعينِهِمْ بها رَشْحُ

كُشِفَ السَّحابُ إجابةً لهمُ ... فكأنّما خَرجوا ليَسْتَصْحُوا

وقال القاضى أبو علىّ التَّنُوخىّ :

خرجْنا لنَستَسْقِى بيمْنِ دُعائه ... وقد كادَ هُدْبُ الغَيْمِ أن يَلحَقَ الأرضا

فلمّا بدا يدعو تكشَّفَتِ السّما ... فما تَمّ إلاّ والغَمامُ قد انفضّا

ومن رسالة للجاحظ ممّا أتى فيها بالحِكمة قولُه : فكُنْ شفيعا إلى أذُنِك حتى تَستَمِعَها ، وشفيعَ أذُنِك إلى قلبِك حتّى يضمّها ، وشفيعَ قلبِك إلى نفسك حتّى تَعمَل بها .

حَكى بعضهم قال: جُعْتُ يوما ، فقلت : أذهبُ إلى صديقِ فلان ، فأتغدّى عندَه ، فلمّا أتيتُ إلى دارِه وجدتُ ابنَه ، فقلت له : أين أبوك ؟ فقال : أعطنى كِسْرةً حتّى أقولَ لك أينَ هو ؟

وعلى ذِكر الشفاعة ، فما أحسَنَ قولَ الأرّجانىّ يمدَح المُسترشِد بالله العبّاسىّ :

---

(١) ديوانه ١٣٦

أبى شفيع القَطْرِ صِنْوَ أبى شفيـ ع الحشر لازلتم عماد السؤدد[1]
من أهلِ بيتٍ شفاعتَين أعدَّتا لليَوم واحدة ، وأُخرَى للغدِ

والناسُ يستحسنون قولَ القائل :

وإذا المَليحُ أتى بذَنبٍ واحدٍ جاءتْ محاسنُه بألفِ شفيعِ

وهذا إذا اُعتُبِر وجد ذمّا ؛ لأنّ مليحا يأتى بذنب واحدٍ ويحتاج فى العفو عن ذلك الذنب إلى ألفِ شفيع ، ليس بمديح طائل ، والمَدْح الوافى أن يكون المليحُ إذا جاء بألف ذَنْب جاء شافعٌ واحدٌ مِنْ حسنه ، فمحا تلك الذنوبَ المتعدِّدة ، والأصلُ فى هذا كلّه قولُ الحاكم بن قَنْبَر :

مستقبلٌ بالذى يَهوَى وإن كثرتْ منه الذنوبُ ومعذورٌ بما صَنَعا
فى وجهِه شافعٌ يَمحو إساءتَه إلى القُلوب وجيهٌ حيثُما شَفَعا

وأبو فِراس بن حَمْدان كان أحذَق وأعرَفَ بالغزَل ، فقال :

أساءَ فزادَتْه الإساءة حُظْوَةً حبيبٌ على ما كانَ منه ، حبيبُ[1]
تَعُدّ علىَّ الواشيات ذنوبَه ومن أينَ للوَجْه المليحِ ذُنوبُ !

وقال ابنُ الحَجّاج :

وكلّما رُمْتُ أن أُقابِلَهُ على تَمادِيهِ تيها فى تعدِّيهِ
جاءتْ على غَفْلةٍ محاسنُه تُلزِمُنى الصَّفحَ عن مَساوِيهِ

وقال عتيق بنُ محمّد الورّاق التّميمىّ المغربىّ :

كلما أذنبَ أبدَى وَجهُه حُجَّةً فَهْو مَلىءٌ بالحُجَجْ
كيف لايُفرِط فى إجرامِه مَن مَتى ماشاءَ من الذّنب خَرَجْ

وقال أحمدُ بنُ أبى فنن :

أشكو إليه صنيعَ جفونه فيقول مُتْ بأيْسَرِ الخطْبِ
وإذا نظرت إلى محاسنِه أَخرَجْتهُ عُطْلاً من الذّنبِ

---

(١) ديوانه ٩٦ (٢) ديوانه ٣٩

وقال أبو تمّام :

عَفَتْ محاسنُهُ عنــدى إساءتَه
حتّى لقد حَسُنَتْ عندى مَساوِيه (١)

وقال آخر :

لى حبيبٌ كالظّبْيِ غِرٌّ ولٰكنْ بعذابى فى الحُبّ ما أغراهُ
وإذا كرّر الذنوبَ فيكفيه اعتذاراً عمّا جنَى ، أن أراهُ

وقال ابن المعتزّ :

ومستبصرٍ فى العُذْرِ مُستعجِلِ القِلَى
بعيدٍ من العُتْبى قريبٍ من الهَجْرِ (١)
له شافعٌ فى القلب مع كلّ زلّةٍ وليس بمحتاجِ الذنوبِ إلى العُذْرِ

ولمّا وقع ابنُ عمّار فى قبضة المعتمِد بن عبّاد ، وقد سجن بشقورة ، كتب ابنُ عمّار إلى المأمون بنِ المعتمِد يسأله الشفاعةَ فيه عند أبيه بقصيدةٍ أوّلها :

هلاّ سألتَ شفاعةَ المأمونِ أو قلتَ ما فى نفسِه يكفينى
ما ضرّ لو نبّهته بتحيّةٍ يسرِى النسيمُ بها على دارِين
مالى أنبّه ناظِراً لم يغفُ عن حَظّيه من دُنيا ولا مِن دِين
بيدِى مِن المأمون أوثقُ عِصمةٍ لو كان أمرِى فى يدِ المأمونِ
أمرِى إلى مولًى إليه أمرهُ وكفاكَ من فوقٍ كفاكَ ودُونِ
حيثُ استوى الخصمان والتقيا
عِــزّ الغنىّ بذِلّة المِسكين

(١) ديوانه ٤٦٩

ومنها :

ومنها يا فتح جرّدها عناية فارسٍ　بطل على حَرْبِ الولىّ أمينِ

متقدّم من جدّه بكتيبةٍ　مستظهرٌ من لفظ بكمين

وأقرنْ شفاعتك الكريمة عنده　بتواضع من عزّه أو هونِ

فى سكتةٍ من هَيْبة وسكينةٍ　ونصيحة من رحمةٍ وحنينِ

* * *

١١٤ — وقوله : وَفضْلَ الجاهِ تعودُ بهِ صدقه .

وإذا امرؤٌ أهــدى إليك صنيعةً

من جاهه فــكأنّهــا من مالهِ

الفضل هنا : ما يزيد عن قَدْر الحاجة .

والجاهُ : القَدْر والمَنزِلة وما يكون به الإنسان وَجِيها . وتعــود به : تعطف وتنفع .

وما أحسَنَ قولَ سراجِ الدِّين عمرَ بن محمّد الورّاق المصرى ، نقلتهُ من خطّه :

مَرِضتُ .. لِلّهِ قــومٌ　ما فيهمُ مَن جَفاني

عادُوا وعادُوا وعادُوا　على اختلاف المَعاني

الأوّل من عِيادة المريض ، والثانى من العَوْد ، وهو الرُّجوع ، والثالث من مادة هذا القول .

وفى الأدعية المأثورة : اللهمّ عُدْ علينا من فضلك .

قال أبو عبد الله بن حمدون النّديم : لقد رأيتُ الملوكَ فى مقاصيرِها ومجامعِ حَفْلها ، فما رأيت أغزرَ أدبًا من الواثق ، خرج علينا ذاتَ يومٍ وهو يقول : لَعمري لقد عرض عرضه من عِرضه ، لِقولِ الخزاعىّ - يعنى دِعبلا :

خليلىّ ماذا أرتجِى من هَـــــوَى امرىء
طَوَى الكَشْح عنّى اليومَ وهوَ مَكِينُ(١)

وإنَّ امرأً قدْ ضَنَّ عنّى بِمَنطِـــــق
يَسُدُّ به من خُلّتِى لضَنِينُ

فانبرَى أحمدُ بن أبى دواد يسأله — كأنما أُنشِط من عِقال — فى رَجُل من أهل اليمامة ، وأطنَبَ وأسْهَب ، وذَهَب به القولُ كلَّ مَذهَب ، فقال الواثق : يا أبا عبد الله ، لقد أكثرتَ فى غير كثير ولا طيّب ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنه صديق :

وأهونُ ما يُعطِى الصّديقُ صديقَه
من الهيِّن الموجودِ أن يتكلّما

فقال : وماقدر اليمامىّ أن يكون صديقَك ! وإنما أحسبه أن يكون من عرض معارفك ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنَّه شهرنى بالاستشفاع إليك ، وجعلنى بمرأًى ومَسمَعٍ من الرّد والإسعاف ، فإن لم أَقُم له فى هذا المَقام كنتُ كما قال أميرُ المؤمنين ... وأنشَد البيتين . فقال الواثق : بالله يا محمد بنَ عبدِ المَلِك ، إلاّ ما عَجّلتَ لأبى عبدِ الله حاجتَه ليسلم من هُجْنة المَطْل كما سلم من هُجْنة الرّدّ !

قلت : وابن أبى دُوَاد القاضى له مقاماتٌ مشهورة معروفة عند أهل العِلم بأيّام الناس وتراجمهم ، قامها عند المعتصم والواثق ، فى غيرِ واحد ، منها خلاصُ أبى دُلَف العِجْلىّ مِن الأَفْشِين وقد قدمه لضرب العُنُق ، ومنها : أنَّه لمّا وَقَع الحريقُ بالكرخ استطلق لهم من الخليفة ألفَ ألفَ دِرهم ، إلى غير ذلك .

وقول ابن زَيْدون :

---

(١) ديوانه ١٩١ .

وإذا امرؤٌ أسدَى إليكَ صَنيعةً   من جاهِهِ فكأنّها مِن مالِهِ(١)

هذا البيتُ من جُملة أبياتٍ كتب بها أبو تمّام الطائيّ لإسحاق بن أبي ربعيّ كاتب أبي دُلَف ، أوّلها :

إنّ الأميرَ بلاكَ في أحواله   فرآك أنزعهم غداةَ نِضالِهِ

وقد عكس البيتَ الّذي أوّله : « وإذا أمرؤٌ » فقال أيضاً :

وإنّ امْرَأً ضَنَّتْ يداه على أمرىء   بنَيْلِ غِنًى مِن غيره لَبخيل

* * *

١١٥ — وقوله : لَعَلّي أن أُلقِيَ عصايَ بذَراك ، ويستقرّ النّوى في ظِلِّك .

الذَّرَى بالفتح : كلّما استترْتَ به ، يقال : أنا في ظِلّ فلان وذَراه ، أي في كَنَفه وسِتْرِه ودِفْئِه .

والنَّوَى : الوجهُ الّذي يَقصِده المسافر ، ويَنْوِيه من قرْب أو بُعد ، وهى مؤنّثة ، تقول: استقرّت به النّوى، وقد حلّ في هاتين السّجْعَتين قولُ المقرّ بن أَوْسِ بنِ حمارٍ البارقيّ ، حليفِ بني نُمَير :

فألقتْ عَصاها واستقرّ بها النّوَى
كما قرّ عَيْنا بالإياب المُسافرُ(٢)

وقبلَ هذا البيت :

وحلّت سُلَيْمَى في هِضابٍ وأيْكةٍ   فليس عليها يومَ ذلكَ قادِرُ

---

(١) ديوانه ٢٤٠   (٢) اللسان (عصا)

والعرب تكنى عن الاستقرار والسكون بإلقاء العصا ، لأن المسافر إذا ألقى عصاه عن كتفه ، فقد قرّ قراره ، وسكنت حركته ، ولهذا قال أبو تمام الطائى :

كريمٌ إذا ألقى عصاهُ مخيِّمًا
بأرضٍ فقد ألقى بها رحلَهُ المجدُ[1]

وقال يزيد بنُ عبدِ الملك : ما يُقِرّ عينى ما أوتيتُ من أمر الخلافة حتى أشترى سلاّمةَ جارية مُصعَب بن سُهَيل الزّهرى ، وحَبابة جارية اللاحق المكيّة ، فاشتُريَتا له ، فلمّا اجتمعتا عنده قال : الآن كما قال الشاعر :

فألقتْ عَصاها واستقرّ بها النّوى .. البيت .

ثمّ قال بعد ذلك : من شاء من أمرِ الدّنيا فلْيَلْقَنِي .

وَيُحكى أنه لمّا بُويع لأبى العبّاس السفّاح قام خطيبا ، فسقطَ القضيبُ من يدِه ، فتطيّر من ذلك ، فقام إليه رجلٌ فأخذَ القضيبَ ومسَحه ، ودفعه إليه ، وأنشد :

* فألقتْ عَصاهــا واستقرّ بها النوى . . . *

وقيل : إنّ قُتَيبة بنَ مسلم خَطَب على المِنبَر فى خُراسانَ أوّل قدومه إليها واليًا ، فسقطت العصا من يدِه فتطيّر من ذلك ، فقام بعضُ الأعراب فمسحها وناوله إيّاها ، وقال : أيها الأمير ، ليس كما ظنّ العدوّ وساءَ الصديق ، ولكنّه كما قال الشاعر :

---

(١) ديوانه ١٢٢ .

فألقتْ عَصاها واُستقرَّ بها النَّوَى . . . البيت .

فسُرِّىَ عنه ما وَجَدَه ، وأمرَ له بخمسةِ آلافِ درهم .

ومِثلُ هذا ما حَكِى أنَّ طاهرَ بنَ الحُسين لمـا خرج لِقتالِ علىِّ بن عيسى ابن ماهانَ ، وفى كُمِّه دَراهمُ يُفرِّقها على الضُّعفاء ، فنَسِىَ أنها فى كُمِّه ، فأَسبَلَ كُمَّه ، فتبدَّدَتِ الدَّراهمُ ، فتطيَّرَ من ذلك ، فأنشد شاعر كان معه :

هذا تفرّق جمعهم لا غيره   وذهابها منه ذهابُ الهمّ
شىء يكون الهمُّ نصفَ حُروفه   لا خيرَ فى إمساكه فى الكُمّ

ودخل أبو الشَّمَقْمَق على خالدِ بن مَزْيَد الشَّيبانى ، وقد قلّده المأمونُ الموْصِل ، فلمَّا دخلها اندقَ منه اللواء فى بعضِ أبوابها ، فتطيّر خالد من ذلك فقال أبو الشَّمَقْمَق :

ما كان مُنْدَقّ اللّواء لِطيرةٍ   تُخشَى ولا سوء يكون مُعجّلاَ
لكنّ هذا الرُّمح أَضعَفَ مَتْنَه   صِغَر الولاية فاُستقلّ الموْصِلاَ

فسُرِّى عنه ما كان وَجَدَه .

وكتب صاحبُ البَرِيد بذلك إلى المأمون فزادَه دِيارَ ربيعة ، فأَعطى خالدٌ أبا الشَّمَقْمَق عشرةَ آلافِ دِرهم .

وقال خطيرالدّولة الُحسين بن إبراهيم الكاتب :

ألا ليتَ شعرى هل أقولنَّ مَرّةً   وقد سكنت ممّا أُجِنُّ الضّمائرُ
وما بى إلى بابِ المحجَّب حاجةٌ   ولا لِىَ عما يَحفَظُ العِرْضَ زاجرُ
فألقتْ عَصاها واستقر بها النّوى   كما قَرَّ عيناً بالإياب المُسافرُ

وقال علىُّ بنُ الُحسين الباخَرْزِىّ فى ضِدِّ ذلك :

حمل العصا للمُبْتلى   بالشَّيْب عُنْـــوانُ البِلى

وُصِفَ المســـافرُ أنّه ألقى العَصــا كىْ ينزلاَ
فعلَى القياسِ سبيلُ مَن حَمَلَ العَصا أن يَرْحَلا

وقال شيخ الشيوخ عبدُ العزيز الأنصاريّ :

ترامَتْ بِنا آمالُنا كلَّ مُرتمًى طَوَى من بَسيطاتِ المَمالكِ ماطَوى
وأفْضَى بِهــا المَسْرى إلى عَتَباتِهِ فألقَت عَصاها واستقرّ بها النَّوى

وقال شرفُ الدين بن عُنَين :

ولمّا استقرّت فى ذَراه بىَ النّوَى
وألقتْ عَصاها بينَ مُزْدَحَمِ الوَفْدِ
تَفَضَّلَ دهرِى واستراحَتْ من الوجَى[1]
قَلوصِى ونامَتْ مُقلَتِى وعَلاَ جَدّى

وقال عمارة اليمنىّ :

إنّ الكفالةَ والوزارةَ لم تزَلْ يُومَي إليكَ بفضلِها ويُشارُ
كانت مُسافرةً إليك وتَبعُدُ الـ أخطارُ ما لم تُركَبِ الأخطارُ
حتّى إذا نزلتْ عليكَ وشاهدتْ مَلِكاً يَزينُ المُلْكَ منه سِوارُ
ألقَتْ عَصاها فى ذَراهُ وعُرِّيتْ عنها السُّروجُ وحُطّت الأكْوارُ

وقال ابن صرّدرّ :

عَلَى رِسْلِكمُ فى الهجرِ إنّا عِصابةٌ
إذَا ظفرتْ بالحبّ عفّ ضَميرُها
سواءٌ على المُشتاقِ والهجرُ حَظُّه أألقَتْ عصاها أو أجَدّ بُكورُها

(١) م : « النوى » .
(٢) ط : « يرمى » تحريف .

وقال أيضا :

أقمتَ في نعماء مطمئنّة تحكمٍّ الفؤادَ في إطرابِه
ألقتْ عَصاها وأرتمتْ رِكابُها في سُرَر الوادِي وفي شِعابِه

وما أحسنَ قول القائل :

إذا لم يَرَ الإنسان عند قدومِه محيّاكَ مِثل البَدْر والبدر سافِرُ
فأقسمتُ ما ألقتْ عصاها يدُ النَّوَى
ولا قرَّ عيْنــــا بالإيابِ المُسافِرُ

حدّث أبو المحلّم عَوْف بنُ المحلّم قال : كانت لى وفادة على عبد الله بن طاهر إلى خراسان، فصادفْتهُ يريدُ الحَجّ ، فعادلْته فى العمارية من مَرْوَ إلى الرّىّ ، فلما قاربنا الرّىّ ، سَمِع عبدُ الله بنُ طاهرٍ وَرَشانًا[1] فى بعض الأغصان يَصيح ، فأنشدَ يقول متمثّلا :

ألا ياحَمام الأَيْكِ إلْفكَ حاضرٌ وغُصْنُك مَيّادٌ ففيمَ تَنُوحُ[2]!
أَفِق لاتَنُحْ من غير شىءٍ فإنّنى بَكَيتُ زمانًا والفؤادُ صَحيحُ
ولوعًا فشَطّت غُرْبةً دارُ زينبٍ فها أنا أبـكِي والفؤادُ جَرِيحُ

ثمّ قال : ياعَوْف ، أجِزْ هذا ؛ فقلتُ فى الحال :

أفِى كلِّ يومٍ غُرْبةٌ ونُزوحُ أمَا للنّوى من وَنْيَةٍ فتُريحُ
لقد طَلّحَ البَيْنُ المُشِتُّ رَكائبِي فهل أرَيَنّ البَيْن وهو طَلِيحُ
وأرّقنى بالرّىِّ نَوْحُ حَمــــامةٍ
فنُحْتُ وذو الشَّجْوِ القديمِ يَنُوحُ

---

(١) الورشان : طائر أصغر من الحمام ، وهو المعروف بساق حر .
(٢) أمالى القالى ١ : ١٣٣ .

على أنّهـا ناحت ولم تُذْرِ دَمْعة
ونُحْتُ وأسرابُ الدُّموع سُفوحُ
وناحتْ وفَرْخاها بحيثُ تَراهما
ومِن دون أفْراخى مَهامِهُ فِيحُ
عَسَى جُودُ عبدِ الله أن يُعقِبَ النَّوى
فيُلْقِى عَصا التَّسيارِ وهى طَريحُ
فإنَّ الغِنَى يُدْنِى الفَتَى من صَديقه
وعُدْمُ الفَتَى بالمُقترِين نَزُوحُ

قال : فأخرَج رأسَه من العَمارِيّة ، وقال للسائق : ألْقِ الزِّمام ، فألقاه . فوَقَف ووَقف الحاجّ ، ثمّ دعا صاحبَ بَيْت المال فقال له : كم يَضمّ مُلْكُنا ؟ فقال : ستّين ألفَ دينار . قال ادفعها إلى عَوْف . ثمّ قال : ياعَوْف ، لقد ألقيتَ عصا تَطْوافك فارجع من حيثُ جئتَ . قال : فأقبَل خاصّةُ عبدِ الله يلومونه ويقولون : أتُجيز أيُّها الأمير شاعراً فى مِثل هذا المكان بستّين ألفَ دينار ، ولا تملِك سِواها ! فقال : إليكم عنّى ، فإنّى استحيَيْتُ من الكَرَم أن يَسيرَ بى جَمَلى ، وعَوْف يقول : « عَسَى جُودُ عبدِ الله » ، وفى ملكى شىء لا يَنفرِد به . ورَجَع عوفٌ إلى وطنِه ، فسئِل عن حاله ، فقال : رجعتُ من عند عبدِ الله بالغِنَى والرّاحة من النّوى[1] .

قال الإمامُ فخر الدين الرّازى فى كتاب « مَناقِب الشافعىّ » رضىَ الله عنه : رَوَى محمد بنُ جرير الطَّبَرى ، عن الرَّبيع ، قال : كان الشافعىّ جالساً يوما بين يدَى مالك رضىَ الله عنه ، فجاء رجلٌ إليه فقال : يا أبا عبدِ الله ، إنّى رجلٌ أبيعُ القُمْرِىّ . وإنّى بعتُ يوماً قُمْرِيًّا ، فبعدَ زمانٍ أتانى صاحبُ

(١) الخبر فى معجم الأدباء ١٦ : ١٤١ ـ ١٤٣ .

القُمْرِيّ ، فقال : إنّ قُمْرِيَّكَ هذا لا يَصيح ؛ فتشاجرْنا فحلفْتُ بالطّلاق أنّ قُمْرِيِّي ما يَهدأ من الصِّياح . فقال مالك : طَلُقَتْ امرأتك . فقام الرجل حزيناً .
فقام الشافعيُّ إليه — وهو يومئذ ابنُ أربع عشرةَ سنةً — وقال للسائل : أصياحُ قمريّك أكثرُ أم سُكوته ؟ فقال السائل : بل صياحُه ، قال الشافعيُّ : امضِ ، فإنّ زَوْجتك ما طَلُقَت . ثمّ رجعَ الشافعيُّ إلى الحلْقة ، فعاد السّائل إلى مالكٍ وقال : يا أبا عبد الله ، تفكَّرْ في واقعتي لِتَستحقَّ الثّواب ! فقال مالك : الجوابُ ما تقدّم . قال : فإنّ عندَك من قال : إنّ الطلاقَ غيرُ واقع . فقال مالكٌ : من هو ؟ قال السائل : هو هذا الغلام — وأومَى إلى الشّافعيّ — فغضب مالكٌ عليه ، وقال : من أينَ لك هذا الجواب ؟ فقال الشافعيّ : إني سألته : أصياحُه أكثَرُ أم سُكوتُه ؟ فقال : إنّ صياحَه أكثر ، فقال مالكٌ : وهذا الدّليلُ أقبح ، وأيُّ تأثيرٍ لكَثْرةِ صياحِه وقلّةِ سُكوتِه في هذا الباب ! فقال الشافعيّ : إنّك حدّثتَني عن عبدِ الله بن يزيدَ ، عن أبي سَلَمَة ، عن عبدِ الرحمن ، عن فاطمةَ بنتِ قيس ، أنها أتت النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ، إنّ أبا جَهْم ومعاوية خطَباني ، فبأيِّهما أتزوّج ؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : «أمّا معاويةُ فصُعْلوك ، وأمّا أبو جَهْم فلا يَضَعُ العصا عن عاتِقِه» ، وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أبا جَهْمٍ كان يأكل وينام ويَستريح . فعلِمْنا أنه عليه السلام أراد بقوله : «لا يَضَعُ العصا عن عاتِقِه» ، على تفسير أنه الأغلَب من أحوالِه ذلك . فلمّا سمع مالكٌ تعجّب من الشافعيّ ، ولم يقدَح في قولِه ألبتّة .

• • •

١١٦ — وقوله : وأستأنِفُ التأدُّب بأدبِكَ ، والاحتمالَ على مَذْهبِكَ .

استأنَفَ : استَفْعَل ، من الاسْتِئْناف ، وهو الابْتداء . والتأدُّب : تفعّل ، من الأدَب ، والأَدَبُ أدبُ النفس وأدبُ الدَّرْس ، فالأدب اتصاف النفس بكلّ خُلُقٍ جميل ، وقد أدُب الرَّجل بضمّ الدَّال فهو أديبٌ ، وأدَّبتُه فتأدَّب .

وقال ابن المعتزّ : الأدبُ صورةُ العَقْل ، فحسِّن عَقْلَكَ كيف شئتَ .

وقال أبو العَتاهِيَة :

ولم أرَ فَضْلا تَمَّ إلاّ بشِيمةٍ ... ولم أرَ عَقْلا تَمَّ إلاّ عَلَى أدبْ

وقوله : « وأستأنِف التأدُّبُ بأدبك » ، يعني أتوب عمّا كنتُ مُرْتكِبَه من الطَّريق الأُولى ، فأَرجع عنها ، وآخذَ الآنَ بأَدَبك ، وأسلُكَ طريقَك ، وأحذو حَذْوَكَ . وما أحسنُ قولَ الأوّل :

إنْ تُتْهِمِي فتِهامةٌ وَطَنِي ... أو تُنْجِدِي يَكُنِ الهوى نَجدُ

وقولُ الآخر :

فإنْ تَدَعِي نَجْداً نَدَعْه ومَنْ بِهِ ... وإنْ تَسْكُنِي نجدًا فياحَبّذا نَجْدُ

وقول يزيدُ بنُ معاوية :

فإنْ تُسْلِمِي نُسْلِمْ وإنْ تَتَنَصَّرِي ... يَحُطُّ رجالٌ بين أعيُنِهِمْ صُلْبَا

وقال ابنُ المعلِّم :

أتُخَيِّمون على الحِجازِ فنقتدي ... أمْ عائدُونَ إلى الحِمَى فنعودُ

نَهْوَى لأجلكم الحَجِيجَ وما بِنَا ... لولاكُمُ نُسُكٌ ولا تَزْهِيدُ
وَيَشُوقُنا أَرَجُ الحِجازِ وذِكْرُهُ الدّا ... نِى ومَرْتَبَع الحجازِ بَعِيدُ

وقوله : « والاحتمال على مَذْهبك » . يعنى : أُلزِم نَفْسى باتباعك ، والأخذ بمذهبك تقليداً ، ولا أنظُر فى تعليل ما تأتيه وما تذَره .

وما أحسنَ قولَ الأوّل :

فلو قلتِ طَأْ فى النّارِ أعلَمُ أنّه ... رِضاً لكِ أو مُدنٍ لنا مِن وِصالِكِ [(١)]
لقدّمْتُ رِجْلى نحوَها ووطِئتُها ... هُدًى منكِ لى أو ضَلّةً من ضَلالِكِ
لئن ساءنى أن نِلْتِنى بمَساءةٍ ... لقد سَرّنى أنّى خَطَرْتُ ببالِكِ

والتقليد : هو قبولُ قولِ الآمرِ أو المُفتى أو المؤدِّب من غير طلب تعليل للحكم ولا حجّة ، والتقليد فى الفُروع دونَ الأصول .

وذهبَ الأصحابُ إلى أنّه لا يجوز للعالِم تقليد العالم البتّة ، وجوّزه أحمدُ رضىَ الله عنه وإسحاقُ بنُ راهَوَيه وسُفْيان الثّوْرىّ مطلقا ، ومنهم من فصّل فقال : يجوزُ لمن بَعْد الصّحابة رضى الله عنهم تقليدُ الصّحابة دونَ غيرِهم ، وبه قال شمسُ الدّين محمّد بن يوسف الجزرى [(٢)] ، وهو القولُ القديمُ للشّافعىّ رضىَ الله عنه .

وقال محمد بنُ الحسن : يجوز تقليدُ العالم للأعْلم . وقيل : يجوزُ أن يقلّد غيرَه فيما يخصّه دونَ ما يُفتى به ، وقيل : يجوزُ فيما يَخُصّه إذا كان بحيثُ لو اشتغلَ بالنّظر فات المَقْصود .

* * *

---

(١) ديوان الحماسة ٢ : ١٠٧ .
(٢) ط : « الحريرى » تحريف .

١١٧ — وقوله: فلا أوجدُ الحاسدَ مجالَ لحظة، ولا أدعُ للقادح مساغَ لفظة.

الحاسدُ: الّذى يتمنّى زوالَ النّعمة عن المحسود، والحسد أوّل ذنب عُصِىَ الله به فى الأرض وفى السّماء؛ لأنّ إبليسَ لعنه الله حسد آدمَ عليه السلام عندما أُمِر بالسّجود له، وكذلك قابيلُ بنُ آدم عليه السلام حسد أخاهُ هابيلَ على زواجِه بأخته توءمته؛ لأنّها كانت أحسنَ من توءمة هابيل، فلمّا قرّبا قرْبانا أكلتَ النارُ قرْبانَ هابيل، ولم تأكل قربانَ قابيل. فحسده، فتأكّد حسدَه له فقتله. وفى المثل: ما خلاَ جسد من حسد.

والمجال: اسمٌ لمصدر جالَ يجُول جوَلانا، إذا طافَ فى البلد، وأصلُه من الحركة.

واللّحظ: مصدرُ لحظ إذا نظَر.

والقادح: الذى يطعَن فى عِرْض غيرِه.

والمساغ: اسمُ لمصدَر ساغَ يسوغُ الشّراب إذا سهل مدخله فى الحلْق. ومعناه: إذا اتّصفتْ بهذه الأحوال لا يجِدُ الحاسد مدارَ لحظة، ولا الطاعن فى عِرْضى ما يسوغ من لفظةٍ كما قال الأميرُ تميم بن المُعِز:

بلغتَ بِى الحالَ الّذى كنتُ أرتجى عُلاها فخالى غِبطةٌ وسُرور[1]
وكيف أخافُ الحاسِدِين وبَغْيَهمْ وأنتَ عليهمْ لى يدٌ وأميرُ

كان أبو الحُسَين الجزّار يَصحب قاضىَ القضاة عبد الوهاب ابن بنتِ الأعزّ، فظفِر له شخصٌ من حُسّاده وأعدائه بورقةٍ بخطّه يدعو فيها شخصا إلى مجالس أُنْس، ووَصفَ المجلس؛ فأخذ ذلك الشخصُ تلك الورقةَ ووضَعها

---

(١) ديوانه ١٤٤، وروايته: «بلغت بى الحال».

فى القائمة الأولى من كتاب صِحاح الجَوْهرىّ ، من نسخة كانت عنده فى ثمانى مجلدات ، وأعطى الكتابَ الدّلاّل ، وقال : اعرضه على قاضى القضاة . فأحضر الدّلاّل الكتابَ إلى قاضى القضاة ، فلمّا أخذَ المجلّد الأوّل وجدَ تلك الوَرَقة فيه، فعرف خطّ الجزّار ، فأخَذَ الوَرَقة وقرأها[1]؛ وقال للدّلاّل: رُدّ الكتاب إلى صاحبه ، فإنّه ما يبيعه . ولمّا حضر الجَزّار إلى قاضى القضاة ناوله الوَرَقة ، فَنَهِم القصد[2] ، وقال : يامولانا ، لا إله إلاّ الله ، هذا خَطّى منذ ثلاثين سنةً من أيّام الصِّبا . ثمّ إنّ الجزّار أراد أن يَعرِف ما عند القاضى ، وهل تأثر بتِلكَ الوَرَقة ، فقال له بعدَ أيّام فى أثناء حكايته : إنّ شَخْصا كان يَصحَب قاضىَ القُضاة عِماد الدّين بن السكّرىّ ، فرفعتْ له شَهادةٌ على شَخْص ، فسابَقَه ذلك الشّخص إلى القاضى ، وادّعى عليه أنّه استأجَره من مدّة كذا وكذا ليُغنّىَ له فى عُرْسِه بكذا وكذا ، وقَبَض الأُجْرة ولم يُغَنِّ ، وانفصَلَت الخصومة ، ثمّ وقعتِ الدّعوى على المُدّعى المذكور ، وشَهِد ذلك الشّاهد . فقال قاضى القضاة تاج الدين : ما صَنَع ابن السكّرىّ ؟ فقال : ما قبِل شهادتَه . فقال : ما أنصَف صاحبه ؛ فَعلم الجزّار أن ابن بنتِ الأعزّ ما تأثّر لتلك الوَرَقة .

* * *

١١٨ — وقوله : واللهُ مُيَسِّرُك من إطلابى بهذه الطَّلِبة ، وإشكائى من هذه الشّكْوَى .

إطْلابى ، تقول : أطْلَبه إطْلابا ، أى أسعفه ، وأَطْلَبه : أحوجه ، وهو من الأضْداد ، والمراد هنا الأوّل ، وهو الإسعاف ، والطَّلِبة ، بكسر اللام : ما طلبْتَه من شىء .

(١) ط : « فقرأ الورقة وأخذها » .

(٢) ط : « المقصود » .

وإشكائى ، تقول : إذا أعتبته من شِكايته وأزَلته عمّا يشكوه ، وأشكيْته إن فعلتَ به ما يشكوه ، وهو من الأضْداد ، والمراد هنا الأوّل ، وما أحسَنَ قولَ ابنِ الرُّومىّ :

تُشْكِى المُحِبَّ وتَشكو وهْى ظالمةٌ
كالقوْس تُصْمِى الرّمَايا وهْى مِرْنانُ

وقلتُ أنا فى ذلك :

تُشكى المحبَّ وتَشكو فالقلبُ لا يَطمَئِنُّ
كالقَوْسِ تُصمِى الرَّمايَا وبعدَ هذا تَئِنُّ

* * *

١١٩ — وقوله: بصنيعةٍ تُصيبُ مُنها مكانَ المصنَع ، أو تَستودِعها أحسنَ مُستَوْدَعٍ .

الصَّنيعةُ : المعروف والإحسان إلى النَّاس .

والمَصنع : المصدر ، تقول : صَنعت إليه صُنعاً ومَصْنَعا . قال ابنُ عبّاس رضى الله عنهما : لا يُزَهِّدَنّك فى المعروف كُفرُ مَن كَفَره ، فإنّه يَشْكُرك عليه من لم تَصْطَنِعْه إليه .

وسمِع عبدُ الله بنُ جعفر قولَ الشاعر :

إنّ الصَّنيعةَ لاتكونُ صَنيعةً حتّى تصيبَ بها طريقَ المَصنَعِ

فقال : هذا رجلٌ يريدُ أن يُبخِّل الناس ، أمْطِر المعروفَ مطرا ، فإنْ صادفَ موضعاً فهو الّذى قصدتَ ، وإلاّ كنتَ أحقَّ به .

وجاء فى كلام عبدِ الله بنِ المعتزّ : المعروفُ كَنزٌ ، فانظرْ من تُودِعه !

وقال الشاعر :

لا تَصْنَعِ المعروفَ فى ساقطٍ فذاكَ صُنْعٌ ساقطٌ ضائعُ
واصْنَعْهُ فى حرٍّ كريمٍ يكن عُرْفك مسكا وعَرْفه ضائعُ

وقال صالح بن عبد القدوس :

متى تُسْدِ معروفاً إلى غيرِ أهلِه رُزِئتَ ولم تظفَر بأجرٍ ولا حَمْدِ

وقال أيضاً :

لا تَجُدْ بالعطاء فى غير حقٍّ ليس فى منع غير ذى الحق بُخْلُ
إنما الجود أن تَجودَ على من هو للجود منك والبذلِ أهْلُ

قال الحجاج لابن القِرِّيّة : ما أضيع الأشياء ؟ قال : مطر جَوْد فى أرض مسبخة لا يجفّ ثراها ، ولا ينبت مرعاها ، وسراجٌ يوقدُ فى الشمس ، وجاريةٌ حسناء تُزَفُّ إلى عِنِّين أعمى ، وصنيعةٌ تُهدَى إلى من لا يَشكُرها .

وقالت الحكماء : أصلُ كلِّ عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام ، وقالوا : المعروف إلى اللئيم أضيع من الرسم على بساط الماء ، والخطّ على بسط الهواء . وقالوا : زوال الدولة باصطناع السِّفلة .

أورد الشيخ أمير الدين أبو الغنائم ، مسلم بن محمود الشيزرىّ فى كتابه «القاصمة للفئة الغاشمة» ، قال : حدثنى الشيخ الشريف يونس بن يحيى البغدادىّ العباسىّ قراءة عليه ، قال : أخبرنا عمر بن شاهين ، حدثنا أحمد بن محمد الباخرزىّ ، حدثنا علىّ بن حرب الطائى ، حدّثنا جعفر بن الفزر العابد بنهروان ، قال : كنتُ عند سُفْيانَ الثَّوْرى ، فالتفَتَ إلى شيخٍ فقال : حدِّثِ القومَ بحديث الحيّة ،

فقال : حدثني عبد الجبار بن جهير بن عبد الله أنه خرج إلى متصيده ، فتمثلت بين يديه حية ، فقالت : أجرني أجارك الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، فقال : وممّ أجيرك ؟ فقالت : من عدو قد رهقني ، يريد أن يقطعني إرْباً إرْباً . قال : ومن أنتِ ؟ قالت : من أهل لا إله إلا الله . قال : وأين أخبئك[1] ؟ قالت : في جوفك[2] إن كنت تريد المعروف[3] . قال : ففتح فاه وقال : ها ، فدخلت جوفه ، فإذا رجل معه صمصامة ، فقال : يا جهير ، أين الحية ؟ قال : ما أرى شيئاً ، قال : سبحان الله ! قال : نعم ، سبحان الله ما أرى شيئاً ، فذهب الرجل ، فأطلعت الحية رأسها وقالت : يا جهير ، أتحس الرجل ؟ فقال لها : قد ذهب ، قالت : فاختر إحدى خصلتين : أن أنكت في قلبك نكتة ، أو أفرث كبدك فتلقيها من أسفل قطعاً قطعاً ! قال : والله ما كافأتني ، قالت : حيث[4] تصنع المعروف عند من لا يستحقه . قال : فأمهليني حتى آتي سفح هذا الجبل ، فأمهد لنفسي ؛ فبينما هو يمشي إذ هو بفتى حسن الوجه طيب الرائحة ، حسن الثياب ، فقال : يا شيخ ، مالي أراك مسترسلاً للموت ، آيساً من الحياة ؟ قال : من عدو في جوفي يريد هلاكي . فاستخرج شيئاً من كمه فدفعه إليه وقال : كل هذا ، ففعل ، فأصابه مغس شديد ، ثم ناوله أخرى فأكلها ، فرمى بالحية من أسفل قطعاً قطعاً . فقال : من أنت يرحمك الله ؟ فما أعظم منة علي منك ! قال : أنا المعروف ، إن أهل السماء لما رأوا غدر الحية بك اضطربوا ، كل يسأل ربه أن يغيثك ، فقال الله عز وجل : يا معروف أدرك عبدي ، فإياي أراد بما صنع .

وخرج قوم للصيد ، فطردوا ضبعاً حتى ألجئوها إلى خباء أعرابي ، فأجارها ، وجعل يطعمها ، فبينما هو نائم إذ وثبت عليه ، فبقرت بطنه ،

---

(١) الإرب : العضو .	(٢) ط : « بطنك » .

(٣) ط : « إن كنت من أهل المعروف » .	(٤) م : « حين » .

وجاء ابنُ عمٍّ له يطلبه، فإذا هو بَقِير، فتَبِعَها حتى قتَلها، وقال:

ومَن يَصنعِ المعروفَ في غيرِ أهلِه
يُلاقِ الذي لاقَى مُجيرُ أمِّ عامرِ

أعَدَّ لها لمّا استجارتْ ببَيْتِه أحاليبَ ألبانِ اللِّقاحِ الدَّرائرِ

وأسْمَنَها حتى إذا ما تمكَّنَتْ فَرَتْه بأنيابٍ لها وأظافرِ

فقل لِذَوِي المعروفِ: هذا جزاءُ من
يجودُ بمعروفٍ على غيرِ شاكرِ

وحكَى الأصمعيُّ أنَّ أعرابيًّا ربَّى جِرْوَ ذِئْبٍ، وجعلَ يُغَذِّيه بلَبَنِ شاةٍ له حتى كَبِر، فخرج معها للرَّعْي كعادته، فحرَّكَتْه الطِّباعُ الدَّنِيَّة، والنفسُ الذِّئْبِيَّة على افتراس الشاة، فلمّا رأى الأعرابيُّ الشاةَ فَريسةَ الذئب، أنشد:

عَقَرْتَ شُوَيْهَتي وفجَعْتَ قَوْمي بشاتِهِمُ، وأنتَ لها رَبِيبُ

غُذِيتَ بدَرِّها ونشأتَ معْها فمَن أنباكَ أنَّ أباكَ ذِيبُ

إذا كانَ الطِّباعُ طِباعَ سوءٍ فلا أدبٌ يُفيدُ ولا أديبُ

وقال أبو تمّام الطائيّ:

شرُّ الأوائلِ والأواخرِ ذِمَّةٌ لم تُصْطَنَعْ، وصَنيعةٌ لم تُشْكَرِ(١)

أغارَ مالكُ بنُ خَيْثَمةَ الجعفيّ على بني القَيْن، فاستاقَ لهم إبلًا، فأطلقوا الأعنّةَ ليطلقوها منه، فلم يَقْدروا عليه، ولا وصلوا إليه، ثمّ إنّه ذكر يداً

---

(١) ديوانه ٣٩٧.

كانت لبعضهم عندَه ، فخلّى عمّا كان في يده وولّى منصرفا . فنادَوْه وقالوا : إنّ أمامك مَفازةً ، ولا ماء معك ، وقد فعلتَ جميلاً فانزلْ ولكَ الذِّمام والحِباء ، فلما نزل واطمأنّ وسَكَن ، أخذته سِنَةٌ فنام ، فوثبوا عليه وقتلوه .

وما أحسنَ قولَ عُمارةَ اليَمَنيّ يخاطب السلطانَ صلاح الدّين :

فياواصِلَ الأرزاقِ كيفَ تركتَني ... أمدُّ إلى زَنْد العلا كفَّ أقْطَعِ

وأقسِم لو قالت ليَاليكَ للدُّجى ... أعِدْ غاربَ الجَوْزاء قال لها اطْلُعِي

فيا زارعَ الإحسانِ في كلِّ تُربةٍ ... ظَفِرتَ بتُرْبٍ يُنبتُ الشكرَ فازْرَعِ

قلتُ : مازرع عندَه إلاّ أنه صلبه ، وجعل له في الجَوّ لا في التراب تُرْبة ، لجناية نَقِمَها عليه من مَيْله إلى أهل القصر ، ونَقَلها عنه الهُمَزة في ذلك العصر ، وعند الله تجتمع الخصوم !

وقال ابن القَيْسَرانيّ :

قد حَسُن الصُّنْعُ ألَا فاصطنِعْ ... وأمكَنَ الدُّرُّ ألا فانتقِ

ومَرّ إحسانُك بي رائقاً ... مرَّ الصَّبا بالغُصُنِ المورِقِ

وقال رشيد الدين الفارقيّ :

وأعجَبُ ما حُدِّثْتَ وصفُكَ للعلا ... ومِثْلِيَ في أيام مِثلِكَ ضائعُ

لئن أمطرتني من سَجاياكَ مُزْنةٌ

حكَمْتَ لكَ أرْضِي كيفَ تزكو الصنائعُ

وقال شاعرٌ قديم :

لَعَمْرُك ما المعروفُ في غيرِ أهلِهِ ... وفي أهلِهِ إلاّ كبعضِ الودائعِ

فمستودَعٌ ضاعَ الّذي كان عندَه ... ومُستودَعٌ ماعندَه غيرُ ضائعِ

وما الناسُ في شُكرِ الصَّنيعةِ عندهم ... وفي كُفْرِها إلاّ كبعضِ المزارعِ

فمَزْرعةٌ طابتْ فأضعفَ نَبْتُها ... ومَزْرعةٌ أكدَتْ على كلِّ زارعِ

* * *

١٣٠ — وقوله : حَسْبُها أنتَ خليقٌ له ، وأنا منك حرًى به .

حَسْبُها ، أى قَدْرَ ما أنتَ خَليقٌ له ، تقول : فلانٌ خَليقٌ لكذا ، أى جَديرٌ به ، وقد خَلُق لكذا بضمّ اللام .

وحرًى به ، أى جَديرٌ به وخليقٌ ؛ وحرًى يُثَنّى ولا يُجْمَع . وأنشد الكِسائىّ :

وهُنّ حرًى ألاّ يُثِبْنَكَ نقرةً   وأنتَ حرٍ بالنّارحين تُثيبُ[1]

فإذا قلتَ : هو حَرٍ ، بكسر الرّاء وحرىّ ثنّيْتَ وجَمَعْتَ ، فقلتَ : هما حَرِيّانِ ، وهُمْ حَرِيُّون وأحْرِياء ، وهى حَرِيّةٌ ، وهنّ حَرِيّاتٌ وحرَايا ، ومنه اُشتُقّ التّحرِّى فى الأمور . وما أحسنَ قولَ أبى إسحاقَ الغَزّى .

إذا جادَت السُّحب السِباخ بطَبْعِها   فأجدرُ مخصُوصٍ بهِنّ الحدائقُ ؟

* * *

١٢١ — وقوله : وذلك بِيَدِه ، وهَيِّنٌ عليه .

أى بِيَدِه هذا الّذى سأله ؛ وقصده فيه ، أَمْرُه راجعٌ إليه ، وهو فى حُكمه يصرّفه كيف أرادعلى ما يختار كما يكون الشىء بيدِه ، وهذا كنايةٌ عن القُدْرة والاستيلاء ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ والأرضُ جميعاً قبْضتُه يومَ القِيامة والسّمٰواتُ مَطْوِيّاتٌ بيَمِينه ﴾[2] . وفى قوله تعالى : ﴿ بيَمِينه ﴾ لطيفة ؛ لأنه لم يقُل « فى يمينه » حتّى ينفى الظرفيّة الّتى هىَ من لوازم الأجسام . وكلّ هذه العبارة كنايةٌ عن القُدْرة التامّة ، والاستيلاء الكامل ، فتبارَكَ الله العظيم ! . وهذا النّوع يسمّيه أربابُ البَديع التّمْثِيل .

---

(١) اللسان — حرى ، من غير نسبة   (٢) سورة الزمر ٦٧ .

وقول الرَّمَّاح بن مَيَّادة :

أَلَمْ تَكُ فى يُمْنَى يَدَيْكَ جَعَلْتَنِى فلا تجعلَنِّى بعدَها فى شِمالِكا

أراد أن يقول : ألمْ أكنْ قريبا منكَ ؛ فلا تجعلنِّى بعيدًا عنك، فعَدَل عن هذا اللفظ الخاص إلى لفظ أعمّ ؛ وهو التمثيل ، لما فيه من الزيادة فى المعنى مما تعطيه لفظتا اليمين والشِّمال من القُرْب والبُعْد ومن الأوصاف التى لا يحصل إلاّ بذِكْرها ؛ لأن اليمينَ أشدُّ قوّةً من الشِّمال ؛ وأقرب إلى ربِّها ، لأنّه بها يأخذ ويُعطِى ويبطش ؛ ويَعمَل الصَّنائع ، وبها يَعتمِد ، وهى عنده مُكَرَّمة على الشِّمال . فهذه للأفعال الشّريفة ، وتلك للأعمال الخسيسة ، ولهذا كانت يَمينُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم لأكله وشرابه ووُضوئِه وتنعُّله ، وشماله لاُستنجائِه وإماطةِ الأذَى عنه .

قال الزَّمَخْشرِىّ فى كَشّافه : فإن قلت : لِمَ أُخِّرت الصِّلة فى قوله تعالى : ﴿ وهو أهْوَنُ عليه ﴾[1] ، وقدِّمَتْ فى قوله تعالى : ﴿ هوَ علىَّ هَيِّن ﴾[2] ؟ قلتُ : هناكَ قصد الاُختصاص ، وهو محزّه . فقيل : هو علىّ هَين ، وإن كان متصعّبًا عندَكم أن يولَد بين هِمّ[2] وعاقر ؛ وأمّا هنا فلا معنًى للاختصاص . كيف والأمرُ مبنىٌّ على ما يَعقِلون من أن الإعادة أسهلُ من الابتداء ، فلو قدِّمت الصلة لتغيَّر المعنى[3] .

وقال المتنخِّل :

ولكنّه هَيْنٌ لَيْنٌ كعالِيَةِ الرُّمْحِ عَرْدٌ نَساهُ

والهيّن فعيل من الهَوْن ، وهو السّكينة ، وهانَ عليه الشىء ، أى خفّ . وهوَّنه الله عليه ، أى سهّله وخفّفه .

---

(١) سورة الروم آية ٢٧ . (٢) الهم : الشيخ الفانى .
(٣) الكشاف ٣ : ٢٧٥ .

وفى هَيِّن لغتان : هَيِّن وهَيْن بتشديد الياء وتخفيفها ، مثل لَيِّن و لَيْن ، ومَيِّت ومَيْت ، وفى الحديث : « المؤمن هَيْنٌ لَيْنٌ » ، بتخفيف الياء فيهما ، قال الشاعر :

هَيْنُون لَيْنُون أيسارٌ ذَوُو يَسَرٍ   أربابُ مَكرُمةٍ أبناء إيسارِ

وفى هذا المَثَل : « هَيْن لَيْن وأودت العين » ، يقال : إنّ هذا المَثَل سار من قوله دُغَة ، وذلك أنّ صواحبها حسدْنها على أنساعٍ بها جُدُد جملت تئطّ إذا ركبت ، فقلن : لها : ويحك يا دُغة ! إنّ أنساعَك تئطّ ، وإذا سمع الرجال ذلك قالوا : هذا ضُراط دُغة ، فلو أنكِ دهنتِها فهو ألين لها ، ويذهب عنكِ هذا الذى تخافين عارَه ؟ قالت : إنّى فاعلةٌ ذلك ، فلمّا نزلتْ حملت النساء السَّمن لها فى الأقداح ، فلما صار السمن بيدها أخذت نِسعًا من أنساعها ، فقطّرت بعض على نواحيه من السمن ، فاسودّ ولان ، فعند ذلك قالت : دُغة هَيْنٌ لين وأودتِ العَين » تعنى حُسْنَ النسع ، فصار مثلا .

* * *

١٢٢ — وقوله : وَلمّا توالَتْ غررُ هذا النَّثرِ ، وَاتّسقت دُرَرُه .

توالت ، من المُوالاة ، وهى هى المُتابَعة . والغُرَر جمع غُرّة ، وهى أوّل كلّ شىء وأكرمُه . واتّسقت ، معناه انتظمَتْ . والدّرَر : جمع دُرّة ، وجوابُ « لمّا » يأتى فيها بعدُ ، وهو قوله : « عارضه النّظمُ » .

* * *

(١) الميدانى ٢ : ٣٨٣

١٢٣ ــ وقوله: فهزّ عِطفَ غُلَوائه، وجرّ ذَيل خُيَلائه.

الغُلَواء والغُلْوان: سُرْعة الشّباب وأوّله، عن أبي زيد.

والخُيَلاء: الـكِبْر والتّيه، يقال منه: اختال، فهو ذو خُيَلاء وذو خالٍ وذو مخيلة. والعادة جرتْ بأنّ النّاثر لا يَصِف رسالته بحُسْنٍ، ولا يُثني عليها، بخلاف الشّاعر، فإنّ له أن يُقرّظ قصيدته، ويُثني على فصاحةِ ألفاظِها، وبلاغة معانيها، وينبّه على محاسنها، وهذا أمرٌ قد استفاضَ بين الأدباء أمرُه، وتقرّر عندَ البُلَغاء ذِكرُه. فقلّ أن يُرى شاعرٌ نظم قصيدةً مطوّلةً إلاّ وختمها بالثّناء على محاسنِها.

وأبو الطيِّب حاملُ هذه الرّاية، وأبو تمّام قبْله، قال أبو الطّيِّب:

أنا صَخْرةُ الوادِي إذا مازُوحِمَتْ   وإذا نَطَقْتُ فإنّني الجَوْزاءُ[1]
وإذا خَفِيتُ على الغَبِيِّ فعاذِرٌ   ألاّ تَرَاني مُقْلَةٌ عَمْيَاءُ

وقال أبو تمّام رحمه الله تعالى:

من كلّ بَيْتٍ يَكادُ المَيْتُ يَفْهَمُه   حُسْناً ويَعْبُدُه القِرْطاسُ والقَلَمُ

وقال ابنُ القَيْسَرانيّ:

فدُونَكَها لو أدرَكَتْها أُمَيّةٌ   لحَامَى جريرٌ دُونَها والفرزْدَقُ
يُناقضُها مَنْ لا يَكادُ يُجيبُه
وقد زَأَرَ الضِّرغامُ والعَيرُ يَنْهَقُ

وقال عُمارةُ اليَمَنِيّ:

قوافٍ هي الشِّعْرَى سُمُوًّا وإنّما   يلقّبها بالشِّعر من ليسَ يَشْعُرُ

---

(١) ديوانه ١ : ١٥

مَلكتُ عليها خُنْزُوَانَةَ كِبْرها ... وفيها على قَوْمٍ سواكَ تكَبُّرُ
تَزَفُّ ولكنَّ الصُّدورَ خُدورها ... وتُنْحَل ألبابَ الرِّجال وتُمْهَرُ

* * *

١٢٤ — قوله : عَارَضَهَا النَّظْم مُبَاهِيًا ، بل كايَدَه مُدَاهِيًا .

عارَضَ: فاعَلَ من المُعارضَة ، ومُباهِيًا: اسمُ فاعلٍ من المُباهاة ، وهى المُفاخَرة . وكايد ، فاعل من المُكايدَة ، والكَيْد : المَكْر والخَديعة ، وربَّما سُمِّيَ الحرب كَيدا .

يريدُ بهذا الكلام أنَّ النَّثْر إذا تقدّم فلا بأسَ المتكلِّمَ أن يُلحِقه بشيء من النَّظْم ، لأنَّ النفوسَ تَرتَاح إلى ذلك ؛ ولأنَّ البلاغة دائرةٌ بين هذين النَّوْعين ، وهما النَّظم والنَّثر . وقد ذهَبَ قومٌ إلى أنَّ النَّثر أشرفُ من النَّظْم ، قالوا : ومن الدَّليل على ذلك أن الكُتّاب والمترسِّلين أقلّ من الشُّعراء ؛ لأنه يكون فى كلِّ زمان جماعةٌ من الشُّعراء ، ولعل ذلك الزّمانَ لا يكون فيه كاتبٌ مُفلِق يُدَوِّن كلامه ويُخَلِّد . ومن الدّليل أيضا على شرف النَّثر كونُ القرآنِ غيرَ منظوم .

قلت : ولأنَّ الشعرَ يُروِّجه الوَزْنُ الّذى هو مُلائم للطَّبْع ، والنَّثْر إن لم يكن فى الذِّروة العُليا من البلاغة ، لا تَقبَله النّفوس ، وتَمُجُّه الأسْماع .

ومن عجيب الدَّهاء أنّ قوماً قَدَّموا خَصْما لهمْ إلى الحاكم ، فقالوا : لنا عليه مالٌ ، فقال : صَدَقوا أيّها الحاكم ، سألتهُم المُهلَةَ إلى أن أَبيع مالى من عَقارٍ ورقيق ، وإبلٍ وشاء ، فقالوا : كذب أعزّكَ الله ، وإنّما يداهينا بذلك ، فقالَ : أيُّها الحاكم ، قد شهدوا لى [1] بالإعسار . فخلّى الحاكمُ سبيله .

(١) ط : « على »

ومما قلتُ أنا :

تداهى عَذُولى فى الغَرام ولم تَكُنْ ... مَقاصِدُه تَخفَى على عاشقٍ مِثْلِى
أَحَبَّ ولمَّا غارَ مِنِّى وخافَ أن ... أُفاتِحَه فيه تَسابقَ بالعَذْلِ

* * *

١٢٥ — وقوله : وحينَ أشفقَ من أن يَعطِفَكَ اُستِعطافُه، ويَميلَ بنفسِك إلْطَافُه .

أَشفَق : بمعنى حَذِر. عَطَفك يَعطِفُك ، أى ثناك إليه اُستعطافُه ، استِفْعالٌ من العَطْف . والإلطاف ، مصدر أَلْطَفَه بكذا ، أى بَرّه وأَتْحفه ، وهذا الّذى سلكه ابنُ زَيْدون فى هذا المكانِ نوعٌ من سحر البلاغة وزخرفها ، وهو الّذى يسمِّيه أربابُ البديع الإسجال بعد المُغالَطة ؛ لأنّه غالَطَه ابن جَهْوَر بما خدَعه من كلامِه المتقدِّم ، ثمّ أسْجل عليه بعد ذلك أنّ هذا النّثر الّذى قدَّمْتُه عَطفك ، وأمالَ بإلْطافِه نفسك ، فأشْفق النظمُ من ذلك ، وغارَ منه فأراد أن يُساهِمَه ، ويكونَ له نَصِيب . وقد جاء من هذا النوع قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾(١) ، ومنه قولُ الشاعر :

جاء الشِّتاء وما عِنْدِى لِقِرَّتِهِ ... إلاَّ ارتِعادى وتَصفِيقى بأسْنانِى
فإنْ هلكتُ فمَولانا يكَفِّنُنِى ... هَبْنِى هَلكتُ فهَبْ لى بعضَ أكفانِ

وقد تأتى المُغالطة بلا إسجالٍ كقول أبى نُواس :

أسألُ القادِمين مِن حَكَمانٍ ... كيف خلَّفتُمُ أبا عُثْمانِ(٢)

---

(١) سورة غافر ٨

(٢) ديوانه ٣٩٥

فيقولون لى جَنانٌ كما سَرَّ ... كَ فى نفسها ، فَسَلْ عن جَنانِ

مالهمْ لا يُبارِكُ اللهُ فيهمْ ... كيف لم يُغْنِ عندهم كِتمانِى !

هذه جنان كان يَهوَاها أبو نُواس ، وما صَدق فى حُبِّ أحدٍ مَن كان يتعشقه غيرها . وأبو عثمانَ الذى ذَكره فى شعره هو أخو مولَى جنان .

وما أحلَى قولَ القائل :

بالله ياصاحبَ الوَجْهِ الذى اجْتمعتْ ... فيه المحاسنُ فاستَوْلَى على المُهَجِ

خُذْنى خَديناً وإن لم ترضَ بى صَلَفاً

فارْفَعْ بىَ العين عن ذا المَنْظرِ البَهِجِ

***

١٢٦ — وقوله : فاستحسَن العائِدَة منه ، واعْتَدَّ بالفائدة له .

استحسن : استفعل من الحُسْن . والعائدة ، تقول : فلانٌ ذو عائدة ، أى ذو عَفْو وتعطّف ، واعتدَدْت بالفائدة له ، معناه : عَدَدْتُ الفائدةَ له .

وهذا الكلام أخرجه مخرج التوكيد لاستعطاف أبن جَهْوَر ، ومَيْل نفسه إلى هذا النّظم وقبوله له ، وأنه صادف من قلبه مَوْضعاً ، فكأنّ هذا الأمر صار وانفصَل حُكمُه ، وهذا من باب من قولك : غفَر الله له ورَحِمَه الله ، وهذا إنّما هو فى الأصل دُعاء ، والدّعاء طَلَب ، والطّلَب استدْعاء أمرٍ لم يكن بعد ، ولكن مخرجُه مخرَجَ أمرٍ قد صار ومَضَى ووقع ، وُثوقاً برحمةِ الله ، وَطَمعاً فى جُوده . وما أحسَن ما أتَى بهذه الألفاظ فى حَقّ النّظم ، وأنه الّذى يبلغه المقصود لا النّثر ، وإن كان قد جاء فى هذا النّثر بما هو السِّحْر الحَلال ، والخُدْعة الّتى لا مَحِيدَ لها عن الانفعال ، ولكنّ هذا كلّه من التصرّف فى

فنون البَلاغة ، وقوّة المارضة ، فهو يغالطه من هاهنا ويَخدَعه مِن هُنا ، ويُكايِدُه مِن هنا ، حتى يظفر منه بمراده .

وفى المثل « تلطُّف أبى غزوان » ، وهو كُنْيَة القِطّ ، لأنك ترى القِط الذى يكونُ عندك فى البيت ـ ولا أعْنِي به الأجْنبي ـ كيف يقف حذاءك ويخضع لك ويتمرّغ على يَديك ، ويَطرح نفسَه على ما يَقرُب منه من جسدُك ، وتارةً ينظرُ إليك ، وتارةً يصيحُ ، ولا يَزالُ بكَ حتّى تطعِمَه إمَّا رحمةً له ، أو ضجَراً منه .

* * *

١٢٧ — وقوله : فما زال يَسْتَكِدّ الذِّهْن العليل ، والخاطرَ الـكَليل .

يستكد : يَستَفْعِل من الكَدّ ، وهو الشِّدّة فى العَمَل . والذِّهن : الفِطْنَة والحِفْظ .

والعَليل : فَعِيلٌ من العِلّة . والخاطِرُ ، خَطَر الشيء ببالِي يَخْطُر ـ بضم الطاء ـ خُطوراً ، وأخْطَره الله بِبالى . والـكَليل : فَعِيلٌ من الكَلال ، كَلّ السيفُ إذا لم يَقْطع ، وكَلَّت الريحُ إذا قرّت بعد الهُبوب ، والطَّرْفُ إذا ضَعُف نَظَرُه ، أو اللِّسان إذا حصَل له العِيّ ، يَكِلّ كَلاًّ وكَلالَةً وكِلّةً وكُلولاً ؛ كلُّ ذلك مَصدرُ « كَلّ » .

ثمّ إنّ ابنَ زَيْدونَ أخَذ بعد تلك العبارة الأُولى يَصِف ماعاناه من الشِّدّة ، وكابَدَه من العَناء فى نَظْم القصيدةِ التى سوفَ يُورِدها بعد انقضاء كلامه ، كالذى يريد أن يستميل المخاطبَ إلى مايوردُه ، أو كالذى يُشوِّق من له غرامٌ فى مَرامٍ ، ويعده بأنه لو تحمّل لك ، لـكنت ترى عَجَبا ، وتظفر بأُمنيّة

بديعة ، فيحصُل حينئذ للمُخاطب استعدادٌ تامٌ ، ويتكيّف لوُرودِ ذلك ولسماعه بكيفيَّة قابلة ، وأعضاء مشتاقة . وما أحسَنَ قولَ أبي تمَّام :

تغَايَرَ الشِّعْرُ فيـه إذ سَهِرْتُ له
حتّى ظَنَنْتُ قَوافِيه سَتَقْتَتِلُ(١)

• • •

١٢٨ — وقوله : حتى زَفّ إليك منه عَرُوساً مَجْلُوّةً في أثوابِها ، منصوصةً بحُلِيِّها ومَلابِها .

جَلاه : فهو مَجْلُوّ ، وجَلَوْتُ العروسَ جِلاءً وجَلْوَةً وأجْلَيْتها بمعنًى . مَنْصُوصة ، مفعولة من النَّص ، وهو الرَّفْع ، ومنه مِنَصّة العَروس . والحُلِيّ : ماتزان به العَروس من القَلائد والشُّنُوف والأَسْوار وغير ذلك .

والمَلاب : الزَّعفران ، ومن أسمائه الجادِيّ والرَّيهقان والحُصّ(٢) . وقد ادَّعى ابنُ زَيْدونَ أنّه قد زفّ إليه عَروساً مِن نَظْمه ، وهي القصيدةُ الميمية في أثوابها ، وحُلِيِّها ومَلاَبها . أرادَ بالثّياب ألفاظَها لأنّه تخيَّر لها ألفاظاً فصيحةً عَذْبة التركيب ، عَرِيّةً من الألفاظ الغَريبة الحوشيّة الّتي يَنْبُو عنها السّمع ، وأراد بالحُلِيّ المعانيَ الّتي قصَدَها ، فإنَّها بليغةٌ كأنّها أنواعُ الجَوْهر الّتي يضمّها الحُلِيّ . وأراد بالمَلاَب مافيها من الثَّناء ؛ لأنّ الثَّناء يُوصَف بالطِّيب على ماهو مَشْهور في العُرْف .

• • •

وقد جرَت عادةُ الشّعراء أن يُسمُّوا مدائحَهم عَروساً بديعَة الحُسْن ، وأنّ سَوْقَها إلى مَمْدوحِيهم زِفاف ، وأنَّ مَهرَها الإقبال على شاعِرها ، وهو أشهَرُ مِن أن يُستشهَد له بشيء . قال ابنُ السَّاعاتيّ رحمه الله تعالى :

---

(١) ديوانه ٢٢٧ . (٢) الجادي . الزعفران ، وكذلك الريهقان والحص .

تُجلَى فتُطرِبُ قبلَ أن يُحْدَى بها
وِتْرًا ولَمْ تدر السُّقاةُ المُسْكِرَا
رُعْبُوبةٌ حَسُنَتْ كوجهكَ مَنظرًا
مجلوّةٌ طابَتْ كأصلِكَ مَخْبرًا
فاستَجْلِها واستَحْلِها مستغرِبًا بِكْرًا نَماها صائِغًا ومصوِّرًا

وقال أيضا:

حتّى تُزَفَّ بناتُ الحمْدِ غاديةً
على رجالِ المَعالى ثُمَّ تنصرفُ
يَمُدُّها الفضْلُ من إحسانه جُملا
وهِىَ الشذورُ التى تأتيك والشُّنُفُ

وقال أيضا:

وقافيةٍ مَقْبونةِ الحقِّ حُزْتُها
فوَفَّيْتُها حقّا وآمنتها الغَبْنَا
عَروسٌ حَصانُ النَّحرِ، فِكْرِى وَلِيُّها
مَهَرتُ لها وَهْنًا فما وَجَدَتْ وَهْنَا

وقال الأرَّجانىّ:

وإنِّى لأرضاكَ للمَدْحِ كُفُوًا كَرِيمًا وأَرضَى بِنُعْماكَ مَهْرًا[1]
فدُونَكَ فاجتَلِ بالسَّمْعِ منك أزُفُّ إليكَ ابنةَ الفِكرِ بِكْرًا

وقال ابنُ المعلِّمِ:

أيُّها المَوْلَى استَمِعْ شِعْرَ الّذِى حَدَّثَ المَشرِقُ عنه مَغْرِبَهْ

---

(١) ديوانه ١٠٨

جئت أهدى منه بِكراً سُمِّيَتْ بكَ إذ منك حُلاها المُذهَبَهْ

وقال سبط ابن التعاويذى :

زَفَفْتُ إليكَ عَرُوسَ الثناَ ءِ عَذْراء من حُسْنِها فى نِطاقِ[1]
وصُغْتُ لها حِليةً من عُلاكَ على مَفرِق الدَّهر ذاتَ ائتِلاقِ

ومنهم من يدّعى أن قصيدته « بُرْدٌ محبّر » ، قال ابنُ بابك :

أنصِتْ لشاردةٍ تُصغِى لرنّتها فُصْحُ الحَمام إذا غَنّى بها الحادِى
مَعشوقة اللفظِ تُستجلَى بدائعُها كأنّ ألفاظَها تَحبيرُ أبرادِ

ومنهم من يقول : « إنه عِقد جوهر » ، قال ابن قلاقس :

نظمتُ لكَ الدرّ الذى من فريدِه فرائدُ أبكارِ الدرارِى القوائمِ
غرائبُ خُصّت بالرّغائبِ فأنْشِدَتْ
وكم غُرَرٍ فى أوجهٍ ومَباسِمِ

وقال أبو تمّام :

إذا أُنشِدَتْ فى القوم ظلّت كأنّها
مُسِرّةُ كِبْرٍ أو تداخلَها عُجْبُ[2]
مُفَصّلة باللؤلؤ المنتقَى لها من الشِّعْر إلا أنّه اللؤلؤ الرَّطْبُ

ومنهم من يقول : « رَوْضٌ مُزْهِر » ، قال ابن بابك :

وأستجلِ ألفاظاً كأنّ سَقيطَها رَوْضٌ ألمّ به الرِّكاب المسبَلُ
وإليكَ صَوْبَ مَدائحٍ لو أنّها ماءٌ لَمُجّ به الرّحيقُ السَّلسَلُ

وقال ابن قلاقس :

إليكَ أتى رِكابُ الشِّعْر يَطوِى فَسيحاتِ الحُزُونِ مع السُّهولِ

---

(١) ديوانه ٣٠٠ (٢) ديوانه ٣٤

كزَهْرِ الرَّوْضِ قد جُرَّت عليه ذُيولُ غلائلِ الــــرِّيحِ البليلِ

ومنهم من يقول: «سحرٌ يُؤثِر»، قال سِبْطُ ابن التعاويذي:

قَوافٍ تَسحَرُ الألبابَ حتّى يُخالَ بها فُتُورٌ واحْوِرارُ[1]
تَظَلُّ لدَى بُيوتِكمُ وتُمسِي بها وَلَهــا طَوافٌ واعتِمارُ

وقال ابنُ الساعاتيّ:

مَلَكتُ أعناقَ القريضِ مِلْكَ إذْ عانٍ فلم أعهد له إلاّ اتّفقْ
يَصدَعُ بالسِّحرِ الحلالِ فِكرَتي وتارةً يَسمَحُ بالدُّرِّ النَّسَقْ

ومنهم من يقول «نسيمٌ الرياض يخطر»، قال ابن القيسرانيّ:

وذاتِ مَعانٍ قَطّعتْ لُبَّ الحَيا إليكَ فجاءتْ وهي تلعبُ باللُّبِّ
تَهُزُّ عَميدَ القَوْمِ حتّى كأنّهــــا
نسيمُ الصَّبا أفضَى إلى الغُصُنِ الرَّطْبِ

وقال ابنُ الساعاتي:

سيارةُ الأمثالِ لست بواجدٍ كفؤاً سِواكَ لِمثلِها وعَديلا
حضريَّةُ النَّفَحاتِ ضائعُ رَدْعِها[2] عمّ البَسيطةَ عَرْضَها والطُّولا
فكأنّما نَفَسُ القَبولِ أمَدَّها نَشْرَ الخُزامَى لَذّةً وقَبولا

ومنهم من يقول: «خمرٌ أسكر»، قال ابن قلاقس:

جاءتك كالتَّرِفِ الشَّمائلِ وَاعِداً بِوِصالِهِ متخفِّراً من صَدِّهِ
ذابَ البَديعُ بها فسَلْسَلَ لفظَها راحاً تؤمِّنُ شارِباً من حَدِّهِ

---

(١) ديوانه ٢٠٤ (٢) الردع هنا: الزعفران.

وقال الأرّجانيّ :

خُذْها سُلافَةَ فِكرٍ قد هَزَزتُ لها
أعطافَ خِرْقٍ بكأسِ الحَمْدِ نَشْوانِ[1]
راحاً يُشَعْشِعُها الرّاوِي بأكْؤُسِها
يُشرَبْنَ مِن دُون أفْواهٍ بآذانِ

ومنهم من يقول : « حمام غرد » . قال ابنُ قلاقس :

جاءتكَ كالأوراقِ باتَتْ في النَّدَى
خُضْراً وكالأوراق ناحَتْ هُتَّفا
من كلّ قافيةٍ تحطّ قِناعها
فتردُّ وجهَ « قِفا » وقائلها قفا[2]

وقال ابن الزقّاق :

وإليكَها من واضِحاتِ قلائدي
مِدَحاً يَرِنّ بها الحمامُ ويهزجُ[3]
كقطائمِ البُسْتان أينَع زَهْرُها
أو كالعذارَى البِيض إذ تتبرّجُ

ومنهم من يقول : « مِسْك أذْفر » ، قال ابنُ المعلِّم :

نفّحتها شاعر ولىٌّ
لدَرّ إحسانِكمْ رَضيعُ
يَنثرُ منها بكلّ نادٍ
لطائماً نَشْرُها يَضُوعُ

وقال ابنُ الساعاتيّ :

قَعدَتْ حَوْلَكَ القوافِي ولايَنْ
فَكّ في الأرْض كلّها سَيّارا
كلما كتّموه نمّ شَذاهُ
فهو كالمِسْك نَفحةً وانتِشارَا

ومنهم من يقول : « ثوب أفق بالكواكب مدثر » ، قال الخفاجيّ :

---

(١) ديوانه ٤٠١ ، والخرق من الفتيان : الظريف في سماحة .
(٢) يشير إلى معلقة امرىء القيس التي أولها : « قفا نبك » .
(٣) ديوانه ١٢٠ .

لكَ الخيرُ ما جَهْدُ القَوافي ببالغٍ مداكَ ، وإن بذَّ الرِّياحَ مَسيرُها[1]
ولو نُظِمتْ فيكَ النجومُ مَدائحًا
لقصّر عن حَدِّ الثَّناء مَسيرُهَا

وقال أبو العلاء المعرّى :

وَلَقَدْ غَصَبْتُ اللّيلَ أحسنَ شُهْبِه ونَظَمْتُها عقداً لأَحْسَنِ لابِسِ[2]
وأفدتُها القِدْحَ المُعَلَّى فائضاً يَجري ولم أَقْنَع لها بالنّافسِ

ومنهم من يقول : « حُسامٌ صَقيل مُجَوْهَر » . قال ابن السّاعاتى :

فاُفترِعْها غَيْداء جَيْداء كالمعـ ـشُوق يَجلُو على المُحِبِّ دَلالَه
كصَفيِح الهِنْديِّ حُسْناً ولِيناً وكَحَدّيْهِ قُوَّةً وجَزالَهْ

وقال الأرّجانى :

واسمعْ جميل ثناءٍ من خلوصِ هوًى على لسانِ جنانى فيكَ يلقيه
ألا فقلّد حساماً من تَصادقُهُ منها ، وطوّق حساماً مَنْ تعاديه

ومنهم من يقول : « ليث يزأر » ؛ قال ابن الساعاتىّ :

مديحٌ حكى زَأْرَ الأسود جزالةً وراءَ نسيبٍ كالغزال يُغازَلُ
فما نقشه إلاّ سوادُ عَجاجةٍ وما شكلها إلاّ قنًا ومناصِلُ

وقد جمع سبط ابنُ التعاويذىّ غالبَ هذه الدعاوى وادّعاها لقصيدته ، فقال :

سأملأُ فيه أقاصى البِـلاد ثناءً متى سارت الشمْسُ سارَا[1]

---

(١) ديوانه ٤٨ .

(٢) سقط الزند ٤١٢ ، والقدح المعلى من القداح : ما كان له سبعة أنصباء ، والنافس له خمسة .

وأبقى على مفرق الدهر منـ ـه تاجاً وفى معصميه سوارا
قواف كأن على الشامه ين أديرن بهن شمولا عقارا
تضوع طيبا كأن الثنا ء شب بها مندليا وغارا
وتفتر عن مبسم كالريا ض ضاحك نوارها الجلنارا
حسان فإن كنت أرسلتهن عونا فإن المعانى عذارى

* * *

قوله بعد تمام القصيدة[٢] :

١٣٩ — ها كها أعزك الله ، يبسطها الأمل ، ويقبضها الخجل .

يبسطها الأمل ، أى يمدها ويطولها حسن الظن بك . ويقبضها الخجل ، أى يجمعها ويضمها التقصير ، وكأنها تقدم رجلا من الأمل ، وتؤخر أخرى من الخجل وقد طابق بين البسط والقبض وبين الأمل والخجل ، لأن الأمل يبعث والخجل يكف . وقد جرت العادة فى مثل هذا بين الأدباء ، أنه يتبع النثر بالنظم ، لأن النظم له موقع فى السمع تلذه ، وللنفس به ابتهاج لمناسبة بين الطبع والوزن ؛ قال أبو تمام :

فكيف ولم يزل للشعر ماء يرف عليه ريحان القلوب

ثم إنهم يعتذرون مع ذلك . وقد اعتمد هذا جماعة من الأدباء ، منهم أبو عبد الله الحسين بن على بن محمد المعروف بابن قم اليمنى فى رسالته المشهورة التى كتبها إلى أبى حمير سبأ بن أبى السعود أحمد الصليحى ، فقال فى آخر رسالته المذكورة : وقد أصحب عبده هذه الأسطر شعرا يقصر فيه عن واجب الحمد ، وإن بنيت قافيته

---

(١) ديوانه ١٧٩ (٢) انظر القصيدة بتمامها فى ص ٢٧ — ٢٩

على المدّ ، وما يمدّ نفسه إلى كَهدِى جلد السّبنتى الأنمر(١) ، إلى الديباج الأحمر .
أين درّ الحَبَاب ، من ثغور الأحباب ، وأينَ الشّراب من السراب !

* * *

١٣٠ — وقوله لَهَا ذَنْبُ التقصِير ، وَحُرْمَةُ الإِخْلَاصِ ، فهبْ ذنباً لِحُرمَةٍ ، وَاشْفَع نِعْمَةً بِنِعْمةٍ .

الحُرمة : مالا يحلّ انتهاكه ، وكذلك المحرمة . والإخلاص : أن يكون الضمير لا يخالطه شكّ فيما يعتقدُه . واشفع ، أى أتبع النّعمة بالنعمة حتى يكون ذلك شفعاً ، أى زوجاً . وقال عُمارة اليمنيّ :

خُذِ العَفْوَ واصْفَحْ عَنْ قُصُورِ قصائِدِي
فإنّكَ عن ذَنْبِ المُقِرّينَ صَافِحُ
وسامحْ وَخُذْ بعض الذى تستحِقُّه
فمن عادةٍ أنّ الكريمَ يسامحُ

وما أحسن ما أنشدنيه لنفسه إجازة صفىّ الدين الحِلّى :

فاستَجْلِ بكْرَ قصيدٍ لا صداقَ لهَا
سوى القبولِ وودٍّ غير مكفورِ
على أبى الطيّب الكوفىّ مفخرُها
إذْ لم أضِعْ مسكَها فى مثل كافورِ
رقّتْ لتعربَ عن رِقّى لمجدكُمُ
حيًا ، وطالتْ لتمحو ذنب تقصيرِ

وقال ابن المعلّم :

ما كان فى التقصير إلا مذنباً
شعرى وقد جاء إليك تائباً

قوله : « واشفع نعمة بنعمة » ، من قول أبى تمام :

---

(١) السبنتى من أسماء النمر ، والأنمر ما فيه نكت سوداء وأخرى بيضاء .

وتقفو لىَ الجدْوى بِجَدْوَى وإنَّما
يروقكَ بيت الشِّعْرِ حين يُصرَّعُ[(١)]

وقال ابن حيّوس :

وَلَطالَمَا أغنيتَ غير مشارَكٍ عن صوب غاديةٍ بصوب بنانِ
وفَلَلْتَ غَرْبَ كتيبة بطليعةٍ وشفعتَ بكْرَ صنيعة بِعَوانِ

* * *

١٣١ — وقوله : لِيتَأَتَّى لكَ الْإِحْسَان مِنْ جِهَاتِهِ ، وتَسلُكَ إلَى الْفَضْلِ مِنْ طُرُقَاتِهِ

التأتى: والتهيؤ ، وتأتّى له ، أى ترفّق وأتاه من وجهه. وقال الفرّاء : يقال : فلان يتأتّى ، أى جاء يتعرّض لمعروفك ، والإحسان مصدر « أحسن » ، وهو ضدّ الإساءة . وجهات : جمع جهة ، وهى الناحية والقصد . والسلوك . الذّهاب والمرور . والفضل : اسم يعمّ كل خير ، وهو ضدّ النقص . والطرقات : جمع طريقة ، وهى المذهب .

---

(١) ديوانه ١٩٠ .

[فصل فى نقد المؤلف لرسالة ابن زيدون]

فيما ظهر لى من الانتقاد على ابن زيدون رحمه الله تعالى ، وإن كان من الفضل بالمحلّ الأعلى، ومن الأدب بالنَّوْر الأجْلَى ، فإنه لا بدّ من الكبوة للجواد والهفوة لمن عرض عقله على السَّوَاد ، فالعِصْمة لا تُشترط إلا لامرسَل ، ومن عرّض نحرَه للعوالى فلا بد أن يُبْسَل[1] ؛ وفوق كلّ ذى علم عليم .

١ — من ذلك قوله : « الَّذِي وِدادى له » ، أتى بهذه فذّةً لا أخت لها ، ولو قال بعدها : « وسدادى » لكان قد آخى بين الكلام ؛ كما قال بعد ذلك : « واعتدادى به ، واعتمادى عليه » .

٢ — ومن ذلك قوله : « وأنفَعُ الحَيَا ما وافَقَ جَدْبا ، وألذُّ الشَّرابِ ما أصاب غليلا » ، كان يحسن به ويليق بهذا الموضع لو أنشد :

لَوْلاَ اطِّرادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكُ لَذَّةٌ فَتَطارَدِى لِي بالوِصال قليلا

ومن ذلك قوله : « ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأَيْنَ عَدْلُكَ ، أو مسيئاً فأين فضْلك » كان يحسن بهذا الموضع ويليقُ به لو قال بعد ذلك :

هَبِينِى ظَلُوماً نِلْتِــهِ بمساءةٍ
قِصاصاً فأَيْنَ الأَخْذُ ياعَزُّ بالْفَضْلِ !

٣ — ومن ذلك قوله : « حنانيك قدْ بَلَغَ السَّيلُ الزُّبى » كان يحسن بهذا الموضع ويليق به أن لو زاده : « وجاوَزَ الحزامُ الطُّبْيَيْن » ، الطُّبْى لذوات الحافر والسِّباع كالضَّرْع لغيرها .

---

(١) البسل : الهلاك .

وهكذا كتب عثمان بن عفان إلى علىّ بن أبى طالب وهو محصور فى الدار : « أمّا بَعْد ، فقد بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى ، وجاوز الحزامُ الطبيين » . وقد تقدّم ذلك عند ذكر عثمان رضى الله عنه .

٤ — ومن ذلك قوله : « وتأوّلتُ فى بيعةِ العقبة » ، لم ينقُل أحد من علماء السِّيَر أن أحداً ممّن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة الأولى ولا الثانية ولا الثالثة من الأنصار — رضى الله عنهم — نكث بيعتَه أو تأوّل فيها ؛ فإيرادُه هذه القرينة مع ما تقدمها من الوقائع المشهورة غير لائق .

٥ — ومن ذلك قوله : « وَتَخلّفتُ عن صلاة العصر فى بنى قُرَيظةٍ ، هذه وإن كان قد وقع فيها جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم ينقُلْ أحدٌ من أرباب السِّيَر فيما علمتُه أنه عاب على أحدٍ ممن تخلّف عن الصلاة فى بنى قُرَيظة تأخيره . فإنه فيهم من صلى العصر فى وقتها فى بنى قريظة ، ومنهم من تأخر عنها . ولما ورد قضى صلاة العصر فى بنى قريظة ، وما أنكر على أحدٍ منهم صلى الله عليه وسلم فعله ؛ وما يليق بالبليغ أن يورد هذه الواقعة مع ما أورده من تخلّف إبليس عن السجود لآدم ، ومن فعل ابن نوح ، ومن قول فرعون : (يَاهَامَانُ ابْنِ صَرْحاً) ، من عَقَر ناقة صالح ، مِمّا ذكره وعدّده من تلك الإساءات ، وأورده من تلك الذّنوب .

٦ — ومن ذلك قوله : « وزعمتَ أنَّ إمارَة أبى بكر كانت فلتةً » ، فإنّ مثل هذه العبارة لا تورد فى الجنايات ولا الخطايا ؛ لاسيما وهى من قول عمر ابن الخطاب رضى الله عنه على ما تقدم بيانُه . والذين تعلّقوا بهذه العبارة وعدّوها هفوة ، إنما تمسّكوا بما فسّره الخطابىّ فى كتاب غريب الحديث ؛ وليس ذلك بظاهر ، وابن زيدون رحمه الله تعالى تمسّك بما فسّره أبو عبيد .

٧ — ومن ذلك قوله : « وكتبتُ إلى عُمر بن سعد : أن جَعْجِعْ بالحسين » ،

فإنه عَنى بالكاتب عُبيد الله بن زياد وعَنى بعمر بن سعد ، ابنَ أبي وقاص ، وهو الذى تولّى محاربة الحسين . وعبيد الله بن زياد إنما كتب بذلك إلى الحرّ بن يزيد التميميّ — وكان قد أرسله فى ألف فارس — ليلاقى الحسين قبل إرساله عمر بن سعد . فلقيه الحُرّ ، ومنَعه من التوجّه إلى الكوفة وإلى الشام ، وحال بينه وبين الرجوع ، وجرى بينهما الصلح — على ماهو مذكور فى كتب التواريخ — على أن ينزل الحسين رضى الله عنه حيث انتهى إليه الحرّ وعسكره ، ويكاتب الحرّ عبيدَ الله . فكان جواب عبيد الله إليه : أن جَعْجِعْ بالحسين وأصحابه حتى تأتى عمرَ بن سعد ، وأنزلهم على غيرماء .

٨ — ومن ذلك قوله : « فكيف ولا ذنْبَ إلاّ نميمةٌ أهدَاها كاشحٌ ، ونَبَأٌ جاء به فاسق » ؛ كان يليق بهذه الموطن أن يزيد فيه : « وفِرْيةٌ اختلقها حاسد » ، ليحسن بعد ذلك قوله : « وهم الهمّازون المشاءون بنميم » .

٩ — ومن ذلك قوله : وما ظنّك بقومٍ ، الصدقُ محمود إلا منهم .

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسِكَ ريبةً   وليس وراء الله للمرء مذهبُ[(1)]

ليس هذا البيت بعد هذه السجعات بمتمكّنٍ فى إيراده ، ولا ثابتٍ فى وضعه ، وكان الأليق بهذه السجعات لو أورد قول أبى الطيب :

وإنْ كان ذنبى كلّ ذنب فإنّهُ
محا الذّنْبَ كُلّ المحْوِ من جاء تائبا[(2)]

لكان حسناً وافياً بالمقصود .

---

(١) للنابغة ، ديوانه ١٢

(٢) ديوانه ١ : ١٧

١٠ — ومن ذلك قوله : « ووالله ما غششتُك بعد النصيحة ... » ، إلى قوله : « وعهد أخذه حسن الظنّ عليك » ، هنا بعد فراغه من هذه الجُمل التى عطفها على الجملة التى أقسم عليها ، يحسن إيراده قول الشاعر :

* حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة .. *

البيت

١١ — ومن ذلك قوله : « فممّ عَبثَ الجفاء بأذِمّتِي » ، كذا وجدتُه بخط الشيخ الإمام الأديب الكامل علىّ بن ظافر رحمه الله تعالى فى اختصاره نفائس الذخيرة ، والظاهر أن ابن زيدون رحمه الله تعالى إنما قال : « ففيم[1] » أو « علام » .

١٢ — ومن ذلك قوله : « وما لك لم تمنَعْ مِنّى قبل أن أُفترَسَ ، وتُدْركنى ولمّا أمزّق ، أم كيف لا تتضرّم جوانح الأكفاء حسداً لِى على الخُصوص بك » ؛ هكذا نقلته من خط ابن ظافر رحمه الله تعالى ، وما لدخول هذه الجمل المصدّرة بأم مناسبة على هذه الجمل المصدرة بحرف الاستفهام ؛ لأنه لا يجوز أن تقول : مالك لم تقم ، ولِمَ تركب ، أم كيف لا تكون قاعداً ؟ وهذه « أم » إنما يعطف بها على الاستفهام بالهمزة ، فتقول : أقمتَ أم قعدتَ ، والظاهر أن ابن زيدون رحمه الله تعالى قال : « وكيف لا » ؛ والله أعلم .

١٣ — ومن ذلك قوله : « عارفٌ بأن الأدَب الوطنُ لا يُخشى فِراقه ، والخليطُ لا يُتوقّع زياله » ، كذا وجدته بخط ابن ظافر رحمه الله تعالى ، وهو غير مستقيم ولا متفق ، لأنّ كل أحدٍ يخشى فراق وطنه . والظاهر أن ابن زيدون رحمه الله تعالى قال : « عارف أن الوطن يجتنب فراقه والخليط يخشى زياله » ، وإنّما صحف « يجتنب » ، بـ « يخشى » وزادها « لا » ، لأنه قال

---

(١) وكذا طبعت فى ص ٢٥٨

فيما بعد : « غـير أنّ الوطن محبوب والمنشأ معروف ، واللبيب يحنّ إلى وطنه » .

١٤ — ومن ذلك قوله : « والـكريم لا يجفو أرضاً بها قوابله ، ولا ينسى بلداً فيها مراضعه » لو قال بعد هذا : « ولا يرفض معهداً قضى الشبابُ فيها مآربه » .

١٥ — ومن ذلك قوله : « إنّ الطّمع فى غيرك طبَع ، والغناء من سواك عناء » ، لو قال بعد ذلك : « والطمأنينة إلى غيرك غرور ، والثقة بخلافك خذلان » لـكان فيه زيادة حُسْن .

فصل

[رسالة محيي الدين بن عبد الظاهر]

وإذ قد وصل بي العمل إلى هنا ، وفرغتُ من الكلام على الرسالة الزيدونيّة ، فلا بأسَ بإيراد الرسالة التي أنشأها الإمام الفاضل الكاتب القاضي محيي الدين بن عبد الله بن عبد الظاهر[1] ، أحد أشياخ الإنشاء ، لا بل إمامُ مَنْ ترسّل وتوصّل إلى المقاصد الغريبة ، بحسنِ ماخاطَب ، ولُطفِ ما توسّل . وهي رسالة كتب بها رحمه الله تعالى إلى الأمير ناصر الدين حسن بن شاور الكناني القُمَيْصيّ المعروف بابن النقيب[2] رحمه الله تعالى ، في معنى شخص تنقّصه بسبب التواضع في الجلوس ، وهو يُنسب إلى الرفض ، حذا فيها حَذْوَ ابن زيدون رحمه الله تعالى في هذه الرسالة في سنة ثلاثٍ وخمسين وستمائة . وقد نقلت ذلك من خطه رحمه الله تعالى :

بلغني ـ أعزّك الله ، ولا برحتَ رَحيبَ فناء الفخر ، قشيبَ مَلْبسِ العمر ، يانعَ ثمر الشُّكر ، مُفْعم حياضِ البرّ ـ أنّ فلاناً غضّ منّي كلّ غضّ الجَنَى ، وأنه عَبِثَ بي عبثَ الأيام بالمُنَى ، وأنّه ردّني إلى أرذل العمر في الاطّراح ، وغَلّق في وجْه تمجّحِي أبوابَ النجاح ، وزعم أن إناء أناتي[3] غيرُ مُفْعَم ، وبناء تَجْدي غيرُ مُحْكَم ، وجواد إجادتي غيرُ مُلْجَم ، وأنّ ميلادَ مَجْدي حديث ، وسبب سَعْدي رَثيث[4] ، وأن جَوارِح إجادتي جَريحة ، وقرائح ارتجالي قَريحة ،

---

(١) هو عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان محيي الدين القاضي الأديب المؤرخ ، من أهل مصر مولداً ووفاة ، توفي سنة ٦٩٢ . فوات الوفيات ١ : ٢١٢ .

(٢) هو الحسن بن شاور بن طرخان ، شاعر من أفاضل مصر ، وصاحب كتاب منازل الأحباب. توفي سنة ٦٧٨ . فوات الوفيات ١ : ١١٨.

(٣) في ط : إمائي » .

(٤) السبب : الحبل ، والرثيث ، أي البالي .

وأنّ صدورَ المجالسِ تُنْكِرُ إقدامَ أقدامى ، وبطونَ الطروس لا تلقح بوطء أقلامى ، وأنى لا أعدُّ فى جملة الكتاب ، وإذا دخلوا من أبوابٍ متفرّقة للتكريم لا أدخل معهم فى باب .

وإذَا أتتْكَ مَذمّتِي مِنْ ناقص فهى الشهادةُ لِي بأنِّيَ كاملُ[1]

وقد بنيت مقالة هذا القائل على أمورٍ ، وحملتُها على احتمالات ؛ غرّه فى جميعها الجهل ، كما غرّه بالله الغرور . والّذى أقوله له مخاطباً ، وأُوحيه إليه مجاوباً :

إن كان استرسالُكَ أيها العائب عبثاً ؛ فما كل الأفاعى تَعْبَث بها الأنامل ، ولا كلّ المراعى تُنْصَب بها الحبائل ، ولا كلّ زخّارٍ يُخاض ، ولا كلّ جناح يُهاض ، ولا كلّ جامح يُراض ، ولا كلّ سابقةٍ تُفاض ، ولا كلّ نسرٍ واقع ، ولا كلّ نيّرٍ راجع[2] ، ولا كلّ السُّمُوم يدخل فى دِرْياق ، ولا كلّ مطوّق يجذَب بالأَطْوَاقِ .

فإن كان ماقلتَه حُلماً ؛ فإنّ من الأحلام ما يَرُوع ، أو وهماً فإنّ من الأوهام ما يُخامِرُ الضلوع ، أو جهلاً فإنّ المندل الرطب لا يضرُّه كونُه حَطباً فى موطِنه ، والتِّبْر لا يَضيره كونه تُراباً فى معدنه . ولا يضر الزِّناد الوارِيَ قدْحُ القادح ، كما أنه لا يضير النَّجْم السارى نَبحُ النابح ، ولا علىّ إذا قلتَ ملاما ، وقلتُ أنا سلاماً ، والفخرُ فى أن أحلمُ إذا قلتَ اهتضاما ، لا فى أن تقول كلّ ما حلمتَ مناماً ؛ كما أنك مافى يدك أن تُحدِث لى ضُرّاً ، وفى يدِى أن أُوسِعَك صَبْرًا ، وفى قدرتى أنك تَستَغْضِبنى فلا أغضَب ، وفى قُدْرَتِك أنى أسترضيك ولا تَرضَى . وعندك أنَّك تأكل لحمى مَيْتاً ، وعندى أنّى لا أستحلّ أن آكلَ

---

(١) المتنبي ، ديوانه ٣ : ٢٦٠ .

(٢) لأن الكواكب فى زعمهم ، بعضها له رجوع ، وبعضها لارجوع له بل يستمر .

لك لقمةً ولا زيتاً ، ويعجبك أنك تحفر لي بئراً وتقع فيها ، ولا يعجبني أنني أقع فيك .

أُنزّه قلبي عن مُجازاة مثلِهِ — متى كانت الآسادُ مثل الثعالبِ !

وأعودُ إلى محاققة النّفْس ، فتأبى إلاّ إظهار اللّبْس ، فأقول :

هل أنت يافلان إلاّ متخرّص بزُورٍ ، وآيسٌ من الخير كما يئس الكفّار من أصحاب القبور ، وآمن من العواقب ولله عاقبة الأمور ! وما مبالاتي بك إلا مبالاة الدّيك بالبطّ ، والشّمعة بالقطّ ، ورماح الخطّ بأقلام الخطّ ، ومتى خافت الرّعود من الوعود ، أم متى أحْجَمت الأسوُد عن القرود ! أم متى جَزِعت البحار من التّيار ، أم متى صارت النار كالأنوار . أم مَتَى فزعت بنات نعش من ابْنَيْ سَمِير[1] ، أم متى صَغُرت بنو الرّيان في عين أبي كَبِير ، أم متى جَبُنَ الفرزدق من جرير ، أم متى شُبِّهت النّعامَى[2] بالنّمام ، أم متى خاف هرما مصر من الأيّام وهي التي يُخاف منها[3] على الأيام ! وهل تبالي الدّرة المضيئة إذا قيل لها : اليتيمة ! أم هل تعاب الأعيُن النّجل إذا قيل لها : السقيمة ! أم هل تُخِلُّ الهَضِيمة بالخصور إذا قيل لها : المضيمة !

وما مبالاتي بما تقوله إلا مبالاةُ آدمَ بعدم سجود إبليس ، ولا ضَرَرَ منك إلاّ ضرر الصرح الممرّد من قوارير بوَطْء بلقيس . أم هل أبالي بك إلاّ مبالاة البَازي بالحمام والليث بالتفاف الخِيس ، ومتى كانت هَمْدان تفخر على كَلْب[4] أو تحذَر منها الكَيْد ، أمْ مَتَى خاف الأسَدُ من أبي زُبيدَ ! وهل بالتْ قريش بتأليب أبي سُفيان ، أم هل فزِعَتْ مازن يوماً من استباحة ذُهْل بن شيبان ، وبحمدالله ماأحوج الزّمان إلى زياد ، ولا ألجأ إلى تلقيه بوجه مكفهرٍ كأنّ عليه أرزاق العباد .

ولستَ — لحاك الله — من بني صُرَيمٍ الّذِينَ تَلَقّتْهُم التّهائم والنّجود ،

---

(١) ابنا سمير : هما الليل والنهار .
(٢) النعامى : النسيم .
(٣) الأصل : « عليها » .
(٤) في الأصل : « كليب » .

ولا من بني عمرو الذين لبيوتهم سَمْتُ صعب الصعود ، ولا فيك ما في أبي قابوس من حزمٍ ونائلٍ ، ولا لديك ما لدى مَنْ إذا قال لم يَتْرُكْ مقالاً لقائل .

وكان الواجب عليك أن تُمسك إمساك ابن المذلّ عن مُلاحاة المعرّض بِنَبْهان ، وأن تألف من فضيحةِ جَهْلك القطيعة أنفة جبلة بن الأيهم ما بين غسّان . وما كان أشغلك عن ذكري بذكرك ، وأحقك بأن تُجيل في خويصةِ نفسك جوادَ فكرك ، وأولاكَ بأن تدْخل في رحمة الله بعرفانك لقدرك .

وَلَوْ أنّي بليتُ بهاشميّ خُئُولَتُهُ بنو عبد المدانِ[1]
لهانَ عليّ ما ألقى ، ولـكِنْ تعالَوْا فانظُروا بمن ابتلاني!

وتالك لقد استنطقت من مثلي مفوّهًا ، وآثرت من ذمي مُرَقِّهًا ، وهززت من قلبي مثقفًا ، وأصلت من كلمي مرهفًا .

متى سألتْ بغداد عَنّي وأهلُهـا فإنّي عن أهل العواصم سائل
ولئن عِبْتَ منّي يابن لَخْمٍ هجاء ، فإنّي لأرجو أنه سيبعث بك داء .
لقد هزَّ مِنّي عامرٌ يوم لَعْلَعٍ حُسامًا إذا ذاق الضريبة صمّما

وها نحن ننتظر فعل الله فيك بما تفعل بنفسك ، ونحسب لك عثارك في غدك من أمسك ، ونتربص بك الدوائر تربّصك بفلسك .

ومن يتربص صَوْلَةَ الدَّهْرِ يَلْقَهُ
وَشيكا ، وَهَلْ توحي الأساود بالوَلَعْ !

وكيف لا يدخُل عليك الاعتلال ، وأنت وأخُوك وأبوك وفوك وكلٌّ معقلٌ وذو مالٍ ! .

---

(١) لدعبل الخزاعي ، ديوانه ٣ .

وليس الغنى إلاّ غِنًى زيَّن الفتى عشية يَقرِى أو غداة يُنِيلُ

وأمّاما توهمتَ من حُلولى فى أُخريات المجالس، و كَوْنى فى ذلك غير منافَس ولا منافِس ، فلا عَيْب على السِّمان إذا خَتم الأنابيب ، ولا حُلول القافية فى آخر البيت من الأعاجيب .

والبدر أحسن ماترا ه العين فى ذيل الأفق

ولا حَطّ منزلة الحمدلة له إذا أتى بها فى آخر الكتاب مَنْ كَتب ، ولا تُشانُ سورة الإخلاص إذا تقدمها فى المصاحف سورة أبى لهب .

ولو لم يعلُ إلا ذُو محلٍّ تعالَى الجيش وانحطّ القَتامُ

ولا تُعاب الشمس إذا كان لها دون فَلكِ زُحَلَ مقام، ولا يوم عَروبة إذا جاء سادساً للأيام ، ولا الألف إذا جاء بعد الواحد فى العَدَد ، ولا الزُّهرة إذا كان بيتها الثور كما لا فخر للشمس إذا كان بيتها الأسد .

مَنْ كان فَوْقَ محلِّ الشَّمْسِ موضعُه فلَيْس يرْفَعُه شىء ولاَ يَضَعُ

والبيت بأهلِهِ ، والغِمْد بنصْله ، والثوب بلابسه ، والجواد بفارِسِه ، والقَوْسُ برامِيها ، والصَّهوة براقيها ، ومن أسافل البحور تترقّى الدّرارى إلى أعالى النحور .

وقد يُنمَى كبير من صغيرٍ وينبت من نوى القشب اللّبان

ولئن تأخرت الواو فى «عمرو» فى الهجاء ، فلطالما كانت صدر الكلام فى الابتداء ، ولئن جاءت الهمزة آخر الممدود من الأسماء ، فكثيراً ما جاءت أوّلا فى الاستفهام والإغراء ، وقد ورد التصغير للتعظيم ، ونطق القرآن بالتهكُّم بلفظ « الكريم » .

على أنّ السعد بحمد لله لايتوقف على الجلوس فى أوائل المجالس ولا الحلول

منها فى الأواخر ؛ ولا يحضّ المرتفع ويخصّ المتضع فقد غلظت السبابة والوسطى وحليت دونهما الخناصر ، ولا حسْن الثوب إلا بسجافِهِ ، ولا رقم المعلم فى بُرْدٍ إلا فى أطرافِهِ .

إذا أنت أعطِيتَ السعادة لم تُبَلْ
ولو نظرت شَذْراً إليك القبائلُ[1]

تقتْكَ على أكتاف أبطالها القنا وهابتْكَ فى أغمادِهِنّ المناصلُ[2]

ولقد لامست منّى شيهَماً ، ومارستَ ضيغما ، وجالسَت أرقماً ، وزاحمت جندلاً ، وهاويتَ أجدلا .

ياسالكاً بين الأسِنّةِ والقنا إنى أشمُّ عليكَ رائحةَ الدمِ

وها أنا قد وجدتُ مكانَ القول ذا سعة ، والسَّيفُ أقطعُ ما يكون إذا هُزّ ، والجواد أسرع ما يكون إذا لُزّ . وإنّ مع اليوم غداً ، ولو تُرِكَ القطا لنَامَ ، وعداوة الشعراء بئس المقتنى !

وَمَنْ تَعلَقْ بهِ حُمَةَ الأفاعِى يَعِشْ - إنْ فَاتَهُ أجلٌ - عليلا

وإن قلتَ : إنّك لا يضرّك هذا الإرهاج ، ولا يثيرك هذا الإزعاج ، ولا تبالى به إلا مبالاة الزِّجاج بالزُّجاج ، ولا تأنف منه إلا أنفة الحجّاج بالحِجاج .

فإنّ بنى النُّويرة أدركتْهمْ مذمّتهُم بعبد أبى سراجِ

وأعود فأقول : ما أظنّك وقعتَ منّى على الخبير ، ولا أنت فى الفحص عن حالى فى قَبيلٍ ولا دَبير ، ولاعلمت أن جدّى سَعْد وجدّى سعيد ، ولا

---

(١) لأبى العلاء المعرى ، سقط الزند ٥٤٩ .

(٢) تفتك ، أى اتقتك .

أني بحمد الله المأمون وكيف لا ووالدي الرَّشيد ، ولا أن لي إباء يضع لي فوق البدر مهاداً ، وشيماً تجعل الجوزاء تحت يدي وساداً .

وقد سارَ ذكري في البلاد فمن لهمْ
بإخفاء شمس نورها متكامِلُ (١)

وإنّي وإن كنت الأخيرَ زمانهُ
لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

وتالله إن يَوْمي يُنافِس فيَّ الأمس ، وقَومي يفخرون بي كما فخر عصام بالنّفس .

إنّا ذوو النّسب القصير فطَولُنا
أعيا على الكُبَراء والأشرافِ

والراحُ إن قيل ابنة العنب اكتفتْ
بأبٍ عن الأسماء والأوْصافِ

ولا أعلم أيها المتنقّصُ لي ذنباً يستدعي هذا الإسهاب ، ولا بَيْني وبينك خطوباً فيما فهتَ به من الخطاب . اللّهمّ إنّي لا أعتقد اعتقادَك المضلّل ، ولا أرى رأيك المؤوّل ، ولا أقلد عبد الله بن سبأ في اعتقادِه ، ولا أبا الخطاب الأسَدِيّ في اجتهاده ، ولا أوافق هشام بن مسلم الجواليقيّ على مراده ، ولا أنشدك :

ألاَ إنّ الأئمّةَ من قُريشٍ
ولاة الحق أربعة سواء

عليٌّ والأئمة من بَنِيه
همُ الأسباط ليس بهم خفاء

فسبطٌ سبط إيمان وبِرٍّ
وسبط غيّبته كَرْبَلاء

وسبْطٌ لايذوق الموت حتّى
تعودَ الخيل يقدمُها اللواء

ولا أنشدك قول السيّد الحميريّ :

ألا قلْ للرضِيّ فدَتْكَ نفسي
أطلت بذلك الجَبَلِ المقاما

أضرّ بمعشر وَالَوْك منّا
وسمّوْكَ الخليفة والإماما

(١) لأبي العلاء ، سقط الزند ٥٢٣ .

أو أنك تعتقد أنى من شيعة أبى كامل ، أو أنى اتفقت أنا وابن ملجم على تلك الغوائل ، أو أنى من الطالبين بثأر الدار إذا جدّ الوَهَل ، أو أنى كنت مع بنى ضَبّة فى يوم الجمل ، أو أنى تأولتُ فى قتل عمّار بن ياسر ذلك التأويلَ السقيم ، أو أنى كنت من جملة مَنْ رَفَع المصاحف لطلب التحكيم ، أو استبرأت عقل أبى موسى الأشعرى بالمُشاورة ، أو خدعته بخلع الرّجُلين فى المساوَرة ، أو اتبعت عبد الله بن وهب الراسبى فى جمعه ، أو ناظرتُ عبد الله بن عباس لما حضر لمناظرته على صنعه ، أو ساعدت مُعاوية بن حُديج على فعله ، أو أشرت على معاوية بإنفاذ بُسر بن أرطاة إلى المدينة حين لا عهد لها بمثله ، أم ترانى أنشدت يوم قتل الإمام ، عليه السلام :

تفلّق هامًا من رجال أعزّة ... علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما[1]

أم ترانى ألقى الله بعمل سنان بن أنس ، أم قد أقدمت إقدامه حين ضربه حتى ألقاه عن الفَرَس ؛ حاش لله ! ما أنا من هذا القبيل ، ولا سالكٌ هذا السبيل . وعلى تقدير أنى أتيتُ بأكثر من هذه الذنوب ، وأن قافل توبتى لا يئوب ، أليسَ لى نفسٌ لا تصبر على ضَيْم ، وشمس إبائى لا يسترها غَيْم ، وبياض خلق ولا بياض خُلق سحيم ! أ آمنت كاتبَ الدرجات باتفاق الاسمين ، لما ظهر الفرق فى كتاب النبىّ صلى الله عليه وسلم بين العَبْدين ، أو باختلاف المنزلتين ، لما غلبت بيّنةُ الشمس على القمر وبينهما للزهرة وعطارد بعد فلكين

وإذا خَفِيتُ على الغبىّ فعاذر ... ألاّ ترانى مقلة عمياء[2]

أنا صخرةُ الوادِى إذا ما زُوحمتْ ... وإذا نطقتُ فإننى الجوزاء

(١) لحصين بن الحمام المرى ، الشعر والشعراء ٦٣٠ .
(٢) لأبى الطيب المتنبى ، ديوانه ١ : ١٥ ، ١٦ .

وقد آن أنْ أحبِس العِنان ، وأغمد حدَّى السيف واللسان ، وأشدَّ بأعناق المنى غيرَ هذه وأضرب صَفحا ، وأنشىء على رأى العامرية صُلْحا ، وأعدل من نار القَرِّ إلى نار القِرَى ، وأسرِى لأحمدَ السُّرَى ، وأستروِح من مثالبه لأستريح ، وأوادعها ولا أودِّعها ، وأجمّ لها ولا أجِم منها[٢] ، وأهب جَفْن الدواة غفْوَةً ، وأغفر لحدّ القلم نَبْوَة . ومَنْ يكون المولى مهيمن فرائدِه ، وجوْهرىّ قلائده ، ومثقّف صِعادِه ، ومقوّى زنده وموري زنادِه ، والحامى عنه بسيفه وقلمه ، والمرشّح له من دِيَمِه ، فلا يبالى بتنقيص العارِى ، ولا يتأسف على ثَلْب المبارى :

علىّ نحتُ القوافِى من مقاطعها ... وما علىّ لهم أن تفهم البقرُ

ولا يضرّ الورد الخضِل ، استنقاص مَن به داء الجُعَل ؛[١] كما أنه لا يضرّ القمر المنير ، استهزاء الضرير .

ويكفينى ـ أطال الله بقاءك ـ فى الدعاء عليه تأمينُك ، وفى حفظ مساويهِ تلقينُك ، وفى الاعتداء عليه تجهيزك ، وفى التكاثر عليه تعزيزك . وها أنا أستعين وأستعير ، وأستميل وأستمير .

والقوافى كما علمْتَ قوافٍ ... إثرَ مَنْ حادَ عن طريق الصواب

وسأدْهمه منها بما لا قِبل له بها ، وأجلُب عليهِ بخيْل ورجْل ولا قُدرة له بجابها ، وإن كان عِرْضُه لا يصلُح للهجو ، ولا يساوى ثوب ثَلْبه أجرة الرفو . فقد يجرَّب السيف فى خُفّ البعير ، ويستحلّ نكاح المرأة البريئة بالعبد الصغير . وتصفّى الفضة الخلاص بالرّصاص ، وتفصّل عُقود الجوهر بالسخاب ، وتُساغ اللّقمة الحلالة بمحرّم الشراب . ومن لم يجد ماء طهوراً تيمّما .

* * *

---

(١) الجعل : الحيوان .

فأدام الله لك النعمة إدامة لاينقصها اختزال ، وحرسها عليك حراسة لاتنتهى إلى زوال ، خذها أجلك الله ، قد أنشأتها سُحبا ثِقالا لك منها عذب الشراب ، ولغيرك عذاب السّراب ، وأوريتها ناراً لك منها الإنارة ولغيرك الإحْرَاق ، وأجريتُها بحاراً لك منها الإرواء ولغيرك الإغراق . وأدرتها شَمُولاً لك منها النّشوة ولغيرك الخمار ، وطبعتُها نصولاً لك ما ضُمّت عليه الأنامل منها ولنَحْرِ غيرك الغِرار ؛ وها قد أتَتْك لم يكشف غيرُك لها نقابا ، ووَفَدَت عليك لم تطرق لغيرك بابا ؛ فأرْخِ عليها سِتْر معروفك الذي سترت به قِدْما علىّ عوارى . وقد حسدها القريض على سبقها إلى ناديك ، وغبطها على حلولها بواديك ، فتعلّقَ بأذيالها مستشفعا ، ونَظر خلال سطورها متطلّعا ، وها هو قد خيّمَ بأبياته فى ذراك ، وترجّلت قوافيه بين يدى عداك . . .

العلا فى ارتشافِ دَرِّ العلومِ ... والحُلَى فى اتشاحِ دُرِّ الحلومِ
والتناهى فى كل فعلٍ حميدٍ ... ما التّباهى بكلّ خِلٍّ حميمِ
والسعيد الشقىّ من جمع الـ ... مال لتفريق خَلّةٍ وخَديم
والغنىّ الفقير مَنْ لا نراهُ ... لفقيدٍ مواسياً وعَديمِ
والعظيم المقدار كلُّ سَرِيٍّ ... يُترجّى فى كل خطبٍ عظيمِ
والكريم الآباء من يُسأل الفَضْـ ... ـلَ فيأتى بكلّ فعلٍ كريمِ
والتقى مَنْ يكونُ فى كلّ حالٍ ... لَيس بالصّعْبِ ، لاولا بالزّنيمِ
ليس عندى الذميم فى الخلق إلاّ ... مَنْ أتى خُلقُه بفعلٍ ذميمِ
فعقيم الرّياح يُكرَه بالطّبـ ... ـع ويلتذّ دائمـا بالنّسيمِ
واتفاق الأسماء لَيْس بجدٍ ... ما سليم فيما يرى كسليم
واتّسام الإنسان بالشُّكرِ أوْلَى ... من رسومٍ فى جلدهِ ووسومِ

إنما يظهر التفاوت في الفضل ، وليست ولودة كعقيم

ومَضاء الغِرار في السيف أمسى — سبباً في زيادة التفخيم

واللآلي لولا التلألؤ فيها — لم تُقارَن بكل وجه وسيم

إنّ حسن الثناء يُعلي من المرء — ويغلي وَخيمَ أمرٍ وخيمِ

وبغيض كأنه الموتُ إلاّ — في اقتراب من الغفور الرّحيم

غَضّ مِنّي مالا يُغضّ وأمسى — من عناني يَثني أشدّ شكيم

ولئن كان في النعيم بمال — فهوَ بالبخل في سَواء الجحيم

ولكم تاه من غناه فقلنا — ليس ذا التيه عِلّةَ التّعظيم

إن يكن بالحُطام يشرفُ شيء — لم تعظّمْ شمائرٌ للحطيم

أيها السائلي عن العيب فيه — هو كم عاثَ مَرّة في أديمي

هو ذو البخل والبذاءة واللؤ — مِ ، وسوء الجوار والتّجسيم

ولعمري إن الحليم إذا ما — سِيمَ خسفاً تراه غير حليم

حاضر العيب حين يرجم بالغيـ — ـب تراه يبدو لِكُلّ عليم

لا تسلني عنه فما هو خافٍ — كيف يخفى شيطانُهُ من رجيم !

وكذا ليس في الأنام بخافٍ — مَنْ أياديه مسليات الهموم

سيّدٌ مِنْ كِنَانَةٍ هُو مِنها — خيرُ سهمٍ مسدّد التّصميم

زانني مَدْحُه ، ولولا ثَنَاهُ — لم أقلّد بكلّ نظيم

حسن الإسم والفعال كروضٍ

فاقَ حُسن المَرأى وحسن الشميم

فلمجدي منه أمدّ خصيبٌ — ولضدّي منه أشدّ خصيم

ولكم قات معلنا في معاليه بشجوٍ مُرَجّع الترنيم

خذ قريضا أداره كرم الود مُلافا يُزري ببنت الكروم

هو فى الإمتزاج ماءٌ ، وخمرٌ | فى اقتسام التحليل والتحريم
ولئن جاء فيه هجوُ فلانٍ | بعد مدحٍ لكم فغيرُ ملوم
فلعمرى له الهجاء نسيبٌ | والنسيبُ الجدير بالتقديم
ولكم نفعُه وللغير منهُ | سُمُّه ، ربَّ أرقمٍ من رقيم
إنَّ زُهْرَ النجوم منها رُجومٌ | ووجومٌ والاهتدا بالنجوم
ربَّ وصلٍ أتاك من بعدِ هجْرٍ | وصباحٍ من بعد ليلٍ بهيم
فهب الصفح لا عدمتك مولًى | ذا بنانٍ هامٍ وبرٍّ عميم

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .



فهرس الموضوعات*

* وهى الموضوعات التى ذكرت استطراداً فى الكتاب .



الفهارس العامة



١ — فهرس اللغة

---

* اقتصر في هذا الفهرس على ما شرحه المؤلف من ألفاظ الرسالة .

٢ — فهرس الأمثال

٣- فهرس الأشعار

(م)

٤ - فهرس الأعلام

(خ)

طبع خطأ في هذا الرقم « دداد ».

(ش)

(ص)

(ك)

٥ — فهرس القبائل

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

٧ — فهرس الكتب *

* هى الكتب التى نقل عنها المؤلف .

٨ — مراجع التحقيق

أدب الكاتب للصولى (المطبعة السلفية ١٣٤١ هـ)

الاستيعاب لابن عبد البر (مطبعة نهضة مصر ١٣٨٠ هـ)

الإعجاز والإيجاز للثعالبي (المطبعة العمومية ١٨٧١ م)

الأعلام للزركلى (الطبعة الثانية)

الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى (مطبعة التقدم سنة ١٣٣٣ هـ ، ودار الكتب)

أمالى القالى (مطبعة دار الكتب ١٣٤٤ هـ)

أمالى المرتضى (عيسى الحلبى ١٥٩٠ م)

إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطى (طبعة دار الكتب)

البداية والنهاية لابن كثير (مطبعة السعادة ١٩٣٢ م)

بديع القرآن لابن أبى الإصبع (طبعة مكتبة نهضة مصر)

البسامة ، وهى شرح قصيدة ابن عبدون (مطبعة السعادة ١٣٤٠ هـ)

البيان والتبيين للجاحظ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ م)

تاريخ الطبرى (دار المعارف بمصر)

تفسير الطبرى (دار المعارف بمصر)

تقريب التهذيب (مكتبة القاهرة ١٩٦٠ م)

التمثيل والمحاضرة للثعالبي (مطبعة عيسى الحلبى ١٩٦١ م)

حسن المحاضرة للسيوطى ؛ مطبعة عيسى الحلبى ١٩٦٨ م)

حماسة ابن الشجرى (حيدر آباد ١٣٤٥)

ديوان الخفاجى (مخطوطة دار الكتب برقم ٥١٠٠ ـ أدب. وطبعة بيروت ١٣٠٩هـ)
خاص الخاص للثعالبى (مطبعة السعادة ١٣٢٦ هـ)
خزانة الأدب للبغدادى (بولاق ١٢٩٩ هـ)
ابن خلكان (المطبعة الميمنية ١٣١٠ هـ)
دمية القصر للباخرزى (المطبعة العلمية بحلب سنة ١٩٣٠ م)
ديوان الأرجانى (بيروت ١٣٠٧هـ)
ديوان أبى الأسود الدؤلى ـ ضمن مجموعة نفائس المخطوطات (بغداد ١٩٦٤ م)
ديوان الإمام الشافعى (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٦ م)
ديوان امرئ القيس (دار المعارف ١٩٥٨ م)
ديوان أمية ابن أبى الصلت (بيروت ١٩٣٤ م)
ديوان أوس بن حجر (بيروت ١٩٦٠ م)
ديوان البحترى (مطبعة هندية ١٩١١ م)
ديوان البهاء زهير (القاهرة ١٢٩٧ هـ)
ديوان أبى تمام (بيروت ١٣٣٣ هـ)
ديوان تميم بن المعز (مطبعة دار الكتب)
ديوان التهامى (دمشق ١٩٦٤ م)
ديوان حسان بن ثابت (المطبعة الرحمانية ١٩٣٩ م)
ديوان الحسين بن الضحاك (دار الثقافة ببيروت ١٩٦٠ م)
ديوان الحماسة بشرح التبريزى (مطبعة حجازى ١٩٢٨ م)
ديوان الحماسة بشرح المرزوقى (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٢ م)
ديوان ابن حيوس (مطبعة المجمع العلمى بدمشق)

ديوان الخنساء (المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٨٩٦ م)
ديوان ابن الخياط الدمشقي (طبعة دمشق)
ديوان ابن درّاج القسطلي (دمشق ١٩٦١ م)
ديوان دعبل الخزاعي (بيروت ١٩٦٣)
ديوان سبط ابن التعاويذي (مطبعة المقتطف ١٩٠٣)
ديوان ابن الزقّاق الأندلسي (دار الثقافة ببيروت ١٩٦٤ م)
ديوان زهير بن أبي سلمى (مطبعة دار الكتب ١٣٦٣ ﻫ)
ديوان ابن زيدون (مطبعة الرسالة ١٩٥٧ م)
ديوان الشريف الرضي (بيروت ١٣٠٧ ﻫ)
ديوان الشريف العقيلي (مطبعة عيسى الحلبي بمصر سنة)
ديوان أبي طالب (طنطا ١٩٥١ م)
ديوان طرفه بن العبد (الأنجلو بمصر ١٩٥٨ م)
ديوان العباس بن الأحنف (دار الكتب ١٩٥٤ م)
ديوان على بن الجهم (دمشق ١٩٤٩ م)
ديوان عمر بن أبي ربيعة (مطبعة السعادة ١٣٧١ ﻫ)
ديوان ابن عنين (دمشق ١٣٦٥ ﻫ)
ديوان الغزي ـ مخطوطة دار الكتب رقم ٨٨ ـ أدب
ديوان أبي فراس الحمداني (المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٥٤ م)
ديوان الفرزدق (مطبعة الصاوي ١٩٥٤ م)
ديوان لبيد (الكويت ١٩٦٤)

ديوان المتنبي (مصطفى الحلبي ١٩٣٦ م)
ديوان مجنون ليلى (دار مصر للطباعة)
ديوان مسلم بن الوليد (دار المعارف ١٩٥٧ م)
ديوان ابن المعتز (مطبعة المحروسة ١٨٩١ م)
ديوان معن بن أوس (مطبعة النهضة ١٩٢٧م)
ديوان ابن مقبل (مطبعة دمشق ١٩٦٢ م)
ديوان مهيار (مطبعة دار الكتب)
ديوان النابغة الذبياني (ضمن خمسة دواوين من شعراء الجاهلية - ١٢٩٣ م)
ديوان أبي نواس (العمومية ١٨٩٨ م)
ديوان الهذليين (مطبعة دار الكتب)
الذخيرة لابن بسام (مطبعة لجنة التأليف والترجمة بمصر ١٩٣٩ م)
سرح العيون لشرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة (مطبعة المدني ١٩٦٤ م)
سقط الزند (مطبعة دار الكتب)
السلوك في دول الملوك (مطبعة لجنة التأليف والترجمة بمصر)
سيرة ابن هشام (مطبعة لجنة التأليف والترجمة بمصر ١٩٣٩ م)
شرح نهج البلاغة (مطبعة عيسى الحلبي بمصر)
صبح الأعشى في صناعة الإنشا (مطبعة دار الكتب)
صحيح مسلم (مطبعة عيسى الحلبي)
طبقات الشعراء لابن سلام (دار المعارف بمصر)
العبر للذهبي (طبع الكويت)

العقد لابن عبد ربه (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٠ ﻫ)
العقد الثمين فى الشعراء الستة الجاهلين (ليدن ١٨٧٠ م)
عيون الأثر لابن سيد الناس (القدس ١٣٥٦ ﻫ)
فصل المقال (الخرطوم ١٩٥٨ م)
القاموس المحيط للفيروز آبادى (المطبعة الحسنية ١٣٣٠ ﻫ)
الكامل للمبرد (مطبعة نهضة مصر ١٩٥٦ م)
الكشاف للزمخشرى (المطبعة البهيه ١٣٤٣ ﻫ)
كشف الظنون لحاجى خليفة (الآستانه ١٩٤١ م)
اللآلى على أمالى القالى لأبى عبيد البكرى (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤)
لزوم ما لا يلزم لأبى العلاء (مطبعة الجمالية ١٩١٥ م)
لسان العرب لابن منظور (بولاق سنة ١٣٠٠ ﻫ)
مجمع الأمثال للميدانى (مطبعة الاستقامة ١٩٥٢)
مختارات البارودى (مطبعة الجريدة ١٣٢٧ ﻫ)
مروج الذهب للمسعودى (مطبعة الاستقامة ١٩٤٨ م)
مصارع العشاق (مطبعة الجوائب ١٣٠١ ﻫ)
معاهد التنصيص للعباسى مطبعة السعادة (١٩٤٩)
معجم الأدباء لياقوت (دار المأمون بمصر ١٩٣٦)
معجم البلدان (مطبعة السعادة ١٩٣٦ م)
معجم الشعراء للمرزبانى (مطبعه عيسى الحلبى)
المفضليات (دار المعارف سنة ١٩٥٢)
مقامات الحريرى (مطبعة الحسينية ١٣٢٦ ﻫ)

الملل والنحل للشهرستد (مكتبة الأنجلو ١٩٥٦ م) .

المؤتلف والمختلف للآمدى (مطبعة عيسى الحلبي)

الميدانى = مجمع الأمثال

الوافى بالوفيات (نشرة جمعية المستشرقين الالمانية)

النهاية لابن الأثير (مطبعة عيسى الحلبي بمصر)

نهاية الأرب للنويرى (مطبعة دار الكتب)

استدراك وتعليق

صفحة	سطر	
٢٦	٢٠، ٢١	تكتب العبارة هكذا : « وما نبهتُك إلاّ لأنام ، وما سريت لكَ إلاّ لأحمد السُرى لديك ، وإنّك متى سنّيت عقد أمرى تيسّر » ، وانظر الشرح صفحة ٣٥٢ ، ٣٥٥ .
٣٨	١	سقطت الواو من أول الفقرة الثالثة ، والصواب إثباتها للعطف .
٥٢	١٨	صواب الاسم : « ألبا أرسلان محمد بن جعفر المدعو عضد الدولة أبو شجاع السلجوق » ، وعليه يدل ما ورد فى فهرس الأعلام ص ٤٦٨ هكذا : « أبو شجاع السلجوق = ألبا أرسلان » .
٢٠٥	١٦، ١٧	العبارة فى الأصل هكذا : « لما قتل قالت مرجانة ابنة عبيد الله بن زياد: خبيث قتل بنت رسول الله ، لا يرى الجنة أبداً » .
٣٠٥	٢	البيت للحسين بن الضحاك ، وورد منسوباً إليه مع أبيات أخرى فى صفحة ٣٤٧ .
٣٢		وقع سقط بعد آخر كلمة فى آخر سطر من هذه الصفحة ؛ وهو: « فهو ذاوٍ لا يثمر ، وذابل لا ينضُر ، كالوحش النّائى عن وطنه ، فهو فريسة كل سبع ، ورمية كل رامٍ ، قال الشاعر :

صفحة	سطر	
		لقربُ الدارِ فى الإقتارِ خيرٌ من العيش الوسع فى اقتراب
		وقال أبو الفتح البستىّ :
		لا يعدمُ المرء كِنًّا يستكنّ بِهِ وضعةً بين أهليه وأصحابِهْ
		ومن نأى عنهم قلّت مهــــابتُهُ كالليث يحقر لما غابَ عن غابِهِ
		وقال الأول . . . .
٣٣٨	٥	كذا فى الأصل : « أحمد بن المتصوّف الدومى » ولم أهتد إلى معرفته .